

المهنة المصرية العامة للكتاب
سلسلة البحوث



جوزيه ساراماجو

الكهف

ترجمة: صلاح عيسى

الكهف

دكتور: ناصر الأنصاري	رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
دكتور: وحيد عبدالمجيد	نائب رئيس مجلس الإدارة
دكتور: سهير المصادفة	نائب رئيس التحرير
السيد أبو شادي	الإشراف التنفيذي
السماح عبدالله	مدير التحرير
وردة عبدالحليم	سكرتير التحرير
دكتور: مدحت متولى	التصميم الجرافيكي
صبرى عبدالواحد	الإخراج الفني
على أبو الخير	

ساراما جو، جوزية.

الكهف: رواية/ جوزيه ساراما جو؛ ترجمة: صالح

علماني. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ٢٠٠٩

٤٧٢ ص : ٢٤ سم. - (سلسلة الجوائز)

٩٧٨ ٩٧٧ ٤٢٠ ٩٠٧ ٩ تدمك

١- القصص البرتغالية.

أ - علماني، صالح (مترجم)

ب - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٠٢٤ / ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 907 - 9

ديوى ٨٦٩.٢

الكهف

رواية
جوزيه ساراماجو

ترجمة: صالح علي ساني



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

- الكتاب: الكهف
- A caverna,
- تأليف " جوزيه ساراماجو
- José Saramago
- ترجمة: صالح علمانى.
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة العامة للكتاب فى مصر والخارج.
- جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف.
- © José Saramago & Editorial caminbo,S.A.,
Lisboa 2000.
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩ .
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

« سلسلة الجوائز »

ما زال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التي تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومروراً بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعاً موازياً يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها
ترجمت ونفدت طبعاتها، إيماناً من السلسلة بأن
الأعمال الأدبية يكون لها دائماً تأثير لا يمضى بمرور
زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة
الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى
تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه،
ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت
جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت
أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل
يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة
بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى
يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر
السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى
للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب،
وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات
هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها
ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس
التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر
قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز
التي حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر
للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُترجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تُقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتاً لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيباً واحتراماً من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د . ناصر الأنصارى

إلى بيلا

يا لغرابة المشهد الذي تصفه ويا لهم من سجناء
مستغربين.

إنهم مثلنا.

أفلاطون، الجمهورية، الكتاب السابع.

الرجل الذى يقود الشاحنة الصغيرة المغلقة يدعى سيبريانو ألبور، مهنته صانع خزف، وله من العمر أربع وستون سنة، مع إن مظهره يوحي للوهلة الأولى بأنه أصغر سناً. والرجل الجالس إلى جواره هو صهره، ويدعى مرسيال جاتشو، لم يبلغ الثلاثين بعد. ومع ذلك. فإن ملامح وجهه لا تسمح لأحد بأن يقدر أن له من العمر كل تلك السنوات. وتلتصق باسم كل منهما، مثلما لاحظنا، كنية غريبة، يجهلان أصلها ومعناها وسببها. والاحتمال الأكبر أنهما سيشعران بالاستياء إذا ما توصلا يوماً إلى معرفة أن كلمة ألبور تعنى البرودة الشديدة فى الجسد، إشعاراً مسبقاً بالحمى، وأن جاتشو هو الجزء الذى يُثبّت عليه النير فى عنق الثور. الشاب يرتدى زياً عسكرياً، لكنه غير مسلح. وأكبرهما يرتدى سترة مدنية وبنطالاً مطابقاً لها تقريباً، ويزرر قميصه حتى العنق، دون أن يضع ربطة عنق. اليدان اللتان تديران المقود كبيرتان وقويتان، إنهما يدا فلاح، ومع ذلك فإنهما تشيان بالحساسية، ربما بتأثير الملامسة اليومية لنعومة

الصلصال التي يضطره إليها عمله. لا وجود فى يد مرسيال جاتشو اليمنى لشيء خاص ملفت للنظر، لكن ظاهر اليد اليسرى يكشف عن ندبة لها شكل حرق، أثر مائل يبدأ من أصل الإبهام ويمتد حتى قاعدة الخنصر. الشاحنة لا تستحق هذه التسمية، فهي مجرد عربة مغلقة من الحجم المتوسط، من طراز عفا عليه الزمن، وهي محملة بالخزف. عندما خرج الرجلان من البيت، قبل عشرين كيلومتراً، كانت السماء تبدو غير مضيئة تقريباً، أما الآن فقد أضفى الصباح على العالم ما يكفى من الضوء لرؤية ندبة يد مرسيال جاتشو وملاحظة حساسية يدى سيبريانو ألاجور. إنهما يمضيان بسرعة منخفضة بسبب حساسية الحمولة، وكذلك بسبب عدم انتظام رصف الطريق. تسليم البضائع التي لا تعتبر من الضروريات الأولى أو الثانية، كما هو حال الخزف العادى الرخيص، يتم عند الضحى، وفق التوقيت السائد، وإذا كان الرجلان قد بكرة كثيراً فذلك لأن على جاتشو أن يختم بطاقة حضوره قبل نصف ساعة على الأقل من فتح أبواب «المركز» للجمهور. فى الأيام التي لا يُحضر معه صهره، وتكون لديه بضاعة عليه نقلها، لا يضطر سيبريانو ألاجور إلى الاستيقاظ مبكراً هكذا. ولكنه هو نفسه من يتولى على الدوام، كل عشرة أيام، الذهاب لإحضار مرسيال جاتشو من مكان عمله كى يقضى مع أسرته أربعين ساعة الاستراحة التي يستحقها، وهو أيضاً من يعيده بعد ذلك، فى الموعد الدقيق، إلى

مستولياته وواجباته كحارس داخلى، سواء أكان هناك خزف فى صندوق الشاحنة أم لم يكن. ابنة سيبريانو ألاجور، المدعوة مارتا، وتحمل كنية إساسكا من جهة أمها المتوفاة، وكنية ألاجور من جهة أبيها، لا تحظى بحضور زوجها فى البيت، وفى الفراش، سوى ست ليال وثلاثة نهارات كل شهر. وقد حبلت فى واحدة من تلك الليالى، لكنها لم تعرف ذلك بعد.

المنطقة قاحلة، قذرة، لا تستحق أن ننظر إليها مرتين. وقد أطلق أحدهم على هذه الامتدادات التى ليس فى مظهرها أى شىء من الريف، التسمية التقنية «الحزام الزراعى» وسُميت كذلك، فى تناظر شاعرى، «الحزام الأخضر» مع أن المشهد الوحيد الذى تتمكن العينان من بلوغه على جانبى الطريق العام، مغطية دون انقطاع محسوس آفاً كثيرة من الهكتارات، هو هياكل كبيرة ذات سقوف مسطحة، مستطيلة، مصنوعة من بلاستيك ذى لون محايد، حوِّله الزمن وزوابع الغبار شيئاً فشيئاً إلى الرمادى والداكن. فى الأسفل، خارج مدى نظرات من يمر، تنمو نباتات. وعبر درب ثانوية تخرج من هنا وهناك، وتأتى لتصب فى الطريق العام، شاحنات وجرارات موصولة بمقطورات محملة بالخضراوات، مع أن عمليات الشحن الكبرى تكون قد أُنجزت خلال الليل، أما هذه الشاحنات التى تظهر الآن، فيما أن لديها تصريحاً مجدداً واستثنائياً لتسليم البضاعة فى وقت متأخر، أو أن سائقها استغرقوا فى النوم. رفع

مرسيال جاتشو كُـم سترته الأيسر خفية لينظر إلى الساعة، إنه قلق لأن حركة المرور تبدأ بالكثافة تدريجياً ولأنه يعرف أن المصاعب تتزايد من هنا وإلى الأمام، عندما يدخلون الحزام الصناعى. انتبه الحمو إلى حركة الصهر، لكنه ظل صامتاً، فصهره هذا شاب لطيف دون شك، وإن يكن عصبياً، من سلاله القلقين منذ الولادة، فهو قلق على الدوام من انقضاء الوقت، حتى عندما يكون لديه فائض منه، ويبدو أنه، فى هذه الحالة، لا يعرف أبداً ما يتوجب عليه أن يضعه فيه، أعنى فى الوقت، وفكر: كيف سيصير عندما يصبح فى مثل سنى. خلفاً وراءهما الحزام الزراعى، وبدأ الطريق الذى صار الآن أكثر قذارة باختراق الحزام الصناعى ماراً بين منشآت صناعية من كل الأحجام والنشاطات والصناعات، حيث تنتصب خزانات وقود كروية وإسطوانية، ومحطات توليد كهربائية، وشبكات أقمية، وأنابيب تهوية، وجسور معلقة، ومواسير من كل الثخانات، بعضها أحمر وبعضها أسود، ومداخن تطلق فى الجو سحب دخان سامّة، ورافعات طويلة الأذرع، ومختبرات كيميائية، ومصافى تكرير بترول، وروائح نتنة، أو مُرّة أو حلوة، ودوى مثاقب صاخبة، وأزيز مناشير آلية، وضربات مطارق هرس، ومنطقة صمت بين حين وآخر. لا أحد يعرف ما الذى يجرى إنتاجه هناك. وكان أن قال سيبريانو أـلجور عندئذ، لا تـقلق، سنصل فى الوقت المناسب، فرد صهره، موارياً قلقه دون نجاح، لستُ قلقاً، وقال سيبريانو أـلجور، أعرف

ذلك، ولكنها مجرد طريقة لتبادل الكلام. انحرف بالشاحنة نحو طريق موازٍ مخصص لحركة المرور المحلية، وقال، سنختصر الطريق من هنا، فإذا ما سألتنا الشرطة لماذا تركنا الطريق العام، تذكر ما اتفقنا عليه، سندعي بأن لدينا مسألة يجب حلها في أحد هذه المصانع قبل ذهابنا إلى المدينة. تنفس مرسيال جاتشو بعمق. حين تكون حركة المرور معقدة على الطريق العام، ينتهي الأمر بحميّه، عاجلاً أو آجلاً، إلى سلوك طريق فرعى. ما كان يثير جزعه هو إمكانية أن يسهو حموه ثم يأتي قراره متأخراً. ولحسن الحظ، بالرغم من المخاوف والتحذيرات، لم توقفهما الشرطة قطُّ. وفكر مرسيال: يوماً ما سيقتنع بأننى لست صبيّاً صغيراً، وأنه ليس عليه أن يذكرنى فى كل مرة بهذا الكلام عن وجود مسألة يتوجب علينا حلها فى المصانع. لم يتصور أى منهما أن زىّ حارس «المركز» الذى يرتديه مرسيال جاتشو، هو السبب فى تسامح شرطة المرور المتواصل أو عدم مبالاتها، وأن ذلك التسامح لم يكن مجرد نتيجة مصادفات متعددة أو حسن طالع دائم، كما كان من المحتمل أن يجيبا إذا ما سُئلا عن سبب عدم تعرضهما، فى اعتقادهما، لغرامة المخالفة حتى الآن. ولو عرف مرسيال جاتشو السبب، فربما كان سيتباهى أمام حميّه بأهمية السلطة التى يضيفها عليه الزىّ الرسمى الذى يرتديه، ولو عرفه سيبريانو أَلجور، فربما كان سيتحدث إلى صهره بقدر أقل من الملائفة الساخرة.

إنها حقيقة جيدة، فالشباب لا يعرف ما يمكنه تحقيقه، والشيخوخة لا تتمكن من تحقيق ما تعرفه.

بعد الحزام الصناعي تبدأ المدينة، ولكن ليس المدينة بمعنى الكلمة، فهي تلمح هناك في البعيد، يلامسها ضوء الشمس الأول الوردى بما يشبه المداعبة، أما ما يُرى هنا فهي تجمعات فوضوية من أكواخ مبنية من أية مواد متنوعة، معظمها مؤقت وغير ثابت، يمكن لها أن تساعد في حماية ساكنيها سيئى التدثر، من رداءة الجو، وخصوصاً من المطر والبرد. إنها، على حد قول سكان المدينة، مكان مثير للقلق. ففى هذه المناطق، وباسم المسلمة البديهة الكلاسيكية القائلة إن الحاجة أيضاً تفرض المشروعية، تتعرض شاحنة محملة بالأغذية، بين حين وآخر، للسطو والتفريغ فى وقت أقصر مما تحتاجه رواية الحدث. المنهج العمليّاتى فى السطو، وهو فعال بصورة مثالية، جرت صياغته وتطويره بعد تأمل جماعى مُفصّل لنتائج المحاولات الأولى المحبطة بسبب الغياب الكامل للإستراتيجية، كما تبين بوضوح، وبسبب تكتيك قديم، إذا صحت تسمية تكتيك، وأخيراً بسبب قصور وخطأ فى تنسيق الجهود التى تبقى عملياً مجرد جهود وحسب. فحيث إن تدفق حركة المرور يبقى شبه متواصل فى الليل، فإن قطع الطريق من أجل إيقاف شاحنة، مثلما كانت الفكرة الأولى، كان يؤدى إلى وقوع المهاجمين فى الفخ الذى نصبوه بأنفسهم، ذلك أن شاحنات أخرى ستأتى وراء تلك الشاحنة، حاملة

تعزيزات ونجدة فورية للسائق الذى وقع فى المأزق.
أما حل المشكلة، وهو حل عبقرى بالفعل، حسب ما
اعترفت به، بصوت خافت، السلطات الشرطية
نفسها، فتلخص فى انقسام المهاجمين إلى جماعتين،
واحدة تكتيكية وأخرى إستراتيجية، وفى إقامة
حاجزين بدلاً من حاجز واحد، إذ تبدأ الجماعة
التكتيكية بقطع الطريق مباشرة بعد مرور الشاحنة
التي تسير منفصلة عن الأخريات، وبعد ذلك تقوم
الجماعة الإستراتيجية، على مسافة بضع مئات من
الأمتر إلى الأمام، بعد إعلامها بإشارة ضوئية فى
الوقت المناسب، بإقامة الحاجز الثانى بالسرعة
نفسها، بحيث لا يبقى مفر أمام الشاحنة التي حُك
عليها القدر سوى التوقف والتسليم بأن تُسرق
حمولتها. أما السيارات الآتية من الاتجاه المعاكس فلا
حاجة لقطع الطريق عليها، فالسائقون أنفسهم
يتوقفون بعد أن يكونوا قد تقدموا قليلاً، حين ينتبهون
إلى ما يحدث. فتتولى جماعة ثالثة، تدعى جماعة
التدخل السريع، ثنى عزيمة أى متضامن جرى بوابل
من الحجارة. تقام الحواجز بأحجار كبيرة تُحمل على
محفات، ثم يقوم بعض المهاجمين أنفسهم فيما بعد،
وهم يُقسمون ويرددون إنه لا علاقة لهم بما حدث،
بالمساعدة فى رفعها من الطريق قائلين، هؤلاء
الناس هم الذين سيئون إلى سمعة حيناً، نحن الناس
الشرفاء، بينما يكتفى سائقو الشاحنات الأخرى
المتلهفون لإنهاء تنظيف الطريق كيلا يصلوا متأخرين

إلى «المركز» بالردّ، حسن، لا بأس. وقد نجت شاحنة سيبريانو ألبور الصغيرة من مثل حوادث الطريق تلك، حتى اليوم على الأقل، لأنها تمر من هذه الأماكن على الدوام تقريباً في وضوح النهار. فهناك إدراك، عملياً، بأن الأواني الخزفية غالباً ما تذهب إلى مائدة الفقير، وهي سهلة الكسر، وصانع الخزف ليس بمنجى من أن يخطر لامرأة من النساء الكثيرات اللواتي يعشن حياة سيئة في تلك الأكواخ، أن تقول في أحد الأيام لرب أسرتها، نحن بحاجة إلى أطباق جديدة، فيكون رده عليها بالتأكيد، سأتولى تدبير هذا الأمر، توجد شاحنة صغيرة تمر من هنا أحياناً وعليها من الخارج كتابة تقول مشغل خزف، ولا بد أن تكون فيها أطباق، فتضيف المرأة منتهزة المدّ المواتى، وفناجين، إننا بحاجة إلى فناجين أيضاً، لا تنسَ ذلك.

بين الأكواخ وأول عمارات المدينة، كأرض محايدة تفصل قسمين متواجهين، هناك فضاء فسيح خالٍ من الأبنية، ولكن، إذا جرى النظر إليه بقليل من الاهتمام، لا تُلحظ فيها سوى شبكة من آثار عجلات الجرارات المتقاطعة، وبعض أعمال التسوية التي لا يمكن أن تكون قد أحدثتها إلا جرافات ميكانيكية كبيرة، تلك الشفرات المقعرة التي لا تكل، والتي تحمل، بلا ألم أو شفقة، كل شيء أمامها، البيت القديم، الجذر الجديد، الجدار الذي يُؤوى من يلوذون به، مكان ظل لن يعود أبداً إلى ما كان عليه. ومع ذلك، ومثلما يحدث في الحياة، عندما نطن أنهم قد انتزعوا منا كل شيء، ثم

نكشفت فجأة أنه قد بقى لدينا شيء ما، تظهر هنا أيضاً أشياء مبعثرة، بعض الأسماك المتسخة، بعض بقايا الفضلات، بعض الصفائح الصدئة، بعض ألواح الخشب المنخورة، قطعة بلاستيك تأتي بها الريح وتأخذها تُذكرنا بأن هذه الأرض كانت تشغلها أحياء هامشية من قبل. ولن يمضى وقت طويل حتى تتقدم عمارات المدينة فى خط نار أول لتسيطر على قطعة الأرض، تاركة بين أكثرها تقدماً وأول الأكواخ مجرد شريط ضيق، أرضاً محايدة جديدة، تبقى هكذا طالما لم تحن بعد لحظة الانتقال إلى المرحلة الثالثة.

الطريق العام الرئيسى، الذى رجعا إليه الآن، صار أكثر اتساعاً، مع وجود مسرب مخصص حصراً لمرور السيارات الثقيلة، ومع أنه لا يمكن للشاحنة المغلقة الصغيرة، إلا بهذيان المخيلة، أن تُضم إلى ذلك النوع الضخم، إلا أن واقع كونها سيارة شحن دون شك، يمنح سائقها حق المنافسة على قدم المساواة مع الآليات الخرافية الضخمة والبطيئة التى تشخر، تُن، تتفث سحابات خانقة من عوادمها، وتجاوزها بسرعة، بتلويات رشيقة تجعل قطع الخزف فى الجزء الخلفى ترن. نظر مرسىال جاتشو مرة أخرى إلى الساعة وتنفس بعمق. سيصل فى الموعد. لقد صاروا فى محيط المدينة، وما زال عليهما اجتياز عدد من الشوارع ذات التخطيط المضطرب، التفاف إلى اليسار، ثم الالفاف إلى اليمين، ومرة أخرى إلى اليسار، ومرة أخرى إلى اليمين، والآن إلى اليمين، ثم

إلى اليمين، اليسار، اليسار، اليمين، فى خط مستقيم،
والدخول أخيراً إلى ساحة حيث تنتهى المصاعب، جادة
مستقيمة تقودهما إلى هدفهما، هناك حيث يُنتظر
وصول الحارس الداخلى مرسيال جاتشو، وهناك
سيُفرغ صانع الخزف سيبريانو ألجور حمولته. فى
العمق، يوجد سور شاهق الارتفاع، قاتم، أكثر علواً من
أعلى البنايات المحاذية للجادة، يقطع الطريق فجأة.
إنه لا يقطعه فى الواقع، وافترض ذلك هو نتيجة
وهم بصرى، فهناك شارعان، على هذا الجانب وذاك،
يتواصلان على امتداد السور، وهذا بدوره ليس سوراً،
بل هو أقرب إلى جدار بناء هائل، مبنى عملاق، مربع
الشكل، بلا نوافذ فى الواجهة الملساء، متمائل فى
امتداده كله. ها قد وصلنا، قال سيبريانو ألجور، وقد
وصلنا فى وقت مناسب كما ترى، مازالت لديك عشر
دقائق حتى يحين موعد دخولك، أنت تعرف جيداً
مثلما أعرف أنا السبب فى أنتى لا أستطيع التأخر،
فسوف أفقد موقعى فى قائمة المرشحين لوظيفة
الحارس المقيم، ليست هذه بالفكرة التى تهتم زوجتك
كثيراً، فكرة التحول إلى حارس مقيم، إنها أفضل لنا،
سيكون لدينا مزيد من وسائل الراحة، وشروط حياة
أفضل. أوقف سيبريانو ألجور الشاحنة الصغيرة قبالة
ركن المبنى، بدا كما لو أنه سيرد على صهره، ولكن ما
فعله هو السزال، لماذا يهدمون مجموعة المباني تلك،
لقد تأكد الأمر أخيراً، ها هو الذى تأكد، منذ
أسابيع يدور الحديث عن عملية توسيع، أجاب

مرسيال جاتشو بينما هو يخرج من الشاحنة. كانا قد توقفا قبالة باب تُقرأ فوقه لافتة كتبت عليها كلمات: مدخل مخصص لموظفى الأمن. قال سيبريانو ألبور، ربما، فرد عليه، ليس ربما، فالدليل ظاهر للعيان، لقد بدأت أعمال الهدم، لستُ أعنى عملية التوسيع، وإنما ما قلته من قبل عن شروط الحياة، ولن أجادل حول وسائل الراحة، فنحن لا يمكننا التذمر على أية حال، فلستنا من أسوأ الناس حظاً، أحترم وجهة نظرك، ولكن لدى وجهة نظرى، وسترى كيف أن مارتا ستتفق معى فى الرأى عندما يحين الوقت. خطأ خطوتين، توقف، ولا بد أنه فكر فى أنها ليست الطريقة الصحيحة التى يودع بها صهرٌ حماه الذى أوصله إلى العمل، فقال، شكراً، وأتمنى لك رحلة عودة طيبة، فقال صانع الخزف، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، وقال الحارس الداخلى، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، فى الوقت الذى كان يحيى فيه زميلاً له وصل للتو. مضيا معاً، وعندئذ أُغلق الباب.

شغل سيبريانو ألبور المحرك، ولكنه لم ينطلق فوراً. نظر إلى المبانى التى تُهدم. فى هذه المرة، ربما بسبب انخفاض علو المبانى التى سيهدمونها، لم تُستخدم المتفجرات فى الهدم، هذه الطريقة الحديثة، السريعة، الاستعراضية التى يمكن لها فى ثلاث ثوان أن تحول بناء متيناً ومنظماً إلى كومة مختلطة من الأنقاض. ومثلما هو متوقع، كان الشارع الذى يشكل زاوية قائمة مع هذا مغلقاً أمام حركة المرور. ومن أجل

تسليم البضاعة، سيجد صانع الخزف نفسه مضطراً إلى المرور من وراء العقار الذى يُهدم، والدوران حوله، والمواصلة إلى الأمام بعد ذلك، فالبوابة التى سيطرقها موجودة فى الزاوية القصوى، إنها بالضبط، من النقطة التى هو فيها، فى الطرف الآخر من خط وهمى يجتاز بشكل منحرف المبنى الذى دخله مرسيال جاتشو، بخط منحرف، حدد صانع الفخار ذهنياً لكى يوجز الشرح. عندما سيرجع بعد عشرة أيام لأخذ صهره، لن يكون هناك أى أثر لهذه العقارات، وستكون قد استقرت سحب غبار الهدم التى تطفو الآن فى الهواء، بل ويمكن أن يكون قد بدأ حفر الحفرة الكبيرة حيث ستشق الأخاديد وتغرس أعمدة البناء الجديد. وبعد ذلك ستُرفع الثلاثة جدران، أحدها بمحاذاة الشارع الذى سيتعين على سيبريانو ألجور أن يلتف حوله بعد قليل، وجداران آخران يغلقان من هذا الجانب وذاك الأرض المكتسبة من الشارع الأوسط ومن هدم الأبنية، فيخفيا واجهة البناء التى مازالت مرئية الآن، وسيتبدل موقع بوابة دخول موظفى الأمن، ولن تكون ثمة حاجة إلى أيام كثيرة كيلا يعود بمقدور شخص شديد الفطنة أن يميزها حين ينظر من الخارج، وسيكون تمييزه أقل من ذلك إذا ما نظر إليها من داخل المبنى، بين البناء الجديد والبناء السابق. نظر صانع الخزف إلى ساعته، مازال الوقت مبكراً، ففى الأيام التى يُوصل فيها صهره يضطر إلى الانتظار ساعتين ريثما يفتح قسم تلقى البضاعة

المخصص له، والانتظار بعد ذلك طوال الوقت اللازم
ريثما يصله الدور، وفكر، لكننى سأنال امتياز
الحصول على موقع جيد فى صف الانتظار، بل
ويمكن لى أن أكون الأول. لم يكن كذلك قطّ، فدائماً
يحضر أناس مبكرين أكثر منه، لا بد أن بعض أولئك
السائقين قد أمضوا شطراً من الليل فى كابينات
شاحناتهم. وعندما يشعشع النهار يصعدون إلى
الشارع ليتناولوا فنجان قهوة وخبزاً وشيئاً من الطعام،
وكأس خمر فى الصباحات الرطبة والباردة، وبعد
ذلك يبقون هناك، يتبادلون الأحاديث فيما بينهم، إلى
ما قبل عشر دقائق من فتح الأبواب، وعندئذ يركض
الشبان منهم، بعصبية كمتدربين، نازلين المنحدر
ليأخذوا مواقعهم، أما كبار السن، لاسيما إذا كانوا
فى الأماكن الأخيرة فى الصف، فينزلون وهم
يتناقشون بحماس، ويعبون آخر أنفاس السيجارة، لأن
التدخين غير مسموح به فى القيو، لوجود محركات
دائرة. فهم يرون أن نهاية العالم لم تحن بعد، ولن
يكسبوا شيئاً من الركض.

حرك سيبريانو ألجور السيارة. لقد شرد ذهنه
فى هدم الأبنية، ويريد الآن تعويض الوقت الضائع،
وهذه كلمات خرقاء بين أكثر الكلمات خراقة، عبارة
سخيفة نظن أننا نخدع بها الواقع القاسى الذى لا
يمكن فيه تعويض أى وقت ضائع، كما لو أننا نظن،
خلافاً لهذه الحقيقة، أن الوقت الذى اعتبرناه ضائعاً
إلى الأبد قد قرر البقاء متوقفاً وراءنا، ينتظر بصبر

من يملك تحت تصرفه الوقت كله، أن نشعر بفقدانه. ومدفوعاً بالتسرع المتولد من التفكير فيمن يصل أولاً ومن يصل تالياً، دار صانع الخزف بسرعة حول مجموعة الأبنية، ودخل مباشرة عبر الشارع الذى يحد واجهة المبنى الأخرى. ومثلما هى العادة الثابتة، كان هناك أناس ينتظرون أن تُفتح الأبواب المخصصة للجمهور. انتقل إلى مسرب المرور الأيسر، من أجل انعطافة الدخول إلى المنحدر الذى ينزل إلى الطابق تحت الأرضى، أظهر للحارس بطاقته كمون واحتل مكانه فى رتل السيارات، وراء شاحنة صغيرة محملة بصناديق، وبالنظر إلى الكتابة التى على التغليف، فإنها تحتوى أوانى زجاجية. خرج من شاحنته ليتأكد من عدد السيارات التى أمامه، ويقدر بذلك، بصورة تقريبية، كم من الوقت عليه أن ينتظر. إنه يحتل الرقم ثلاثة عشر. عدد السيارات ثانية، ولم يكن هناك شك. ومع أنه ليس شخصاً متطيراً، إلا أنه لا يجهل سمعة هذا الرقم السيئة، ففى أى حديث حول المصادفة، والقدرية، والقضاء والقدر، يكون هناك دائماً من يأخذ الكلام ليروى حالات معيشة تحت التأثير السلبى، والمشئوم أحياناً، للعدد ثلاثة عشر. حاول أن يتذكر إذا ما كان قد احتل فى مناسبة أخرى هذا المكان فى الدور، ولكنه توصل إلى أحد أمرين، فإما أن ذلك لم يحدث قط، وإما أنه ببساطة لا يتذكر. تجادل مع نفسه، قال إنه كلام فارغ، ومن السخف القلق من شىء لا وجود له فى الواقع، أجل، صحيح،

إنه لم يفكر فى هذا الأمر من قبل، فالأرقام عملياً غير موجودة فى الواقع، والأشياء لا تبعاً بالرقم الذى يخصص لها، سيان أن يقال إنها ثلاثة عشر، أو أربعة وأربعون، أدنى ما يمكن استخلاصه هو أنها لا تعنى المكان الذى كان من نصيبها أن تشغله. الأشخاص ليسوا أشياء، الأشخاص يريدون أن يحتلوا على الدوام الأماكن الأولى، هذا ما فكر فيه صانع الخزف، ودمدم: لا يريدون أن يكونوا فى الأماكن الأولى وحسب، بل يريدون كذلك أن تُذكر تلك الأماكن وأن يلحظها الآخرون. كان القبو خاوياً، باستثناء الحارسين اللذين يراقبان، كل واحد من جانب، حركة الدخول والخروج، فالسائقون يتركون سياراتهم عند مجيئهم ويصعدون إلى الشارع، إلى المقهى. إنهم مخطئون جداً إذا ما ظنوا أننى سأبقى هنا، قال سيبريانو ألاجور بصوت عال. رجع القهقري بشاحنته كما لو أنه اكتشف للتو أن ليس لديه ما يُفرغه وخرج من الرتل، وفكر: هكذا لن أكون الثالث عشر. وبعد دقائق قليلة نزلت شاحنة على المنحدر وتوقفت فى المكان الذى تركته الشاحنة الصغيرة خاوياً. قفز سائقها من الكابينة، نظر إلى ساعته، ولا بد أنه فكر، هازال لدى بعض الوقت. وعندما اختفى فى أعلى المنحدر، ناور صانع الخزف بسرعة وتوقف وراء الشاحنة. إننى الرابع عشر الآن، قال راضياً عن دهائه. استند فى المقعد، تنهد، وكان يسمع فوق رأسه دوى حركة المرور فى الشارع، لقد كان من عادته هو أيضاً أن يصعد

لتناول القهوة وشراء الصحيفة، ولكنه لا يجد رغبة في الصعود اليوم. أغمض عينيه كما لو أنه يتقهقهر إلى أعماق نفسه ودخل فوراً في إغفاءة، كان صهره هو من يشرح له أن الأمور ستتغير كما يتغير الليل إلى صباح، عندما سيُعين حارساً مقيماً، وإنه هو ومارتا سيتركان مشغل الخزف، فقد حان الوقت لبدء حياة مستقلة عن الأسرة، كن متفهماً، ما يجب أن يكون، كما يقول المثل، له قوة كبيرة، العالم لا يتوقف، وإذا كان الأشخاص الذين تعتمد عليهم يشجعونك، فما يتوجب عليك عمله هو أن ترفع يديك إلى السماء وتحمدها، وسيكون من البلاهة إدارة الظهر للحظ عندما يحالفنا، كما أنني واثق من أن رغبتك الكبرى هي أن تكون مارتا سعيدة، ولهذا عليك أن تكون سعيداً. وكان سيبريانو أَلجور يسمع صهره ويبتسم في أعماقه، إنك تقول كل هذا لأنك تظن أنني الثالث عشر، ولا تعرف أنني صرت الآن الرابع عشر. استيقظ على خبط أبواب السيارات، وهي إشارة إلى أن أعمال التفريغ ستبدأ. عندئذ، ودون أن يكون قد رجع تماماً من غفوته، فكر، لم أبدل رقمي، إنني الثالث عشر في موقع الرابع عشر.

هكذا كان. بعد ساعة من ذلك تقريباً جاء دوره. نزل من الشاحنة واقترب من منضدة كونتوار التلقى مع الأوراق المعهودة، وثيقة التسليم في ثلاث نسخ، والفاتورة الخاصة بمبيعات الدفعة الأخيرة المصدقة، ووثيقة رقابة جودة التصنيع التي ترافق كل شحنة،

وفيها يتعهد مشغل الخزف بتحمل المسئولية عن أى خلل فى التصنيع يضبط فى الفحص الذى ستخضع له القطع، ووثيقة تأكيد الحصرية، وهى إجبارية كذلك عند تسليم كل شحنة، وفيها يلتزم مشغل الخزف، مخضعاً نفسه لعقوبات فى حال المخالفة، بعدم إقامة علاقات تجارية مع مؤسسات تجارية أخرى لبيعها بضاعته. وكما هى العادة، اقترب موظف للمساعدة فى تفريغ البضاعة، ولكن معاون رئيس قسم الاستلام ناداه وأمره، أنزل نصف ما أحضره فقط وطابقه مع عقد التسليم. فسأله سيبريانو ألبور متفاجئاً ومذعوراً، النصف، لماذا، المبيعات انخفضت كثيراً خلال الأسابيع الماضية، وربما سنضطر إلى أن نعيد إليك ما هو فى المستودع، بسبب عدم بيعها، تعيدون ما هو موجود فى المستودع، أجل، فهذا وارد فى العقد، أعرف أنه وارد فى العقد، ولكن هناك فى العقد كذلك أنكم لا تسمحون لى بالتعامل مع زبائن آخرين، فقل لى إذا لمن سأبيع النصف الآخر، هذا ليس من صلاحياتى، أنا أنفذ الأوامر التى أتلقاها فقط، هل يمكننى التحدث إلى رئيس القسم، لا، لن تستفيد شيئاً، فلن يستقبلك. كانت يدا سيبريانو ألبور ترتعشان، نظر فيما حوله مرتبكاً، متوسلاً المساعدة، ولكنه لم يقرأ سوى عدم مبالاة فى وجوه السائقين الثلاثة الذين قدموا بعده. ومع ذلك، حاول الاستعانة بالتضامن الطبقي، انظروا الوضع الذى أنا فيه، رجل يأتى إلى هنا بنتاج عمله، أخرج التراب،

خلطه بالماء، خفقه، عجن الخليط، صنع الأواني التي أوصوه بصنعها، وشواها في الفرن، والآن يقولون له إنهم سيأخذون نصف ما صنعه فقط وسيعيدون إليه ما هو لديهم في المستودع، أريد أن أعرف إن كانت هناك عدالة في هذا التصرف. نظر السائقون بعضهم إلى بعض، هزوا أكتافهم، لم يكونوا واثقين مما إذا كان ملائماً لهم الرد، ولا ممن سيكون الرد مفيداً له، أخرج أحدهم سيجارة ليبين أنه يتنصل من المسألة، ثم تذكر أنه لا يمكن التدخين هناك، فأدار عندئذ ظهره والتجأ إلى كابينة الشاحنة، بعيداً عن الأحداث. أدرك صانع الخزف أنه سيفقد الكثير إذا ما واصل الاحتجاج، فرغب في إلقاء ماء على النار التي أشعلها هو نفسه، وفكر في أن يبيع النصف على أي حال هو أفضل من لا شيء، ولا بد أن يتم في النهاية إصلاح الأمور. وتوجه بإذعان إلى نائب رئيس الاستلام، أيمكنك أن تخبرني بما حدث حتى انخفضت المبيعات إلى هذا الحد، أظن أن السبب هو ظهور قطع بلاستيكية تقلد الخزف، تقلده بصورة جيدة تبدو معها حقيقية، مع ميزة أنها أخف وزناً وأرخص ثمناً بكثير، هذا ليس مسوغاً لعدم شراء بضاعتي، فالخزف هو الخزف دوماً، إنه حقيقي، طبيعي، قل هذا الكلام للزبائن، لا أريد أن أسبب لك الغم، ولكنني أظن أن خزفك لم يعد يهم منذ الآن سوى هواة الجمع، وهؤلاء في تناقص مستمر. كانت عملية العدّ قد انتهت، فدون نائب الرئيس على وثيقة

الاستلام، تسلمت النصف، وقال، لا تحضر أى شىء بعد الآن إلى أن نخبرك بذلك، فسأله صانع الخزف، أوتظن أننى سأتمكن من مواصلة التصنيع؟ القرار لك، فأنا لا أتحمل مسئولية ذلك، وماذا عن الإعادة، هل ستعيدون إلى ما هو موجود فى المستودع؟ وكانت الكلمات ترتعش من اليأس وتقال بمرارة أراد الآخر معها أن يكون مهادناً، سوف نرى. دخل صانع الفخار إلى الشاحنة، انطلق بفضاظة، بعض الصناديق، سيئة التثبيت بعد إفراغ نصف الحمولة، انزلت واصطدمت بعنف بالباب الخلفى، فليتكسر كل شىء دفعة واحدة، صرخ بغضب. كان عليه أن يتوقف عند مطلع منحدر الخروج، فالأنظمة تأمر بتقديم البطاقة أيضاً لهذا الحارس، إنها أمور بيروقراطية، لا أحد يعرف سببها، ففى البدء من يدخل مموناً، مموناً سيخرج، ولكن هناك استثناءات كما يبدو، ولدينا هنا حالة سيبريانو ألبور الذى كان كذلك لدى الدخول، أما الآن، إذا ما تحققت التهديدات، فهو فى سبيله إلى ألا يكون كذلك. من المؤكد أن الثلاثة عشر هو السبب، فالقدر لا تخدعه مناورات تأخير ما كان متقدماً. صعدت الشاحنة المنحدر، خرجت إلى ضوء النهار، ليس هناك ما يمكنه عمله، اللهم إلا الرجوع إلى البيت. ابتسم صانع الخزف بأسى، لم يكن الثلاثة عشر هو السبب، فالثلاثة عشر لا وجود له، ولو كان الأول فى المجيء فإن الحكم سيكون هو نفسه، الآن النصف، وبعد ذلك سنرى، يا لبراز الحياة.

امرأة الأكواخ، تلك التي تحتاج إلى أطباق
وفناجين جديدة، سألت زوجها، ماذا جرى، ألم تجد
شاحنة مشغل الخزف، ويرد عليها الزوج، بلى،
أجبرتها على التوقف، ولكنني تركتها تمضي في
سبيلها بعد ذلك، لماذا تركتها، أراهن لو أنك رأيت
وجه الرجل الذي كان في داخلها، لكنتِ فعلتِ ما
فعلته.

أوقف صانع الخزف شاحنته الصغيرة، أنزل زجاج أحد الجانبين، ثم الجانب الآخر، وانتظر أن يأتي من يسطو عليه. فمن غير المستهجن أن تدفع بعض حالات اليأس الروحي، أو بعض ضربات الحياة، ضحيتها إلى قرارات يمثل هذه الدراماتيكية، إن لم يكن إلى ما هو أسوأ منها. تأتي لحظة يسمع فيها الشخص المزعزع أو المهان صوتاً يصرخ فيه من داخل رأسه، خسارة العشرة هي خسارة المائة، وعندئذ يتصرف حسب خصوصيات الوضع الذي هو فيه أو المكان الذي يجده الوضع نفسه فيه، فإما أن ينفق آخر ما لديه من نقود في شراء بطاقة يانصيب، أو يضع على مائدة القمار الساعة الموروثة عن أبيه أو محفظة النقود الفضية التي أهدتها إليه أمه، أو يراهن بكل شيء على الأحمر بالرغم من أنه رأى هذا اللون يخسر خمس مرات متتالية، أو يقفز وحيداً من خندق القتال ويندفع راکضاً والحربة مركبة على بندقيته باتجاه المدفع الرشاش المعادي، أو أنه في حالة هذه الشاحنة الصغيرة، يُنزل الزجاج، ثم يفتح

الأبواب بعد ذلك، ويبقى بانتظار أن يأتي أناس الأكواخ للسطو عليه مسلحين بالهراوى المعتادة، والمُدى المعهودة، ولوازم المناسبة، وكان آخر ما فكر فيه سيبريانو أَلجور، إذا لم يرغب أولئك فى البضاعة، فليأخذها هؤَلاء. مرت عشر دقائق دون أن يأتى أحد لاقتراف عملية السطو التى يتلَهف إليها، ربع ساعة دون أن يطلع ولو كلب متشرد إلى الطريق ليبول على إحدى العجلات ويتشمم محتويات الشاحنة، وكانت قد مضت نصف ساعة عندما اقترب أخيراً رجل متسخ وعابس الوجه سأل صانع الفخار، هل لديك أية مشكلة، أحتاج إلى مساعدة، أتريد أن أدفعك، ربما يكون عطلاً فى البطارية. والآن، إذا كانت حتى أقوى العزائم تمر بلحظات ضعف عندما لا يتمكن الجسد من التصرف بالتحفظ الذى أمضت الروح سنوات فى تعليمه إياه، فليس علينا أن نستغرب أن عرض المساعدة، والأدهى أنه آت من رجل له هيئة لص السطو المعهود كاملة، قد لمس أشد أوتار سيبريانو أَلجور حساسية إلى حد إطلال دمعة فى طرف عينه، فقال له، لا، شكراً جزيلاً، ولكنه بعد ذلك، عندما بدأ عارض المساعدة بالابتعاد، قفز من الشاحنة، وسارع إلى فتح الباب الخلفى فى الوقت الذى كان ينادى، إيه، أيها السيد، إيه.. أيها السيد، تعال إلى هنا. توقف الرجل وسأل: أتريدنى أن أساعدك، لا، ليس هذا ما أريده، ماذا تريد إذن، تعال هنا، اقترب من فضلك. جاء الرجل، وقال له سيبريانو أَلجور، خذ نصف دستة

الأطباق هذه، خذها لزوجتك، إنها هدية، وخذ هذه الستة الأخرى، إنها صحون عميقة للحساء، فتردد الرجل، ولكننى لم أفعل شيئاً، ليس مهماً، اعتبر أنك فعلت، وإذا كنت تحتاج إبريقاً للماء، فخذ هذا، الحقيقة أن إبريقاً لن يكون سيئاً فى البيت، خذ هذه إذن، خذها. صفّ صانع الفخار الأطباق بعضها فوق بعض، المسطحة أولاً، ثم العميقة، ووضع بعد ذلك هذه الأخيرة فوق تلك، ووسدها على انحناءة ذراع الرجل اليسرى، وبما أن الرجل كان يحمل الإبريق فى اليد اليمنى، فإنه لم يجد الكثير من نفسه ليقدم به الشكر، اللهم إلا كلمة شكراً المبتذلة والتي يمكن لها أن تكون صادقة أو غير صادقة بالقدر نفسه، وانحناءة من الرأس مفاجئة ليس فيها أى توافق مع الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها، وهذا يعنى أننا نعرف أكثر بكثير عن تعقيدات الحياة إذا ما عكفنا بجد على دراسة تناقضاتها بدلاً من أن نضيع وقتاً طويلاً فى أوجه التماثل والتناسق التى يفترض فيها أن تعبر عن نفسها بنفسها.

عندما اختفى الرجل الذى له مظهر الساطى، مع أنه لم يكن كذلك فى نهاية المطاف، أو أنه لم يشأ بكل بساطة أن يكون كذلك فى هذه المرة، وهو نصف حائر، وتوارى بين الأكواخ، أدار سيبريانو ألبور محرك الشاحنة. من الواضح أنه لا يمكن لأشد نظرة ثاقبة أن تلحظ حدوث أى فرق فى ضغط الثقل على ممتص صدمات الشاحنة أو إطاراتها، فوزن اثنى

عشر طبقاً وإبريقاً واحداً من الخزف لا يعنى فى سيارة شاحنة، وإن كانت من الحجم المتوسط، أكثر مما تعنيه على رأس عروس سعيدة اثنتا عشرة بتلة ورد بيضاء وبتلة وردة حمراء واحدة. وليس من قبيل المصادفة أن ترد هنا كلمة سعيدة فى الخلف، فهذا فى الواقع هو أقل ما يمكننا أن نقوله عن ملامح سيبريانو ألبور الذى إذا نظرنا إليه الآن، فلن يصدق أحد أنهم لم يشتروا منه سوى نصف الحمولة التى نقلها إلى المركز. والسيئ فى الأمر هو أنه قد عاد فى ذاكرته، عند توغله فى الحزام الصناعى بعد كيلومترين من التقدم، إلى المحنة التجارية القاسية التى عاناها. فرؤية المداخن البغيضة التى تنفث سحبا من الدخان حثته على التساؤل، فى أى مصنع سخيّف من هذه المصانع ينتجون تلك الأكاذيب البلاستيكية السخيفة، ذلك التقليد الغادر للخزف، ودمدم، هذا مستحيل، لا يمكن تشبيهها به، لا بالصوت ولا بالوزن، ثم إن هناك العلاقة بين النظر واللمس التى قرأت عنها لا أذكر أين، فحاسة البصر قادرة على الرؤية من خلال الأصابع التى تلمس الخزف، والأصابع قادرة، دون أن تلمس، على الإحساس بما تراه العينان. وكما لو أن هذا لم يكن تعذيباً كافياً، فقد استجوب سيبريانو ألبور نفسه أيضاً، مفكراً فى قرن مشغل الخزف القديم، وكم من الأطباق، والزبيديات، والفناجين، والأباريق يمكن أن تبصقها آلات البلاستيك اللعينة فى الدقيقة الواحدة، كم من

الأشياء لتحل محل الأباريق والدمجانات. واكفهر وجه صانع الخزف نتيجة هذه التساؤلات، وتساؤلات غيرها لم تُسجل، وابتداءً من هناك، كانت بقية الطريق، كلها، تأملاً متواصلاً حول المستقبل القاسى الذى ينتظر أسرة ألاجور إذا ما ظل المركز مصراً على التقويم الجديد للمنتجات الذى ربما يكون صانع الخزف هو ضحيته الأولى. ولكن لا بد من منح الشرف لمن استحقه بجدارة، فسيبريانو ألاجور لم يسمح لروحه، فى أى لحظة، بالندم على سخائه مع الرجل الذى كان يتوجب عليه أن يسرقه، إذا كان صحيحاً كل ما يقال عن ساكنى الأكواخ. كانت هناك عند مخرج الحزام الصناعى بعض الورش المتواضعة التى لا يمكن فهم كيف استطاعت مواصلة البقاء أمام شراهة المصانع الحديثة العملاقة إلى التوسع وتنوع تشكيلة منتجاتها، ولكن الواقع أنها هناك، والنظر إليها لدى المرور شكل على الدوام عزاء لسيبريانو ألاجور بينما هو يستغرق متأملاً، فى بعض أكثر ساعات حياته قلقاً، حول مصائر مهنته. وفكر، لن تستمر طويلاً، وكان فى هذه المرة يعنى الورش الصغيرة، وليس مستقبل العمل الخزفى، ولكن هذا حدث لأنه لم يكلف نفسه عناء التفكير لوقت كاف، وهو ما يحدث بكثرة، إذ نعتقد أنه صار ممكناً التأكيد أن انتظار النتائج لم يعد يستحق العناء لمجرد أننا قررنا التوقف فى منتصف الطريق الذى يقودنا إليها.

اجتاز سيبريانو آجور الحزام الأخضر، ولم ينظر
ولو مرة واحدة إلى الحقول، وإذا كان المشهد الرتيب
للامتدادات الشاسعة المغطاة بالبلاستيك، الرمادية
بالطبيعة والمكفهرة بالوساخة، يسبب له على الدوام
إحساساً بالغم، فلك أن تتخيل ما ستكون عليه الحال
اليوم، فى الحالة المعنوية التى هو عليها، إذا ما راح
يتأمل هذا القصر. ومثل ذلك الذى رفع ذات مرة عباءة
تمثال إحدى القديسات على مذبح ليرى إن كان ما
يسندها تحت العباءة ساقان كسيقان الناس أم زوج
عيدان خشبية غير مشذبة، لم يكن صانع الخزف منذ
زمن طويل بحاجة إلى مقاومة إغراء إيقاف الشاحنة
والتأكد مما إذا كان صحيحاً أنه فى داخل تلك
الدفئيات وتلك الهياكل توجد نباتات حقيقية، لها ثمار
يمكن شمها ولمسها وقضمها، وذات أوراق ودرنات
وبراعم يمكن طهوها وتتبيلها ووضعها فى طبق، أم أن
الكتابة الطاغية السائدة خارجاً تنقل عدوى خدعة
مؤكدة إلى ما ينمو فى الداخل، كائناً ما كان. بعد
الحزام الأخضر سلك صانع الخزف طريقاً فرعية،
كانت هناك بقايا هزيلة من غابة، وبعض الحقول سيئة
الترتيب، وجدول مياه قاتمة ومنتنة، ثم ظهرت عند
منعطفٍ أطلالٌ ثلاثة بيوت بلا نوافذ ولا أبواب،
سقفها نصف منهاره وفضاءاتها الداخلية تكاد
تلتهمها الخضرة التى تظهر دوماً بين الأنقاض، كما لو
أنها كانت هناك، بانتظار ساعتها، منذ وضعت
الأساسات. القرية تبدأ على بعد نحو مئة متر إلى

الأمام، وهى أكثر بقليل من الطريق الذى يشقها من منتصفها، بضعة شوارع تصب فى الطريق العام، وساحة غير منتظمة تتسع فى اتجاه واحد، هناك بئر مغلقة، مع مضختها لإخراج الماء وعجلة الحديد الكبيرة، فى ظل شجرتين عاليتين. حيا سيبريانو أَلجور بضعة رجال كانوا يتبادلون الحديث، ولكنه لم يتوقف، على خلاف عادته عندما يرجع من إيصال الخزف إلى «المركز» فى مثل هذه اللحظة لا يمكن توقع ما يروقه، ولكنه ليس محادثة بكل تأكيد، حتى ولو كانت مع أشخاص معروفين. مشغل الخزف والبيت الذى يعيش فيه مع ابنته وصهره يقعان فى الجانب الآخر من القرية، متوغلين فى الريف، ومنفصلين عن بقية الأبنية. كان سيبريانو أَلجور قد خفف من سرعة الشاحنة عند دخوله القرية، ولكنه يتقدم الآن ببطء أشد. لا بد أن ابنته تنهى الآن إعداد الغداء، فهذا هو مواعده، ماذا أفعل، هل أخبرها أم أنتظر إلى ما بعد الطعام، سأل نفسه، من الأفضل ترك ذلك إلى ما بعد، سأترك الشاحنة فى سقيفة الحطب، وهى لن تأتى إلى هناك لترى إذا ما أحضرت معى شيئاً، فالיום ليس يوم مشتريات، وهكذا يمكننا أن نتناول الطعام باطمئنان، أعنى أنها هى ستأكل باطمئنان، أما أنا فلا، ثم أخبرها فى النهاية بما حدث، أو سأؤجل الأمر إلى ما بعد الظهر، عندما نكون فى العمل، سيكون شيئاً جدياً أن تعرف ذلك قبل الغداء أو بعده مباشرة. الطريق ينحرف فى

انعطافة واسعة حيث تنتهي القرية، وبعد تجاوز آخر بيت تظهر فى البعيد شجرة توت ضخمة لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار، هناك يقوم مشغل الخزف. سيكون النبيذ مسكوباً، ولا بد من شربه، قال سيبريانو ألاجور بابتسامة متعبة، وفكر فى أنه سيكون من الأفضل لو أنه يستطيع تقيؤه. أدار الشاحنة إلى اليسار، نحو طريق صاعد قليلاً يودى إلى المنزل، وفى منتصفه أطلق النفير ثلاث مرات رنانة معلناً عن وصوله، إنها الإشارة نفسها دوماً، وستستغرب ابنته إذا امتنع اليوم عن عمل ذلك. المسكن ومشغل الخزف شُيدا فى هذه الأرض الفسيحة، ربما فى زمن قديم، وفى أرض مشاع، وفى يوم ناءٍ لم يبق له سجل أو ذكرى، قرر جد سيبريانو ألاجور صانع الفخار، وكان له الاسم نفسه، أن يزرع فى منتصفها شجرة التوت. أما الفرن، وهو أبعد قليلاً، فإنه بناءً أحدث أنجزه أبو سيبريانو ألاجور الذى كان يحمل الاسم نفسه أيضاً، وقد حلّ محلّ فرن آخر، قديم جداً، كيلا نقول مغرق فى القدم، كان له، إذا ما نُظر إليه من الخارج، شكل جذعين مخروطيين متراكبين، الفوقى منهما أصغر من السفلى، ولم تبق أيضاً أى ذكرى عن منشئهما. وعلى أساساتهما القديمة بُنى الفرن الحالى، هذا الفرن الذى شوى الحمولة التى لم يشأ «المركز» أن يتسلم سوى نصفها، وهو الآن، أى الفرن، بعد أن برد، ينتظر أن يملاه من جديد. أوقف سيبريانو ألاجور الشاحنة باهتمام مبالغ فيه تحت السقيفة، بين حمولتين من

الخطب الجاف، وفكر بعد ذلك فى أنه ما زال بإمكانه المرور على الفرن وكسب بضع دقائق، ولكنه كان يفتقر إلى الدافع، يفتقد المبرر، فهذه المرة ليست مثل المرات الأخرى، حين كان يرجع من المدينة ويكون الفرن يعمل، فى تلك الأيام كان يذهب لينظر إلى داخل المرجل كى يقدر درجة الحرارة من لون الصلصال المتوهج، وليرى إذا ما كان الأحمر القاتم قد تحول إلى أحمر رمادى أو تحول هذا اللون إلى البرتقالى. بقى واقفاً هناك، كما لو أن الحماسة التى يحتاج إليها قد تخلت عنه فى الطريق، ولكن صوت ابنته هو الذى أجبره على التحرك، لماذا لا تدخل، الغداء جاهز. ظهرت مارتا عند الباب وقد أقلقها تأخره، هيا، هيا، سيبرد الطعام. دخل سيبريانو الجور، قبّل ابنته ثم أغلق على نفسه الحمام، وهذه وسيلة راحة بيتية أنشئت عندما كان مراهقاً، وهى بحاجة، منذ وقت طويل، إلى توسيع وتحسينات. تفحص نفسه فى المرآة، لم يجد أى تجعيدة إضافية فى وجهه، وفكر، إنها موجودة فى داخلى بكل تأكيد، ثم أنزل الماء، غسل يديه وخرج. كانا يأكلان فى المطبخ عادة، جالسين إلى منضدة كبيرة عرفت أياماً أكثر سعادة واجتماعات أكبر عدداً. أما الآن، بعد موت الأم، جوستا إساسكا، التى قد لا نعود إلى ذكرها كثيراً فى هذه القصة، ولكننى أترك اسمها مدوناً هنا، أما كنيته فقد عرفناها سابقاً. الاثنان يأكلان عند أحد طرفى المائدة، الأب فى الصدر، ومارتا فى

المكان الذى خلفته الأم شاغراً، وقبالة مرسىال، عندما يكون موجوداً. كيف كان صباحك، سألته مارتا، جيد، كالعادة، ردّ الأب وهو يحنى رأسه فوق الطبق، لقد اتصل مرسىال هاتفياً، آه، صحيح، وماذا يريد، أخبرنى أنه تحدث معك عن مسألة السكن فى «المركز» عندما يُرَقّونه إلى حارس مقيم، أجل، لقد تحدثنا فى الموضوع، كان مستاءً لأنك عدت إلى القول إنك غير موافق، لقد فكرت فى هذه الأثناء بالأمر بصورة أفضل، وأظن أنه سيكون حلاً جيداً لكليهما، ماذا جرى لك، هكذا فجأة تغير رأيك، لا يمكن أن تكونى راغبة فى العمل فى مشغل الخزف طوال ما تبقى من حياتك، لا، مع أن ما أفعله يروقنى. عليك أن ترافقى زوجك، غداً سيكون لديك أبناء، وثلاثة أجيال ونحن نأكل الطين أكثر من كافٍ، فسألته مارتا: وهل أنت موافق على الذهاب معنا إلى «المركز» وترك مشغل الفخار، تركه غير ممكن، أبداً، هذا أمر خارج الموضوع، أتعنى أنك ستقوم بكل شىء وحدك، تحفر الطين، وتعجنه، وتُحضّره على منضدة العمل، وعلى الدولاب، وتملأ الفرن وتشعله، ثم تفرغه، وتفك القالب، وتنظفه، ثم يأتى تحميل كل ذلك فى الشاحنة والذهاب لبيعه، وأذكرك بأن الأمور آخذة بالتحول إلى الأصعب على الرغم من المساعدة التى يقدمها لنا مرسىال خلال الوقت القصير الذى يقضيه هنا، سأجد من يعمل معى، فالقرية لا تفتقر إلى الشبان، أنت تعرف جيداً أنه ليس هناك من يرغب فى أن

يكون صانع خزف، فمن يملُّ الريف يذهب للعمل فى مصانع الحزام، لن يخرجوا من الأرض لياتوا إلى الطين، وهذا سبب آخر يستدعى منك الذهاب، لا يدورن فى خلدك أنتى سأوافق على ترككِ هنا وحيداً، ستأتين لزيارتى بين حين وآخر، أرجوك يا أبى، إننى أتكلم بجذ، وأنا أيضاً يا ابنتى.

نهضت مارتا لتستبدل الأطباق وتسكب الحساء، فمن عادة الأسرة تناول الحساء تالياً. كان الأب يلاحقها بعينيه ويفكر، إننى أتسبب فى تعقيد كل شىء بهذه المحادثة، من الأفضل أن أخبرها بالأمر. ولكنه لم يفعل، فقد تحولت الابنة فجأة إلى سن الثامنة، وهو يقول لها، انتبهى جيداً، هذا مثل ما تفعله أمك وهى تعجن الخبز. كان يدحرج كتلة الصلصال إلى الأمام وإلى الوراء، يضغطها ويطولها بالجزء الخلفى من راحتى يديه، يضربها بقوة على المنضدة، يكبسها، يسطحها، يعود إلى البداية، يكرر العملية كلها، مرة، ومرة أخرى، وأخرى، لماذا تفعل هذا، تسأله ابنته، كيلا تبقى فى الصلصال قُشرات، وخبثات، وفقاعات هواء، لأن ذلك سيكون سيئاً فى العمل، وفى الخبز أيضاً، الخبثات وحدها فى الخبز هى السيئة، أما فقاعات الهواء فلا أهمية لها. يضع جانباً إسطوانة الطين المصمتة التى حوّل إليها الصلصال ويبدأ بعجن قطعة أخرى، لقد حان الوقت لتبدئى التعلم، قال ذلك، ولكنه ندم فوراً، يا للحماقة، إنها فى الثامنة وحسب، ثم عدل ما قاله،

اذهبي للعب خارجاً، اذهبي، فالبرد شديد هنا، ولكن الابنة ردّت عليه بأنها لا تريد الذهاب، كانت تحاول قولبة شكل دمية بقطعة صلصال تلتصق بأصابعها لأنها طرية جداً، فقال الأب، هذه لا تنفع، من الأفضل أن تجربي هذه، وسترين كيف ستتوصلين إلى صنعها. كانت مارتا تنتظر إليه بقلق، فلم يكن من عادته أن يخفض رأسه هكذا وهو يأكل، كما لو أنه يسعى، وهو يخفى وجهه، إلى أن يخفى قلقه كذلك، ربما كان السبب هو المحادثة التي جرت بينه وبين مرسيال، ولكننا تحدثنا في هذا الأمر ولم يكن يبدى هذا الوجه آنذاك، أيكون مريضاً، إننى أراه خامد الهمة، ذاوياً، فى ذلك اليوم قالت لى أمى، انتبهى، لا تجهدى نفسك كثيراً، وأجبتُها، هذا أمر لا يحتاج إلا إلى قوة الذراعين وحركة الكتفين، وبقية الجسم تراقب، لا تقولى هذا لى أنا التى أشعر بالألم حتى فى آخر شعرة فى رأسى بعد ساعة من العجن، هذا لأنك متعبة بعض الشيء فى هذه الفترة الأخيرة، أو لأننى بدأت أهرم، دعك من هذه الأفكار من فضلك يا أماه، فليس فيكِ شيء من الهرم، ولكن، من الذى كان بإمكانه تصور ذلك، إذ لم يمض أسبوعان على هذه المحادثة، إلا وكانت قد ماتت ودُفنت، إنها مفاجآت الموت للحياة، بماذا تفكر يا أبتِ. مسح سيبريانو ألجور فمه بالفوطة، تناول الكأس كما لو أنه سيشرب، ولكنه أعاد وضعه دون أن يقربه من شفثيه. أخبرنى، تكلم، أَلحت الابنة، ولكى تفتح الطريق للفضفضة

سألته، أما زلت قلقاً بسبب مرسىال أم أن لديك سبباً
آخر للتفكير. أعاد سيبريانو الجور تناول الكأس،
وشرب النبيذ المتبقى فى جرعة واحدة، وأجاب
بسرعة، كما لو أن الكلمات تحرق لسانه، لم يقبلوا
سوى نصف الحمولة، يقولون إن مشترى الخزف قد
تناقصوا، وإن أوانى بلاستيكية تحاكيه قد عرضت
للبيع، وهى ما يفضله الزبائن الآن، ليس هذا بالأمر
الذى لم نكن نتوقعه، فهو سيحدث عاجلاً أو آجلاً،
الخزف ينشخ، يتشقق، ينكسر لدى أقل صدمة، بينما
البلاستيك يتحمل كل شىء ولا يشكو، الفرق هو فى
أن الخزف مثل البشر، يجب معاملته برفق،
والبلاستيك أيضاً، ولكن بقدر أقل، والأسوأ أنهم
طلبوا منى ألا أحمل إليهم مزيداً من الأوانى إلى أن
يوصوا هم على طلبية، سنتوقف عن العمل إذن، لن
نتوقف، عندما تأتى الطلبية ستكون لدينا قطع جاهزة
للتسليم فى اليوم نفسه، ولن نضطر عند تلقى
الطلبية إلى أن نشعل الفرن بتسرع، ماذا سنفعل فى
أثناء ذلك، فنتظر، نعتصم بالصبر، وغداً سأخرج
لأقوم بجولة، فلا بد لى من أن أبيع شيئاً، تذكر أنك
قمت بمثل هذه الجولة قبل شهرين، لن تجد أناساً
كثيرين بحاجة إلى الشراء، لا تأتى أنتِ الآن
لإحباطى، إننى أحاول أن أرى الأمور مثلما هى فى
الواقع، وأنتِ نفسك من قلت لى قبل قليل إن ثلاثة
أجيال من صانعى الفخار هى أكثر من كافية، لن
تكونى الجيل الرابع، فأنتِ ستذهبين للعيش فى المركز

مع زوجك، يجب أن أذهب، أجل، ولكنك ستأتي معي، لقد قلتُ لك إنك لن ترينى أعيش فى المركز أبداً، ولكن المركز الذى أعالتنا حتى الآن بشراء نتاج عملنا، سيواصل إعالتنا عندما نكون هناك ولا يعود لدينا ما نبيعه إليه، بفضل راتب مرسىال، ليس هناك أى عار فى أن يعيل الصهر حماه، هذا يعتمد على من هو الصهر، أبت، ليس من اللائق أن تكون متكبراً إلى هذا الحد، ليست مسألة كبرياء، مسألة ماذا إذن، لا يمكننى أن أشرح الأمر، إنه شىء أكثر تعقيداً من الكبرياء، إنه شىء آخر، نوع من الخجل، ولكن اعذرينى، أعترف بأنه ما كان على أن أقول ما قلته، ما لا أريده أنا هو أن تعانى العوز، يمكننى أن أبدأ البيع لتجار المدينة، والمسألة هى أن يسمح لى المركز بذلك، وإذا كانوا سيشترىون أقل فليس لهم الحق فى منعى من البيع لآخرين، أنت تعرف خيراً منى أن تجار المدينة يواجهون مصاعب كبيرة لكى يُبقوا رءوسهم طافية فوق سطح الماء، فالناس جميعهم يشترون من المركز، وفى كل يوم هناك مزيد من الناس الراغبين فى العيش فى المركز، أنا لا أريد ذلك، وماذا ستفعل إذا ما توقف المركز عن شراء الأوانى الخزفية وصار الناس هنا يستخدمون أوانى بلاستيكية، أمل أن أموت قبل أن يحدث ذلك، أمى ماتت قبل حدوثه، ماتت وهى تعمل على الدولاب، عسى أن أنتهى أنا بالطريقة نفسها، لا تتحدث عن الموت يا أبى، الحديث عن الموت غير ممكن إلا ونحن على قيد الحياة، أما بعد ذلك

فلا. سكب سيبريانو الجور قليلاً من النبيذ، نهض، مسح فمه بظاهر كفه كما لو أن قواعد التمدن على المائدة تنتهى لدى النهوض، وقال، **على** أن أخرج من أجل تقطيع الصلصال، فما لدينا يوشك على النفاد، وكان قد بدأ بالخروج عندما نادته ابنته، لقد خطرت لى فكرة يا أبت، **فكرة**، أجل، سأتصل هاتفياً بمرسيال لكى يتكلم مع رئيس قسم المشتريات ويحاول أن يستطلع ما هى نوايا المركز، هل سيكون هذا التقليل فى الطلبات لفترة قصيرة، أم إنه سيستمر طويلاً، أنت تعلم أن رؤساء مرسيال يقدرونه، **هذا** على الأقل ما يقوله هو لنا، فاحتجت مارتا، إذا كان يقوله فلا بد أن يكون صحيحاً، ثم أردفت بنفاد صبر، ولكننى لن أتصل إذا رغبت، اتصلى، بلى، اتصلى، فهذه فكرة جيدة، وهى الفكرة الوحيدة التى قد تكون نافعة الآن، وإن كنت أشك فى أن مدير قسم فى المركز سيكون مستعداً، هكذا دون سبب، لأن يقدم تفسيراً حول رئاسته لحارس من الدرجة الثانية، إننى أعرفهم خيراً منه، لا حاجة لأن يكون المرء فى الداخل لكى يعرف من أى طينة هم أولئك الناس، إنهم يظنون أنفسهم ملوك الكون، أضف إلى ذلك أن رئيس قسم ليس إلا مأموراً، ينفذ أوامر تأتيه من أعلى، بل ويمكن له أن يخدعنا بتفسيرات لا أساس لها لمجرد أن يرضى على نفسه أهمية. استمعت مارتا إلى عبارته الطويلة حتى نهايتها، ولكنها لم تردّ عليها. أجل، فالأب، كما يبدو بوضوح، يسعى لأن يكون صاحب

الكلمة الأخيرة، ولن تكون هي من تسلبه هذه المتعة. وفكرت بعد خروجه فقط، يجب أن أكون أكثر تفهماً، يجب علىّ أن أضع نفسي في مكانه، وأن أتصور ما الذى يعنيه البقاء فجأة دون عمل، والابتعاد عن البيت، وعن مشغل الفخار، وعن الفرن، وعن الحياة. كررت الكلمات الأخيرة بصوت عالٍ، عن الحياة، وفي هذه اللحظة غام بصرها، فقد وضعت نفسها مكان الأب وراحت تعاني مثلما يعانى هو. نظرت فيما حولها وانتبهت أول مرة إلى أن كل شيء هناك يبدو كما لو أنه مغطى بالطين، ليس طيناً متسخاً، وإنما باللون الذى للطين، بلون كل الألوان التى خرج بها من حفرة الوحل، اللون الذى راحت تخلفه ثلاثة أجيال كانت أيديها تتلوث كل يوم بتراب الطين ومائه، وكان هناك فى الخارج أيضاً، لون الرماد الحى فى الفرن، الدفء الأخير والراعى بعد أن تركوه خاوياً، مثل بيت خرج منه أصحابه وبقي ينتظر صابراً، وفى الغد، إذا لم ينته هذا كله إلى الأبد، ستحيط مرة أخرى أول شعلة من لهب الحطب، أول لفحة حارة، ستحيط مثل مداعبة بالصلصال وبعد ذلك، شيئاً فشيئاً، زغردة الهواء، وومضة جمر سريعة، بزوغ الوهج، والانطلاق المبهر للنار الكاملة. لن أعود إلى رؤية هذا أبداً عندما نذهب من هنا، قالت مارتا، واغتم قلبها كأنها تودع أحب شخص إليها، دون أن تعرف فى هذه اللحظة من هو أحب شخص إليها، أهى الأم المتوفاة، أم الأب المغموم، أم الزوج، أجل، يمكن له أن يكون

الزوج، وهذا هو المنطقى، بحكم كونها امرأته. كانت تسمع دوى المدقة الخشبية يهرس الطين، كما لو أنه ينطلق من تحت الأرض، ومع ذلك كان صوت الضربات يبدو لها اليوم مختلفاً، ربما لأنه لا يحرك فيها الحاجة البسيطة إلى العمل، بل الغضب العاجز لفقدانه. سأتصل بالهاتف، دمدمت مارتا بينها وبين نفسها، لأننى إذا ما واصلت التفكير فى هذه الأمور فسوف أنتهى إلى الاكتئاب مثله. خرجت من المطبخ وتوجهت إلى غرفة الأب. وهناك، على المنضدة الصغيرة التى ينجز عليها سيبريانو ألجور حساب نفقات وإيرادات مشغل الفخار، كان يوجد هاتف من طراز قديم. أدارت أحد أرقام المقسم وطلبت أن يوصلوها بقسم الأمن، وفى اللحظة نفسها تقريباً رنّ صوت رجولى جاف، هنا خدمات الأمن، لم تفاجئها سرعة الرد، فالجميع يعلمون أنه عندما يتعلق الأمر بمسائل الأمن تؤخذ فى الحسبان حتى أتفه الثوانى، أود التحدث إلى حارس الأمن مرسيال جاتشو، قالت مارتا، من المتكلم، إننى زوجته، وأنا أتصل من البيت، حارس الأمن مرسيال جاتشو فى الخدمة الآن، ولا يمكنه مغادرة موقعه، أرجو منك فى هذه الحالة أن تنقل إليه رسالة، هل أنتِ زوجته، أجل، أنا زوجته، واسمى مارتا ألجور جاتشو، يمكنك التأكد عندك من ذلك، أنتِ لا تجهلين إذاً أننا لا نتلقى رسائل، وإنما نسجل ملاحظة عن اتصال فقط، أريدُ أن تخبره فقط بأن يتصل بالبيت عندما يستطيع، هل الأمر مستعجل، سألها الصوت. فكرت مارتا بالأمر مرتين،

أ يكون مستعجلاً، أ يكون غير مستعجل، ليس الأمر نزيهاً لا يمكن وقفه، ولا مشكلات خطيرة فى الفرن كذلك، وليست ولادة مبكرة بأى حال من الأحوال، ولكنها انتهت إلى الرد، أجل، الأمر مستعجل إلى حد ما، سآدون ملاحظة، قال الرجل، وأغلق الخط. وبزفرة استسلام متعبة وضعت مارتا السماعة على الجهاز، ليس هناك ما يمكن عمله، إنه أقوى منهم، الأمن لا يمكنه العيش دون أن يدعك بسلطته وجوه الأفراد، حتى فى حالة تافهة، شديدة التفاهة، مما يحدث يومياً، مثل هذه التى جرت الآن، امرأة تتصل بالمركز لأنها بحاجة إلى التكلّم مع زوجها، لم تكن هى الأولى ولن تكون بالتأكيد الأخيرة. عندما خرجت مارتا إلى الفناء توقف صوت المدقة الخشبية فجأة عن أن يبدو لها أنه يصعد من باطن الأرض، إنه يأتى من حيث يجب أن يأتى، من الركن المعتم فى مشغل الفخار حيث يُحفظ الصلصال المستخرج من الحفرة، اقتربت من الباب، ولكنها لم تجتز العتبة، وقالت، لقد اتصلت، وقد أخبرونى بأنهم سينقلون إليه الإشعار، فلنأمل أن يفعلوا ذلك، رد الأب، ودون أى كلمة أخرى انقض بالمدقة الخشبية على أكبر القطع التى أمامه. أدارت مارتا ظهرها لأنها تعرف أنه عليها عدم الدخول إلى حيز اختاره أبوها متعمداً ليكون وحيداً فيه، ولكنها فعلت ذلك أيضاً لأن لديها هى نفسها عملاً تنجزه، بضع عشرات من الأباريق الكبيرة والصغيرة التى تنتظر أن توضع لها مقابضها. دخلت من الباب الجانبى.

تلفن مرسىال جاتشو فى آخر المساء، بعد أن أنهى وردية عمله. وردّ على امرأته بكلمات مقتضبة وغير مترابطة، دون أن يبدى ما يشير إلى الأسف أو القلق أو الغضب من انعدام اللياقة التجارية التى وقع حموه ضحية لها. تكلم بصوت ساه، بصوت بدا كما لو أنه يفكر فى شىء آخر، قال نعم، آه أجل، أفهم، موافق، أعتقد أنه طبيعى، سأحضر عندما أتمكن، أحياناً لا، لا شك فى ذلك، أجل، أفهم، لست بحاجة إلى تكرار ذلك، وأنهى المحادثة أخيراً بجملة كاملة، وإن كانت غير مرتبطة بالقضية، اطمئنى، لن أنسى المشتريات. أدركت مارتا أن زوجها يتكلم أمام شهود، أمام زملاء فى العمل، وربما أمام مسئول يتفقد الجناح، وأنه كان يدارى ليتجنب حالات فضول مزعجة، بل ربما خطيرة. لقد جرى تنظيم «المركز» وترتيبه وفق نموذج تقسيم صارم لمختلف النشاطات والوظائف، ومع أن ذلك التقسيم لم يكن، ولا يمكن له أن يكون، راكداً ومغلقاً، إلا أن التواصل بين مكوناته غير ممكن إلا عبر سبل وحيدة بعينها فقط، يصعب

تمييزها وتحديدها في أغلب الأحيان. ومن الواضح أن مجرد حارس عادى من الدرجة الثانية، سواء بسبب طبيعة منصبه المحددة أو ضالة قيمته في سلم الموظفين المرءوسين، وهما أمران يتحدر أحدهما من الآخر كنتيجة حتمية لا مفر منها، لا يكون مزوداً، إذا تكلمنا بصورة عامة، بقدرة تمييز وإدراك كافيين لاكتشاف دقة وطبيعة ذلك التقسيم، وهى فى الواقع دقة وطبيعة طيارة وغير ثابتة تقريباً، ولكن مرسىال جاتشو، على الرغم من أنه ليس الأكثر فطنة وحذراً فى مرتبته، فإنه يُحسب لمصلحته شىء من خميرة الطموح، إذ إن لديه هدفاً معروفاً هو الارتقاء إلى منصب حارس مقيم ثم الترقى، فى وقت تال بالطبع، إلى حارس من الدرجة الأولى، ولا نعرف إلى أين يمكنه الوصول فى مستقبل قريب، ناهيك عن المستقبل البعيد، إذا ما كان له مستقبل بعيد. ولأنه يمضى بعينين مفتوحتين جيداً ويمتلك أذنين مرهفتين منذ اليوم الذى بدأ فيه العمل فى المركز، استطاع أن يتعلم، فى وقت قصير، متى وكيف يكون من الملائم التكلم، أو الصمت، أو التظاهر مثلما فعل. وتعتقد مارتا، بعد سنتين من الزواج، أنها تعرف جيداً الزوج الذى كان من نصيبها فى لعبة المنح والانتزاع التى تُختزل إليها الحياة الزوجية على الدوام تقريباً، وهى تكرر له عاطفتها كلها كزوجة، بل إنها لن تبدو متمنعة، إذا افترضنا أن اهتمام القصة يتطلب التعمق فى حياتها الحميمة، فى استخدام الحدة القصوى

حين تردُّ علينا بأنها تحبه، ولكنها ليست بالشخص الذى يخدع نفسه بنفسه، ولهذا فإنه أكثر من محتمل، إذا ما توغلنا بعيداً فى الإلحاح، أن تنتهى إلى الاعتراف بأنه يبدو لها فى بعض الأحيان مفرطاً فى الحذر، كيلا تقول إنه يبالغ فى التحسب، إذا افترضنا أننا نتجاسر على توجيه التقصى إلى منطقة بالغة السلبية من الشخصية. لقد كانت موقنة أن زوجها قد انسحب مرغماً من المحادثة، وأن القلق قد بدأ يراوده من لقاء محتمل مع رئيس قسم المشتريات، وليس بسبب خجل المرءوس أو تواضعه، فالحقيقة أن مرسيال جاتشو يفاخر على الدوام بالإعلان عن أنه يتضايق من لفت الأنظار إليه عندما لا يكون الأمر متعلقاً بأمور العمل، ويضيف من يعتقد أنه يعرفه، لاسيما إذا شاءت الظروف ألا تكون تلك الأمور مما يمكن أن تمنحه فائدة إضافية. وأخيراً، فإن الفكرة الطيبة التى اعتقدت مارتا أنها تمتلكها بدت طيبة فقط لأنها الفكرة الوحيدة الممكنة، فى تلك اللحظة، كما قال أبوها. كان سيبريانو ألاجور فى المطبخ، ولم يستطع أن يسمع مقاطع الخطاب المتفرقة وغير المترابطة التى أطلقها صهره، ولكنه بدا كمن قرأ كل شىء، وملاً الثغرات الناقصة من خلال رؤية وجه ابنته القانط عندما خرجت من الغرفة بعد دقيقة طويلة. ولأنه ليس هناك ما يستحق إتعاب اللسان فى شىء ضئيل القيمة، لم يتكلف حتى إضاعة الوقت بسؤالها ماذا جرى، وكانت هى من بادرت إلى إخباره بما هو

جلى، سيُكلم رئيس القسم، ولم تكن مارتا بحاجة كذلك لأن تُتعب نفسها من أجل قول ذلك، لأن نظرتين كانتا كافيتين. هكذا هي الحياة، إنها مليئة بكلمات لا تستحق النطق بها، أو أنها استحقت ذلك فى وقت ما ولم تعد تستحقه، فكل كلمة نقولها تنتزع مكان كلمة أخرى أكثر جدارة منها، وتكون كذلك ليس لذاتها، وإنما للعواقب المترتبة على قولها. انقضى العشاء بصمت، وبصمت مضت الساعتان اللتان يقضيانهما بعد ذلك قبالة التلفاز غير المبالى، وفى لحظة معينة، مثلما يحدث بكثرة فى الشهور الأخيرة، نام سيبريانو ألاجور. كان ما بين حاجبيه مجعداً بتقطيعة غضب، كما لو أنه، فى الوقت الذى يغفو فيه، يؤنب نفسه لأنه استسلم بتلك السهولة للنعاس، بينما يستدعى العدل والإنصاف أن يبقى التوتر والاستياء مستيقظاً ليل نهار، الاستياء من أجل أن يعانى الإهانة بصورة كاملة، والتوتر لكى يجعل تحمله المعاناة ممكناً. وبينما هو على تلك الحال، أعزل، رأسه مائل إلى الخلف، وفمه نصف مفتوح، غافياً عن نفسه، كان يمثل صورة مؤثرة لمهجور لا خلاص له، مثل كيس مثقوب تفلت منه محتوياته فى الطريق. كانت مارتا تنظر إلى الأب بحماسة، بزخم عاطفى، وتفكر، هذا هو أبى العجوز، إنها مبالغات لا تُغتفر ممن لا تزال فى مطلع سن النضج، لرجل فى الرابعة والستين من عمره، وإن تكن معنوياته زاوية بعض الشيء، مثلما هو بادٍ على هذا الرجل، لا يمكن أن يقال عنه، بمثل هذه الخفة غير

الواعية، إنه عجوز، فقد كان ذلك معهوداً فى الزمن الذى كانت تبدأ فيه الأسنان بالسقوط فى سن الثلاثين، وتظهر أول التجعدات فى الخامسة والعشرين، أما حالياً، فالشيخوخة الحقيقية، غير المغالط فيها، تلك التى لا رجوع عنها، ولا حتى بالتظاهر، لا تبدأ إلا منذ سن الثمانين، عملياً ودون اعتذار، باستحقاق الاسم الذى نطلقه على زمن الوداع. ها الذى سيحل بنا إذا ما توقف المركز عن الشراء، لمن سنصنع الخزف والفضار إذا كان ذوق المركز هو الذى يحدد ذوق الناس، كانت مارتا تتساءل، لم يكن مدير القسم هو الذى قرر تقليص الطلبات إلى النصف، فالأمر جاءه من أعلى، من رؤسائه، من أحد لا يهمله أن يكون هناك صانع خزف آخر أو لا يكون فى العالم، ما جرى يمكن له ألا يكون إلا الخطوة الأولى، والخطوة الثانية ستكون تخليهم النهائى عن الشراء، علينا أن نكون مستعدين لهذه الكارثة، أجل، مستعدين، ولكننى أرغب فى أن أعرف كيف يمكن تهيئة شخص ليتلقى ضربة مطرقة على رأسه، وعندما يُرقون مرسىال إلى حارس مقيم، ماذا سأفعل بأبى، فمن المستحيل تركه وحيداً فى هذا البيت ودون عمل، مستحيل، ابنة جاحدة، سيقول عنى الجيران، والأسوأ من ذلك أننى سأقوله أنا عن نفسى، الأمور ستكون مختلفة لو أن أمى ما زالت حية، لأن اجتماع ضعفين، على خلاف ما يقال عادة، لا يشكل ضعفاً أكبر، وإنما يصنع قوة جديدة، ربما الأمر ليس

كذلك، ولم يكن كذلك قط، ولكن هناك مناسبات من الملائم أن يكون فيها الأمر كذلك، لا يا أبى، لا يا سيبريانو ألبور، عندما أخرج أنا من هنا ستأتى معى، حتى لو اضطررت إلى حملك بالقوة، لا شك لدى فى أنه يمكن لرجل أن يعيش وحده، ولكننى على قناعة من أنه سيبدأ بالموت فى اللحظة نفسها التى يفلق فيها باب بيته عليه. وكما لو أن أحداً قد هزه بفضاظة من ذراعته، أو كما لو أنه أحس بأن هناك من يتكلم عنه، فتح سيبريانو ألبور عينيه فجأة واستوى فى المقعد. مرّ بيديه على وجهه، وبمظهر نصف مشوش لطفل فوجئ فى خطأ، دمدم، لقد غلبنى النعاس. إنه يقول دوماً هذه الكلمات، لقد غلبنى النعاس، عندما يستيقظ من غفوته القصيرة قبالة التلفاز. ولكن هذه الليلة لم تكن مثل الليالى الأخرى، ولهذا كان عليه أن يضيف، كان من الأفضل بكثير لو لم توقظينى، دمدم، فقد كنتُ وأنا نائم، على الأقل، صانع خزف لديه عمل، مع فارق أن العمل الذى يصنع خلال النوم لا يخلف أعمالاً ناجزة، قالت مارتا، مثلما هى الحال فى حياة اليقظة بالضبط، يعمل أحدنا، ويعمل، ويعمل، وفى أحد الأيام يستيقظ من هذا الحلم، أو هذا الكابوس، ويقولون له إن ما فعلته لا ينفع شيئاً، بلى ينفع، بلى يا أبى، ولكن كما لو أنه لم ينفع، لقد صادفنا يوم نحس اليوم، غداً سنفكر بهدوء أكبر، وسنرى كيف نجد مخرجاً من هذه المشكلة التى أوقعونا بها، أجل، سنرى، أجل، سنفكر. اقتربت

مارتا من أبيها، وقبلته قبلة حانية، اذهب إلى الفراش، هيا، ونم جيداً، أرح هذا الرأس. توقف سيبريانو ألاجور عند مدخل غرفة نومه، التفت إلى الوراء، بدا متردداً لحظة، ثم انتهى إلى القول كما لو أنه يحاول أن يقنع نفسه، ربما يتصل مرسيال غداً، ربما يقدم لنا خبراً طيباً، من يدري يا أبت، من يدري، ردت عليه مارتا، لقد قال لي إنه سيهتم جيداً بالأمر، كان هذا هو استعداده.

لم يتلفن مرسيال في اليوم التالي. مرّ اليوم كله، وكان الأربعاء، ومرّ الخميس، ومرّ الجمعة، ومرّ يوماً السبت والأحد، ويوم الإثنين فقط، بعد أسبوع تقريباً من توجيه الإهانة إلى ورشة الخزف، عاد الهاتف يرن في بيت سيبريانو ألاجور. على خلاف ما كان قد أعلنه، لم يخرج صانع الخزف للقيام بجولة في محيط المكان بحثاً عن مشترين. شغل ساعاته المتجرجرة بتثاقل في أعمال صغيرة، بعضها غير ضرورية، مثل تفحص الفرن وتنظيفه بدقة مهووسة، من أعلى إلى أسفل، من الداخل ومن الخارج، جوان فجوان(*) آجرة فأجرة، كما لو أنه يعدّه لأكبر وجبة في حياته. عجن كتلة من الصلصال تحتاج إليها ابنته، ولكن على خلاف اهتمامه الموسوس الذي تعامل به مع الفرن، فعل ذلك بغيرة ضئيلة، حتى أن مارتا وجدت نفسها مضطرة إلى عجن الكتلة مرة أخرى، خفية عنه، لكي تقلل من الحشرات فيها. قطع حطباً، كنس

junta a juntd (*)

الفناء، وبعد الظهر، طوال أكثر من ثلاث ساعات، حين هطل مطر من تلك الأمطار دقيقة القطرات والغزيرة التي كانت تسمى فيما مضى رذاذاً، ظل طوال الوقت جالساً على جذعٍ تحت السقيفة، ينظر أحياناً إلى أمام بثبات أعمى يعرف أنه لن يرى إذا ما أدار رأسه في اتجاه آخر، وفي أحيان أخرى يتأمل يديه المفتوحتين، كما لو أنه يبحث في خطوطهما، في تقاطعاتهما عن طريق، عن أقصر الطرق أو أطولها، فالذهاب في هذا أو ذاك يعتمد عموماً على السرعة الكثيرة أو القليلة التي يتوجب الوصول بها، دون نسيان تلك الحالات التي يكون فيها شيء أو أحد يدفعنا من الخلف، دون أن ندري لماذا أو إلى أين. في هذا المساء، عندما توقف المطر، نزل سيبريانو الجور على الدرب المؤدى إلى الطريق العام، لم ينتبه إلى أن ابنته كانت تنظر إليه من باب مشغل الفخار، ولكنه لم يكن بحاجة لأن يقول إلى أين هو ذاهب، مثلما لم تكن هي بحاجة لأن يخبرها بذلك. رجل عنيد، فكرت مارتا، كان عليه أن يذهب بالشاحنة، فقد يعود المطر إلى الهطول بين لحظة وأخرى. قلق مارتا طبيعي، وهذا ما يتوجب انتظاره من ابنةٍ، لأن السماء الحقيقية، وعلى الرغم من كل المبالغات التاريخية المخالفة، لم تكن موضع ثقة كبيرة قطّ. أما في هذه المرة، مع ذلك، حتى لو عاد رذاذ المطر إلى الهطول من الرمادي المتماثل الذي يغطي الأرض ويحيط بها، فإن البلل لن يكون كبيراً، ومقبرة القرية قريبة جداً، هناك في نهاية أحد هذه

الشوارع المتفرعة عن الطريق العام، وسيبريانو ألاجور، على الرغم من السن، ما زال يحتفظ بخطواته الخفيفة والسريعة التي يستخدمها الشبان للإسراع. سواء أكان عجوزاً أم شاباً، لم يعد هناك من يحتاج إليه اليوم. ولم يكن ثمة معنى كذلك لأن تنصحه مارتا بالذهاب في الشاحنة، لأنه علينا الذهاب دوماً إلى المقابر، لاسيما مقابر هذه القرى، الأرياف، الرعوية، مشياً على الأقدام فوق التراب، ليس بفعل أمر قاطع أو فرض سام، وإنما احتراماً للأعراف الإنسانية البسيطة، فكثيرون هم في نهاية المطاف من يذهبون في حج على الأقدام لتوقير بقية من عظم ساق قديس، فلا يفهم لماذا نذهب بطريقة أخرى إلى حيث نعرف مسبقاً أن بانتظارنا ذاكرتنا نفسها وربما دمعة ما. سيبقى سيبريانو ألاجور بضع دقائق إلى جوار قبر امرأته، لا ليصلي بعض الصلوات التي نسيها، ولا ليطلب منها، وهي هناك في مسكن السماء العليا، إن كانت فضائلها قد رفعتها إلى ذلك السمو، لتتوسط له أمام من يقول بعضهم إنه كلى القدرة، سيكتفى بالاحتجاج فقط بأنه من غير العدل يا جوستا، ما فعلوه بي، لقد ضحكوا من عملي ومن عمل ابنتنا، يقولون إن الأواني الفخارية لم تعد تهم أحداً، ولا أحد يريدنا، وبالتالي لم تعد هناك حاجة إلينا نحن أنفسنا كذلك، إننا جفنة مشروخة لم تعد تستحق إضاعة الوقت في وضع مشابك تثبيت لها، لقد كنت أوفر حظاً وأنت حية. تشكلت في دروب المقبرة

الضيقة برك ماء صغيرة، العشب ينمو فى كل الأنحاء،
لن تكون ثمة حاجة إلى مئة سنة كيلا يعود أحد يعرف
من هو المدفون تحت أكوام الوحل تلك، وحتى لو عُرف
ذلك، فمن المشكوك فيه أن يكون لمعرفته أهمية
حقيقية، فالأموات، وقد قال هذا أحدهم من قبل، هم
مثل أطباق مشروخة ليس فيها ما يستحق أن تُثبت
بتلك المشابك الحديدية التى لم تعد تستعمل، وكانت
توحد ما كُسر وانفصل، أو مشابك الذاكرة والحنين،
فى هذه الحالة وبشرح التشبيه بكلمات أخرى. اقترب
سيبريانو أَلجور من قبر امرأته، إنها هناك تحت منذ
ثلاث سنوات، ثلاث سنوات دون أن تظهر فى أى
مكان، لا فى البيت، ولا فى مشغل الفخار، ولا فى
السريـر، ولا فى ظل شجرة التوت، ولا تحت شمس
حفرة الصلصال الحارقة، لم تعد للجلوس إلى منضدة
العمل ولا إلى دولاب التدوير، لم تعد تسحب الرماد
المتساقط من بين حدائد الفرن، ولا تُقلب القطع التى
تجف، ولا تقشر البطاطس، ولا تعجن الصلصال، ولا
تقول، هكذا هى الأمور يا سيبريانو، ليس لدى الحياة
سوى يومين تمنحك إياهما، وهناك أناس كثيرون لم
يعيشوا سوى يوم ونصف يوم فقط، وآخرون لم
يحصلوا حتى على هذا، ها أنت ترى أنه لا يمكننا
الشكوى. لم يبق سيبريانو أَلجور أكثر من ثلاث دقائق،
فقد كان لديه ما يكفى من الذكاء، لا يحتاج معه لأن
يقال له إن المهم ليس البقاء واقفاً هناك، بصلوات أو
دون صلوات، ناظراً إلى قبر، إنما المهم هو المجيء،

المهم هو الطريق الذى قطعه، المسافة التى مشاها، وإذا كنت واعياً أنك تطيل التأمل فلأنك تراقب نفسك، أو لأنك، وهذا أسوأ، تأمل أن يراقبك. بالمقارنة مع سرعة التفكير الخاطف الذى يمضى فى خط مستقيم حتى عندما يبدو أنه فقد الوجهة، ونؤمن به لأننا لا ننتبه إلى أنه، حين يركض فى اتجاه ما، يكون آخذاً فى التقدم فى كل الاتجاهات، وبمقارنته، كما كنا نقول، نجد أن الكلمة البائسة بحاجة دوماً إلى طلب الإذن من إحدى الساقين لكى تجعل الساق الأخرى تمشى، وحتى فى هذه الحالة تتعثر باستمرار، تتردد، تتلهى بالدوران حول نعت، حول زمن فعل يبرز دون أن يتيح للشخص الإعلان عنه، ولا بد أن هذا هو السبب فى أن الوقت لم يسمح لسيبريانو ألبور بأن يقول لامرأته كل ما جاء وهو يفكر فيه عن أنه ليس عدلاً، يا جوستا، ما فعلوه بى، ولكن ربما تكون التتمتات التى نسمعها الآن، بينما هو يمشى باتجاه مخرج المقبرة، هى بالتحديد ما جاء ليقوله لها. وكان قد بدأ المشى صامتاً عندما التقى بامرأة ترتدى السواد داخلة إلى المقبرة، هكذا كانت الأمور على الدوام، البعض يأتون، وآخرون يذهبون، قالت له، مساء الخير يا سيد سيبريانو، التعامل باحترام له ما يبرره سواء بالنظر إلى اختلاف الأجيال أو بسبب العادة الريفية، ويردّ هو، مساء الخير، وإذا لم يقل اسمها فليس جهلاً منه، وإنما للظن بأن هذه المرأة التى بملابس حداد كاملة على زوجها لن يكون

لها دور فى الأحداث المستقبلية القاتمة التى يُبشر بها
ولا فى العلاقة التى تنتج عنها، وإن يكن من الصحيح
كذلك أنها، هى على الأقل، تنوى المجيء غداً من
مشغل الفخار لتشتري إبريقاً، حسب ما أعلنت،
سأذهب غداً لشراء إبريق، وعسى أن يكون أفضل من
الأخير الذى بقى مقبضه عالقاً فى يدي حين رفعته،
وتفتت نتفاً وأغرق لى المطبخ كله، تصور كيف كان
ذلك، صحيح أن للإبريق المسكين، كى نكون صريحين،
عمرأ محدوداً، ورد سيبريانو ألبور، لا حاجة بك
للذهاب إلى مشغل الفخار، أنا سأتيك بإبريق جديد
بدلاً من المكسور، وليس عليك أن تدفعى ثمنه، إنه
هدية من المشغل، أتقول هذا لأنى أرملة، سألت المرأة،
لا، يا للفكرة، إنه مجرد مقدمة وحسب، لدينا كمية من
الأباريق ربما لن نتمكن من بيعها أبداً، إذا كان الأمر
كذلك، فسوف أكون شاكرة جداً لك يا سيد سيبريانو،
لا شىء يستحق الشكر، إبريق جديد هو شىء على أى
حال، أجل، ولكنه ما تقولينه وحسب، مجرد شىء، إلى
اللقاء غداً إذاً، سأنتظرك، وشكراً جزيلاً مرة أخرى،
إلى اللقاء غداً. والآن لا بأس، بينما التفكير يركض
بصورة متزامنة فى كل الاتجاهات، مثلما بيّننا بوضوح
من قبل، وتتقدم معه فى الوقت نفسه المشاعر، يجب
ألا يفاجئنا أن رضا الأرملة عن تلقى إبريق جديد دون
حاجة لأن تدفع ثمنه كان السبب فى أن يخف من
لحظة إلى أخرى الاستياء الذى دفعها إلى الخروج من
البيت فى مساء بالغ الكآبة لكى تزور مستقر زوجها

الأخير. وبالرغم من أننا ما زلنا نراها متوقفة عند مدخل المقبرة، وبالرغم من أنها سعيدة فى أعماقها كربة بيت بالهدية غير المتوقعة، إلا أنها لن تتخلى طبعاً عن الذهاب إلى حيث يدعوها الحداد والواجب، ولكنها عندما تصل، ربما لن تبكى كثيراً بقدر ما فكرت فيه من قبل. بدأ الظلام يطفى على المساء ببطء، وبدأت بالظهور بعض الأنوار الباهتة داخل البيوت المجاورة للمقبرة، لكن الغسق سيستمر وقتاً كافياً تتمكن فيه المرأة من أن تردد دون خوف من النار الكاذبة أو من الأرواح الهائمة صلاة «أبانا الذى فى السماء» «ويا قديسة مريم، فليبق فى أمانك وليرقد فى سلامك».

حين انعطف سيبريانو ألاجور عند الناصية الأخيرة فى القرية ونظر باتجاه المكان الذى يقوم فيه مشغل الفخار، رأى النور الخارجى مضاء، مصباح قديم ذو قفص معدنى معلق فوق باب المسكن، ومع أن ليلة واحدة لم تكن تمضى دون إشعاله، إلا أنه أحس هذه المرة بنشوة فى قلبه وطمأنينة فى معنوياته، كما لو أن البيت يقول له، إننى بانتظارك. لمست وجهه بضع قطرات تكاد تكون غير محسوسة، محمولة وآتية على طعم تموجات غير مرئية يحركها الهواء. مازال هناك متسع من الوقت قبل أن تبدأ طاحونة الغيوم بنخل دقيقتها المائى، ولا أدرى، مع كل هذه الرطوبة، متى سنتمكن من رؤية قطع الخزف تجف. ربما بتأثير وداعة الغسق، أو الزيارة الاستحضارية القصيرة إلى

المقبرة، أو حتى ما سيكون تعويضاً عملياً عن كرمه حين قال للمرأة التي بملابس الحداد إنه سيهدى إليها إبريقاً جديداً، لم يكن سيبريانو ألاجور يفكر، فى هذه اللحظة، فى خيبات عدم الريح ولا فى مخاوف الوصول إلى الخسارة. فى ساعة مثل هذه، عندما تطأ الأرض المبللة وتكون أول أقدام السماء قريبة من رأسك، لا يبدو ممكناً أن يقولوا لك أشياء سخيفة مثل إنه عليك أن ترجع ومعك نصف الحمولة أو إن ابنتك ستتركك وحيداً فى أحد هذه الأيام. وصل صانع الخزف إلى نهاية الطريق وتنفس بعمق. شجرة التوت التى تشق خلفية ستارة الغيوم الرمادية، تبدو شديدة السواد مثلما يستدعى اسمها نفسه. ضوء المصباح لا يصل إلى ذروتها، ولا يلامس حتى أوراق أكثر الأغصان انخفاضاً، وإنما ضوء شاحب يمتد على الأرض فقط إلى أن تلامس تقريباً جذع الشجرة الثخين. كوخ الكلب القديم موجود هناك، وهو خاوٍ منذ سنوات، مذمات ساكنه الأخير بين ذراعى جوستا، وقالت لزوجها آنذاك، لا أريد واحداً من هذه الحيوانات بعد اليوم فى بيتى. تحرك فى مدخل الكوخ الصغير المظلم وميضاً، واختفى على الفور. أراد سيبريانو ألاجور أن يعرف ما ذلك الشيء، انحنى ليمعن النظر بعد أن خطا بضع خطوات إلى الأمام. كان الظلام فى الداخل دامساً. أدرك أنه يحجب بجسده نور المصباح، فانحرف جانباً بعض الشيء. كان هناك وميضان اثنان، إنهما عينان، أهو كلب، أم أنه

رياح(*) لكن الاحتمال الأكبر أنه كلب، فكر صانع
الفضار، ولا بد أنه كان مصيباً، فمن جنس تلك
الحيوانات الذئبية لم تبق ولو ذكرى في هذه المناطق،
وعيون القطط، سواء الداجنة منها أو البرية، مثلما
يتوجب على أى شخص أن يعرف، هي عيون هررة
على الدوام، وفي أقصى تقدير، يمكن الخلط، في
أسوأ الاحتمالات، بينها وبين عيون النمر، ولكن من
الواضح أنه لا يمكن لنمر بالغ أن يحشر نفسه في
كوخ بهذا الحجم. لم يتكلم سيبريانو الجور عن ققط
ولا عن نمر عندما دخل إلى البيت، كما لم يقل كلمة
واحدة عن ذهابه إلى المقبرة، أما عن الإبريق الذى
سيهديه إلى المرأة ذات ملابس الحداد، فمن المفهوم
أنه ليس موضوعاً مناسباً للنقاش في هذه اللحظة،
ولهذا لم يقل لابنته سوى، هناك كلب في الخارج،
صمت قليلاً، كما لو أنه ينتظر جواباً، وأضاف، تحت
شجرة التوت، في الكوخ. كانت مارتا قد انتهت من
الاغتسال واستبدال ملابسها، وكانت تجلس لتستريح
قليلاً قبل أن تبدأ بإعداد العشاء، ولهذا لم تكن في
أفضل حالات الاستعداد للاهتمام بالأماكن التى تمر
أو تتوقف فيها الكلاب الهاربة أو المهجورة فى
تشردها، فقالت، من الأفضل تركه، إذا كان حيواناً
من تلك التى لا تحب التنقل ليلاً، فسوف يذهب فى
الغد، أ لديك شىء يمكننى أخذه إليه، سألها الأب،
بعض بقايا الغداء وقطع من الخبز، أما الماء فلن
(* زريقاء: جنس حيوانات لاحمة لها حجم النهر. (Jineta).

يحتاج إليه لأن الكثير منه هطل من السماء، سأحمل الطعام إليه، مثلما تريد يا أبى، ولكن عليك أن تضع فى الاعتبار أنه لن يبتعد عندئذ عن الباب أبداً، أفترض ذلك، ولو أننى كنتُ مكانه لفعلت الشيء نفسه. أُلقت مارتا بقايا الطعام فى طبق قديم كانت تضعه تحت المصطبة الملاصقة للجدار، وفتت فوقه كسرة خبز يابس، وتبلت ذلك كله بقليل من المرق، ها هو ذا، وسجّل عندك أن هذه هى البداية فقط. تناول سيبريانو ألجور الطبق، وكانت إحدى قدميه قد صارت خارج المطبخ عندما سألته ابنته، هل تتذكر أن أمى قالت حين مات كونستانتي إنها لا تريد كلباً آخر فى البيت، أجل، أتذكرُ ذلك، ولكننى أراهن بأنها لو كانت على قيد الحياة، فلن يكون أبوك هو من يحمل هذا الطبق إلى الكلب الذى لم تكن تريده، أجاب سيبريانو ألجور، وخرج دون أن يتاح له سماع دمدمة ابنته، ربما لن تنقصه المسوغات. كان المطر قد عاد للهطول، وكان الرذاذ المخادع نفسه، غبار الماء المتراقص نفسه الذى يسبب اختلاط المسافات، بما فى ذلك هيئة الفرن الضاربة إلى البياض تبدو كما لو أنها مصرة على الذهاب فى اتجاهات أخرى، وهذه الشاحنة تبدو أشبه بعربة مآتمية منها بسيارة حديثة ذات محرك انفجارى، وإن لم تكن من طراز جديد، مثلما عرفنا من قبل. وتحت شجرة التوت، كان الماء ينزلق عن الأوراق بقطرات كبيرة ومتفرقة فى لطمات، الآن واحدة، وأخرى بعد ذلك، كما لو أن قوانين

هيدروليكا السوائل وديناميتها، السائدة خارج مظلة الشجرة غير المأمونة، لا تنطبق على هذا المكان. وضع سيبريانو ألجور طبق الطعام على الأرض، تراجع ثلاث خطوات، ولكن الكلب لم يخرج من الملاذ، هن المستحيل ألا تكون جائعاً، قال صانع الفخار، أو ربما أنت من تلك الكلاب التي تحترم نفسها، ربما لا تريدني أن أرى الجوع الذي تعانيه. انتظر دقيقة، ثم انسحب بعد ذلك ودخل إلى البيت، ولكنه لم يغلّق الباب بالكامل. كانت الرؤية ضعيفة من خلال الفجوة، ولكنه استطاع مع ذلك أن يميز كتلة سوداء تخرج من الوكر وتدنو من الطبق، ورأى كذلك أن الكلب، فقد كان كلباً، وليس ذئباً ولا قطاً، قد نظر أولاً باتجاه البيت، وبعد ذلك فقط، أخفض رأسه إلى الطعام، كما لو أنه يقدر بأنه مدين بهذا الاعتراف بالجميل لمن جاء تحت المطر متحدياً سوء الطقس، ليقتل جوعه. أكمل سيبريانو ألجور إغلاق الباب وتوجه إلى المطبخ، إنه يأكل، قال، إذا كان جائعاً جداً، فلا بد أن يكون قد أكل كل شيء، ردّت مارتا باسمّة، وابتسم الأب أيضاً، هذا مؤكد، إذا كانت كلاب هذه الأيام مثل الكلاب في السابق. كان العشاء بسيطاً، وخلال وقت قصير صار على المنضدة. وعندما انتهيا، قالت مارتا، يوم آخر يمضى دون أخبار من مرسيال، لست أفهم لماذا لا يُتلفن، لا أحد يطلب منه خطبة مطولة، ربما لم يستطع التكلم مع المدير، فليخبرنا إذاً بأنه لم يستطع، الأمور ليست بهذه البساطة هناك، وأنت

تعرفين ذلك جيداً، قال صانع الفخار بنبرة مصالحة غير متوقعة. نظرت إليه الابنة وقد فوجئت بنبرة صوته أكثر من مفاجأتها بمعنى كلماته، ليس من عادتك الصفع عن مرسيال أو تبرير أعماله، قالت، أنا أقدره، أنت تقدره ولكنك لا تأخذه على محمل الجد، من لا أستطيع أخذه على محمل الجد هو الحارس الذى تحول إليه الفتى اللطيف والمرح الذى كنتُ أعرفه، إنه الآن رجل لطيف ومرح، ومهنة الحارس ليست طريقة فى الحياة أقل وقاراً ونزاهة من أى مهنة محترمة ونزيهة أخرى، ليست مثل أى مهنة أخرى، وأين هو الفرق، الفرق هو فى أن مرسيالك، مثلما نعرفه الآن، هو الحارس بالكامل، حارس من قدميه حتى رأسه، ويراودنى الشك فى أنه حارس حتى فى قلبه، أرجوك يا أبى، لا يمكن التحدث هكذا عن زوج ابنتك، معك حق، اعذرينى، فالיום يجب ألا يكون يوم عتاب أو تأنيب، ولماذا اليوم، لقد ذهبتُ إلى المقبرة، وأهديت إبيريقاً لإحدى الجارات، ولدينا كلب هناك فى الخارج، وجميعها أحداث بالغة الأهمية، ما هى مسألة الإبيريق هذه، لقد كُسر الإبيريق ولم تبق سوى قبضته فى يدها، هذه أمور تحدث، فلا شىء خالد، ولكنها كانت من اللياقة بحيث اعترفت بأنه إبيريق قديم، ولهذا فكرتُ فى أنه على أن أقدم لها واحداً جديداً، فلنفترض أن الإبيريق القديم كان فيه عيب من الصنعة، أو أنه لا حاجة إلى الافتراض، فالهدية هى الهدية، وهناك دائماً فائض من

المسوغات، ومن هي هذه الجارة، إنها إساورا
إستوديوسا، تلك التي ترملت منذ شهور، إنها امرأة
فتية، لست أفكر في الزواج ثانية إذا كان هذا هو ما
تفكرين فيه، أجل لقد فكرتُ في الأمر، لقد لاحظتُ
ذلك، وربما كان عليك أن تفعل، فهي الطريقة المناسبة
كيلا تظل وحيداً هنا، لأنك مصمم على عدم الذهاب
للعيش معنا في المركز، أكرر أنني لا أنوى الزواج،
وأقل من ذلك الزواج من أول امرأة تظهر، أما بالنسبة
للأمر الآخر، فأرجوكِ ألا تفسدي على ليلتي، المعذرة
يا أبتاه، لم تكن هذه هي نيتي. نهضت مارتا، حملت
الأطباق وأدوات الطعام، ثم طوت شرشف المائدة وفق
خط الطي المُعَلَّم وكذلك الفوطتين. مخطئ جداً من
يعتقد أن عمل صانع الفخار، حتى لو لم يكن عملاً
دقيقاً كما هو في هذه الحالة، وحتى لو كان يُمارس
في قرية صغيرة بلا جاذبية، مثلما لاحظنا عليه هذه
القرية، هو عمل لا يمكن له المنافسة في رقة الأسلوب
والذوق اللذين يميزان الطبقات الراقية الحالية التي
نسيت أو تجاهلت منذ الولادة فظاظة أجداد
أجدادهما وبهيمية أجداد أجدادهما، فآل الجور
هؤلاء هم أناس يتعلمون جيداً ما يُعَلَّم إليهم وقادرون
على استخدامه فيما بعد من أجل تعلّم أفضل، ولأن
مارتا هي الأخيرة في السلالة، فقد حظيت بمساعدة
على التطور، وأفادت من حسن طالعها الكبير في
الذهاب للدراسة في المدينة، إذ لا بد للمراكز
العمرانية الكبرى من أن تفيد القرية في شيء ما.

وإذا كانت قد انتهت إلى التحول إلى صانعة فخار،
فإنما السبب هو ميل واع وظاهر إلى أن تكون صانعة
تماثيل، وإن كان قد أثر كذلك في قرارها واقع أنه لا
وجود في الأسرة لأخوة لها يواصلون التقليد الأسرى،
وهذا دون نسيان، سبب ثالث وسام، الحب البنوي
القوى الذي لم يكن ليتيح لها أبداً ترك أبويها لمشيئة -
الرب - ثم - بعد - ذلك - نرى عندما يصيران عجوزين.
أشعل سيبريانو ألاجور التلفاز، ولكنه أطفأه بعد قليل،
ولو أن أحداً طلب منه في تلك اللحظة أن يخبره بما
رآه وسمعه ما بين حركتي إشعال الجهاز وإطفائه، لما
عرف بما يردّ، ولكنه لن يقرّ ذلك ببساطة إذا ما كان
السؤال بصيغة أخرى، بماذا تفكر حتى تبدو شارداً
الذهن إلى هذا الحد. سوف يقول لا يا سيدي، يا
للفكرة، فأنا لم أكن شارداً الذهن، لمجرد ألا يعترف
بطفولية إحساسه بالقلق على الكلب، إن كان قد أوى
إلى الكوخ أم أنه، بعد أن أشبع معدته واستعاد قواه،
واصل رحلته بحثاً عن طعام أفضل أو عن سيد يعيش
في مكان أقل تعرضاً للرياح الهوجاء والأمطار
اللجوجة. إنني ذاهبة إلى غرفتي، قالت مارتا، لقد
بدأت العادة تستحوذ عليّ، وأنا أيضاً لن أتأخر طويلاً،
قال الأب، لأنني متعب دون أن أقوم بأي عمل، لقد
عجنت الصلصال وتفحصت الفرن، إنه عمل، أنت
تعرفين جيداً مثلما أعرف أنه سيكون لا بد من إعادة
عجن ذلك الصلصال مرة أخرى، والفرن لم يكن
بحاجة إلى عمل بناءً، وأقل من ذلك إلى رعاية

مرضعة، الأيام كلها متشابهة، أما الساعات فلا، فعندما تصل الأيام إلى نهايتها تكون ساعاتها الأربع والعشرون قد اكتملت على الدوام، وإن لم يكن ضمنها أى شىء، ولكن ليست هذه هي حال ساعاتك ولا أيامك، هارتا فيلسوفة الزمن، قال الأب، وطبع قبلة على جبهتها. ردت إليه الابنة إيماءته الحانية وقالت مبتسمة، لا تتس أن تذهب لترى كيف هو كلبك، إنه لا يزال مجرد كلب عابر وأعتقد أن الكوخ يناسبه للاحتماء من المطر، ربما يكون مريضاً أو جريحاً، وربما يحمل فى طوقه رقم هاتف الشخص الذى يجب الاتصال به، ربما هو لأحد من القرية، وقد يكون هرب لأنهم يضربونه هناك، إذا كان الأمر كذلك، فلن يكون هنا غداً صباحاً، أنت تعرفين كيف هي الكلاب، فالسيد هو السيد دائماً حتى عندما يعاقب، ولهذا لا تستبقى الأمور بالقول إنه كلبى، فأنا لم أتمكن حتى من رؤيته، ولا أدري إذا ما كان يعجبني، أنت تعرف أنك تريد أن يعجبك، وهذا شىء ما، أنت تخرجين لى الآن فيلسوفة مشاعر، يقول الأب، إذا افترضنا أنك ستحتفظ بالكلب، فأى اسم ستطلقه عليه، سألت هارتا، هازال الوقت مبكراً للتفكير بهذا، إذا ما بقى هنا حتى الصباح، يجب أن تكون هذه هي أول كلمة يسمعا من فمك، لن أسميه كونستانتى، فقد كان اسم كلب لن يرجع إلى صاحبه، ولن يجدها إذا ما رجع، ربما سأسميه «ضائع» الاسم يناسبه تماماً، وهناك اسم يناسبه أفضل، ما هو، «لقية» ولكن

لقية ليس اسم كلب، ولا ضائع كذلك، أجل، أرى أنها فكرة جيدة، كان ضائعاً ثم عُثر عليه، هذا سيكون اسمه، طاببت ليلتك يا أبتاه، وأرجو لكَ نوماً هادئاً، طاببت ليلتك، لا تظلى تخيطين حتى وقت متأخر، عليك أن تنتبهي إلى عينيك. بعد أن انسحبت الابنة، فتح سيبريانو أَلجور الباب المؤدى إلى الخارج، نظر باتجاه شجرة التوت. كان المطر اللجوج يواصل الهطول ولم تكن تُلمح إشارة حياة داخل الكوخ. أما زال هناك، تساءل صانع الفخار. وقدم لنفسه سبباً زائفاً لعدم الذهاب للنظر، هذا ما كان ينقصنى، أن أبلل نفسى من أجل كلب متشرد، يكفى مرة واحدة. انزوى فى حجرته، واضطجع، ومع ذلك ظل يقرأ نصف ساعة أخرى، ولكنه نام أخيراً. وفى منتصف الليل، استيقظ، أشعل النور، كانت ساعة الكوميدينو تشير إلى الرابعة والنصف. نهض، تناول مصباح بطارية يحتفظ به فى درجه، وفتح النافذة. كان المطر قد توقف، وكانت تظهر بعض النجوم فى السماء القاتمة. أضاء سيبريانو أَلجور المصباح اليدوى ووجه بؤرته نحو الكوخ. لم يكن الضوء قوياً بما يكفى لرؤية ما فى الداخل، لكن سيبريانو أَلجور لم يكن بحاجة إلى كل ذلك، كان يكفيه رؤية نقطتين متالأثنتين، عينين، وقد كانتا هناك.

منذ أن أعادوه إلى البيت مع نصف الحمولة التي ما زالت، نقول ذلك بين معترضتين، حتى الآن فى الشاحنة، تحول سيبريانو ألبور بين لحظة وأخرى، إلى شخص غير جدير بسمعة الصانع المبكر التي اكتسبها على امتداد حياة من العمل الكثير والإجازات القليلة. لقد صار ينهض والشمس طالعة، يغتسل ويحلق ذقنه ببطء أكبر من اللازم لوجه حليق وجسم معتاد على النظافة، يتناول قليلاً من الطعام على الفطور ولكن بصورة متقطعة وأخيراً، دون إضافة ظاهرة إلى قلة الحماسة التي يغادر بها السرير، يذهب إلى العمل. أما اليوم مع ذلك، وبعد قضاء بقية الليلة وهو يحلم بنمر يأتى ليأكل من يده، غادر الملاءات عندما بدأت الشمس تلون السماء. لم يفتح النافذة، وإنما اكتفى بفتح الستارة قليلاً ليرى كيف هو الطقس، كان هذا ما فكر فيه، أو أراد التفكير فى أنه يفكر فيه، مع أنه لم يكن معتاداً على عمل ذلك، فهذا الرجل قد عاش أكثر مما يكفى ليعرف أن الطقس دوماً، سواء أكان مشمساً مثلما يعد اليوم، أم مائطراً

مثلاً كان البارحة، فإننا فى الواقع عندما نفتح نافذة ونرفع أنفنا نحو الفضاءات العليا فإنما نفعل ذلك للتأكد فقط من أن الطقس سيكون مثلاً نرغب فيه. وعندما تفحص سيبريانو ألبور الخارج كان يريد، دون ديباجات منه أو من سواه، أن يعرف إذا ما كان الكلب لا يزال ينتظر منحه اسماً آخر، أم أنه تعب من الانتظار المحيط، وانصرف للبحث عن سيد أكثر اهتماماً. لم يكن يظهر منه تقريباً سوى مقدمة وجهه القابع فوق القائمتين الأماميتين المتقاطعتين وأذنيه المتهدلتين، إنما لم يكن هناك مكان للخشية من ألا تكون بقية جسمه هناك داخل الكوخ الصغير. إنه أسود، قال سيبريانو ألبور. وكان قد بدا له، عندما حمل الطعام للحيوان، أن هذا هو لونه، أو هكذا خيل إليه مثلاً يؤكد كثيرون، وإذا كانت حتى القطط البيضاء تبدو رمادية فى الليل، فإن الشئ نفسه، أو أكثر قتامة، يمكن أن يقال عن كلب يرى أول مرة تحت شجرة توت بينما مطر مَلح ولىلى يحلل الخط الفاصل بين الكائنات والأشياء، ويقربها، أى الكائنات، من الأشياء التى ستتحول إليها عاجلاً أو آجلاً. الكلب ليس أسود فى الواقع، بل يكاد يصل إلى هذا اللون فى مقدمة وجهه وأذنيه، أما بقية ما يظهر منه فيشير إلى لون رمادى عام، مع خصلات تتدرج فى تلوّن يزداد قتامة حتى بلوغ الأسود الفاحم. وصانع خزف فى الرابعة والستين من عمره يعانى مشاكل النظر التى يسببها التقدم فى السن على الدوام، واضطر إلى التخلّى عن استخدام نظارة بسبب حرارة الفرن، لا

يمكن لومه لأنه قال، إنه أسود، لاسيما وأن الوقت كان ليلاً وماطراً، وبُعد المسافة الآن يجعل شفق الصباح ضبابياً. عندما اقترب سيبريانو أَلجور أخيراً من الكلب رأى أنه لا يمكنه أن يكرر أبداً القول إنه أسود، ولكنه سيخطئ خطأ جسيماً كذلك إذا ما أكد أنه رمادى، وسيكون خطؤه أكبر كثيراً عندما يكتشف أن لطخة طويلة بيضاء، مثل ربطة عنق دقيقة تمتد على صدر الكلب نزولاً حتى بداية البطن، استيقظ يا أبتاه، الكلب ينتظر، إننى مستيقظ، سأذهب حالاً، أجاها سيبريانو أَلجور، ولكنه ندم على الفور لخروج الكلمتين الأخيرتين منه، بدا له صبيانياً وشبه مضحك، أن يبتهج رجل فى سنه مثل طفل جاءوا له بلعبة حلم بها، بينما جميعنا نعرف أن أى كلب فى أمكنة مثل هذا المكان يكون محل تقدير أكبر كلما أثبت فائدته العملية، وهى فضيلة لا تحتاج إليها الدمى، وأما بالنسبة للأحلام، إذا كان الأمر يتعلق بتحققها، فلن يكون الكلب كافياً لمن أمضى الليل يحلم بنمر. وبالرغم من أنه سيؤنب نفسه بعد ذلك على تسرعه، فإن سيبريانو أَلجور لن يضيع الوقت هذا الصباح فى نظافته وهندامه، إذ ارتدى ملابسه بسرعة وخرج من الحجرة. سألته مارتا، هل تريد أن أجهز له شيئاً يأكله، فيما بعد، لأن الطعام سيشغله الآن، هيا اذهب إذن لترويض الضارى، إنه ليس ضارياً بأى حال، مجرد حيوان مسكين، كنت أراقبه من النافذة، وأنا أيضاً رأيتَه، وكيف بدا لك، لا أظن أنه لأحد من الجوار، هناك كلاب لا تخرج أبداً من فناء بيوت

أصحابها، تعيش وتموت فيها، إلا فى حالات إخراجها إلى البرية لشنقها على غصن شجرة أو الإجهاز عليها بشحنة رصاص فى الرأس، سماع هذا الكلام ليس بالطريقة المناسبة لبدء نهار جديد، إنها غير مناسبة بالفعل، فلنبدأه إذاً بطريقة أقل إنسانية، لكنها أكثر رحمة، قال سيبريانو ألبور وهو يخرج إلى الفناء الخارجى. لم تلحق به ابنته، بل ظلت بين البابين، إنها حفلة، فكرت. تقدم صانع الخزف بضع خطوات، وبصوت واضح، قوى، ولكنه غير صارخ، نطق الاسم المختار، لقيه. كان الكلب قد رفع رأسه حين رآه، والآن، سمع أخيراً الاسم الذى كان ينتظره، خرج من الكوخ بكامل جسده، ليس كلباً كبيراً ولا صغيراً، إنه حيوان فتى، رشيق، وبره أجعد، رمادى حقاً، ومائل إلى السواد حقاً، مع اللطخة الرفيعة البيضاء التى تقسم الصدر إلى نصفين وتبدو مثل ربطة عنق. لقيه، كرر الخزاف وهو يتقدم خطوتين أخريين، لقيه، تعال إلى. ظل الكلب فى مكانه، محتفظاً برأسه عالياً وهو يهز ذيله ببطء، ولكنه لم يتحرك. عندئذ انحنى الخزاف لتصبح عيناه فى مستوى عيني الحيوان، وعاد يقول، هذه المرة بنبرة تهديدية، قوية كما لو أنها تعبير عن حاجة شخصية خاصة به، لقيه. تقدم الكلب خطوة، وخطوة أخرى، ثم أخرى، دون أن يتوقف إلى أن صار فى متناول ذراع من يناديه. مدّ سيبريانو ألبور يده اليمنى حتى كادت تلامس أنفه. شمها الكلب عدة مرات، وبعد ذلك مطّ عنقه، ولمس أنفه البارد الأصابع التى تستدعيه. تقدمت يد الخزاف ببطء حتى الأذن

الأقرب وداعتها. تقدم الكلب الخطوة المتبقية، لقية، لقية، قال سيبريانو ألبور، لا أعرف أى اسم كان لك من قبل، ومنذ الآن صار اسمك لقية. وفى هذه اللحظة انتبه إلى أن الحيوان بلا قلادة وأن شعره ليس رمادياً فقط، بل ومُتسخا بالوحل وبفضلات نباتية، وخاصة على القوائم والبطن، وهى إشارة أكثر من محتملة إلى اجتيازه مناطق زراعية قاسية وأراضى خلاء موحلة، وأنه لم يتنقل براحة عبر طرق معبدة. كانت مارتا تقترب حاملة طبقةً فيه قليل من الطعام للكلب، لا شىء من المبالغة، وإنما ما يكفى لتأكيد اللقاء والاحتفال بالتعميد، قدميه أنت له، قال أبوها. ولكنها أجابت، قدمه له أنت، ستتوافر لى فرص كثيرة لإطعامه. وضع سيبريانو ألبور الطبق على الأرض، ونهض بعد ذلك بصعوبة، آى، ركبته، كم أقدم مقابل العودة ولو إلى ما قبل السنتين الماضيتين، وهل الفرق كبير إلى هذا الحد، فى هذا المستوى من الحياة يُلاحظ الفرق حتى فى يوم واحد، وما ينجينا هو أن الفرق يبدو أحياناً نحو الأفضل. أما الكلب لقية، وقد صار له الآن اسم ولا يتوجب علينا استخدام أى تسمية أخرى له، سواء تسمية كلب التى قدمناها على الاسم بحكم العادة، أو تسمية حيوان أو كائن التى تنفع لكل شىء لا يشكل جزءاً من مملكة النبات أو الجماد، وإن كنا لا نتمكن أحياناً من الهروب من هذه التتويجات، لتجنب التكرار الممل، وهو السبب الوحيد الذى جعلنا نكتب تسميات الخزّاف، والرجل، والعجوز، وأبى مارتا بدلاً من اسم سيبريانو ألبور.

والآن، ومثلما كنا نقول، أجهز الكلب لقيه، بعد لحستين سريعتين، على الطعام الذى فى الطبق، مما يدل على أنه لم يُشبع تماماً جوع الأمس، رفع رأسه كمن ينتظر وجبة جديدة، أو هذا على الأقل ما فسرتة إيماءة مارتا، ولهذا قالت، اصبر، الغداء يأتى فيما بعد، وحتى يحين الوقت ألهى معدتك بما حصلت عليه، لقد كان حكمها متسرعاً، مثلما يحدث بكثرة فى أدمغة البشر، فعلى الرغم من الشهية المتبقية، والتي لا يمكن إنكارها، لم يكن الطعام هو ما يهم لقيه فى تلك اللحظة، فما يريد هو أن يشيروا إليه بما عليه أن يفعله فيما بعد. كان ظمآن، وكان يمكن له بكل وضوح أن يروى ظمأه من أى واحدة من برك الماء الكثيرة التى خلفها المطر حول البيت، ولكن كان يكبحه شىء، لو كنا نتكلم عن مشاعر البشر، لما ترددنا فى تسميته التحرج أو أساليب التهذب. فإذا كانوا قد وضعوا له الطعام فى طبق، وإذا كانوا لا يريدون له أن يتناوله بفظاظة عن وحل الأرض، فلأن الماء أيضاً يجب تناوله من إناء مناسب. لا بد أنه ظمآن، قالت مارتا، فالكلاب تحتاج إلى ماء كثير، لديه برك الماء هذه، أجاب أبوها، وهو لا يشرب منها لأنه لا يريد الشرب، إذا كنا سنستبقيه عندنا فلا أدري لماذا عليه أن يشرب ماء مستنقعات كمن ليس له مكان أو بيت، الواجبات واجبات. وبينما كان سيبريانو ألجور منهمكاً فى نطق عبارات متفرقة، لا معنى لها تقريباً، والهدف الوحيد منها تعويد الكلب على وقع صوته، ولكنه يتعمد فيها ذكر كلمة لقيه وتكرارها بالبحاح، أحضرت مارتا

إناء من فخار مملوءاً بماء نظيف، ووضعتة إلى جانب الكوخ الصغير. وبتحد للشعوذات المسوغة تماماً بعد مئات القصص المقروءة أو المسموعة عن الحياة المثالية للكلاب ومعجزاتها، يتوجب علينا أن نقول إن لقيه قد فاجأ صاحبيه الجديدين مرة أخرى ببقائه حيث هو، وجهاً لوجه مع سيبريانو ألبور، منتظراً حسب كل المؤشرات، أن يصل هذا إلى نهاية ما يريد قوله له. وعندما صمت الخزاف فقط وأوماً له مودعاً، استدار الكلب وذهب ليشرب. لم أر في حياتي كلباً يتصرف بهذه الطريقة، أبدت مارتا ملاحظتها، فأجاب أبوها، السيئ في الأمر، بعد هذا كله، أن يأتي من يقول لنا إن الكلب له، لا أظن أن ذلك سيحدث، بل إنني مستعدة لأن أقسم إن لقيه ليس من هنا، فكلاب القطعان وكلاب الحراسة لا تفعل ما فعله هذا الكلب، بعد تناول الفطور سأقوم بجولة للسؤال، وأنتهز الفرصة لتأخذ الإبريق للجارا إساورا، قالت مارتا، دون أن تزعج نفسها بمواراة ابتسامتها، هذا ما فكرتُ فيه، مثلما كان يقول جدي، لا تؤجل إلى المساء ما يمكنك عمله في الصباح، أجابها سيبريانو ألبور بينما هو ينظر إلى الجهة الأخرى. انتهى لقيه من شرب الماء، ولأن أياً من ذينك الشخصين لم يبد ما يشير إلى الاهتمام به، فقد ربض عند مدخل الكوخ الصغير حيث الأرض أقل تبللاً.

بعد تناول الفطور، اختار سيبريانو ألبور إبريقاً من مخزن الأعمال الجاهزة، ووضعه بعناية في الشاحنة، مثبتاً إياه بين صناديق الأطباق كيلا

يتدحرج، ثم دخل بعد ذلك، وجلس وشغل المحرك. رفع لقية رأسه، وكانت إشارة إلى أنه لا يجهل أن ضجة مثل هذه يتلوها على الدوام ابتعاد، يليه بعد ذلك اختفاء، غير أن تجاربه السابقة في الحياة تذكره دون ريب بأن هناك طريقة تحول، في بعض الأحيان، دون حدوث تلك المصائب. انتصب على قوائمه الطويلة، حرك ذيله بقوة كما لو أنه يهز عصا، ولأول مرة منذ جاء طالباً ملجأً، نبح لقية. قاد سيبريانو ألبور الشاحنة ببطء باتجاه شجرة التوت وتوقف على مسافة قصيرة من الكوخ الصغير. اعتقد أنه فهم ما الذى يأمل به لقية. فتح باب الجانب الآخر وأبقاه مفتوحاً، وقبل أن يُتاح له الوقت لدعوته إلى نزهة، كان الكلب قد صار فى الداخل. لم يكن قد فكر فى أخذه معه، بل كان سيبريانو ألبور ينوى التنقل من جار إلى آخر ليسألهم إن كانوا يعرفون كلباً صفاته كذا وكذا، بهذا الشعر وهذه الهيئة، بريطة العنق هذه، وهذه الفضائل الأخلاقية، وبينما هو يصف مختلف المواصفات يتوسل إلى كل قديسى السماء وكل شياطين الأرض، راجياً أن يجبروا جميع من يسألهم بالحسنى أو بالسوء، أن يجيبوا بأنه لم يكن لديهم فى حياتهم قط مثل ذلك الحيوان، وليس لديهم أى خبر عنه. وبوجود لقية مرثياً فى الشاحنة سيتفادى رتبة الوصف ويوفر على نفسه التكرار، وسيكتفى بالسؤال، هل هذا الكلب لحضرتكم، أو لك، حسب حميمية العلاقة بمحدثه، وسماع الجواب، لا، أو نعم، فإذا كان الجواب هو الأول، فسوف ينتقل دون تأخير إلى

الجار التالي كيلا يفسح المجال للتعديل وتبديل الرأى، أما فى الحالة الثانية، فسوف يراقب بدقة ردود فعل لقية، ولم يكن كلباً يسمح بأن يؤخذ بمطالب خدع كاذبة من مالك مزيف. وقد ظهرت مارتا، على ضجة محرك السيارة، عند باب ورشة الخزف ويدها ملطختان بالصلصال، وأرادت أن تعرف إن كان الكلب سيذهب أيضاً. فردّ عليها أبوها، سيأتى، سيأتى، وبعد دقيقة من ذلك كان الفناء خاوياً تماماً، ومارتا وحيدة كما لو أن ذلك بالنسبة إليه وإليها يحدث أول مرة.

قبل أن يصل إلى الشارع الذى تسكن فيه إساورا إستوديوسا، وهذا لقب، مثل لقبى جاتشو وألجور، لا يُعرف أيضاً سببه ومنشؤه، كان الخزّاف قد طرق أبواب اثنى عشر مقيماً فى الجوار وأسعده أن يسمع منهم جميعاً الأجوبة نفسها، إنه ليس لى، لا أدرى لمن يكون. وقد أعجبت زوجة أحد التجار بلقية إلى حدّ تقديمها عرضاً سخياً لشرائه، وقد رفض سيبريانو ألجور العرض فوراً، وبعد طرق أبواب ثلاثة بيوت حيث لم يستجب أحد للنداء، سُمع النباح القوى لكلاب الحراسة، مما أتاح للخزّاف أن يحكم بصورة ملتوية أن لقية ليس من هناك، كما لو أنه مكتوب فى قانون كونى للحيوانات الداجنة أنه حيث يوجد كلب لا يمكن وجود كلب آخر. أوقف سيبريانو ألجور أخيراً شاحنته أمام باب المرأة التى فى حداد، وطرقه، وعندما ظهرت مرتدية بلوزة وتنورة سوداوين، طرح عليها صباح خيرٍ رنانة أكثر بكثير مما هو طبيعى،

والذنب فى هذا الاضطراب الصوتى المفاجئ يقع على عاتق مارتا، لأنها صاحبة الفكرة غير المعقولة فى زواج أرملين منتهى الصلاحية، وهو وصف يستحق لوماً صارماً، ولا بد من قول ذلك، لاسيما فيما يعنى إساورا إستوديوسا التى لا يمكن أن تكون قد تجاوزت الخامسة والأربعين من العمر، وإن كان الحساب الدقيق يتطلب إضافة بعض السنوات، غير أن ذلك لا يظهر عليها فى الحقيقة. آه، صباح الخير يا سيد سيبريانو، قالت. جئتُ تنفيذاً للوعد بإحضار إبريق لك، شكراً جزيلاً، ولكن ما كان عليك أن تزعج نفسك، وقد فكرتُ بعد حديثنا فى المقبرة أنه لا يوجد فرق كبير بين الأشياء والبشر، لكل منها حياته، يستمرون لوقت معين، وبعد قليل ينتهون، مثل كل ما فى الدنيا، ومع ذلك يمكن استبدال إبريق بإبريق آخر، دون الحاجة إلى التفكير فى الأمر أكثر من الوقت الذى يحتاجه جمع فتات القديم وملء الجديد بالماء، وهو ما لا يحدث بشأن البشر، كما لو أنه عند ولادة كل واحد منهم يُكسر القالب الذى خرج منه، ولهذا لا يتكرر الأشخاص، الأشخاص لا يخرجون من قالب، ولكننى أظن أنى فهمت ما تعنيه، إنها كلمات خزّاف، فلا توليها أهمية، إليك الإبريق، وأرجو ألا تفلت ذراعته سريعاً. مدت المرأة كلتاً يديها لتلقى الإبريق من بطنه، أسندته إلى صدرها وشكرت مرة أخرى، شكراً جزيلاً يا سيد سيبريانو، وفى هذه اللحظة رأت الكلب فى الشاحنة، فقالت، هذا الكلب. أحس سيبريانو الجور بصدمة، فلم يكن قد خطر لباله احتمال أن

تكون إساورا إستوديوسا بالتحديد هي صاحبة لقيه،
وها هي تقول الآن هذا الكلب كما لو أنها قد تعرفت
عليه، بنبرة مفاجئة يمكن لها أن تكون صادرة عن
عثر أخيراً عما كان يبحث عنه، ولك أن تصور بكم من
عدم الرغبة في ألا يكون مصيباً سألها سيبريانو
أالجور، أهو لك، وتصور كذلك مقدار الإحساس
بالراحة الذي سمع به الجواب، لا، ليس لي، ولكنني
أتذكر أني رأيته يمشى هنا قبل يومين أو ثلاثة أيام،
حتى إنني ناديته، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمعني، إنه
حيوان جميل، عندما وصلتُ إلى البيت أمس، لدى
عودتي من المقبرة، وجدته شبه مختبئ في الكوخ
الصغير الذي تحت شجرة التوت، كوخ كلب آخر كان
لدينا من قبل، كونستانتى، ولم يكن يلمع فيه سوى
عينيه في الظلام، إنه يبحث عن صاحب يناسبه،
لستُ أدري إذا ما كنت أنا من يناسبه، بل يمكن أن
يكون له صاحب، وهذا ما أقوم بالتقصي عنه، أين،
هنا، سألت إساورا إستوديوسا، وأضافت دون أن
تنتظر جواباً، لو كنت مكانك لما أتعبت نفسي، هذا
الكلب ليس من هنا، إنه آت من بعيد، من مكان آخر،
من عالم آخر، ولماذا تقولين من عالم آخر، لستُ
أدري، ربما لأنه يبدو لي مختلفاً جداً عن كلاب هذه
الأيام، ولكن لم يكذب يُتاح لك الوقت لتريته، ها رأيته
كان كافياً، وإذا كنت لا تريده فإنني أعرض عليك
تركه لي، ربما كنت سأتركه لو كان كلباً آخر، أما هذا
فقد قررتُ الاحتفاظ به، إذا لم يظهر أصحابه
بالطبع، أي أنكم تريدونه، حتى إننا أطلقنا عليه

اسماً، وما اسمه، أسميناه لقيه، هذا هو أفضل اسم يناسب كلباً ضالاً، وهذا ما قالت ابنتي أيضاً، إذا كنت تريده لنفسك، فلا حاجة بك إلى مزيد من القلق، من واجبي إعادته إلى صاحبه، لأننى أحب إذا ما أضعتُ كلباً أن يعيدوه إليّ، إذا ما فعلت ذلك فإنك تتصرف ضد مشيئة الحيوان، فكر فى أنه رغب فى اختيار بيت آخر يعيش فيه، بالنظر إلى الأمر من هذا الجانب، لن أقول إنك غير محقة، ولكن القانون يحكم، العادات تحكم، دعك من التفكير فى القانون وفى العادات يا سيد سيبريانو، خذ لنفسك ما صار لك، هذا يعنى الكثير من الثقة، لا بد فى بعض الأحيان من استغلال الثقة، أنت تعتقدين إذاً، أجل، هذا ما أعتقد، لقد سعدت جداً بالتحدث إليك، وأنا أيضاً يا سيد سيبريانو، إلى اللقاء فى مرة قادمة، إلى اللقاء. وبينما هى تشد الإبريق إلى صدرها، نظرت إساورا ستودىوس من الباب إلى الشاحنة وهى تستدير لتعود من الطريق نفسه، ونظرت إلى الكلب وإلى الرجل الذى يقوده، أوماً الرجل بيده اليسرى مودعاً، ولا بد أن الكلب كان يفكر فى بيته وفى شجرة التوت التى تشكل سماءه.

وهكذا رجع سيبريانو ألجور إلى ورشة الفخار قبل وقت طويل مما قدره. نصيحة الجارة إساورا إستودىوسا، أو إساورا دون مزيد، من أجل الاختصار، كانت سديدة، عقلانية، ومناسبة بجلاء كبير للموقف، وإذا ما طبقت على شئون العالم العامة، لما كان ثمة صعوبة فى مستوى نظام الأمور التى لا تحتاج إلا إلى

القليل لتبلغ الكمال. والجانب المعتبر فى ذلك كله، دون ريب، هو أنها عبّرت عنه بأقصى قدر من التلقائية، دون أى تقليب للأمر فى الرأس، كمن يقول إن اثنين زائد اثنين تساوى أربعة دون أن يحتاج إلى وقت للتفكير أولاً فى أن فى أن اثنين زائد واحد تساوى ثلاثة، وبعد ذلك، ثلاثة زائد واحد آخر تساوى أربعة، إساورا على حق، فلا بد قبل كل شيء من احترام رغبة الحيوان والمشية التى حولت تلك الرغبة إلى فعل. فأياً يكن المالك، أو أياً كان المالك، وهذا تصويب حذر، لم يعد يتمتع بحق المجيء والمطالبة، هذا الكلب لى، لأن كل المظاهر والوقائع الجلية تُثبت أنه إذا ما كان لقيه يتمتع بالقدرة البشرية على التكلم، فلن يكون لديه سوى جواب واحد يقدمه، أنا لا أريد ذلك السيد. وبالتالي، فليتبارك الإبريق المكسور ألف مرة، ولتتبارك فكرة إهداء إبريق جديد للمرأة التى بثياب الحداد، ونضيف مستبقيين ما سيأتى فيما بعد، فليتبارك اللقاء الذى جرى فى أمسية الرطوبة والشجن تلك التى كانت تقطر ماء، وكانت كلها إزعاجاً على المستويين المادى والروحى، عندما نعرف جيداً أنه لولا حالات فقدان الحديثة، لما كان ذلك هو الوقت الذى يميل فيه المحزونون إلى الذهاب إلى المقبرة للبكاء على موتاهم. لا شك فى الأمر، فكل شيء فى مصلحة الكلب لقيه، ويمكنه البقاء حيث يشاء طوال الوقت الذى يرغب فيه. وهناك سبب آخر يضاعف من راحة سيبريانو ألبور وسعادته، وهو أنه غير مضطر إلى طرُق باب بيت أبوى مرسيال، وهما من الجيران فى البلدة أيضاً،

وعلاقاته بهما ليست على ما يرام، ولا بد أن هذه العلاقات ستمضى إلى الأسوأ إذا ما مرّ من أمام باب بيتهم دون أن يبدي اهتماماً بهم. أضف إلى ذلك أنه مقتنع من أن لقيه ليس لهم، لأن مشاعر آل جاتشو، منذ عرفهم، تميل على الدوام إلى كلاب المولوس الضخمة وكلاب أخرى من هذا النوع. لقد كان صباحنا جيداً، قال سيبريانو ألجور للكلب.

بعد دقائق قليلة كانا فى البيت. وعند توقف الشاحنة، نظر لقيه بإمعان إلى سيده، وعرف أنه قد أعضى حالياً من واجباته كملاح فابتعد جانباً، ليس باتجاه الكوخ الصغير، وإنما بالمزاج الواضح لمن قرر للتو أن الوقت قد حان للتعرف على الأمكنة. أضع له حزاماً، تساءل صانع الفخار، وبعد ذلك، حين لاحظ حركات الكلب الذى كان يشمّ الأرض ويعلمّ الأماكن ببول، مرة هنا، ومرة هناك، لا، لا أظن أن تقييده ضرورى، فلو أراد الهرب لكان فعل. دخل إلى البيت وسمع صوت ابنته تتكلم فى الهاتف، انتظر، انتظر، لقد وصل أبى. تناول سيبريانو ألجور سماعة الهاتف، وسأل دون مقدمات، هل من جديد. وفى الجانب الآخر من الخط، بعد برهة صمت، بادر مرسيال غاتشو كمن قدرّ أن تلك ليست الطريقة الملائمة لبدء حديث بين شخصين، صهر وحميه، مضى عليهما أسبوع من الأسابيع القديمة دون أخبار من أحدهما عن الآخر، ولهذا بادر بتحية الصباح، وسؤاله كيف هى الحال يا أبتاه، فرد عليه سيبريانو ألجور بتحية صباح أكثر جفاء، وأضاف دون توقف أو أى نوع آخر من

المقدمات، لقد كنت أنتظر، أسبوع كامل من الانتظار، أود أن أعرف ما الذى كنت ستشعر به لو أنك مكانى، المعذرة، فأنا لم أتمكن من التحدث مع مدير القسم إلا هذا الصباح، أوضح مرسيال متنازلاً عن جعل حميه يلحظ، ولو بطريقة غير مباشرة، عدم استحقاقه الفظاظة التى يعامله بها، وماذا قال لك، إنهم لم يتخذوا القرار بعد، ولكن حالتك ليست الوحيدة، فالبضائع التى تتبدل وتفقد أهميتها روتين شبه يومى، وأنت، ما الفكرة التى خرجت بها، الفكرة التى خرجت بها، أجل، هل بدا لك من نبرة صوته وطريقته فى النظر أنه يريد أن يبدو لطيفاً، لا بد أنك تعرف، من تجربتك، أنهم يعطون الانطباع دوماً بأنهم يفكرون فى شىء آخر، أجل، هذا صحيح، وإذا ما سمحت لى بأن أكلمك بصراحة كاملة، أظن أنهم لن يعودوا إلى شراء أوان خزفية، هذه الأشياء فى نظرهم تافهة جداً، فإما أن تكون البضاعة محل اهتمام أو لا تكون البضاعة محط اهتمام، وما سوى ذلك لا يهمهم ولا وجود لأمر وسط عندهم، وماذا بشأنى، بشأننا، هل الأمر تافه أيضاً، ألا يهمنا أيضاً، ألا وجود لأمر وسط كذلك، سأل سيبريانو ألبور، لقد فعلت ما باستطاعتي، وأنا لست سوى مجرد حارس، ها كان بمقدورك فعل أكثر مما فعلت، قال صانع الفخار بصوت انكسر مع الكلمة الأخيرة. أحس مرسيال جاتشو بالحزن على حميه حين لاحظ تحول اللهجة، وحاول ترقيع نبوءته القاتمة، على كل حال، لم يغلغ مدير القسم الباب نهائياً، قال لى إنه يدرس الموضوع،

ولا بد لنا فى أثناء ذلك من الاحتفاظ بالأمل، لم أعد فى سن تسمح لى بانتظار الآمال يا مرسىال، أريد أموراً يقينية، وأن تكون يقينية فورية، لا تنتظر إلى غدٍ قد لا يكون لى، أفهمك يا أبتاه، فالحياة صعود وهبوط دائمان، كل شىء يتبدل، ولكن لا تيأس فنحن معك، مارتا وأنا، سواء بوجود مشغل الخزف أو من دونه. وكان من السهل إدراك ما الذى يريد مرسىال الوصول إليه بخطاب التضامن الأسرى هذا، فكل المشاكل فى رأسه، سواء مشاكل اليوم، أو المشاكل التى ستبرز فى المستقبل، ستجد حلها يوم يستقر الثلاثة فى المركز. لو كانت المناسبة مختلفة، وكان سيبريانو ألاجور فى حالة معنوية أخرى، لرد عليه بجفاء، أما الآن، إما لأن الاستسلام لامسه بجناح كآبته، أو لأنه لم يفقد نهائياً الكلب لقيه، أو ربما، ومن يدرى، بسبب حديث بين شخصين يفصل بينهما موضوعياً إبرىق فخارى، تكلم صانع الخزف بعذوبة، سأهب يوم الخميس فى الموعد المعهود لإحضارك، وإذا حصلت على أى خبر قبل ذلك الحين، فاتصل هاتفياً، ودون أن يمنح مرسىال الوقت للرد، أنهى الحوار، سأحوّلك إلى زوجتك. تبادلنا مارتا معه بضع كلمات، وقالت، سنرى كيف سينتهى هذا كله، ثم ودعته على أمل اللقاء يوم الخميس وأغلقت الهاتف. كان سيبريانو ألاجور قد خرج، وكان يجلس إلى أحد الدولابين خافضاً رأسه. هناك، على ذلك الدولاب، قطعت سكتة قلبية صاعقة حياة جوستا إساسكا. جلست مارتا على مقعد الدولاب الآخر وانتظرت. وبعد أكثر من دقيقة

نظر إليها أبوها، ثم حرف نظره عنها. قالت مارتا، لم تتأخر كثيراً في القرية، لا، لم أتأخر، وهل سألت في كل البيوت إن كانوا يعرفون الكلب وإن كان أحدهم هو صاحبه، سألت في عدد من البيوت، وفكرت بعد ذلك في أنه لا جدوى من مواصلة السؤال، ولماذا، هل هذا استجواب، لا يا أبي، مجرد محاولة لإلهائك، لا أتحمل رؤيتك حزينا، لست حزينا، أنت خامد الهممة إذاً، ولست خامد الهممة أيضاً، لا بأس، أنت مثلما أنت، ولكن أخبرني لماذا رأيت أنه لا جدوى من مواصلة السؤال، فكرت في أنه إذا ما كان للكلب مالك في القرية وهرب منه دون أن يرجع، مع أنه يستطيع الرجوع، فلأنه يرغب في أن يكون حراً ليجد صاحباً آخر، ولهذا لا حق لي في أن ألوى مشيئته، إذا كنت تنظر إلى الأمور من هذا الجانب، فأنت على حق، هذا بالضبط ما قلته أنا، وبهذه الكلمات نفسها، ولن قلته. لم يجب سيبريانو ألاجور. وبعد ذلك، حين لم تفعل الابنة شيئاً سوى النظر إليه بهدوء، حسم أمره، قلته للجارة، أي جارة، الجارة التي طلبت الإبريق، آه، أجل، هل أخذت الإبريق إليها، نعم، وضعته في الشاحنة وذهبت لإيصاله، طبعاً، هذا كل شيء، إذا كنت قد فهمت جيداً، فإنها هي من قالت لك إنه لا جدوى من مواصلة البحث عن صاحب لقية، أجل، إنها هي، لا شك في أنها امرأة ذكية، هكذا تبدو، وأخذت الإبريق منك، أتستائين من ذلك، لا تغضب يا أبي، فنحن نتحدث فقط، كيف سأستاء من أمر بسيط مثل إهداء إبريق، صحيح، ولكن لدينا

مسائل أشد خطورة من هذا، وأنت تحاولين التظاهر بأن الحياة تهب مواتية لشراعنا، هذه هي بالضبط المسائل التي أود الحديث معك عنها، لست أفهم إذاً سبب كل هذا اللف والدوران، لأنى أحب التحدث إليك كما لو أنك لست أبى، أحب أن ألحظ أننا شخصان متحابان جداً، أب وابنته متحابان لأنهما أب وابنته، ولكنهما متحابان أيضاً كصديقين لو لم يكونا أباً وابنته، ستجعلينى أبكى، تذكرى أن الدموع فى مثل سنى هذه تصبح غادرة، أنت تعلم أننى مستعدة لعمل أى شىء كى أراك سعيداً، ولكنك تحاولين إقناعى بالذهاب إلى المركز وأنت تعلمين أن ذلك هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لى، كنت أظن أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو الابتعاد عن ابنتك، هذا ليس وفاء منك، عليك تقديم اعتذار، إننى أعتذر، فما قلته ليس صادقاً حقاً، اعدرنى. نهضت مارتا وعانقت أباه، سامحنى، فرد صانع الخزف، لا أهمية للأمر، لو أننا أقل كآبة لما تحدثنا بهذه الطريقة. قرّبت مارتا مقعداً صغيراً من مقعد أبيها وجلست عليه، ثم أمسكت بيد أبيها وبدأت تقول، لقد خطرت لى فكرة بينما أنت تقوم بجولتك مع الكلب، أوضحى، سنترك جانباً الآن موضوع المركز، أعنى قرارك بالمجئ أو عدم المجئ معنا، يبدو لى هذا جيداً، موضوع المركز لن يكون غداً ولا فى الشهر القادم، وعندما يحين الوقت ستقرر بنفسك إن كنت ستذهب أو ستبقى، فحياتك ملكك أنت، شكراً لأنك تسمحين لى بالتنفس أخيراً، لن أسمح لك، ماذا لديك سوى

ذلك، بعد خروجك مع الكلب، جئت للعمل هنا، ذهبت أولاً لألقى نظرة على المستودع ولاحظت أنه لا وجود لزهریات صغيرة، فجئت متأهبة لصنع بعضها، وفجأة، حين صارت قطعة الصلصال فوق الدولاب، فكرت بمدى عبثية مواصلة هذا العمل فى العماء، فى العماء، لماذا، لأن أحداً لم يوصى على زهریات صغيرة أو كبيرة، لأنه ليس هناك من ينتظر بفارغ الصبر أن أنهى صنعها ليأتى راكضاً لشرائها، وعندما أقول زهریات فإننى أعنى أى نوع من القطع التى نصنعها، كبيرة كانت أم صغيرة، ذات منفعة استخدامية أو من دونها، أفهم كلامك، ولكن علينا أن نكون جاهزين مع ذلك، جاهزين لأى شىء، لتلبية الطلبيات حين تأتى، وما الذى سنفعله إذا لم تأتِ الطلبيات، ما الذى سنفعله إذا توقف المركز عن الشراء، كيف سنعيش، ومم، هل سننتظر إلى أن ينضج التوت، وأن يتمكن لقيه من اصطياذ أرنب مشلول، أنت ومرسيال لن تعانیا من هذه المشكلة يا أبى، ولننتذكر أننا لن نتحدث عن المركز، موافق، واصلى كلامك، حسن، حتى لو افترضنا أن معجزة ستجعل المركز يبدل ما قاله، وهو أمر لا أظنه سيحدث، وأنت أيضاً لا تظن ذلك إذا كنت لا تريد خداع نفسك، كم من الوقت يمكننا البقاء هنا مكتوفى الأيدى أو منهمكين فى صنع خزف لا ندرى سبب صنعه أو لمن نصنعه، فى الوضع الذى نحن فيه لا أرى أنه يمكننا عمل شىء آخر، لدى رأى مختلف، وما هو هذا الرأى المختلف، أية فكرة عجيبة خطرت

لك، أن نصنع أشياء أخرى، إذا كان المركز قد تخلى عن شراء أشياء، فمن المشكوك فيه أن يكون راغباً في شراء أشياء أخرى، ربما لا يكون الأمر كذلك، ربما ربما، ها الذى تتكلمين عنه يا امرأة، أتكلم عن أنه علينا أن نبدأ بصنع دمي، فهتف سيبريانو الجور بنبرة استنكار مفاجئة، دمي، دمي، لم أسمع قطّ مثل هذه الفكرة غير المعقولة، أجل، أيها السيد أبى، دمي، تماثيل صغيرة، أراجوزات، أشكال رخيصة، زينات لها أقدام ورعوس، سمها ما شئت، ولكن لا تبدأ بالقول إنها سخافة دون أن تنتظر النتيجة، قمتكلمين كما لو كنت واثقة من أن المركز سيشتري هذه الدمى، لست متأكدة من أى شيء، اللهم إلا من أنه لا يمكن لنا البقاء متوقفين بانتظار أن يهوى العالم على رعوسنا، لقد سقط على رأسى وانتهى، كل ما يسقط عليك يسقط علىّ، ساعدنى على أن أساعدك، بعد كل هذا العمر فى صنع الأوانى، لا بد أن يدي فقدت مهارة صنع القوالب، وهذا ما أقوله أنا أيضاً، ولكن إذا كان كلبنا قد أضع نفسه كى يتمكن من أن يصير لقيه، مثلما أوضحت إساورا إستوديوسا بذكاء، فإنه يمكن لمهارتنا اليدوية المفقودة، مهارات يديك ويديّ، أن تجد نفسها فى الصلصال، من يدرى، إنها مغامرة ستنتهى نهاية سيئة، وما لم يكن مغامرة انتهى نهاية سيئة أيضاً. نظر سيبريانو الجور بصمت إلى ابنته، ثم تناول قليلاً من الصلصال ومنحه الشكل الأولى لهيئة بشرية. من أين نبدأ، سألها، من حيث يجب البدء دائماً، من البداية، أجابته مارتا.

إنها متسلطة، شائلة، دائرية، وأهليجية أحياناً، عبارات التودد تلك التي يسمونها أيضاً، بتبجح، شذرات الذهب، إنها جائحة خبيثة من أسوأ ما يمكن أن يجتاح العالم من أوبئة. نقول للمضطربين، اعرف نفسك، وكأن معرفة المرء نفسه ليست عملية حسابية خامسة وأكثر صعوبة بين العمليات الحسابية البشرية، نقول لفاقدى الإرادة، هن أراد استطاع، وكأن وقائع العالم المريعة لا تتلهى كل فى يوم عكس دلالة الأفعال النسبية وقلبها رأساً على عقب، نقول للمتريدين، ابدأ من البداية، وكأن تلك البداية هى الطرف المرئى دوماً من خيط سيئ التشابك يكفى سحبه ومواصلة سحبه من أجل الوصول إلى طرفه الآخر، طرف النهاية، وكما لو أن بين أيدينا، بين الطرف الأول والثانى، خيطاً ناعماً متواصلاً لم يكن علينا حلّ عقد فيه وفكّ تشابكات، وهو أمر مستحيل فى حياة كُبة الخيوط، وكما لو أن جملة تودد أخرى مسموح بها فى كُبة خيوط الحياة. مارتا قالت لأبيها، فلنبدأ من البداية، وكأنه لا ينقصهما إلا أن يجلس

كل منهما إلى المنضدة كى يقولبا دمی بأصابع تصیر فجأة رشيقة ودقيقة، وبالمهارة القديمة المستردة من سبات طويل. محض خداع لسدج وغافلین، فالبدایة لم تكن قط الطرف الواضح والمحدد من خیط، البدایة هی سیرورة شديدة البطء، شديدة التأخر، تتطلب وقتاً وصبراً من أجل إدراك الاتجاه الذى تريد المضى فيه، تتلمس الطريق كأعمى، البدایة هی البدایة وحسب، وما هو منجز لم يعد يساوى شيئاً. ومن هنا كان ما تذكرته مارتا بعد ذلك أشد حسماً، لدينا ثلاثة أيام فقط من أجل الإعداد لتقديم المشروع، فهكذا يقال فى لغة الصفقات والتنفيذین، على ما أعتقد، أوضحى، فلیس لدى رأس لمجاراتك، قال أبوها، الیوم هو الإثنین، وأنت ستحضر مرسیال یوم الخمیس مساءً، وسیكون عليك بعد ذلك أن تحمل فى ذلك الیوم بالذات، إلى رئیس قسم المشتريات، اقترأحنا بتصنیع دمی، مع تصمیمات، ونماذج، وأسعار، وباختصار كل ما یقودهم إلى الشراء ویؤهلهم لاتخاذ قرار لا یتأخر حتى العام القادم. فسألها سبیریانو ألبور دون أن ینتبه إلى أنه یكرر الكلمات، من أين سنبدأ، لكن جواب مارتا لم یکن نفسه، علینا أن نركز اهتمامنا على نصف دستة من النماذج، أو حتى أقل، کیلا نُعقد العمل كثيراً، وأن نقدّر کم من الدمی یمكننا صنعها فى الیوم، وهذا یعتمد على طريقة تصورنا لها، إذا كنا سنقولب الصلصال کمن ینحت مباشرة فى كتلة الطین أو سنصنع دمی متشابهة لرجال ونساء ثم نلبسها بعد

ذلك حسب مهنتها، وستكون بالطبع دمي منتصبة
القامة، وأنا أرى أنها يجب أن تكون جميعها هكذا،
فهي أسهل صنعاً، ما الذى تعنيه أنت بإلباسها،
الإلباس هو الإلباس، أن نلصق على جسد الدمى
العارية الملابس، الأكسسوارات التى تميزها وتمنحها
التفرد، وأظن أن شخصين يعملان بهذه الطريقة
سيتصرفان بصورة أفضل، ويعد ذلك سيكون من
الواجب فقط توخى الحذر بشأن الطلاء كيلا تتلطيخ
الدمى، أرى أنك قد فكرت كثيراً، قال سيبريانو
ألجور، لا تظن ذلك، ولكننى فكرتُ بسرعة فعلاً،
وفكرت جيداً، لا تجعلنى أحمر خجلاً، وفكرت كثيراً،
حتى لو أنك قلت غير ذلك، لاحظ كم احمر وجهى،
من حسن حظى أنك قادرة على التفكير بسرعة،
والتفكير كثيراً، والتفكير جيداً، وكل ذلك فى وقت
واحد، عينا أب، محبة أب، أخطاء أب، وأى شخص
ترين أن نضع، يجب ألا تكون قديمة جداً، هناك
مهن كثيرة اختفت، ولم يعد هناك اليوم من يعرف ما
الذى كان يفعله أولئك الأشخاص، وما كانت فائدتهم،
وأظن كذلك أنها يجب ألا تكون لشخص موجهة
الآن، فدمى البلاستيك تغطى هذا الجانب، بأبطاله،
ورامبواته، ورواد فضائه، ومتحوليه، ومسوخه، ورجال
شرطته الخارقين، وقطاع طرقه الخارقين، وأسلحته،
وخاصة أسلحته، إننى أفكر، ومن حين إلى آخر
أتوصل أيضاً إلى الإعراب عن بعض الأفكار، مع أنها
ليست جيدة كأفكارك، دعك من حركات التواضع
الزائفة، فهى لا تناسبك أبداً، كنت أفكر بإلقاء نظرة

على الكتب المصورة التي لدينا، مثل تلك الموسوعة القديمة التي اشتراها جدك، فإذا ما وجدنا فيها نماذج تنفع مباشرة لصنع الدمى، نكون قد حللنا في الوقت نفسه مسألة التصاميم التي سأخذها، ولن ينتبه رئيس القسم إلى أننا نستنسخ، وحتى لو انتبه فلن يعتبر الأمر مهماً، أجل يا سيدتى، إنها فكرة تستحق عشر درجات، أنا أَرْضَى بست درجات، فهذا أقل لفتاً للأنظار، فلنبدأ العمل.

ومثلما يسهل التصور، فإن مكتبة أسرة ألجور ليست واسعة الكم ولا رفيعة النوع. فلدى أناس شعبيين، وفي مكان كهذا، معزول عن الحضارة، لا يؤمل وجود إفراط في المعرفة، ولكن، على الرغم من ذلك، يمكن أن يصل إلى مئتين أو ثلاثمائة عدد الكتب المنضدة في الخزانة ذات الرفوف، عدد منها قديم، وأخرى في منتصف عمرها، وهذه هي الأكثرية، وما تبقى حديث إلى هذا الحد أو ذاك، وإن يكن عدد محدود منها فقط هو الحديث جداً. لا وجود في القرية لمحل يمكن أن يطلق عليه بعد اسم مكتبة، فهناك ما يمكن اعتباره محل قرطاسية يتولى طلب كتب الدراسة الضرورية من دور النشر في المدينة، وقد يطلب في أوقات متباعدة عملاً أدبياً جرى الحديث عنه بإلحاح في الإذاعة وفي التلفاز، ويكون مضمونه، وأسلوبه ومقاصده متوافقة بصورة مرضية مع اهتمامات الأهالي. ليس مرسيال جاتشو بالشخص كثير القراءات والمدقق فيها، إلا أنه لا بد

من الاعتراف بأنه قادر، حين يأتي إلى مشغل الخزف
ومعه كتاب يهديه إلى مارتا، على التوصل إلى
ملاحظة الفرق بين ما هو جيد وما لا يتعدى أن يكون
متوسط الجودة، وإن كان صحيحاً أنه حول مفاهيم
الجودة والوسطية الزلقة هذه لن تنقصنا أبداً
الأسباب بشأن ما يدعو إلى التأمل وما يسبب
الاختلاف. الموسوعة التي فتحها الأب وابنته للتو على
منضدة المطبخ كانت تعتبر الأفضل في زمن نشرها،
ولكن لا يمكن لها اليوم أن تنفع إلا في التقصي عن
معارف مهجورة أو أنها، في ذلك الزمن، كانت لا تزال
تركب أولى المفردات المشكوك فيها. إن وضع
موسوعات اليوم والأمس وأول أمس في صف، واحدة
وراء الأخرى، يقدم صوراً متتالية لعوالم معطلة،
إيماءات مبتورة في حركتها، كلمات تبحث عن دلالتها
الأخيرة أو ما قبل الأخيرة. فالموسوعات هي مثل
سيكلوراما ثابتة، أجهزة عرض عجيبة ظلت أشرطتها
متجمدة تعرض بنوع من الهوس الثابت منظرًا محكوماً
عليه أن يكون، إلى الأبد، ما كان عليه، ويأخذ بالتحول
في الوقت نفسه ليصير قديماً أكثر، وغابراً أكثر، ولا
لزوم له أكثر فأكثر. الموسوعة التي اشتراها أبو
سيبريانو ألبور عظيمة جداً وغير مجددة، مثل بيت
شعر لا نتوصل إلى تذكره. ومع ذلك، يجب ألا نكون
متعجرفين أو جاحدين، وأن نستحضر في ذاكرتنا
توصية أسلافنا المتعقلة عندما كانوا ينصحوننا بحفظ
ما لا نحتاج إليه، لأننا سنجد لدينا، عاجلاً أو آجلاً،
ما نحن بحاجة إليه، وكنا لا ندري آنذاك أننا

سنحتاجه. وبينما هما منحنيان على الصفحات القديمة الصفراء، يتنفسان رائحة الرطوبة الحبيسة طوال سنوات، دون لمسة هواء أو نفس ضوء، في أجمة الأوراق البيضاء، وقد استفاد الأب والابنة اليوم من الدرس، فهما يبحثان عما يحتاجان إليه في ذلك الشيء الذي ظنا أنه لن يكون ذا نفع على الإطلاق. لقد وجدوا في بحثهما أكاديمياً يضع قبعة بقرنين من الريش، وسيفاً صغيراً وصدراً للقميص، وجدوا مهرجاً وبهلولاً، وجدوا هيكلًا عظيمًا يحمل منجلاً طويلاً ولكنهما واصلاً قداماً، وجدوا أمازونية على جواد وأميرالاً بلا سفينة، وجدوا مصارع ثيران ورجلاً بجبة، وجدوا ملاكماً وخصمه، وجدوا دركياً وكردينالاً، وجدوا صياداً وكلبه، وجدوا بحاراً متقاعدًا ومأموراً قضائياً، ومهرجاً رومانياً بالرداء الروماني، وجدوا درويشاً وخفيراً مسلحاً برمح، وجدوا حارساً قضائياً وكاتباً عمومياً جالساً، وجدوا ساعي بريد وفقيراً هندياً، ووجدوا كذلك مصارعاً رومانياً وجندي مشاة إغريقياً، ممرضة وبهلواناً، لوردًا وعاملاً، وجدوا معلم مبارزة ونحّالاً، عامل منجم وصياد أسماك، رجل مطافئ وعازف ناى، وجدوا دميّتين متحركتين، وجدوا مراكبياً، وجدوا مزارعاً، وجدوا قديساً وقديسة، وجدوا شيطاناً، وجدوا الثالوث المقدس، وجدوا جنوداً وعسكريين من كل المراتب، وجدوا غواصاً ومنتزحاً، رأياً حارساً وخطاباً، رأياً إسكافياً بنظارة، وجدوا شخصاً يقرع طبلاً وآخر يعزف بوقاً، وجدوا امرأة مسنّة بطرحة ومنديل، وجدوا رجلاً مسناً بغليون، وجدوا فينوساً وأبولو، وجدوا فارساً

بقبعة عالية، وجدا مطراناً متوجاً، وجدا تمثالاً يسند قنطرة وتمثال عملاق على شكل عمود، وجدا رماحاً راكباً وآخر راجلاً، وجدا عربياً بعمامة، وجدا موظف مندرين صينياً، وجدا طياراً، وجدا قائد مرتزقة وخبازاً، وجدا فارساً شهماً، وجدا خادمة بمريلة ورجل اسكيمو، وجدا آشورياً ملتحمياً، وجدا عامل تحويلة سكة حديد، وجدا بستانياً، وجدا رجلاً عارياً عضلاته بارزة وكذلك خريطة جهازه العصبى والدوراني، ووجدا أيضاً امرأة عارية، ولكنها تغطي عانتها بيدها اليمنى ونهديها باليسرى، وجدا آخرين كثيرين لا يناسبون أهدافهم المأمولة، إما لأن صنع تماثيلهم من الصلصال سيكون معقداً جداً، أو لأن استغلالاً غير موفق لشخصيات مشهورين قدماء أو معاصرين تتزين الموسوعة برسومهم الصحيحة، أو المحتملة، أو المتخيلة، يمكن أن يفسر بسوء نية على أنه إساءة احترام، بل وتوفير الفرصة، فى حالة المشهورين الأحياء، أو الميتين المشهورين الذين لهم ورثة مصلحون ومتيقظون، لمحاكمات قضائية مدمرة بدعوى التشهير، والضرر الأخلاقى، وإساءة استغلال الصور. من سنختار من بين جميع هؤلاء، سأل سيبريانو ألبور، وفكرى فى أنه بثلاثة أو أربعة دمي لن نقدم الكفاية، دون حساب أنه حتى ذلك الحين، ريثما يقرر المركز إذا ما كان سيشترى أم لا، سيكون علينا أن نتدرب كثيراً إذا كنا نريد التقدم بعمل نظيف، لائق، فى كل الأحوال يا أبى، أظن أن الأفضل هو أن نقترح عليهم ستة، قالت مارتا، فإما أن يوافقوا

ونقسم نحن الإنتاج إلى مرحلتين، إنها مسألة تحديد مواعيد التسليم، أو أنهم، وهذا سيكون الأكثر احتمالاً، سيبدءون هم بتحديد دمييتين أو ثلاث من أجل سير فضول الزبائن وتقدير رد فعلهم المحتمل، ويمكن لهم عندئذ أن يتوقفوا عند ذلك الحد، صحيح، ولكنني أظن أنه ستكون لدينا فرصة أكبر في إقناعهم إذا ما حملنا إليهم ستة تصاميم، فالعدد يؤخذ في الحسبان، العدد يؤثر، إنها مسألة نفسية، علم النفس لم يكن ميداني المفضل قط، ولا أنا، غير أنه يمكن أن يكون للجهل نفسه حدساً نبوياً، لا تُدخلى هذه النبوءات الحدسية في مستقبل أبيك، فهو يفضل دوماً أن يعرف في كل يوم ما يقرر كل يوم أن يجيئه به، خيراً أو شراً، ما يجيء به اليوم هو أمر، وأمر آخر هو ما نضيفه نحن بأنفسنا، اليوم السابق، لست أفهم ما تعنيه، اليوم هو ما نضيفه إلى كل يوم نعيش فيه، فالحياة هي حمل أيام سابقة مثل من يحمل أحجاراً، وعندما لا نعود قادرين على الحمولة ينتهي النقل، واليوم الأخير هو الوحيد الذي لا يمكن تسميته اليوم السابق. لا تحزني، لا يا بنيتي، ولكن ربما تكونين أنت المذنبية، المذنبية بماذا، مذنبية بي، الأمر ينتهي بي معك دوماً إلى الحديث عن أمور جدية، فلننتحدث إذن فيما هو أكثر جدية بكثير، فلنختر دمانا. سيبريانو الجور ليس رجل ضحك، وحتى الابتسامات الخفيفة نادرة على فمه، ولكنه لمح للتو أن له في هذا اليوم ضحكة محفوظة لم تستطع الظهور بعد. فلنبدأ، قال، أنا أختار واحدة، وأنت تختارين أخرى،

على أن نحصل على ست، ولكن انتبهى إلى أنه لا بد من الأخذ فى الاعتبار دوماً سهولة العمل وذوق الناس المعروف أو المستتر، موافقة، ابدأ أنت من فضلك، البهلول، قال الأب، المهرج، قالت الابنة، الممرضة، قال الأب، رجل الاسكيمو، قالت الابنة، المندرين الصينى، قال الأب، الرجل العارى، قالت الابنة، الرجل العارى لا، غير ممكن، عليك أن تختارى آخر، فالرجل العارى لن يقبلوه فى المركز، لماذا، لهذا السبب بالذات، لأنه عار، فلتكن المرأة العارية إذن، هذا أسوأ، ولكنها تغطى نفسها، تغطيتها نفسها بهذه الطريقة هى أكثر من إظهارها كل شىء، إننى متفاجئة من معارفك حول هذه الأمور، لقد عشت، رأيت، قرأت، أحسست، وما دور القراءة هنا، من يقرأ ينتهى إلى معرفة كل شىء تقريباً، أنا أقرأ أيضاً، وبالتالي لا بد أنك تعرفين شيئاً، لست واثقة تماماً من ذلك الآن، عليك إذن أن تقرئى بطريقة أخرى، كيف، لا وجود لطريقة نافعة للجميع، فكل شخص يخترع طريقته، طريقته الخاصة، هناك من يقضى حياته كلها فى القراءة دون أن يمضى إلى ما هو أبعد من القراءة، هؤلاء يبقون ملتصقين بالصفحات، لا يدركون أن الكلمات ليست سوى أحجار مصفوفة تعترض تيار النهر، وإذا كانت هناك فإنها موجودة لكى نتمكن من الوصول إلى الضفة الأخرى، الضفة الأخرى هى المهمة، إلا إذا، إلا إذا ماذا؟ إذا لم تكن لهذه الأنهار ضفتان وإنما ضفاف كثيرة، وكل شخص يقرأ تكون تلك هى ضفته الخاصة، وتكون له وله

وحده الضفة التي سيصل إليها، ملاحظة جيدة، قال سيبريانو ألبور، وهي تؤكد مرة أخرى أنه من غير المناسب للمسنين أن يتجادلوا مع الأجيال الجديدة، لأنهم سينتهون دوماً إلى الخسارة، ومع ذلك، يجب الاعتراف بأنهم يتعلمون شيئاً ما أيضاً، إننى شاكرة جداً فى الجزء الذى يخصنى، فلنعد إلى الدمية السادسة، لا يمكن أن يكون الرجل العارى، لا، ولا المرأة العارية كذلك، ولا هذه، فليكن إذن الفقير الهندى، الفقراء الهنود يكونون جالسين عموماً، مثل الكتبة العموميين وصانعى الفخار، فقير واقف هو رجل مثل غيره، وجالس يكون أصغر من الآخرين، فى هذه الحالة نختار الفارس، الفارس لن يكون سيئاً، غير أنه سيكون علينا أن نحل مشكلة السيف ورياش القبعة، بالنسبة للرياش يمكننا عمل شىء، أما السيف فلا حل إلا بالصاقه إلى الساق، وسيف ملتصق بالساق سيبدو أشبه بخشبة، فلنختار إذن الأشورى ذا اللحية، إنه سهل، متماسك، لقد وصلت إلى التفكير فى الصياد ومعه الكلب، ولكن الكلب سيحب لنا تعقيدات أكبر من سيف الفارس، والبندقية أيضاً، أكد سيبريانو ألبور، وبما أننا نتكلم عن كلب، ما الذى يفعله لقيه يا ترى، لقد نسيناه تماماً، أكون قد نام. نهض صانع الفخار، أزاح ستارة النافذة وقال، لا أراه فى الكوخ، لا بد أنه يجول فى المكان، يقوم بواجبه كحارس للبيت، يحرس محيط المكان، هذا إذا لم يكن قد ذهب، كل شىء ممكن الحدوث فى الحياة، ولكننى لا أظن أنه قد ذهب. وبقلق، وبارتياب، فتح

سيبريانو أَلجور الباب فجأة، وكاد أن يصطدم بالكلب. كان لقيه ممدداً على ممسحة الأقدام، معترضاً العتبة، ووجهه متجه نحو المدخل. نهض حين رأى ظهور السيد، وانتظر. إنه هنا، أعلن صانع الفخار، أرى ذلك، ردّت مارتا من الداخل. بدأ سيبريانو أَلجور بإغلاق الباب وقال، إنه ينظر إليّ، لئن تكون المرة الوحيدة، ماذا أفعل، إما أن تغلق الباب وتتركه خارجاً، وإما أن تومئ له لكي يدخل، وتغلق الباب، ألا تمزحين، لست أمزح، عليك أن تحسم اليوم أمر إذا كنت ستتقبل لقيه في البيت أم لا، وأنت تعرف أنه إذا دخل، فسوف يدخل إلى الأبد، كونيستانتى أيضاً كان يدخل عندما يشاء، أجل، كان يفضل استقلالية كوخه، أما هذا، إذا لم أكن مخطئة، فإنه بحاجة إلى الرفقة، بقدر ما هو بحاجة إلى خبز لضمه، فقال صانع الفخار، أظن أن هذا السبب جيد. فتح الباب على اتساعه، وأوماً قائلاً، أدخل. ودون أن يرفع بصره عن السيد، خطا لقيه خطوة مترددة، ثم توقف بعد ذلك كما لو أنه يريد أن يبين أنه غير موقن من أنه قد فهم الأمر. فألح صانع الفخار، أدخل. تقدم الكلب ببطء وتوقف في منتصف المطبخ. أهلاً بك في البيت، قالت مارتا، ولكنني أنبهك إلى أنه من الأفضل لك أن تبدأ بمعرفة أنظمة المنزل، حاجات الكلب العضوية، سواء الصلبة أو السائلة، تُقضى في الخارج، والأكل أيضاً، ويمكنك خلال النهار الدخول والخروج مثلما تشاء، أما في الليل فتأوى إلى كوخك كي تحرس البيت، ومع هذا لا تظن أنني سأحبك أقل من سيدك،

والدليل أننى أنا من قلت له إنك كلب بحاجة إلى رفقة. لم يحرف لقية بصره عنها طوال الوقت الذى استمرت فيه بإعطاء التعليمات. لم يكن بمقدوره فهم ما تعنيه مارتا، ولكن دماغه الصغير، ككلب، أدرك أنه لا بد له من النظر والاستماع لكى يعرف. انتظر بضع لحظات أخرى بعد أن توقفت مارتا عن الكلام، وبعد ذلك مضى ليتكور على نفسه فى أحد أركان المطبخ، ولكنه لم يتوصل إلى تدفئة المكان، فما إن جلس سيبريانو ألاجور، حتى انتقل من مكانه ليقعى إلى جوار الكرسي. ولكى لا تبقى أية شكوك فى روح صاحبي البيت، حول اتضاح معنى واجباته ومسئوليته لديه، لم يكن قد انقضى ربع ساعة عندما نهض من هناك لكى يقعى إلى جانب مارتا، فالكلب يعرف جيداً عندما يكون هناك من هو بحاجة إلى رفقته.

كانت ثلاثة أيام من العمل المكثف، من الانفعال المفرط، من التشكيل والتخريب على الورق وبالصلصال. لم يكن أى منهما يريد أن يتقبل أن حصيلة الفكرة، والعمل الذى يقومان به من أجل منحها التماسك، يمكن أن تكون تمنعاً فظاً، دون أى تفسير آخر سوى، زمن هذه الدمى قد انقضى. كانا ناجيين من الغرق يجدفان نحو جزيرة، دون أن يدريا إذا كانت جزيرة حقيقية أم مجرد طيف. كانت مارتا هى الأبرع فى الرسم، ولهذا تولت هى مهمة نقل النماذج الستة المختارة إلى الورق، مع تكبيرها بطريقة المربعات التقليدية، إلى الحجم المضبوط الذى ستُصنع

به الدمى بعد أن تقولب، بمقدار شبر كبير إلى حدّ ما، ليس شبرها هي التي يدها صغيرة، وإنما شبر أبيها. واصلت عملية تلوين الرسوم، وهي عملية معقدة، ليس بسبب المبالغة في مخاوف الدقة والإتقان في التنفيذ، وإنما لأنه لا بد من الاختيار والمواءمة بين ألوان لا تدرى إذا ما كانت تتفق مع طبيعة الشخصوص، ذلك أن الموسوعات المصورة وفق تقنيات الطباعة في زمنها لا تتضمن إلا رسوماً ذات قامة حلوة، تدقق في التفاصيل دون تأثيرات لونية أخرى سوى تنويعات رمادي ظاهري ينتج عن طباعة الخطوط السوداء على خلفية الورق الثابتة. ومن بين تلك النماذج كلها، كانت الممرضة دون ريب هي الأسهل في الرسم. قلنسوة بيضاء، بلوزة بيضاء، تنورة بيضاء، حذاء أبيض، كل شيء أبيض أبيض أبيض، كل شيء بياض ناصع لا تشوبه شائبة، كما لو أنها ملاك رحمة ينزل إلى الأرض مكلفاً بالتخفيف من الهموم وتسكين الآلام بينما لا يُستدعى، قبل أو بعد، ملاك آخر بملابس مماثلة لتهدئة آلامها وتسكين كربوها. ورجل الاسكيمو لا يقدم كذلك مصاعب تذكر، فالجلود التي تغطيه يمكن تلوينها بلون بين الرمادي والشاحب، تتخلله بضع بقع شديدة البياض، لتظهر كجلد دب مقلوب على قفاه، والمهم هو أن يكون لرجل الاسكيمو وجه رجل اسكيمو، لأن هذا هو سبب مجيئه إلى الدنيا. أما مع المهرج، فالمشاكل ستصبح أكثر جدية بكثير، للسبب البسيط في أنه فقير. /هنا/فلو أن،

بدلاً من الأسمال البائسة التي هي عليه، كان مهرجاً غنياً، فسوف يحل المشكلة أى لون حيوى، براق، يوشم ببقع صغيرة لامعة توزع بضربات فرشاة على القلنسوة، على القميص، على السروال. ولكن المهرج فقير، أفقر من الفقر، يرتدى أسماًلاً بلا ذوق ولا تجانس، مرقعة من أعلى إلى أسفل، سترة تصل حتى ركبتيه، وسروالاً فضفاضاً ينتهى عند ربلى الساقين، وقميصاً يمكن لثلاثة أعناق أن تدخل فيه بكل راحة، وربطة عنق تبدو مثل مروحة، وصداراً هذيانياً، وحذاء كأنه زورقان. كل هذا يمكن أن يُرسم باطمئنان، فكون الأمر متعلق بمهرج فقير، لن يضيع أحد وقته فى الشراء إذا ما كان لألوان ذلك المسخ المصنوع من صلصال وقار الألوان التى يُقدم بها واقع الفقير، حتى عندما لا يعمل مهرجاً. والسيئ هو، إذا ما ألبست الدمى جيداً، فإن هذا الخليط لن يكون أسهل فى القولية من الصياد والفارس اللذين أثارا الكثير من الشكوك. والانتقال من هنا إلى البهلول سيكون انتقالاً من التشابه إلى التطابق، من التماثل إلى التوحد، من التناظر إلى الصنو. تطبيق ألوان أحدها بصورة مختلفة يمكن أن يخدم الآخر، وتبديل اثنين فى اللباس، تحوّل البهلول بسرعة إلى مهرج والمهرج إلى بهلول. وهما، إذا ما أمعنا النظر، شكلان يبدو أحدهما نسخة عن الآخر، سواء بلباسهما أو بوظيفتهما، والفارق الوحيد الذى يُلحظ بينهما، من وجهة نظر اجتماعية، هو أنه ليس من المعهود أن يذهب المهرج إلى قصر الملك. أما المندرين الصينى

بجلبابه والأشوري بعباءته فلا يتطلبان كذلك اهتماماً خاصاً، فبلمستين صغيرتين فى العينين، يصير وجه الاسكيمو نافعاً للصينى، ولحية الأشورى الكثة والتموجة تجعل العمل أسهل فى الجزء السفلى من الوجه. أعدت مارتا ثلاث مجموعات من التصاميم، الأولى وفيّة تماماً للأصول، والثانية مثقلة بالاكسسوارات، والثالثة خالية من التفاصيل الزائدة، بهذه الطريقة سهل التفحص الخاص الذى ستكون الكلمة الأخيرة فيه للمركز، حول مصير الاقتراح، وفى حالة الموافقة عليه، ربما تختزل، هذا ما يؤمل على الأقل، إمكانية ظهور مزاعم مستقبلية حول الفروقات بين ما يظهر فى الرسم وما سينفذ بالصلصال. وبينما لم تكن مارتا قد انتقلت إلى المرحلة الثالثة، اكتفى سيبريانو ألاجور بمتابعة سير العمليات فاقداً الصبر لأنه لا يستطيع المساعدة، بل وأكثر من ذلك، لأنه يعى بأن أى تدخل من جانبه لن ينفذ إلا فى تصعيب وتأخير العمل. ومع ذلك، عندما وضعت مارتا أمامها الورقة التى ستبدأ عليها مجموعة الرسوم الأخيرة، جمع بسرعة النسخ الأولية، ومضى إلى مشغل الفخار. وقد أتىح للابنة الوقت مع ذلك لأن تقول له، لا تغضب إذا لم تخرج معك جيدة من المرة الأولى. وساعة بعد ساعة، خلال بقية ذلك النهار، وشطراً من اليوم التالى، حتى اللحظة التى يتوجب عليه فيها الذهاب إلى المركز لإحضار مرسىال، صنع الخزاف وأتلف دمي لها هيئة ممرضات ومندريبات صينيين، بهاليل وأشورين، رجال

اسكيمو ومهرجين، يكاد يكون من غير الممكن التعرف إليهم فى المحاولات الأولى، مع أنها راحت تكتسب شكلاً ومعنى كلما أخذت الأصابع تفسر من تلقاء نفسها ووفق قوانينها الخاصة، التعليمات التى تصلها من الدماغ، هذا الدماغ الذى نأتى به إلى الدنيا، هذا الذى نحمله داخل الجمجمة والذى يحملنا لكى نحمله، لم يتوصل قط إلى إنتاج شىء اللهم إلا نوايا ملتبسة، عامة، مشتتة، وقبل كل شىء، قليلة التنوع، حول ما يتوجب على اليدين والأصابع أن تفعله. فعلى سبيل المثال، إذا ما خطرت لدماغ الرأس فكرة رسم أو موسيقى، أو نحت، أو أدب، أو دمي من الصلصال، فإن ما يفعله هو إبداء الرغبة، ويظل ينتظر بعد ذلك، ليرى ما الذى سيحدث. فلمجرد أنه أصدر أمراً إلى اليدين وإلى الأصابع، يعتقد، أو يتظاهر بأنه يعتقد، بأن ذلك هو كل ما هو مطلوب لكى يتم إنجاز العمل، بعد بعض العمليات التى تنفذ بأطراف الذراعين. لم يراوده الفضول قط فى التساؤل عن السبب فى أن الناتج النهائى لتلك المعالجات اليدوية المعقدة دوماً، حتى فى أبسط ملامحها، لا يشبه ولو قليلاً ما كان قد تصوره قبل أن يعطى التعليمات إلى اليدين. لاحظ أن أصابعنا، حين نولد، لا تكون لها أدمغة بعد، تأخذ بالتشكل شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، وبمساعدة ما تراه العينين. ومساعدة العينين مهمة، بقدر أهمية المساعدة التى يوفرها ما تراه. ولهذا فإن أفضل ما فعلته اليدين على الدوام، هو كشف المستور تحديداً. فما يمكن إدراكه بالدماغ كمعرفة موحية، سحرية، أو

خارقة للطبيعة، أياً كان ما يعنيه خارق للطبيعة، سحري، موحى، فإن الأصابع وأدمغتها الصغيرة هي التي تُعلّمه. فلكى يعرف دماغ الرأس ما هو الحجر، كان لا بد للأصابع من أن تلمسه، وأن تحس بخشونته، بوزنه، بكثافته، كان لا بد لها من أن تُجرح به. وبعد وقت طويل فقط أدرك العقل أنه يمكن، من قطعة الصخر تلك، صنع شيء سيسميه خنجراً، وشيء آخر سيسميه إلهاً. لقد كان دماغ الرأس، طوال الحياة، متخلفاً بالمقارنة مع اليدين، وحتى في هذه الأزمنة، عندما يبدو أنه قد تقدم، لا تزال الأصابع هي التي عليها أن تفسر تحريات اللمس، قشعريرة البشرة لللمس الصلصال، تفتيت الإزميل الحاد، نهش الحمض لصفحة المعدن، الرعشة الخفيفة أمام صفحة ورق مبسوطة، وصف النسيج، تركيب الألياف، الأبجدية المنقوشة. والألوان. الحقيقة تستدعي القول إن الدماغ أقل فهماً بكثير للألوان مما يُعتقد. صحيح أنه يستطيع أن يرى، بهذا القدر أو ذاك من الوضوح، ما تعرضه له العينان، ولكنه يعاني في معظم الحالات ما يمكننا تصنيفه على أنه مشكلات في التوجه عندما يحين موعد تحويل ما يُرى إلى معرفة. وبفضل الثقة اللاشعورية التي زوده بها مرور الحياة، ينطق أسماء الألوان التي يدعوها أساسية (أولية) وتكميلية، ولكنه يقف حائراً ومتشككاً على الفور، عندما يحاول تشكيل كلمات يمكن لها أن تنفع كتسميات، أو المعنى التفسيري المطابق لشيء يلامس ما لا يمكن تقديم وصف له، هذا اللون الذي لم يولد تماماً بعد والذي،

بالموافقة، بالتواطؤ، وأحياناً بالمفاجئة من العينين نفسيهما، من اليدين والأصابع الآخذة بخلقه، وربما لا يتوصل أبداً إلى تلقى تسميته المضبوطة. أو ربما يكون قد امتلكها، ولكن اليدين وحدهما تعرفانها، لأنهما ركبتا الحبر كما لو أنهما تفككان الأجزاء المكونة لنوتة موسيقية، لأنها تلوثت برائحته واحتفظت باللطخة في عمق البشرة، ولأنه بهذه المعرفة الخفية للأصابع فقط، قد يصير بالإمكان ذات يوم رسم لوحة الأحلام اللامتناهية. وبثقة مما تظن العينان أنهما رأيتاه، يؤكد دماغ الرأس أنه، حسب الضوء والظل، الريح والسكون، الرطوبة والجفاف، فإن الشاطئ أبيض، أو أصفر، أو ذهبي، أو رمادي، أو بنفسجي، أو أى شىء بين هذه أو تلك، ولكن الأصابع تأتي بعد ذلك، بحركة جامعة، كما لو أنها تحصد المحصول، وترفع من الأرض كل الألوان التي في العالم. ما يبدو فريداً يكون جمعياً، وما هو جمعى يكون أكثر من ذلك. وليس أقل حقيقية، مع ذلك، أنه في الوهج الهائج للون واحد، أو في صياغته الموسيقية، تكون حاضرة وحية التلونات الأخرى كلها، سواء الخاصة بالألوان التي لها أسماء، أو تلك التي مازالت تنتظر، بالطريقة نفسها التي يمكن بها لتمدد مظهر أملس، أن يغطى، وأن يكشف في آن واحد، آثار كل ما عيش وحدث في تاريخ العالم. كل أركيولوجيا مكونة من المواد هي أركيولوجيا بشرية. ما يخفيه هذا الطين ويكشفه هو عبور الكائن في الزمان ومروره في الأمكنة، إشارات الأصابع، خرمشة الأظفار، الرماد وفحم المواقد

المطفأة، العظام الذاتية والعظام الغريبة، الدروب التي تفترق بصورة أبدية وتأخذ بالتناثى إلى أن يضيع بعضها عن بعض. هذه الحبة التي تزهر على السطح هي ذاكرة، هذا الانحطاط، هذه العلامة المتبقية من جسد مدفون. الدماغ سأل وطلب، واليد أجابت وفعلت. مارتا قالت ذلك بطريقة أخرى، لقد توصلت إلى الإمساك بالحيلة.

إننى ذاهب إلى عمل للرجال، وستبقى أنت هذه المرة فى البيت، قال سيبريانو أَلجور للكلب الذى جاء راكضاً عندما رآه يقترب من الشاحنة. من الواضح أن لقية لا يحتاج إلى أن يأمره بالصعود، يكفى أن يتركوا باب السيارة مفتوحاً ما يكفى من الوقت كي يفهم أنهم لن يطردوه فيما بعد، ولكن السبب الحقيقى لركضه القلق، مهما بدا ذلك غريباً، هو افتراضه، فى جزعه ككلب، أنهم سيتركونه وحيداً. فمارتا التى خرجت إلى الفناء وهى تتبادل الحديث مع أبيها وترافقه حتى الشاحنة، كانت تحمل فى يدها مغلفاً يضم رسوم الاقتراح، ومع أنه لم تكن لدى الكلب لقية أفكار واضحة حول ما هى المغلفات والمقترحات والرسوم، أو ما هى فائدتها، إلا أنه كان يعرف من الحياة أكثر مما هو فائض عن الحاجة، فهو يعرف أن الأشخاص الذين يتأهبون للصعود إلى سيارة، يحملون أشياء معهم عادة، بل ويعرف أنهم يلقون بها إلى المقعد الخلفى بصورة عامة، حتى قبل أن يصعدوا. وباستناد إلى هذه الخبرات، يمكن فهم أن ذاكرة لقية

جعلته يفكر فى أن مارتا سترافق أباهما فى هذا الخروج الجديد فى الشاحنة. وعلى الرغم من قلة الأيام المنصرمة منذ مجيئه، لم تكن لديه شكوك فى أن بيت أسياده هؤلاء هو بيته، ولكن حس الملكية لديه، بسبب حداثة عهده، لا يتيح له بعد أن يقول وهو يتلفت فيما حوله، هذا كله لى. أضف إلى ذلك أن كلباً، أياً يكن حجمه، أو سلالته، أو طبيعه، لا يتجرأ أبداً على نطق كلمات تشير إلى التملك بهذا القدر من فظاعة التملك، بل يمكن له أن يقول، فى أقصى الحدود، هذا كله لنا، وحتى فى هذه الحالة، وبالنظر إلى وضع هذين الخرافين الخاص وأملاكهما المنقولة وغير المنقولة، فإن الكلب لقيه لن يكون بمقدوره، من الآن وإلى ما بعد عشر سنوات، أن يعتبر نفسه مالكاً ثالثاً. ربما يكون أقصى ما يمكنه التوصل إليه، عندما يصير كلباً عجوزاً، هو الإحساس الغامض والملتبس بالمشاركة فى شىء معقد بصورة تنطوى على مجازفة، شىء متفقت المعانى إذا صح القول، شىء هو كلُّ مكُون من أجزاء وكل جزء منها هو الجزء الذى هو عليه، وفى الوقت نفسه، الكلُّ الذى هو جزء منه. أفكار مغامرة مثل هذه الفكرة يمكن للعقل البشرى، دون تفصيل، أن يتصورها إلى هذا الحد أو ذاك، ولكنه يجد صعوبة هائلة فى تفحصها عن قرب، هى خبزنا كفاف يومنا فى مختلف الأمم الكلبية، سواء من وجهة نظر نظرية محضة أو فيما يتعلق بنتائجها العملية. ولا يفكرن أحد، بالرغم من كل شىء، أن روح الكلاب هى سحابة صفاء تمر بهدوء، أو فجر ربيعى ناعم

النور، أو بركة حديقة فيها بجع أبيض ينزلق، فلو كان الأمر كذلك لما راح لقية يثن فجأة بصورة تدعو إلى الأسى، كان يقول، وأنا، وأنا. وللرد على تمزق تلك الروح المغمومة، لم يجد سيبريانو الجور، وهو خائف من مسئولية المهمة التي تحمله إلى المركز، كلمات أفضل من ستبقى أنت هذه المرة فى البيت. لحسن الحظ أن الحيوان المكروب رأى مراتنا تخطو خطوتين إلى الوراء بعد أن سلّمت المغلف لأبيها، وهكذا فهم لقية أنهما لن يتركاه دون صحبة. والحقيقة أنه على الرغم من أن كل جزء يشكل، بذاته، الكلّ الذى ينتمى إليه، مثلما نعتقد أننا أثبتناه فى - $a + b$ إلا أن اجتماع جزأين معاً يعطى على الدوام حصيلة مختلفة. أشارت مارتا بإيماءة وداع تعب و عادت إلى البيت. لم يلحق بها الكلب فوراً، انتظر إلى أن اختفت الشاحنة وراء أول بيت فى القرية، بعد أن نزلت المنحدر حتى الطريق العام. وعندما دخل بعد قليل إلى المطبخ، رأى سيدته تجلس على الكرسي نفسه الذى كانت تشتغل عليه خلال تلك الأيام. كانت تمر بأصابعها على عينيها مرة بعد أخرى كما لو أنها تحتاج إلى تهدئتهما من ظل أو من ألم. مؤكّد أن السبب هو كونها فى طراوة الشباب الغض. لم يجد لقية الوقت بعد لتكوين آراء واضحة وحاسمة حول ضرورة الدموع ومعناها عند الكائن البشرى، ومع ذلك، ويتقدّر أن هذه الخلائط السائلة التى تلح على الظهر فى مرق المشاعر الغريب، هى العقل والقسوة اللذان يتكون منهما الكائن البشرى المذكور، فقد فكرّ فى أنه ربما

لا يكون من الخطأ الفاحش الاقتراب من سيدته الباكية ووضع رأسه بعذوبة على ركبتيها. لو كان هناك كلب أكبر سناً، ولأنه أكبر سناً بالتحديد، باعتبار أن التقدم في السن يستدعى تحمل ذنوب مضاعفة، لكان سيعلق بسخرية على حركة التودد، ولكن السبب في ذلك يجب أن يكون في أن خواء الشيخوخة يجعله ينسى أن الكثير أفضل من القليل دوماً فيما يتعلق بشئون القلب والمشاعر. مرّت مارتا المتأثرة بيدها على رأسه مداعبة، ولأنه لم ينسحب وواصل النظر إليها بثبات، فقد تناولت قطعة فحم وبدأت ترسم على الورق أول خطوط رسمها الأولى. في البدء حالت الدموع دون أن ترى جيداً، ولكنها شيئاً فشيئاً، ومع اكتساب يدها الثقة، راحت عينها تصفوان، وكما لو أن رأس الكلب قد برز من أعماق مياه عكرة، بدا لها بكامل جماله وقوته. ومن ذلك اليوم صارت تحب لقيه بقدر ما نعرف أن سيبريانو يحبه.

كان صانع الخزف قد خلّف وراءه القرية، والبيوت الثلاثة المعزولة التي لن يأتي أحد لرفعها من الخراب، وهو يحاذي الآن الضفة المخنوقة بالنتانة، ويجتاز الحقول المكشوفة، والغابة المهجورة، لقد ذرع هذا الطريق مرات كثيرة إلى حدّ أنه لم يعد ينتبه إلى الكتابة التي تحيط به، ولكن لديه اليوم سببين للقلق يبرران زهوله، أحدهما المسعى التجارى الذى يقوده إلى المركز، وهو لا يحتاج إلى تنويه خاص بكل تأكيد، أما السبب الثانى، والذى لن يُعرف كم من الوقت

سيواصل التأثير فيه، فهو ما يبث القلق أكثر فى روحه، إذ إنه عند مروره بجانب مدخل الشارع الذى تعيش فيه إساورا إستوديوسا، يشعر بدافع غير متوقع ولا يجد له تفسيراً يدفعه إلى الاقتراب لمعرفة أخبار الإبريق، هل كشف الاستعمال عيوباً خفية فيه، وهل يقطر الماء منه، وهل كان يحتفظ بالماء بارداً. وسيبريانو ألجور لا يعرف بالفعل هذه الجارة منذ اليوم ولا منذ أمس، فمن المستحيل أن يكون هناك من يعيش فى القرية دون أن يعرفه، لأسباب تتعلق بمهنته، ومع أنه لم يكن هناك ما يمكن تسميته علاقة صداقة مع تلك الأسرة، إلا أن آل ألجور، الأب والابنة، قد رافقا إلى المقبرة موكب جنازة جواكين إستوديوسو الذى أخذت إساورا هذا الاسم الثانى منه، وكانت قد جاءت من قرية نائية لتتزوج هنا، وصارت معروفة مثلما هو شائع فى القرى. وسيبريانو ألجور يتذكر أنه قدم لها تعازيه عند مخرج المقبرة، فى المكان نفسه الذى عادا للقاء فيه وتبادل الانطباعات والوعود بشأن إبريق مكسور. لقد كانت مجرد أرملة أخرى فى القرية، امرأة أخرى تمضى بملابس الحداد الصارمة خلال ستة شهور، تليها ستة شهور حداد خفيف أخرى، وبعد ذلك هى وحظها، فقد كانت هناك أزمنة، بين حداد صارم وخفيف، يمر كل منهما على جسد المرأة، وربما على روحها، طوال سنة كاملة بأيامها ولياليها، دون التكلم عن أولئك النسوة اللواتى يضطرهن قانون العادات، لتقدمهن فى السن، إلى العيش متسربلات بالسواد حتى اليوم الأخير من

حياتهن. يتساءل سيبريانو أَلجور إن كان، ما بين اللقاءين فى المقبرة، قد تحدث ذات مرة مع أساورا إستوديوسا، ويفاجئه الجواب، ولكنك لم ترها مجرد رؤية خلال هذا الوقت، هذا صحيح، ويجب ألا نستغرب فرادة هذا الوضع الظاهرية، ففى الشئون التى تتحكم فيها المصادفة لا يكون هناك فرق بين العيش فى مدينة تضم عشرة ملايين نسمة أو ضيقة تضم مئات قليلة من الجيران، إذ لا يحدث إلا ما يتوجب حدوثه. فى هذه اللحظة أراد تفكير سيبريانو أَلجور أن يتحول نحو مارتا، وكان على وشك أن يُحمّلها مرة أخرى مسئولية التخيلات التى تدور فى رأسه، غير أن حياديته ونزاهة تعقله الحاميتين تمكنتا من التغلب، لا تتهرب ودع ابنتك بسلام، فهى لم تقل إلا الكلمات التى ترغب أنت فى سماعها، والمسألة الآن هى فى أن تعرف إذا كان لديك ما تقدمه إلى إساورا إستوديوسا أكثر من إبريق، وإذا ما كانت هى أيضاً مستعدة لتلقى ما تتصور أنك تستطيع تقديمه إليها، إن كنتَ قادراً على تخيل شىء. توقفت مناجاته لنفسه أمام حاجز هذه الممانعة التى لا يمكن تجاوزها حالياً، وكان هذا التوقف المفاجئ مناسبة استغلها سبب قلقه الآخر، والذى يتفرع إلى ثلاثة أسباب، دمی الصلصال، والمركز، ومدير قسم المشتريات، سنرى إلى أين سينتهى هذا الأمر، دمدم صانع الخزف، وهى جملة ملتوية دلاليًا يمكن لها، إذا ما نُظر إليها بإمعان، أن تفسد بالقدر نفسه فى أن تزين بلُبوس سهو وإضمار متواطئة مسألة إساورا إستوديوسا المهيجة.

لقد فات الأوان، فها نحن نجتاز الحزام الزراعى، أو الأخضر كما يواصل تسميته من يروقهم تجميل الواقع الفظ بالكلمات، فهذا اللون الشبيه بلون ثلج متسخ يغطى الأرض، وهذا البحر غير المتناهى من البلاستيك حيث تبدو الدفيئات المتماثلة كأنها جبال جليد متحجرة. هناك فى الداخل لا توجد برودة، بل على العكس، فالرجال الذين يعملون هناك يختنقون من الحر، يُطبخون بعرقهم بالذات، يُغمى عليهم، إنهم أشبه بخرق مبللة وملوية بأيد قوية. إذا لم يكن هذا القول كله هو نفسه فإنه كله التفكير نفسه. الشاحنة تمضى اليوم فارغة، وسيبريانو ألاجور لم يعد ينتمى إلى جمعية البائعين للمركز لسبب مسلّم به هو أن ما يصنعه فقدَ أهميته، وهو يحمل الآن ستة تصاميم فى المقعد المجاور، حيث وضعتها مارتا، وليس فى المقعد الخلفى مثلما تصور لقية، وهذه التصاميم هى البوصلة الوحيدة والهشة لهذه الرحلة. يقال إن المنظر الطبيعى هو جزء من الروح، وإننا نرى المشهد الخارجى بعينى الداخل، أياكون أن أعضاء الرؤية الداخلية الاستثنائية تلك لم تستطع رؤية هذه المصانع وهذه الهنكارات، هذا الدخان الذى يلتهم السماء، هذا الغبار الخانق، هذه الوحول الأبدية، هذه الضفاف المغطاة بالسناج، قمامة الأمس مكنوسة فوق قمامة كل الأيام، وقمامة الغد مكنوسة فوق قمامة اليوم، وفى هذه الحالة تكفى عينا الوجه العاديتان لتُعلِّما أشد الأرواح رضى على التشكك بالسعادة التى تفترض أنها تنعم بها.

بعد أن اجتاز الحزام الصناعي، على الطريق العام، وصار في الأراضي البور التي تشغلها الأكواخ، ظهرت شاحنة كبيرة محترقة. لا وجود لما يشير إلى البضاعة التي كانت تحملها، باستثناء بقايا صناديق متفرقة ومسودة بلا لصاقات حول محتوياتها ومصدرها. إما أن الحمولة قد احترقت مع الشاحنة، وإما أنهم استطاعوا إنزالها قبل أن تشتد النار. الأرض مبللة حولها، وهذا يثبت أن رجال المطافئ قد هرعوا إلى الحدث المشؤم، ولكنهم وصلوا متأخرين كما يبدو، إذ إن الشاحنة قد احترقت بالكامل. كانت سيارتنا شرطة تقفان أمامها، وفي الجانب الآخر من الطريق توجد ناقلة جنود عسكرية. خفف صانع الخزف السرعة ليرى بصورة أفضل ما جرى، غير أن رجال شرطة المرور المستائين والعايسين أمرؤه بأن يواصل التقدم فوراً، فلم يُتح له الوقت لأكثر من سؤالهم عما إذا كان قد مات أحد، ولكنهم لم يهتموا بسؤاله، وصرخوا به، قايع، تابع طريقك، وكانوا يومئذ بحركات نشطة من أذرعهم. عندئذ نظر سيبريانو ألاجور إلى الجانب ورأى أن هناك جنوداً يتحركون بين الأكواخ. وبسبب السرعة لم يتمكن من رؤية أكثر من ذلك، باستثناء أنهم كانوا يجبرون قاطني تلك البيوت على الخروج منها. من المؤكد أن المهاجمين في هذه المرة لم يكتفوا بالسلب. ولسبب مجهول، لم يحدث مثل هذا من قبل، أضرموا النار في الشاحنة، ربما يكون السائق قد قاوم عنف السرقة بالمثل، أو أن جماعات الأكواخ المنظمة هي التي قررت تغيير

الإستراتيجية، بالرغم من أنه يصعب فهم أية شياطين من المنفعة ينتظرون الحصول عليها مع عمل عنيف كهذا، لن يكون إلا وسيلة لتبرير أعمال عنف مماثلة من السلطات، وفكر صانع الخزف، إنها المرة الأولى على حد علمي التي يدخل فيها الجيش إلى أحياء الأكواخ، فالمداهمات كانت حتى الآن من اختصاص الشرطة، بل إن الأحياء كانت تضع ذلك في حسابها، فالشرطيون يأتون، يوجهون بعض الأسئلة أحياناً، وفي أحيان أخرى لا يفعلون ذلك، ويعتقلون رجلين أو ثلاثة رجال، ثم تتواصل الحياة كما لو أن شيئاً لم يحدث، وعاجلاً أو آجلاً يعود المعتقلون إلى الظهور. راح صانع الخزف سيبريانو ألبور ينسى الجارة إساورا إستوديوسا، تلك التي قدم لها إبيريقاً من الفخار، ومدير قسم المشتريات في المركز، ذاك الذي لا يعرف إن كان سيتمكن من إقناعه بجاذبية الدمى الجمالية، فكل تفكيره مرَّكز على شاحنة فحمتها أسنة اللهب إلى حد لم يبق معه أي أثر للحمولة التي كانت تحملها، إذا كانت تحمل شيئاً. أجل، أجل. كرر الكلمة مثل من يتراجع بعد تعثره بحجر، ليتعثر به ثانية، كما لو أنه يضربه مرة بعد أخرى بانتظار أن يطفئ منها شرارة، ولكن الشرارة لا تحزم أمرها بالظهور، وكان سيبريانو ألبور قد استهلك وهو في هذه الأفكار أكثر من ثلاثة كيلومترات وبدأ يتخلى عنها، وها هي إساورا إستوديوسا تستعد لتنازع مدير قسم المشتريات الميدان، عندما طفرت الشرارة فجأة، وحدث الضوء، فالشاحنة لم يحرقها أناس الأكواخ، بل

الشرطة نفسها، وقد كانت ذريعة لدفع الجيش إلى التدخل، أراهن على رأسى بأن هذا هو ما حدث، دمدم صانع الخزف، وعندئذ أحس بأنه متعب جداً، ليس لأنه أجهد دماغه كثيراً، وإنما لتأكدته من أن العالم هكذا، وأن الأكاذيب كثيرة والحقائق غير موجودة أو قليلة إلى حد لا يتاح لنا الوقت للتفكير فيها على أنها حقيقة محتملة، لأنه علينا أن نتحرى أولاً إذا لم تكن كذبة محتملة. نظر سيبريانو ألبور بطرف عينه إلى الساعة، وما كانت الحركة ستفيده فى شيء لو أن ما أراد معرفته الوقت، لأنه فعل ذلك على الفور بعد المناظرة بين احتمالات الأكاذيب واحتمالات الصدق، فبدأ كما لو أنه يريد أن يجد النتيجة فى الوضع الذى يكون عليه عقربا الساعة، فزاوية قائمة تعنى نعم، وزاوية حادة ربما تؤثر الحذر، وزاوية منفرجة تقول لا بحزم، وزاوية مستقيمة من الأفضل ألا تفكر فى هذا. وعندما عاد بعد ذلك للنظر إلى ميناء الساعة، كانت العقارب تشير فقط إلى ساعات، ودقائق، وثوان، فقد تحولت مجدداً إلى عقارب، عقارب ساعة حقيقية ومنصاعة، قال، إننى ضمن الوقت المناسب، وكان محقاً، فهو ضمن الوقت، وهذا فى نهاية المطاف هو ما نكون عليه دائماً، ضمن الوقت، فى الوقت، على الوقت، وليس خارج الوقت أبداً، مهما يكلفنا ذلك. إنه الآن فى المدينة، يمضى فى الجادة التى تقوده إلى هدفه، وإلى الأمام، أسرع من الشاحنة، يمضى تفكيره: مدير قسم المشتريات، إساورا إستوديوسا، المسكينة، لقد ظلت فى الخلف.

وفى الواجهة، على أعلى الجدار القاتم الذى يقطع الطريق، يظهر حاجز أبيض ضخم، مستطيل، خُطت عليه حروف زرقاء لامعة وكثيفة تُقرأ من جانب إلى آخر هذه الكلمات، **عش بأمان، عش فى المركز.** ويظهر تحتها سطر مقتضب أيضاً، كلمتان فقط، بالأسود، لا تتمكن عينا سيبريانو ألبور حسيرتا البصر تميزهما عن هذا البعد، وإن كانتا لا تستحقان اهتماماً أقل من رسالة الحروف الكبيرة، ويمكن لنا إذا شئنا تحديدهما تماماً، فما تتصحان به، اطلب المعلومات. الحاجز يظهر بين حين وآخر مكرراً الكلمات نفسها، وما يتبدل هو اللون فقط، وفى بعض الأحيان يعرض صور أسر سعيدة، من زوج فى الخامسة والثلاثين، وزوجة فى الثالثة والثلاثين، وابن فى الحادية عشرة، وابنة فى التاسعة، وهناك أيضاً، وإن يكن ليس دائماً، جد وجدة بشعر أبيض تجاعيد قليلة وسن غير ممكنة التحديد، وجميعهم مجبرون على الابتسام ليُظهر كل منهم أسنانه، وهى كاملة، ناصعة، متألئة. بدت تلك الدعوة لسيبريانو ألبور نذير شؤم، فها هو يسمع صهره يخبره، للمرة المئة، بأنهم سيعيشون فى المركز عندما تأتى ترقيته إلى حارس مقيم، وفكر، سوف تنتهى نحن الثلاثة أيضاً إلى ملصق إعلان من هذه الإعلانات، فلديهم مارتا وزوجها كزوجين شبابين، وأنا سأكون الجد إذا ما تمكنوا من إقناعى، والجدة لا وجود لها، لقد ماتت منذ ثلاث سنوات، وما ينقص الآن هم الأحفاد، ولكنهم يستطيعون أن يضعوا لقية فى الصورة،

فصورة كلب تكون مناسبة على الدوام فى إعلانات العائلات السعيدة، ومهما بدا ذلك غريباً، لأن الأمر يتعلق بكائن غير عاقل، فإنه يضى لمسة إنسانية سامية ولطيفة سهل التعرف عليها. استدار سيبريانو ألبور بالشاحنة نحو الشارع الأيمن، الموازى للمركز، بينما هو يفكر أن لا، ليس ممكناً، فهم لا يتقبلون فى المركز وجود كلاب ولا قطط، ربما يقبلون عصافير فى أقفاص، ببغاوات، كنفاريات، حساسين، ويتقبلون دون شك أسماكاً فى أحواض، وخاصة إذا كانت أسماكاً تروبيكالية، من تلك التى لها زعانف كثيرة، أما القطط فلا، وأقل منها الكلاب، هذا هو ما ينقصنا، أن نتخلى عن لقية مرة أخرى، تركه مهجوراً مرة واحدة كان كافياً، وفى هذه اللحظة تسلفت إلى تفكير سيبريانو ألبور صورة إساورا إستوديوسا وهى إلى جانب جدار المقبرة، وبعد ذلك وهى تشد الإبريق إلى صدرها، وبعد ذلك وهى تقول وداعاً عند الباب، غير أنه كان لا بد لها أن تختفى مثلما ظهرت، فقد رأى أمامه مدخل القبو حيث تُسلم البضائع وحيث يراجع مدير قسم المشتريات وثائق التسليم والفواتير ويقرر بشأن ما يدخل وما لا يدخل.

لم تكن هناك، فضلاً عن الشاحنة التى يجرى تفريفها، سوى شاحنتين أخريين تنتظران دورهما. وقدّر الخزاف، بمنطق سليم، أنه لم يأت لتسليم بضاعة، وأنه معفى بالتالى من الوقوف فى صف الشاحنات. المسألة التى جاء من أجلها هى من

اختصاص رئيس القسم حصراً، وليس للتفاوض بشأنها مع موظفين مرءوسين ومتحفظين منذ البدء، وما عليه بالتالى إلا أن يقدم نفسه عند منضدة الكونتوار، ويعلن عن سبب مجيئه. أوقف الشاحنة الصغيرة، وحمل الأوراق، وبخطوات تبدو ثابتة، غير أنه يمكن لمراقب منتبه أن يلحظ أثر ارتجاف الساقين فى توازن الجسم، اجتاز الرصيف الملوث بلطخات زيت قديمة وحديثة، حتى بلغ منضدة الاستقبال، حياً من يقف هناك بمساء خير مهذبة وطلب التحدث إلى رئيس القسم. حمل الموظف ذلك الطلب الشفوى، ورجع فى الحال ليقول: ها هو آت. وقد انقضت عشر دقائق قبل أن يظهر، ليس الرئيس المطلوب، وإنما أحد مساعديه. لم يرق لسيبريانو ألجور أن يروى القصة لشخص ليست له، على العموم، من فائدة فى التسلسل الوظيفى العملى سوى أن يكون متراساً أمامياً لمن هو أعلى منه مرتبة. ما أنقذه أن معاون الرئيس نفسه أدرك، فى منتصف الحديث، أن اهتمامه بالموضوع حتى نهايته سيكلفه المشقة وحسب، وأن من سيتخذ القرار فى نهاية المطاف، بطريقة أو بأخرى، هو المدير المسئول، وبالتالى ما شأنه هو. ومن تصرف معاون المدير هذا، يمكن لنا الاستنتاج بكل سهولة أنه مستاء اجتماعياً. لقد قطع كلام الخراف بجفاء، وتناول الاقتراح والتصاميم ومضى. تأخر بضع دقائق فى الخروج من الباب الذى دخل منه، وأشار من هناك إلى سيبريانو ألجور كى يتقدم، ولا حاجة

إلى التذكير مرة أخرى بأن ساقيه تميلان، فى هذه الحالات، إلى زيادة الارتعاش الذى هما فيه أصلاً، وبعد أن أفسح له الطريق، عاد إلى مهماته الخاصة. كان رئيس القسم يمسك المقترح بيده اليمنى، وكانت التصاميم مصفوفة أمامه على المنضدة، مثل أوراق لعبة سوليتير. أوماً إلى سيبريانو ألبور بأن يجلس، وهذه لفتة عناية إلهية أتاحت لصانع الخزف التوقف عن التفكير فى ساقيه والانطلاق فى عرض قضيته. مساء الخير يا سيدى، وعذراً لمجيئى لإزعاجك فى عملك، ولكنها فكرة خطرت لنا، أنا وابنتى، ولأكون أكثر صراحة، إنها فكرتها أكثر مما هى فكرتى. فقاطعه المدير، قبل أن تواصل، يا سيد ألبور، من واجبى أن أخبرك بأن المركز قد قرر التوقف عن شراء منتجات ورشتك، وأعنى تلك المنتجات التى كنت تزودنا بها إلى أن أوقفنا الشراء، الأمر الآن نهائى ولا رجعة عنه. أخفض سيبريانو ألبور رأسه، عليه أن يكون حذراً جداً فى اختيار الكلمات، فمهما حدث، لا يمكنه أن يقول أو يفعل شيئاً يعرضه للمجازفة بإمكانية سدّ الطريق أمام صفقة الدمى، ولهذا اكتفى بالدمدمة، لقد كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل يا سيدى، ولكن اسمح لى بفضفضة عن النفس، فسماع مثل هذه الكلمات من فمك، بعد سنوات طويلة من تمويل المركز، هو أمر قاس، هكذا هى الحياة، كثيراً ما تتكون من أشياء تنتهى، وتتكون من أشياء تبدأ أيضاً، لكنها ليست الأشياء نفسها على الإطلاق.

صمت مدير القسم قليلاً، حرك الرسوم بتثاقل، كما لو أنه ساه، ثم قال، لقد جاء صهرك للتحديث معي، أنا طلبت منه ذلك، من أجل الخروج من حالة التردد التي كنتُ فيها، دون أن أعرف إذا ما كان بإمكانى مواصلة صنع منتجاتى أم لا، أنت تعرف ذلك الآن، أجل يا سيدي، أعرف ذلك، ويجب أن يكون واضحاً لديك أيضاً أن هناك قاعدة ثابتة في المركز، وهي موضع افتخار، بأنه لا يقبل ضغوطاً أو تدخلاً من أطراف ثالثة في نشاطاته التجارية، وخاصة أن تأتي من موظف في الدار، لم تكن ضغوطاً يا سيدي، ولكنها كانت تدخلاً، أنا آسف. صمت آخر، وفكر الخزاف مغموماً: ما الذي مازال على أن أسمع. ولم يتأخر طويلاً في معرفة ذلك، فقد فتح الرئيس الآن سجلاً، وراح يتصفحه، تفحص صفحة، وأخرى، ثم جمع بعد ذلك كميات في آلة حاسبة صغيرة، وقال أخيراً: لدينا في المستودع، دون إمكانية لتصريفها ولو بسعر التصفية، أو حتى بأقل مما كلفتنا، كمية كبيرة من منتجات مشغلك، بضاعة متنوعة تشغل حيزاً أنا بحاجة إليه، لهذا السبب أجد نفسي مضطراً للطلب منك بأن تبادر إلى سحبها من المستودع خلال أسبوعين كحد أقصى، كنت أنوى أن الاتصال بك تلفونياً في الغد لأخبرك بذلك، لست أدري كم من السفرات على القيام بها، فشاحتى صغيرة، بحمولة واحدة كل يوم تنهى المسألة، ولمن سأبيع خزفي الآن، سأله الخزاف المغموم، هذه مشكلتك وليست

مشكلتي، لدى الآن على الأقل صلاحية التفاوض مع
تجار المدينة، لقد صار عقدك معنا لاغياً، ويمكنك
التفاوض مع من تشاء، إذا كان هناك ما يستحق عناء
التفاوض، أجل، إذا كان هناك ما يستحق عناء
التفاوض، فالأزمة خارجاً حرجة، أضف إلى ذلك،
وصمت مدير القسم، تناول التصاميم وجمعها معاً، ثم
راح يستعرضها واحداً فواحداً، وينظر إليها باهتمام
يبدو صريحاً، كما لو أنه يراها أول مرة. ولم يكن
بإمكان سيبريانو ألجور أن يسأل: وماذا بعد، بل كان
عليه أن ينتظر، يتظاهر بالقلق، فمدير القسم في
نهاية المطاف، أو في بدايته، هو من يقرر على الدوام
قواعد اللعبة، واللعبة التي تجرى الآن هي لعبة غير
متكافئة، كل الانتصارات فيها سقطت في الجانب
نفسه، بل إن قيمة أوراق اللعب تتبدل وفق مشيئة من
يملك اليد العليا، وهو وضع يمكن للملك فيه أن يكون
أعلى قيمة من الآس أو أقل من الملكة، أو أن تكون
قيمة الشاب مساوية لقيمة الفارس، أو أن يكون هذا
الأخير أكبر قيمة من الأسرة المالكة بأسرها، مع أنه لا
بد من الاعتراف، حيث إن الدمى المعروضة هي ست،
بأن الميزة العددية، وإن يكن بفارق ضئيل، هي لصالح
صانع الخزف. أعاد رئيس القسم جمع التصاميم،
ووضعها جانباً بحركة غير مبالية، وبعد أن نظر مرة
أخرى إلى السجل، أنهى جملته: وفضلاً عن ذلك،
أعنى، فضلاً عن الوضع الكارثي الذي تجد التجارة
التقليدية نفسها فيه، ليس هناك ما يحمي البضاعة

التي أفقدها الزمن وتبدل الذوق الاعتبار، يحظر على مشغل الخزف عقد صفقات في الخارج إذا ما طلب منه المركز المنتجات التي تُقترح عليه في هذه اللحظة، أظن أنني فهمت يا سيدي أنه لا يمكننا بيع الدمى إلى تجار المدينة، لقد فهمتني جيداً، ولكنك لم تفهم كل ما عنيته، لم أصل إلى ما أردت حضرتك بلوغه، ليس الدمى وحدها هي ما لا يمكن لكم بيعه، وإنما لن تكونوا مخولين كذلك ببيع أية منتجات أخرى ينتجها مشغل الخزف، حتى عندما تتلقون طلبيات، رغم عدم معقولية ذلك، أفهم أنه منذ اللحظة التي تعودون إلى قبولى كممون للمركز، لا يمكنني أن أكون مموناً لأحد سواه، بالضبط، ولكن المسألة ليست سبباً للمفاجأة، فالقاعدة كانت هكذا على الدوام، على أي حال يا سيدي، في وضع كالوضع الراهن، عندما لم تعد بعض المنتجات المحددة تهم المركز، يكون من العدل منح الممون حرية البحث عن مشترين آخرين، إننا في ميدان الوقائع التجارية يا سيد الجور، والنظريات التي ليست في خدمة الوقائع ولا تعززها لا يأخذها المركز في الاعتبار، واعلم منذ الآن أننا منافسون أيضاً في صياغة النظريات، وقد أطلقنا بعضها هناك، أعني في السوق، ولكنها من تلك التي تفيد في الإثبات، وإن اقتضت الحاجة، لحل الوقائع إذا ما أساءت إحداها التصرف يوماً. فقال سيبريانو الجور لنفسه إنه عليه ألا يرد على التحدى. الوقوع في إغراء قلت أنت - أقول أنا مع رئيس

القسم، أنا أوكد وأنت تنفى، أنا أعترض وأنت ترد، سيؤدى إلى عواقب وخيمة، لا يُعرف أبداً متى يمكن لكلمة يساء فهمها أن تكون ذات نتيجة كارثية تطيح بأدق وأبرع جدليات الإقناع، وهو ما قالتها الحكمة القديمة، لا تلعب مع سيدك لعبة الكمثرى، لأنه سيأكل الناضجة ويترك لك الفجة. نظر إليه الرئيس بنصف ابتسامة وأضاف، لا أدري فى الحقيقة لماذا أقول لك هذه الأشياء، وبصراحة يا سيدى، أنا أستغرب ذلك أيضاً، فلستُ سوى خزاف عاى، والقليل الذى يمكننى أن أبيعهُ لكم ليس ثميناً إلى حدِّ يسوغ أن تهدر معى صبرك وتميزنى بتأملاتك، أجابه سيبريانو ألبور، ثم عض لسانه فوراً، فقد عاهد نفسه للتو بالألا يلقى حظياً فى نار محادثة متوترة بذاتها، وهاهو يطلق مرة أخرى استفزازاً، ليس مباشراً وحسب، وإنما فى غير محله أيضاً. فنهض معتقداً أنه يتجنب بهذه الطريقة الجواب الفظ الذى يتوجس منه خيفة، وقال، المَعذرة على الوقت الذى سلبتكَ إياه يا سيدى، أترك لك التصاميم لتدرسها، اللهم إلا إذا، إلا إذا ماذا، إلا إذا كنتَ قد اتخذت قراراً، أى قرار، لست أدري يا سيدى، فأنا لست فى ذهنك، القرار فى عدم شراء دُماك مثلاً، سأله مدير القسم، أجل يا سيدى، أجاب صانع الخزف دون أن يحرف بصره، بينما هو يتهم نفسه فى ذهنه بأنه أبله وغير فطن، حتى الآن لم أتخذ أى قرار، أيمكننى السؤال عما إذا كان ذلك سيتأخر كثيراً، فأنت تعرف الوضع الذى نحن فيه، سأكون سريعاً، قاطعه الرئيس وأضاف: ربما تتلقى

أخباراً يوم غد بالذات، غداً، أجل، غداً، فأنا لا أريد أن تمضى لتشيع بأن المركز لم يمنحك فرصة أخيرة، أظن أنني أستنتج مما تقوله لى أن القرار سيكون إيجابياً، يمكن له أن يكون إيجابياً، وهذا هو كل ما يمكننى قوله لك الآن، شكراً يا سيدى، ليس هناك حتى الآن مبرر لأن تشكرنى على شىء، شكراً من أجل الأمل الذى سأحمله معى، فهذا شىء أيضاً، الأمل أمر لا يمكن الثقة به أبداً، هذا ما أفكر فيه، ولكن ماذا نفعل، علينا التمسك بشىء ما فى ساعات النحس، طاب مساؤك يا سيد الجور، طاب مساؤك يا سيدى. مد الخزاف يده إلى قبضة الباب، وكان على وشك الخروج، غير أنه كان لا يزال لدى رئيس القسم ما يقوله، رتب مع معاون المدير الذى أدخلك خطة سحب أشياءك الخزفية، وتذكر أن لديك أسبوعين فقط كي تُخرج من هناك آخر طبق منها، أجل يا سيدى. هذا التعبير خطة سحب لا يبدو لائقاً على لسان شخص مدنى، فوقعه أقرب إلى عملية عسكرية منه إلى إعادة عادية لبضاعة، وإذا ما طبقنا التعبير بحذافيره فى الأوضاع المتعلقة بوحدة المركز ووحدة الخزاف، فإنه قد يشير إلى إجراء انسحاب تكتيكي لتجميع القوى المشتتة من أجل التهيو بعد ذلك، فى اللحظة المناسبة، أى بعد الموافقة على تصنيع الدمى، للعودة إلى الهجوم، كما يمكن له أن يعنى، فى حال عدم الموافقة، نهاية كل شىء، والهزيمة على طول الخط، والتشتت، ولينج من يستطيع النجاة. وكان على سيبريانو الجور أن يسمع معاون المدير وهو

يقول له دون توقف ودون أن ينظر إلى وجهه، سيكون عليك أن تأتي كل يوم، فى الرابعة بعد الظهر، وحدك أو بإحضار من يساعدك، لأن العاملين هنا لا يمكنهم الانشغال بمساعدتك حتى لو دُفع لهم أجر جانبي. وكان يتساءل عما إذا كان ثمة ما يستحق عناء البقاء هناك ومعاناة ذلك العار، وأن يعامل كأبله، وكما لو أنه السيد نكرة، والأدهى من ذلك كله أنه عليه أن يعترف بأنهم على حق، فالمركز لا تهمة بعض أطباق الفخار المزجج الفجة أو بعض الدمى المضحكة التى تحاكي ممرضات، ورجال اسكيمو، وأشوريين ملتحين، ليس لها أية أهمية، لا شيء، صفر. هذا ما نمثله فى نظرهم، صفر. جلس أخيراً فى شاحنته، نظر إلى الساعة، مازال عليه أن ينتظر قرابة الساعة كى يذهب لإحضار صهره، وخطرت له فكرة الدخول إلى المركز، فمنذ زمن طويل لم يدخل من مدخل الجمهور، سواء للتفرج أو الشراء، فالمشتريات يقوم بها دائماً مرسىال بسبب الحسم الذى يتمتع به كموظف، والدخول للتفرج فقط، مع الاعتذار عن الإسهاب، لا ينظر إليه باستحسان، فوجود شخص هناك فى الداخل يجول بيدين خاويتين، سرعان ما سيكون بكل تأكيد موضع اهتمام خاص من جانب الحراس، بل ويمكن أن يحدث الوضع الكوميدي بأن يكون صهره بالذات هو من يستجوبه، ما الذى تفعله هنا يا أبتاه، إذا كنت لا تشتري شيئاً، فيرد عليه هو، إننى ذاهب إلى قسم الأوانى الخزفية لأرى إذا كانوا لا يزالون يعرضون قطعة ما من إنتاج مشغل الجور، ومعرفة كم يساوى

ذلك الإبريق المرصع بقطع صغيرة من الكوارتز، والقول أجل يا سيدى، إنه إبريق جميل، وقليلة هى الآن المشغولات الخزفية القادرة على تنفيذ عمل مثل هذا، وبكل هذا الإتقان فى التفاصيل، ربما سيثبت هذا التقرير المتخصص الحماسة فى مسئول هذا القطاع ويدفعه إلى الطلب من قسم المشتريات شراء مئة إبريق بصورة مستعجلة، من تلك التى فيها قطع من الكوارتز، ولا يكون علينا فى هذه الحالة أن نجازف فى مغامرة المهرجين، والبهايل والمندرينات الصينيين الذين لا نعرف كيف سينتهى بهم الأمر. لم يكن سيبريانو الجور بحاجة لأن يقول لنفسه لن أذهب، فمنذ أسابيع وهو يقول لابنته وصهره، الذهاب مرة واحدة يكفى. كان غارقاً فى هذه التأملات غير المجدية، ورأسه مستند إلى المقود، عندما اقترب الحارس الذى يراقب مخرج القبو وقال، إذا كنت قد انتهيت من حل المسألة التى جئت من أجلها، فاعمل معروفاً بالانصراف، فهذا المكان ليس موقف سيارات. أعرف ذلك، قال صانع الخزف، وشغل المحرك وخرج دون مزيد من الكلام. دون الحارس رقم الشاحنة على ورقة، لم يكن بحاجة لعمل ذلك، فهو يعرفه منذ اليوم الأول تقريباً الذى بدأ العمل فيه حارساً فى هذا القبو، وإذا كان قد دون الملاحظة بتفخيم فلأن ذلك الجواب الجاف: أعرف ذلك لم يعجبه، فالأشخاص، وخاصة إذا كانوا حراساً، يجب أن يُعاملوا باحترام وتقدير، فلا يُرد عليهم أعرف ذلك وحسب، بل كان على العجوز أن يقول أجل يا سيدى، فهذه كلمات

لطيفة ومنصاعة، تنفع فى كل شىء، والحقيقة أن الحارس كان حائراً أكثر من كونه مستاء، ولهذا فكر فى أنه ما كان عليه هو أيضاً أن يقول هذا المكان ليس موقف سيارات، وخاصة بالنبرة المستخفة التى خرجت منه، كما لو أنه ملك العالم، بينما هو ليس فى الحقيقة ملكاً ولو على القبو الذى يقضى فيه أيامه. شطب الرقم، ورجع إلى موقعه.

بحث سيبريانو ألاجور عن شارع هادئ لقضاء الوقت ريثما يحين موعد إحضار صهره من أمام بوابة خدمة أمن المركز. أوقف الشاحنة عند ناصية يرى منها، عن بعد ثلاث كتل أبنية كبيرة، جزءاً من إحدى واجهات المركز الضخمة، وتحديدأً الواجهة الخاصة بالمنطقة السكنية. فى الواجهات الأخرى لا وجود لأية فتحات باستثناء الأبواب المؤدية إلى الخارج، إنها أجزاء أسوار حيث اللوحات الإعلانية الضخمة المعلقة التى تعد بالأمان، ولا يمكن أن تكون مسئولة عن حجب الضوء ومنع الهواء عمن يعيشون فى الداخل. وخلافاً لتلك الواجهات المسطحة، فإن الواجهة من هذا الجانب مثقوبة بنوافذ، مئات ومئات النوافذ، آلاف النوافذ، مغلقة دائماً بسبب تكييف الجو الداخلى. من المعروف أننا عندما نجهل الارتفاع الدقيق لمبنى، ولكننا نريد إعطاء فكرة تقريبية عن حجمه، نقول إنه مؤلف من عدد معين من الطوابق، يمكن أن تكون طابقين، أو خمسة طوابق، أو خمسة عشر، أو عشرين، أو ثلاثين طابقاً، أو أى عدد آخر يزيد أو ينقص عن هذه الأعداد، من واحد حتى

اللانهاية. مبنى المركز ليس صغيراً جداً ولا كبيراً جداً، إنه يكتفى بإظهار ثمانية وأربعين طابقاً فوق مستوى الشارع وإخفاء عشرة طوابق تحته. وبما إن سيبريانو ألاجور قد أوقف شاحنته فى هذا المكان، وبما أننا بدأنا فى موازنة بعض الأرقام التى تحدد حجم المركز، فيمكننا أن نقول إن عرض الواجهتين الصغيرين يقارب المئة والخمسين متراً، والجانبين الكبيرين يزيد قليلاً على الثلاثمائة وخمسين، وهذا بالطبع دون حساب التوسع الذى ذكرناه بالتفصيل فى بداية هذه القصة. فإذا ما تقدمنا الآن فى الحسابات أكثر قليلاً، واعتبرنا أن متوسط الارتفاع هو ثلاثة أمتار لكل طابق، بما فى ذلك سماكة السقوف الفاصلة بينها، ومع الأخذ فى الاعتبار كذلك الطوابق العشرة تحت الأرضية، فإن الارتفاع الإجمالى سيكون مئة وأربعة وسبعين متراً. وإذا ما ضربنا هذا الرقم بمئة وخمسين متراً العرض وبثلاثمائة وخمسين متراً الطول، سنجد فى النتيجة، بغض النظر عن خطأ ما، بسبب إهمال أو التباس، أن الحجم هو تسعة ملايين ومئة وخمسة وثلاثون ألف متر مربع، بزيادة شبر أو نقصان شبر، وبزيادة نقطة أو نقصان فاصلة. المركز، وليس هناك من لا يعترف بذلك مندهشاً، كبير حقاً. وهناك قال سيبريانو ألاجور من بين أسنانه، صهرى العزيز يريدنى أن آتى لأعيش هنا، وراء واحدة من هذه النوافذ التى لا يمكن فتحها، وهم يقولون إن السبب فى ذلك هو عدم تشويش استقرار حرارة

التكليف الهوائى، ولكن الحقيقة هى شىء آخر؛ فالأشخاص يمكنهم الانتحار، إذا أرادوا ذلك، ولكن ليس بإلقاء أنفسهم من ارتفاع مئة متر إلى الشارع، فهذا يأس بالغ الظهور ويستثير فضولاً مرضياً لدى المارة الذين يريدون أن يعرفوا السبب فى الحال. سيبريانو ألاجور لم يقل مرة واحدة وإنما مرات كثيرة، إنه لن يتقبل مطلقاً العيش فى المركز، ولن يتخلى أبداً عن مشغل الخزف الذى كان لأبيه ولجده، وحتى مارتا نفسها، ابنته الوحيدة التى لن تجد، يا للمسكينة، مفراً من مرافقة زوجها عند ترقيته إلى حارس مقيم، أدركت منذ يومين أو ثلاثة أيام، وبصراحة مشكورة، أن القرار النهائى يمكن للأب وحده أن يتخذه، دون إكراه بالإلحاح أو الضغوط من طرف ثالث، حتى ولو كان المسوغ هو الحب البنوى أو تلك الشفقة الباكية التى يستثيرها المسنون، حتى وهم يرفضونها، فى أرواح الأشخاص حسنى التكوين. لن أذهب، لن أذهب، ولن أذهب، حتى لو قتلونى، علك الخزاف الكلمات، مدركاً بالرغم من ذلك أن هذه الكلمات، لأنها تبدو قاطعة، شديدة الحزم تحديداً، يمكن لها أن تتصنع قناعات لا تشعر بها فى العمق، وتخفى أفاضاً داخلية، كشرخ لا يزال غير مرئى فى أرقّ جدران إبريق. من الواضح أن هذا هو أفضل سبب، وقد عاد للحديث عن إبريق، كى تعود إساورا إستوديوسا إلى ذهن سيبريانو ألاجور، وهذا ما حدث، ولكن السبيل المتخذ لهذا التفكير، أو هذا التأمل العقلانى، إذا كان ثمة عقلانية، وإذا لم يكن مجرد وميض عابر، دفعه نحو نتيجة محرجة،

مصاغة فى دمدمة حالة، وهكذا لن أضطر إلى
المجئ إلى المركز. حركة سيبريانو ألبور المعاكسة،
بعد أن نطق هذه الكلمات مباشرة، لا تتيح لنا إدارة
الظهر لجلاء أن صانع الخزف، بالرغم من ملامح
الإعجاب التى بدت عليه لدى التفكير فى إساورا
إستوديوسا، لا يمكنه تضادى حركة مزاجية تبديه
رافضاً. إضاعة الوقت فى توضيح سبب إعجابه بها
سيكون أقل بقليل من غير مجد، فهناك أشياء فى
الحياة تتحدد بذاتها، رجل ما، امرأة ما، كلمة ما،
لحظة ما، يكفى أن نكون قد ذكرناها على هذا النحو
كى يدرك الجميع ما هو المقصود، غير أن هناك
أشياء أخرى، ويمكن لها أن تكون الرجل نفسه والمرأة
نفسها، الكلمة نفسها واللحظة نفسها، إذا ما نُظر
إليها من زاوية أخرى مختلفة، بضوء مختلف، تتحول
إلى تحديد شكوك وحيرة، إلى إشارات قلقة، خفقة
فريدة، لهذا فقد سيبريانو ألبور فجأة الإعجاب فى
التفكير فى إساورا إستوديوسا، والسبب فى ذلك هو
تلك الجملة، وهكذا لن أضطر للمجئ إلى المركز،
لأنها كمن يقول، بزواجى منها سيكون لدى من تعنى
بى، فيثبت مرة أخرى ما هو غير محتاج إلى الإثبات،
أى ذلك الذى يكلف الرجل كثيراً فى معرفة نقاط
ضعفه والاعتراف بها. لاسيما عندما تتبدى نقاط
الضعف هذه خارج المرحلة المناسبة، مثل ثمرة يحملها
الفصن باستياء لأنها ولدت متأخرة عن موسمها. تنهد
سيبريانو ألبور، ثم نظر إلى الساعة. إنه موعد
الذهاب لأخذ صهره من أمام باب خدمة الأمن.

الكلب لقيه لم يستلطف مرسيال. كان هناك كثير مما يتوجب قوله، المستجدات كثيرة، وكثيرة هي نوبات ارتفاع الأمل والمعنويات وهبوطهما في هذه الأيام، بحيث لم يخطر لسبيريانو ألاجور، خلال الطريق من المركز إلى مشغل الخزف، أن يكلم صهره عن الظهور الغريب للحيوان وتصرفاته الفريدة التالية. ومع ذلك، وحباً بالحقيقة التي تتعشها وساوس المؤلف، لا يمكن عدم التنويه بخاطر سريع وعابر مرّ في ذهن صانع الخزف الغافل عن الواقعة المفاجئة، ولم يستطع تطويرها لأن مرسيال، قاطع كلام حميه بغم أكثر من مسوغ، ليسأله عن السبب الشيطاني الذي منعه هو ومارتا من إخباره بما كان يحدث في البيت، فكرة الدمى، التصاميم، تجارب القولية. وعلق بمرارة، يبدو كما لو أنه لا وجود لي في نظركما. ويضبطه متلبساً بهذا الخطأ، نسج سبيريانو الغور تفسيراً يشارك فيه توتر الأعصاب والتركيز اللذان يرافقان كل إبداع فني، وانعدام أي نوع من اللطف لدى المناوب في مقسم الهاتف الذي يرد عادة على مكالمات أقارب

الحراس الذين يعيشون خارج المركز، وأخيراً بضع كلمات تزينية، شبه متعثرة، من أجل ملء فجوات المحادثة وإنهائها. لحسن الحظ أن رؤية الشاحنة المحترقة أسهمت في حرف الانتباه عن اختلاف يمكن له أن يتحول إلى خصام عائلي، ونستبق ذلك بالقول إنه لن يتجاوز التهديد، حتى لو حاول مرسيال جاتشو إعادة فتح الموضوع عندما ينفرد بزوجته، في حجرة النوم، ووراء باب مغلق. وبفضفضة ملحوظة، أزاح سيبريانو ألبور الدمى الخزفية جانباً كي يُظهر الشكوك التي ولّدها الحريق في نفسه، وهو موقف ردّ عليه مرسيال - وكان لا يزال مستاءً من الإهانة التي كان ضحية لها - بشيء من الجفاء مدافعاً باسم الواجب المهني عن الوعي الأخلاقي، والنظافة التي تتميز بها عمليات القوات المسلحة عموماً، والسلطات الإدارية والشرطية بصورة خاصة. هز سيبريانو ألبور كتفيه، أنت تقول هذا لأنك حارس في المركز، لو أنك مدني عادي مثلي لرأيت الأمور بطريقة أخرى، واقع كوني حارساً في المركز لا يجعل مني شرطياً أو عسكرياً، رد عليه مرسيال بجفاء، لا يجعلك كذلك، لكنه يقربك، يضعك على الحدود، أنت مجبر الآن على إخباري إن كنت تشعر بالخجل لأن حارساً من المركز يجلس هنا بجانبك، في شاحنتك، يتنفس الهواء نفسه. لم يجب الخزّاف على الفور، وندم لانسياقه مرة أخرى للرجبة البلهاء والمجانية في استفزاز صهره، لماذا أفعل هذا، سأل نفسه كما لو أنه لا

يعرف الجواب جيداً، فهذا الرجل، هذا المدعو مرسيال جاتشو يريد انتزاع ابنته منه، والحقيقة أنه قد انتزعها عندما تزوجها، لقد انتزعها دون مفر ولا رجعة، وفكر، ومهما تعبت من الرد بلا، فسوف أنتهى إلى الذهاب للعيش معهما فى المركز. بعد ذلك، قال متكلماً ببطء، كما لو أنه يسحب كل كلمة، اعذرني، فأنا لا أريد إغضابك ولا أن أكون مزعجاً معك، لكنى لا أستطيع تجنب ذلك أحياناً، فالأمر يبدو كما لو أنه أقوى منى، وليس ثمة ما يستحق أن تسألنى عن السبب، فأنا لن أجيبك، أو سأقول لك أكاذيب، ولكن هناك أسباب، إذا ما بحثنا عنها سنجدها دوماً، لن نعدم أسباباً لتبرير أى شىء، حتى لو لم تكن حقيقية، إنه تبدل الأزمنة، إنهم المسنون الذين يهرمون يوماً مع كل ساعة تتقضى، إنه العمل الذى يتخلى عن أن يكون ما كان عليه، ونحن الذين لا نستطيع أن نكون إلا ما كنا، وفجأة نكتشف أننا لم نعد ضروريين فى هذا العالم، هذا إذا كنا ضروريين فيه يوماً، ولكن الاعتقاد بأننا كنا ضروريين كاف، أو يبدو كافياً، وكان أبدياً بطريقة ما، خلال الوقت الذى تدومه الحياة، لأن هذه هى الأبدية، ولا شىء سوى هذا. لم يقل مرسيال شيئاً، اكتفى بوضع يده اليسرى على يد حميه اليمنى التى تمسك بالمقود. ابتلع سيبريانو ألجور جفافاً، نظر إلى اليد الناعمة، إنما القوية، التى بدت كأنها تريد حماية يده، الندبة المتعرجة والمائلة التى تمزق الجلد من جانب إلى آخر، هى الأثر الأخير المتبقى من حرق قاس لا يُعرف بسبب أية ظروف غامضة لم يصل إلى

الأوردة التي تحت الجلد . فمرسيال غير الخبير، وغير المؤهل، أراد أن يمد يد المساعدة فى إشعال الفرن، ل يبدو أفضل فى عينى الشابة التى كانت قد صارت خطيبته منذ بضعة أسابيع، وربما أراد أن يبدو أكثر من ذلك أمام أبيها، ليريه أنه رجل مكتمل الرجولة، مع أنه لم يكد يخرج فى الواقع من سن المراهقة، والشئ الوحيد من الحياة والعالم الذى يعتقد أنه يعرف عنه كل ما يجب معرفته هو أنه يحب ابنة صانع الخزف . ومن مر بمثل هذه الحالة يوماً لن يجد صعوبة فى تخيل إحساسه بالحماسة وهو يسحب الحطب، غصناً فغصناً، من المستودع، ثم يدفعه داخل الفرن، وأى مكافأة بالنسبة له فى تلك اللحظات أعظم من رؤية ملامح المفاجأة الفاتنة على وجه مارتا، وابتسامة أمها الحانية، ونظرة أبيها الجدية والمؤيدة بحزم . وفجأة، ودون معرفة السبب، لأنه لم يحدث لأسرة صانع الخزف مثل ذلك من قبل، اندفع من أوار الفرن لسان لهب نحيل، سريع وملتو، كأنه لسان كوبرا، ولسع بضراوة يد الفتى القريبة، والبريئة، والغافلة . ومن هنا تولد الجفاء الذى بدأت أسرة جاتشو تشعر به تجاه أسرة ألجور، ليس لعدم إحساسهم بالمسئولية وإهمالهم الذى لا يُغتفر فحسب، حسب رأى آل جاتشو الراسخ، وإنما كذلك لأنهم مستغلون وقحون، استغلوا مشاعر فتى ساذج لجعله يعمل مجاناً . ليس فى القرى النائية عن الحضارة وحدها يمكن للزوائد الدماغية البشرية أن تولد أفكاراً من هذا القبيل . عالجت مارتا مرات كثيرة يد مرسيال، وخففت عنها

وبردتها بالنفخ عليها مرات كثيرة، وقد ثابرا كليهما على إرادتهما حتى تمكنا من الزواج بعد بضعة سنوات، غير أن الأسرتين لم تجتمعا. والحب بين هذين يبدو الآن هاجعاً، وماذا يمكننا أن نفعل لهما، لا بد أنه التأثير الطبيعي للوقت وقلق العيش، ولو كانت الحكمة القديمة لا تزال نافعة فى شىء، لو كانت لا تزال لها فائدة فى الجهل الحديث، فإننا نتذكر منها، بتكتم، كيلا يسخروا منا، أنه مادامت هناك حياة، فثمة أمل. أجل، هذا صحيح، فمهما كانت الغيوم ملبدة وسوداء فوق رؤوسنا، فإن السماء فوق الغيوم تظل زرقاء على الدوام، أما المطر والبرد والصواعق فتسقط دوماً على من هم تحت، والحقيقة أن الفرد منا لا يعرف فى ماذا عليه أن يفكر عندما يتوجب عليه أن يفهم بالعلم هذه الأمور. كانت يد مرسيال قد تراجعت، فالعادة هى هكذا بين الرجال، لا بد لمظاهر العاطفة، كى تكون رجولية، من أن تكون سريعة، خاطفة، هناك من يؤكد أن السبب فى ذلك هو الحياء الذكورى، ربما كان كذلك، غير أنه لا بد من الاعتراف بأنه كان سيبدو من الأكثر رجولة، بالمعنى الكامل للكلمة، وليس أقل فحولة بالطبع، أن يوقف سيبريانو ألبور الشاحنة ليعانق هناك بالذات صهره ويشكره على مسعاه بالكلمات الوحيدة المناسبة، أشكرك لأنك وضعت يدك فوق يدي، هذا ما كان يتوجب عليه أن يقوله، لا أن يستغل الآن جدية اللحظة ليشكو من الإنذار الذى فرضه عليه مدير قسم المشتريات، تصور، يمنحوننى خمسة عشر يوماً لأسحب الخزف،

خمسة عشر يوماً، أجل، خمسة عشر يوماً، ودون أن يكون لدى من يساعدي، يؤسفني أنني لا أستطيع مساعدتك، طبعاً لا تستطيع، فأنت لا وقت لديك، ولن يكون مناسباً لوظيفتك أن يروك تعمل حمالاً، ولكن الأسوأ أنني لا أعرف كيف سأخلص من أوانٍ خزفية لا يرغب أحد في شرائها، مازال بإمكانك بيع بعض القطع، من أجل هذا الأمر لدينا ما يكفي في المشغل، الوضع يبدو معقداً حقاً، سوف نرى، ربما سألقى بها في مكان ما على الطريق، لن تسمح لك الشرطة بفعل ذلك، لو أن هذه العربة، بدل أن تكون شاحنة صغيرة، كانت شاحنة كبيرة من تلك التي ترفع صندوقها، لكان الأمر بسيطاً جداً، الضغط على زر كهربائي وينتهي الأمر، خلال أقل من دقيقة يكون كل شيء خارجاً، ستفعل مرة أو مرتين من شرطة الطرق العامة، ولكنهم سيمسكون بك بعد ذلك متلبساً، حل آخر هو العثور على مغارة في الريف، ولا داعي لأن تكون عميقة، وإلقاء كل شيء فيها، ولك أن تتخيل طرافة الموقف إذا ما استطعنا بعد ألف عام أو ألفي عام أن نشهد جدل علماء الآثار والأنثروبولوجيين حول منشأ وسبب وجود هذه الكمية من الأطباق والفناجين والقدور الخزفية، وإشكالية فائدتها في مكان غير مأهول مثل هذا، إنه غير مأهول الآن، أما بعد ألف أو ألفي عام، فليس مستحيلاً أن تكون المدينة قد وصلت حتى المكان الذي نحن فيه الآن، قال مرسيال. توقف عن الكلام، كما لو أن الكلمات التي انتهى من النطق بها تستدعي أن يعود إلى التفكير فيها، وبالنبرة

المتردة لمن توصل إلى نتيجة منطقية مؤكدة، دون أن يدرك كيف توصل إليها، أضاف، أو المركز. والآن، ونحن نعلم أن مسألة المركز النكدة كانت فى حياة هذا الحمى وهذا الصهر مسألة غير صحية بأى حال، فإنه من المستغرب أن تتوقف إشارة الحارس الداخلى مرسيال جاتشو عند ذلك الحد، وألا تُطلق عبارة «أو المركز» جدلاً جديداً غير متوقع على الفور، وتتكرر كل الخلافات المعروفة وتكر السبحة نفسها من تبادل المهاترات والتهم المبطنة أو الصريحة. والسبب الذى جعل كليهما يظلان صامتين، مع افتراض أنه يمكن لمن يراقب الوضع من الخارج مثلنا، ويكشف ستر ما هو غير واضح بالتأكيد لهما، أقول إن السبب هو واقع أن خروج هذه العبارة، من فم مرسيال، وخاصة فى السياق الذى نُطقت فيه، تشكل أمراً جديداً بالمطلق. ويمكن لنا القول إن الأمر لم يكن كذلك أيضاً، بل على العكس، فعند تقبل احتمال أن يتوصل المركز فى يوم مستقبلى، بالتهامه المتواصل للأراضى، إلى إخفاء الحقول التى تجتازها الشاحنة الآن، فإن الحارس الداخلى مرسيال جاتشو يؤكد، فى ما يخصه، ومصفاً لنفسه فى دخيلته، على القدرة التوسعية، سواء فى المكان أم الزمان، للمؤسسة التى تدفع له مقابل خدماته المتواضعة. وكان يمكن لهذا التفسير أن يكون صالحاً وأن يصفى المسألة نهائياً لو لم يحدث ذلك التوقف غير المحسوس تقريباً عن الكلام، ولو لم تتوافق لحظة ذهول التفكير الظاهرية تلك، واسمحوا لى بهذا الاقتراح الجرىء، مع ظهور من هو قادر

ببساطة على التفكير بطريقة أخرى. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فمن السهل إدراك أن مرسيال جاتشو لم يستطع التقدم في الطريق الذي انفتح أمامه، لأن ذلك الطريق مخصص لشخص غيره. أما صانع الخزف، فقد عاش سنوات أكثر من كافية كي يعرف أن أفضل طريقة لجعل زهرة تموت هي في إجبارها على التفتح بالقوة وهي لا تتعدى كونها وعداً بزهرة. وقد احتفظ بالتالي بكلمات صهره في ذاكرته وتظاهر بأنه لم ينتبه إلى مفزاها الحقيقي. لم يعودا إلى تبادل الحديث إلا حين دخلا القرية. وكعادته كلما جاء بصهره من المركز، توقف سيبريانو ألبور أمام باب حموى ابنته غير المستلطفين، لمدة تكفى بالضبط لأن يدخل مرسيال، ويقبل أمه، وأباه إن كان في البيت، ويستعلم عن أحوال صحتها منذ المرة الأخيرة، ويخرج بعد أن يقول، غداً سأحضر لوقت أطول. وقد كانت خمس دقائق، على العموم، أكثر من كافية لإنجاز روتين مشاعر البنوة، أما الاستفاضة والتوسع في الحديث حول الأمور الجوهرية فتؤجل حتى اليوم التالي، وتناول الغداء مع الأبوين أحياناً، وعدم تناوله في أحيان أخرى، ولكن دون أن ترافقه مارتا في كل الأحيان تقريباً. أما اليوم، فلم تكن الدقائق الخمس كافية، ولا الدقائق العشر، وكان لا بد من انقضاء حوالي عشرين دقيقة قبل أن يعود مرسيال للظهور. دخل إلى الشاحنة بجفاء وأغلق الباب بقوة. كان وجهه صارماً، شبه مكفهر، ملامح متقدم في السن متصلبة لم تنهياً لها بعد تقاطيعه الشبابية. لقد تأخرت كثيراً

اليوم، أهنأك من هو مريض، هل ثمة مشكلة فى الأسرة، سأله الحمو فقط، لا، لا يوجد شىء خطير، واعدرنى لأنى جعلتك تنتظر طويلاً، تبدو غاضباً، قلت لك إنه لا يوجد شىء خطير، فلا تقلق. إنهما يوشكان على الوصول، الشاحنة تلتف إلى اليسار لتبدأ صعود السفح الصغير المؤدى إلى مشغل الخزف، وعند تبديل السرعة يتذكر سيبريانو ألجور أنه قد مرّ أمام بيت إساورا أستوديوسا دون أن يفكر فيها، وفى هذه اللحظة بالذات ينزل كلب راكضاً على السفح وهو ينبح، وهى المفاجأة الثانية لمرسيال فى هذا اليوم، أو الثالثة، إذا ما تبين لنا أن زيارته لأبويه كانت الثانية. من أين جاء هذا الكلب، سأل، لقد ظهر هنا فجأة قبل أيام وسمحنا له بالبقاء، إنه حيوان لطيف، واخترنا له اسم «لقية» مع أننا إذا ما فكرنا جيداً لوجدنا أننا نحن اللقية وليس هو. حين وصلت الشاحنة إلى نهاية الفناء وتوقفت، حدثت عدة أمور فى وقت واحد، أو بفوارق زمنية ضئيلة، ظهرت مارتا عند باب المطبخ، خرج صانع الخزف والحارس الداخلى من السيارة، زمجر لقية تقدمت مارتا باتجاه مرسيال، وتوجه مرسيال نحو مارتا، أطلق الكلب زمجرة عميقة، عانق الزوج امرأته، وعانقت المرأة زوجها، ثم تبادلوا قبلة، توقف الكلب عن الزمجرة وهاجم إحدى فرديتى جزمة مرسيال، هز مرسال ساقه، لم يفلت الكلب طريدته، صرخت به مارتا، لقية، وصرخ الأب الشىء نفسه، ترك الكلب الجزمة وحاول أن يعض الكاحل، وجه إليه مرسيال رفسة

متعمدة ولكنها ليست قوية جداً، فقالت مارتا، لا
تضربه، واحتج مرسيال، لقد عضنى، لأنه لا يعرفك،
حتى الكلاب لا تعرفنى هنا، خرجت هذه الكلمات
الرهيبية من فم مرسيال كأنها بكاء، كل كلمة منها ألم
وشكوى لا يطاقان، طوقت مارتا بيديها كتفى زوجها،
لا تكرر هذا القول، لم يكرره طبعاً، لا حاجة لذلك،
فهناك أمور تقال مرة واحدة ولا تعاد أبداً، ومارتا
ستسمع هذه الكلمات فى رأسها حتى آخر يوم من
حياتها، أما سيبريانو ألبور، إذا ما أردنا أن نعرف ما
الذى يفعله فى هذه اللحظة، فالجواب سيكون سهلاً،
لا شئ، لولا الوضع ذو المغزى بحرفه السريع لعينيه
عند سماعه ما قاله مرسيال، أى أنه فعل شيئاً. كان
الكلب قد ابتعد باتجاه كوخه، لكنه توقف فى منتصف
الطريق، رجع وراح يراقب. وبين حين وآخر كان يطلق
زمجرة من حلقه. قالت مارتا، لا يعرف ما هى
المعانقات، لا بد أنه ظن أنك تسبب لى أذى، ولكن
سيبريانو ألبور، من أجل تنقية الجو، خرج بفكرة أشد
ابتدالاً، يمكن أن يكون لديه أيضاً نفور من الزى
الرسمى، توجد حالات من هذا النوع. لم يجب
مرسيال بشئ، كان يتحرك بين وعيين حميمين، الندم
لأنه نطق الكلمات التى ستظل إلى الأبد كاعتراف
علنى بألم مخبئ حتى هذه اللحظة فى أعماق أعماقه،
والحدس الغريزى بأن إفلات الكلمات بتلك الطريقة
يمكن له أن يعنى أنه على وشك مغادرة طريق ليسلك
طريقاً آخر، وإن كان الوقت لا يزال مبكراً لمعرفة فى
أى اتجاه سيقوده. قبل مارتا من جبهتها وقال،

سأذهب لأستبدل ثيابى. كان المساء يتقدم بسرعة، وسيحل الليل قبل أقل من نصف ساعة. قال سيبريانو الجور لابنته، لقد تحدثتُ مع رجل المشتريات، بسبب مشكلة الكلب نسيتُ أن أسألكَ كيف كان الحديث معه، يقول إننى ربما أحصل فى الغد على جواب، بهذه السرعة، يصعب تصديق ذلك، وما هو أصعب على التصديق أن القرار قد يكون بالموافقة، أو هذا ما بدا أننى فهمته على الأقل، عسى ألا تكون مخطئاً، الجميلة الوحيدة التى أعرفها من دون ولكن، هى أنت، ما الذى تعنيه، ولأى هدف يأتى الحديث الآن عن الجميلات ودون الولكنات، المسألة هى أنه بعد الخبر الطيب، يأتى دوماً خبر سيئ، وما هو الخبر الآن، على أن أسحب خلال أسبوعين كل الخزف الذى يحتفظون به فى المستودع، سأذهب معك لمساعدتك، ولا فى الأحلام، لأنه إذا ما كلفنا المركز بطلبية، فإن الوقت كله سيكون قليلاً هنا، يتوجب قولبة التماثيل النهائية، وصنع القوالب، والعمل على صب الدمى فى القوالب، والطلاء، وملء الفرن وإفراغه، أرغبُ فى تسليم الطلبية الأولى قبل أن أفرغ رفوف المستودع، حتى لا يغير الرجل رأيه، وما الذى سنفعله بذلك الخزف، لا تقلقى، فقد اتفقت مع مرسىال، سأتركه فى البرية، فى أى حفرة، كى يستفيد منها أى شخص، بعد كل هذه التنقلات سيتكسر معظمها، هذا مؤكد. جاء الكلب ولس بأنفه يد مارتا، بدا كما لو أنه يطلب منها أن توضح له التكوين الجديد لمجمل الأسرة، مثلما درجت العادة

على القول فى إحدى الفترات. عنفته مارتا، فلنر كيف ستتصرف من الآن فصاعداً، ويجب عليك أن تعرف أننى إذا خُيرت بينك وبين زوجى، فسأختار زوجى. كان ظل شجرة التوت الأخير يتراجع شيئاً فشيئاً ليغرق فى ظلال أشد عمقاً ينشرها الليل الذى يقترب. دمدم سيبريانو ألاجور، لا بد من التعامل بحذر مع مرسيال، فما قاله كان أشبه بطعنة خنجر، وردت مارتا مدمدمة أيضاً، لقد كانت طعنة، وهى تؤلم كثيراً. أضىء المصباح الذى فوق الباب، وظهر مرسيال جاتشو عند العتبة، كان قد استبدل زىّ العمل النظامى بملابس عادية، الملابس البيتية. تطلع إليه لقية بانتباه، وتقدم برأس مرفوع بضع خطوات باتجاهه، ثم توقف مترقباً. اقترب مرسيال، أفتصالح، سأله. لامس الأنف البارد الندبة التى فى اليد اليسرى، فلنتصالح. وقال صانع الخزف، انظر كيف أننى كنت على حق، لقيتنا لا يحب الزىّ الرسمى، الملابس كلها زىّ رسمى فى الحياة، والجسد لا يكون مدنياً حقاً إلا وهو عارٍ، ردّ عليه مرسيال، ولكن لم تعد المرارة تلمح فى صوته.

خلال تناول العشاء دار حديث طويل حول كيف خطرت لمارتا فكرة صنع الدمى، وكذلك حول الشكوك، والمخاوف، والآمال التى شغلت البيت والورشة فى تلك الأيام الأخيرة، وبالانتقال إلى مسائل عملية، قُدرت الفترات اللازمة لكل مرحلة من مراحل الإنتاج وعوامل الأمان المناسبة لكل مرحلة، وهى

مختلفة عن المصنوعات التي اعتادوا عليها، كل شيء مرتبط بالكمية التي سيطلبونها منا، من الملائم لنا ألا تكون كبيرة ولا صغيرة، شيء مثل طلب الشمس لحصاد القمح وطلب المطر للبستنة، كما كان يقال في الأزمنة السابقة على وجود الدفيئات البلاستيكية، علق سيبريانو أليجور. وبعد رفع شرشف المائدة، عرضت مارتا على زوجها الرسوم الأولية التي أنجزها، والتجارب، واختبارات الألوان، والموسوعة القديمة التي استسخا منها النماذج، بدا لأول وهلة أنه عمل ضئيل بالمقارنة مع اللفة الكبيرة، غير أنه لا بد من الفهم أنه يمكن للتحويل المبهج في ظروف الإبحار في الحياة أن يكون لآخرين عاصفة قاتلة، كل شيء يعتمد على غاطس السفينة وحالة أشرعتها. وفي غرفة النوم، وراء الباب المغلق، فكر مرسيال في أنه لا يليق به أن يطلب توضيحات من مارتا لأنها لم تخبره بفكرة الدمى، لأن هذه المياه، في المقام الأول، قد مرت منذ ساعات تحت الجسر، وجرفت معها بالتالي الاستياء وتعكر المزاج، ولأن مخاوف أخرى، في المقام الثاني، كانت تقلقه، وهي أكثر جدية بكثير من شعوره أو تخيله أنه لا يلقي اعتباراً. مخاوف أكثر جدية وليست أقل إلحاحاً. فعندما يرجع رجل إلى بيته وإلى امرأته بعد امتناع عشرة أيام، ويكون شاباً مثلما هو مرسيال، أو إذا كان متقدماً في السن، ولم يستطع تقدمه في السن بعد كبح حماسه الغرامية، فإن الطبيعي أن يرغب في إشباع فوري لهزة الحواس، وترك الحديث إلى ما بعد. والنساء، عموماً، لا يتفقدن

فى ذلك. وخاصة إذا كان الوقت لا يستدعى الاستعجال، بل العكس، فالليل بطوله لنا، ومن يقول الليل يقول المساء أو الصباح، والمؤكد هو أن المرأة تفضل أن تبدأ الممارسة الغرامية بحديث متقطع، دون تسرع، ومن الأفضل أن يكون الحديث بعيداً قدر الإمكان عن هذه الفكرة الثابتة التى تدور فى رأس الرجل كأنها دوامة طنانة. فالمرأة مثل جرة آخذة بالامتلاء ببطء، تأخذ بالاقتراب من الرجل شيئاً فشيئاً، أو أنها بكلمة أدق تأخذ بتقريبه منها، إلى أن يتوافق تسرع أحدهما ولهفة الآخر، وقد صارا معنيين، متوافقين، لا يقبلان التأجل، ليجعلا الذروة الموحدة تتعالى مزغردة. هناك استثناءات مع ذلك، مثلما هى حال مرسيال، فعلى الرغم من رغبته الشديدة فى دفع مارتا نحو الفراش، إلا أنه لا يستطيع عمل ذلك طالما لم يُفرغ كيس القلق الثقيل الذى يحملة على كاهله، ليس من المركز، ولا من الحديث الذى دار مع حميه خلال الطريق، وإنما من بيت أبويه. وقد كانت الكلمة الأولى فى هذه المرة أيضاً لمارتا، من المحتمل أن الكلاب لا تعرفك يا مرسيال، ولكن زوجتك تعرفك، لا أريد التحدث فى هذا الأمر، علينا أن نتحدث عما يؤلم، لقد كنتُ غيبياً وظالماً، فلنترك جانباً كونك غيبياً، لأنك لست كذلك، ولنُبقي على كونك ظالماً، وقد اعترفتُ لكِ بذلك، ثم تكن ظالماً أيضاً، دعينا من تعقيد الأمور يا مارتا، أرجوكِ، ما مضى قد مضى، الأمور التى قد انقضت هى الوحيدة التى لا تمضى أبداً، فالظالمون نحن، من تعنين بنحن، أنا وأبى،

وخاصة أنا، فأبى لديه ابنة متزوجة ويخشى فقدانها، ولا يحتاج إلى تبرير آخر، وأنت، أنا التي لا عذر لها، لماذا، لأنى أحبك، وأحياناً، بل فى أحيان كثيرة، أعطى الانطباع بنسيان، أو أننى أنسى فعلاً، أنك شخص قائم بذاته، مكتمل فى الكائن الذى هو أنت، وأننى مدينة بهذا الحب لشخص عليه أن يرضى بمشاعر شبه مبهمه، يأخذ بالاستسلام شيئاً فشيئاً كما لو أن الأمر قدر لا يمكن تجنبه، هكذا هو الزواج، فالناس يعيشون هكذا، انتبهى إلى حال أبوى، لدى خطيئة أخرى، أرجوكِ ألا تواصلى، فلمنمض حتى النهاية يا مرسيال، علينا الوصول إلى النهاية، أرجوكِ يا مارتا، أنتَ لا تريدنى أن أواصل لأنك تدرك ما الذى سأقوله، أرجوكِ، عندما قلتَ إن الكلاب لا تعرفك، كنت تقول ذلك لامراتك التى لم تعرفك فقط، بل إنها لم تفعل شيئاً لتعرفك، حسن، فلنقل إنها لم تفعل شيئاً تقريباً، هذا الذى تقولينه غير صحيح، أنتَ تعرفيننى، ليس هناك من يعرفنى خيراً منك، أعرفكَ فقط بما يكفى لأن أفهم مغزى كلماتك، ولكننى لم أكن أكثر ذكاء من أبى الذى فهم كلماتك بالسرعة نفسها التى فهمتها بها، عند الحديث عنا نحن الاثنين، فإنك أنتِ الناضجة، أما أنا فلستُ سوى طفل، ربما كنتَ على حق، وأنتَ تجعلنى على صواب فيما أقوله، ولكن هذه الناضجة الرائعة التى هى أنا، وامرأة مرسيال جاتشو الحصيصة والعاقلة جداً، لم تكونا قادرتين على أن تفهما، فى الوقت المناسب، ما الذى يمثله شخص قادر على امتلاك البساطة

والنزاهة ليقول عن نفسه إنه طفل، لمن أكون هكذا
دوماً، لمن تكون دوماً هكذا، ولهذا علىّ في أثناء ذلك
أن أفعل كل ما هو في متناول يدي كي أفهمك مثلما
أنت، وربما أتوصل إلى النتيجة في أن كونك طفلاً هي
طريقة مختلفة، في نهاية المطاف، لأن تكون ناضجاً،
إذا ما واصلنا على هذا النحو فلن أعود أعرف من أنا،
سيقول لك أبى إن هذا أحد الأمور التي تحدث لنا
بكثرة في الحياة، يبدو لي أنني بدأت التفاهم مع
أبيك، لا تتخيل ذلك، بل تخيله، أجل، ويا للسعادة
التي سيسببها لي ذلك. أمسكت مارتا يدي مرسيال
وقبّلتها، ثم ضغطتهما إلى صدرها وقالت، لا بد لنا
أحياناً من العودة إلى حركات الحنان القديمة، وما
أدراك أنت بذلك، فأنت لم تعيشي أزمناً انحناءات
التوقير وتقبيل الأيدي، أقرأ ما ترويه الكتب، وهذا كما
لو أنني كنت هناك، ولكن ما كنت أفكر فيه على أي
حال ليس انحناءات التوقير وتقبيل الأيدي، كانت
عادات مختلفة، أساليب شعور وتواصل لم تعد
أساليبنا، الإيماءات في نظري هي أكثر من كونها
إيماءات، حتى لو بدت لك المقارنة غريبة، إنها رسوم
تُصنع بجسد شخص في جسد شخص آخر. كانت
الدعوة واضحة، ولكن مرسيال تظاهر بأنه لم يفهم،
بالرغم من أنه فهم أن لحظة جذب جسد مارتا إليه
قد حانت، وأن عليه أن يداعب شعرها، وأن يقبل
وجهها ببطء، ورموشها بنعومة، وكأنه لا يشعر
بالرغبة، كما لو أنه ساه وحسب، سيكون هذا الظن
خطأ كبيراً، فما يحدث في مثل هذه الحالات هو أن

الرغبة سيطرت سيطرة مطلقة على الجسد كي تستخدمه، وعذراً للتشبيه المادى والاستعمالى، كما تُستخدم أداة متعددة الاستعمالات، نافعة فى الصقل كنفعتها فى الحرث، قادرة على البث كما على التلقى، دقيقة فى الحساب كما فى القياس، فعالة للصعود كما للنزول. **ماذا** جرى لك، سألته مارتا وقد شئت فجأة، **لا** شيء مهم، مجرد منغصات صغيرة، أهى مشاكل عمل، **لا**، **ما** المسألة إذاً، الوقت الذى نقضيه معاً قصير جداً، والأدهى أنهم يأتون للتدخل فى حياتنا، نحن لا نعيش معزولين فى دورق، لقد مررتُ ببيت أبوى، **هل** وقع حادث أو أى تعقيد. هز مرسيال رأسه نافياً وتابع الكلام، **بدأ** بإظهار اهتمام كبير فى معرفة إذا ما كانت لدى أخبار عن موعد ترقيتى إلى حارس مقيم، وقد أجبت بأنه لا أخبار لدى، بل إنه لا وجود لما يؤكد أن ذلك سيحدث، ولكنه أمر مؤكد تقريباً، أجل، مؤكد تقريباً، ولكن ليس قبل أن يصبح العصفور فى اليد، **يظل** طائراً، وماذا بعد ذلك، **قاما** ببعض اللف والدوران، دون أن أعرف إلى أين يريدان الوصول، إلى أن أخبرانى أخيراً بفكرتهما العظيمة، وما هى تلك الفكرة العظيمة، إنهما يفكران فى بيع البيت والمجئ للعيش معنا لا أكثر ولا أقل، **العيش** معنا، أين، **فى** المركز، **هل** أسمع جيداً، أبواك يريدان الذهاب للعيش فى المركز معنا، **هكذا** بالضبط، **وأنت**، ماذا قلتَ لهما، **بدأتُ** بلفت انتباههما إلى أن الوقت مازال مبكراً للتفكير فى ذلك، ولكنهما أجابانى بأن بيع البيت أيضاً ليس

بالأمر الذى يمكن إنجازه بين عشية وضحاها، ولا يمكن أن ينتظرا إلى أن نستقر أنا وأنت كي يبدأ البحث عن مشترٍ، وماذا قلتَ لهما أنت، **ظننتُ** أنتى سأضع حداً للأمر، وأخبرتُهما بأننا ننوى أن نأخذ أباك معنا عندما ننتقل، كيلا يبقى وحيداً هنا، لاسيما الآن حيث يمر مشغل الخبز بوقت عصيب، **هل** أخبرتُهما بذلك، أجل، ولكنهما لم يهتما بالأمر، ولم يبق سوى قليل ليأخذا بالصراخ، والبكاء، وأنا أتحدث عن أمى بالطبع، لأن أبى ليس رجل مشاعر، فما فعله هو الاعتراض وإطلاق عبارات مسيئة، أى نوع من الأبناء أنا الذى أضع مصلحة أشخاص ليسوا من دمي فوق حاجة كبيريه نفسيهما، هذا ما قالاه بالضبط، كبيريه، لا أعرف من أين خرجا بالكلمة، وإنهما ما كانا يتصوران أبداً أن يسمعا من فمى يوماً إنكارى لمن أدين لهما بالحياة، من ربيانى وعلمانى، وأنه صحيح ما يقال عن أن الزواج فراق، ولكنهما غير مستعدين لتقبل الازدراء، وأنه علىّ ألا أنزعج، لأنهما غير محتاجين حتى الآن للخروج إلى الشوارع وطلب صدقة، ولكن علىّ ألا أنسى أن تأنيب الضمير سيأتى فى نهاية الأمر، وإذا لم يأت فى الحياة، فإنه يأتى بعد الممات، ويكون عندئذ أسوأ، وعسى ألا أنجب أبناء يعاقبوننى على انعدام الحس الإنسانى الذى تعاملت به اليوم مع أبوى، أكانت هذه هى الجملة الأخيرة، **لا** أدرى إذا ما كانت الجملة الأخيرة، فقد نسيت بعض العبارات المفصلة من المقاس نفسه، **كان** عليك أن توضح لهما أنه ليس هناك ما يستحق القلق، فأنت

تعرف جيداً أن أبى لا يريد العيش فى المركز، أجل، ولكننى فضلتُ عدم فعل ذلك، لماذا، لأننى سأوفر لهما بذلك موطئ قدم للتفكير فى أنهما الوحيدان فى الميدان، إذا ما أصرا لن يكون لديك مخرج آخر، سيكفى إلا أقبل الترقية، ما علىّ إلا أن أجد سبباً أستطيع إقناع المركز به، أشكُ فى أنك ستجده. كانا جالسين على السرير، يمكنهما التلامس، لكن وقت المداعبات كان قد انقضى، وهو يمضى فى الظاهر بعيداً جداً مثله مثل أزمنة تقبيل الأيدي وانحناءات التوقير، أو بعيداً حتى عن تلك اللحظة الأخرى التى جرى فيها تقبيل كلتا يدي الرجل، وضُمتا بعد ذلك إلى صدر المرأة. قال مرسيال، أعرف أنه من غير اللائق أن يصرح ابن بمثل هذه الأقوال، ولكننى لا أرغب فى الحقيقة أن أعيش مع أبوى، لماذا، لأننا لن نتفاهم أبداً، لن أفهمهم ولن يفهمونى، إنهما أبواك، أجل، إنهما أبواى، فى تلك الليلة ذهبنا إلى الفراش وراودتهما الرغبة، ومنها ولدتُ أنا، وأتذكر عندما كنتُ صغيراً أنتى سمعتهما يعلقان، كمن يتسلى برواية نكتة جيدة، بأن أبى كان فى تلك الليلة مخموراً، هكذا نولد جميعنا، سواء أكان هناك نبذ أم لم يكن، أعترف بأننى أبالغ، لكننى أشمئز حين أفكر فى أن أبى كان مخموراً عندما زرع بذرتى، يبدو لى ذلك كما لو أننى ابن رجل آخر، كما لو أن ذلك الذى كان عليه أن يكون أبى لم يستطع أن يكونه، كما لو أن مكانه قد شغله رجل آخر هو هذا الذى سمعته يقول عسى أن يعاقبنى أبنائى، لم يكن هذا التعبير

بالضبط هو ما قاله، ولكنه كان ما فكر فيه بالضبط. أمسكت مارتا بيد مرسيال اليسرى، وشدت عليها بين يديها، وهمست، جميع الآباء كانوا أبناء، وأبناءً كثيرون يصيرون آباء، لكن بعضهم ينسون أنهم كانوا كذلك، والآخرون لا يستطيع أحد أن يوضح لهم ما سيكونه، ليس من السهل فهم ما تقولين، وأنا نفسى لا أفهمه، لقد خرج معى هكذا، فلا تهتم بما قلت، فلنتم إذاً، هيا بنا. تعريا واندسا فى الفراش. عادت لحظة المداعبات إلى الدخول إلى حجرة النوم، اعتذرت لأنها تأخرت هناك فى الخارج، لأنها لم تجد الطريق، بررت نفسها، وفى الحال، صارت أبدية، مثلما يحدث للحظات أحياناً. بعد ربع ساعة من ذلك، وكان الجسدان لا يزالان ملتحمين، همست مارتا، مرسيال، ماذا هناك، سألها حالماً، لقد تأخرت دورتى الشهرية يومين.

فى كنف صمت غرفة النوم الحامى، بين الملاءات المنفوشة والمجعدة من الهياج الغرامى الذى لم يمض عليه بعد سوى وقت قصير، سمع الرجل امرأته تخبره أن دورتها الشهرية تأخرت يومين عن موعدها، وبدا له الخبر كشيء رهيب ومذهل بصورة حاسمة، بدا له نوعاً من fiat lux (*) فى عصر لم تعد اللغة اللاتينية تُستخدم وتُمارس فيه، يظهر ذاهباً وآتياً فى مجاله دون أن تكون لديه فكرة إلى أين يمضى، ولهذا يخيف. ومرسيال جاتشو الذى اعترف قبل ساعة أو أقل، فى نوبة تخل مؤثر عن النفس نادراً ما تحدث لجنس الذكور، بأنه طفل، إنما كان فى النهاية، دون أن يتخيل ذلك، أباً جنينياً منذ أسابيع، مما يثبت مرة أخرى أنه علينا ألا نشعر أبداً بالثقة مما نظن أننا عليه، لأنه قد يحدث، فى اللحظة نفسها، أن نكون قد صرنا شيئاً آخر مختلفاً. كل ما قاله مرسيال ومارتا أحدهما للآخر مع تقدم الليل، قبل أن يناما من محض الإنهاك، يرد بالطريقة نفسها تقريباً فى ألف قصة

(*) fiat lux : باللاتينية فى الأصل، وتعنى: فليكن ضياء.

وقصة عن أزواج لهم أبناء، غير أن الوضع المحدد الذى كان فيه هذان الزوجان لا يسمح بالمرور دون تفحص بعض المسائل الخاصة بهما، مثل الإمكانية المسكوت عنها حول قدرة مارتا على مواصلة تحمل قسوة العمل فى مشغل الفخار، وهى مسألة بلا حل حالياً؛ لأنها مرتبطة بالترقية المنتظرة، والشك فى ما إذا كان الطفل سيولد قبل أو بعد الانتقال إلى المركز. وحول المسألة الأولى، تعلت مارتا بأنها لا تعتقد أن أمها، جوستا إساسكا المتوفاة، والتي عملت من دون راحة حتى اليوم الأخير من حياتها، تتقبل الاستمتاع ببطالة كاملة لمجرد أنها حبلى، وأنا نفسى يمكننى تقديم شهادة على ذلك لو استعدت ذاكرة الشهور التسعة التى عشتها فى داخلها، محال أن تتمكن مخلوقة فى بطن أمها من معرفة ما يحدث فى الخارج، رد عليها مرسىال متثائباً، أفترض أن الأمر كذلك، ولكن عليك أن تعترف على الأقل بأنه سيكون من الطبيعى تماماً أن يتعرف الطفل بحميمية على ما يحدث فى جسم أمه، والمشكلة فى رأى تكمن فى الذاكرة، ولكننا لا نتذكر حتى ما نعانية خلال عملية الولادة، ومن المحتمل أننا هناك، فى أثناء الولادة، ننسى أولى ذكرياتنا، إنك تتخيلين، أعطنى قبلة. قبل هذه المحادثة الحساسة وهذه القبلة، أعرب مرسىال باندفاع عن تمنيه بأن يتم الانتقال إلى المركز قبل الولادة، ستتوفر لك أفضل رعاية طبية وصيدلية يمكنك تصورها، لا وجود لمثل لها، لا من بعيد ولا من

قريب، سواء في الأدوية أو في الجراحة، وكيف تعرف هذا كله وأنت لم تذهب إلى مستشفى المركز، وربما لم تدخله قط، أعرف شخصاً أُدخل للعلاج، إنه رئيسي في العمل، وقد أُدخل هو يشرف على الموت، وخرج كأنه إنسان جديد، بل هناك أناس من خارج المركز يسعون لوساطات كي يعالجوا هناك، لكن الأنظمة صارمة، من يسمعك يظن أن أحداً لا يموت في المركز، هناك من يموت بالطبع، ولكن الموت يُلاحظ أقل، هذه ميزة دون شك، سوف ترين عندما نصبح هناك، ماذا تريدني أن أرى، أن الموت يُلاحظ أقل، أهذا ما تريد قوله، لم أكن أتكلم عن الموت، بل كنت... الموت لا يهمني في شيء، كنتُ أتكلم عنك أنت وعن ابننا، عن المستشفى الذي ستضعينه فيه، إذا لم تتأخر ترقيتك كثيراً، إذا لم تأت ترقيتي خلال تسعة أشهر فلن تأتي أبداً، أعطني قبلة أيها الحارس الداخلى، ودعنا ننام، إليك القبلة، ولكن هناك مسألة مازال علينا أن نتحدث فيها، أى مسألة تعنى، اعتباراً من هذا اليوم عليك أن تقللى من العمل فى مشغل الفخار وخلال شهرين أو ثلاثة شهور تتوقفين نهائياً عن العمل، وهل تظن أن أبى سيتمكن من إنجاز العمل وحده، وخاصة إذا ما كلفنا المركز بطلبية الدمى؟ سيتعاقد مع من يساعده، أنت تعرف جيداً أنها ستكون خطى ضائعة، فليس هناك من يرغب فى العمل فى مشغل الخزف، إنها حالتك، وماذا تعنى حالتى، أمى كانت تواظب على العمل وهى حبلى بى، وكيف تعرفين؟ إننى أتذكر ذلك. ضحكا معاً، ثم

اقترحت مارتا، فلنمتنع حالياً عن إخبار أبي، لا شك أنه سيفرح كثيراً، ولكن من الأفضل ألا نخبره، لماذا، لا أدري، هناك أشياء كثيرة تدور في ذلك الرأس، مشغل الخزف، مشغل الخزف هو شيء واحد منها، المركز، والمركز أيضاً، والطلبية التي قد يطلبونها أو لا يطلبونها، والخزف الذي يجب سحبه، ولكن هناك مسائل أخرى، قصة إبريق الفخار الذي انفصلت يده مثلاً، وسأخبرك في ما بعد بهذه القصة. مارتا هي التي نامت أولاً. ولم يعد مرسيال مذعوراً جداً، فهو يعرف إلى هذا الحد أو ذاك أي طريق عليه أن يسلك بعد الولادة، وبعد مرور نصف ساعة تقريباً، لمسه النعاس بأصابعه الدخانية، واستسلم له بنفس آمنة، دون مقاومة. وكان تفكيره الواعي الأخير هو التساؤل عما إذا كانت مارتا قد حدثته فعلاً عن يد إبريق، وفكر، يا للبلاهة، لا بد أنني كنت أحلم. وكان هو من نام أقل، ولكنه من استيقظ أولاً. كان ضوء الفجر يتسرب من خلال شقوق ستائر النوافذ الخشبية. سيكون لك ابن، قال لنفسه، وكرر، ابن، ابن، ابن. ومتأثراً بعد ذلك بفضول لا رغبة فيه، فضول برىء تقريباً، إذا كان لا يزال ثمة براءة في هذا المكان من العالم الذي نسميه فراش، رفع الأغطية ليرى جسد مارتا. كانت تستدير باتجاهه، بركبتين منحنيتين قليلاً. وكان الجزء السفلي من قميص النوم يلتف عند خصرها، ولا يكاد يباض البطن يظهر في العتمة، ويختفي تماماً عند منطقة العانة القاتمة. أفلت مرسيال الأغطية وتركها تسقط، وأدرك أن لحظة

المداعبات لم تنسحب بعد، فقد ظلت متوقفة بثبات في حجرة النوم طيلة الليل، وما زالت هناك تنتظر. تنهدت مارتا وبدلت وضعها، ربما للامسة الهواء البارد، الذي انسل إليها مع حركة أغطية الفراش. ومثل عصفور يتلمس بنعومة مكان عشه الأول، كانت يد مرسيال اليسرى، خفيفة، تلامس بطنها برفق. فتحت مارتا عينيها وتنهدت، ثم قالت بصوت لعوب، صباح الخير أيها السيد الأب، غير أن ملامحها تبدلت على الفور، فقد انتبهت للتو إلى أنهما ليسا وحدهما في حجرة النوم. فقد كانت لحظة المداعبة تتسلل بينهما، تندس بين الملاءات، لا تعرف أن تقول بوضوح ما الذي تريده، غير أن إرادتها تسعهما.

كان سيبريانو ألجور قد صار خارج البيت. لقد نام نوماً سيئاً وهو يفكر في ما إذا كان سيتلقى اليوم ردّ رئيس قسم المشتريات، وأى ردّ سيكون، أيكون إيجابياً، سلبياً، متكتماً، مماطلاً، لكن ما أفقده النعاس تماماً لبضع ساعات هي الفكرة التي انبثقت في رأسه في منتصف الليل، ومثل كل الأفكار التي تداهمنا في ساعات الأرق الميئة، ظن أنها فكرة استثنائية، عظيمة، بل إنها، في الحالة التي تعيننا، خبطة موهبة تفاوضية تستحق التصفيق كله. وعند استيقاظه من إغفاءة قلقة لأقل من ساعتين استطاع الجسد القانط اختلاسهما من إرهاقه، رأى أن الفكرة لا تساوي شيئاً في نهاية المطاف، وأن الحذر يستدعي عدم تغذية الأوهام حول طبيعة وطبع من يحرك عصا

القيادة، وأن أى أمر صادر عن يملك سلطة أعلى من المعتاد يجب اعتباره قراراً من القدر لا سبيل إلى نقضه. الحقيقة أنه إذا كانت البساطة فضيلة، فإنه لا يمكن لأية فكرة أن تكون فاضلة أكثر من هذه، وهو ما سندركه فى الحال، سيدى رئيس قسم المشتريات، سيقول سيبريانو ألفور، كنتُ أفكر فى ما قلته لى حول الأسبوعين، اللذين يتوجب علىّ خلالهما سحب الخزف الذى يشغل مساحة فى المستودع، ففى تلك اللحظة لم أفكر ملياً فى الأمر، وربما السبب هو التأثير الذى شعرتُ به حين عرفت أن هناك أملاً ضعيفاً فى بقائى واحداً من مهمونى المركز، ولكننى رحمت بعد ذلك أفكر وأفكر، ورأيت أنه ليس من السهل، بل من المحال إنجاز واجبين اثنين فى الوقت نفسه، وأعنى سحب الخزف وصنع التماثيل الصغيرة، أجل، أعرف جيداً أنك لم تقل بعد إنك ستوصى على الدمى، ولكن على افتراض أنك ستفعل، خطر لى بتبصر روحى محض، أن أقترح خياراً يتمثل فى ترك الحرية لى فى الأسبوع الأول من أجل التمكن من التقدم فى صنع الدمى، وسحب نصف كمية الخزف فى الأسبوع الثانى، والعودة إلى الدمى فى الأسبوع الثالث، وإنهاء نقل الخزف فى الرابع، أعرف، أعرف ذلك، ولا حاجة لأن تخبرنى به، فأنا لا أجهل أن هناك خياراً آخر، خيار البدء بسحب الخزف فى الأسبوع الأول، ثم مواصلة التعاقب بعد ذلك، باتباع التسلسل، مرة الدمى، ومرة الخزف، ثم الدمى مرة أخرى، ولكننى أظن أنه لا بد لكم فى هذه الحالة الخاصة من

أن تأخذوا العوامل النفسية فى الاعتبار، فمن المعروف للجميع أن روح المبدع ليست هى نفسها روح المدمر، روح ذاك الذى يحطم، فإذا ما استطعتُ البدء بالدمى، أى بالإبداع، وبالتالي بالاستعداد النفسى الرائع الذى سأجد نفسى فيه، فإننى سأقبل بشجاعة أخرى المهمة القاسية فى اضطرارى إلى تحطيم ثمرة عملى، لأن عدم وجود من يشتريها منى يعادل تحطيمها، والأسوأ من ذلك عدم العثور على من يريدتها ولو قُدمت إليه مجاناً. هذا الخطاب الذى بدا لصاحبه فى الساعة الثالثة فجراً أنه يتضمن منطقاً لا يمكن دحضه، تحول إلى خطاب سخيّف مع شعاع الصباح الأول، وصار مضحكاً تماماً تحت ضوء الشمس الواشى. أخيراً، سيحدث ما لا بد من حدوثه، قال صانع الخزف للكلب لقيه، فالشيطان لا يقبع متربصاً وراء الباب دائماً. وبسبب الاختلاف الواضح فى المفاهيم واختلاف طبيعة مفردات أحدهما عن الآخر، لم يكن بمقدور لقيه التطلع ولو لمجرد فهم أولى لما يرمى صاحبه إيصاله إليه، ولحسن الحظ من جهة أخرى أن الأمر ظل على هذا النحو، لأن الشرط الذى لا مفر منه للانتقال إلى الدرجة الثانية من الفهم، يجب أن يكون سؤاله عما هو الشيطان، أهو صورة، أم هيئة، أم شخص، ولعدم وجوده، كما يُفترض، فى العالم الروحى الكلى منذ بدء الأزمنة، فإنه يرى منذ الآن، بتوجيهه سؤالاً من هذا النوع، أنه لن يكون للجدل نهاية. ويظهور مارتا ومرسيال، ناعسين بصورة غير معهودة، كما لو أن الليل قد

كافأهما فى هذه المرة بشىء أكثر من إطلاق العنان المعتاد للـرغبات المتراكمة خلال عشرة أيام من البعاد، ودّع سيبريانو ألفور آخر بقايا تعكر المزاج، وفور ذلك، بفضل جولات ذهنية قابلة للتخيل بسهولة لدى من يعرف المقدمة والنتائج، وجد نفسه يفكر فى إساورا إستوديوسا، فيها شخصياً، ولكن بالاسم الذى تستخدمه كذلك، إذ من غير المفهوم لماذا علينا مواصلة تسميتها استوديوسا، مادامت استوديوسا هذه قد جاءت من زوجها، وهو ميت الآن. وفكر صانع الخزف، فى أول فرصة تتاح لى، لن أنسى سؤالها عما هى كنيته، كنيته الخاصة، الأصلية، اسم أسرتها. وبينما هو مستغرق فى القرار الخطير الذى توصل إلى اتخاذه، وهو من أشد المساعى رهبة فى الميدان الخاص بالاسم، فالواقع أنها ليست المرة الأولى التى تبدأ فيها قصة حب، على سبيل المثال، وللتحدث فى هذا الأمر فقط، بالسؤال الحتمى، ما اسمك، سألته هى، ولم ينتبه سيبريانو الجور فوراً إلى أن مرسيال والكلب كانا يتآخيان ويلعبان كصديقين قديمين لم يلتقيا منذ زمن طويل، لقد كان الزى الرسمى هو السبب، يقول الصهر، وتكرر مارتا، إنه الزى الرسمى. نظر إليهم الخزاف باستغراب، كما لو أن أمور الدنيا كلها قد بدّلت اتجاهها فجأة، ربما لأنه فكر فى الاسم الذى تحمله الجارة إساورا أكثر من تفكيره فيها كامرأة، والواقع أنه ليس من الشائع، حتى عند شرود الذهن، استبدال شىء بآخر، اللهم إلا إذا كان ذلك نتيجة عيش المرء طويلاً، وربما هناك أمور لا

نبدأ فى فهمها إلا عندما فصل إلى هناك، نصل إلى
 هناك، إلى أين، إلى التقدم فى السن. ابتعد سيبريانو
 الجور باتجاه الفرن، وكان يدمدم ترنيمة دون معنى،
 مارتا، مرسيال، إساورا، لقيه، ثم بترتيب مختلف،
 مرسيال، إساورا، لقيه، مارتا، ثم ترتيب آخر، إساورا،
 مارتا، لقيه، مرسيال، وأخرى، لقيه، مرسيال، مارتا،
 إساورا، وأخيراً وحدهم جميعهم اسمه، سيبريانو،
 سيبريانو، سيبريانو، كرره إلى أن فقد عدد المرات،
 إلى أن أحس بأن دواراً يرميه خارج نفسه، إلى أن لم
 يعد يفهم معنى ما يقوله، حينئذ نطق كلمة قرن، كلمة
 سقيفة، كلمة صلصال، كلمة شجرة التوت، كلمة
 حطب، كلمة باب، كلمة سرير، كلمة مقبرة، كلمة يد،
 كلمة إبريق، كلمة شاحنة، كلمة ماء، كلمة مشغل، كلمة
 عشب، كلمة بيت، كلمة نار، كلمة كلب، كلمة امرأة،
 كلمة رجل، كلمة، كلمة، وكل أشياء هذا العالم، المسماة
 وغير المسماة، المعروفة والسرية، المرئية والخفية، مثل
 سرب طيور يتعب من الطيران وينزل من الغيوم.
 وجلس سيبريانو الجور على مقعد حجرى قديم كان
 جده قد أمر بوضعه إلى جانب الفرن، أسند مرفقيه
 إلى ركبتيه، ووجهه إلى يديه المجتمعتين والمفتوحتين،
 لم يكن ينظر إلى البيت ولا إلى مشغل الفخار، ولا إلى
 الحقول التى تمتد فى ما وراء الطريق العام، ولا إلى
 سطوح بيوت القرية إلى يمينه، كان ينظر فقط إلى
 الأرض المزروعة بقطع صغيرة جداً من الصلصال
 المشوى، وإلى التراب الضارب إلى البياض والحبيبي
 الذى يظهر تحتها، نملة ضالة ترفع بين فكها القويين

حبةً أكبر منها مرتين، وحافة حجر يطل من تحتها رأسٌ سحلية دقيق، ليختفى بعد ذلك. ليس هناك أفكار ولا أحاسيس، وإنما قطعة كبيرة من ذلك الفتات وحسب، كتلة تراب متييسة يكفى الضغط عليها بالأصابع لتتفتت، وحبة أفلتت من سنبلة تحملها نملة دون وجهة، وحجر يختبئ تحته بين حين وآخر كائن حي، جدجد، أو سحلية، أو وهم. بدا كما لو أن لقية قد خرج من العدم، لم يكن هناك وفجأة صار موجوداً، وضع قائمتين بفضاظة على ركبتى سيده، مفسداً عليه وضعية تأمل أباطيل العالم حيث يضيع وقته، أو يظن أنه يكسبه، بسؤاله عن النمل، عن الجداجد، عن السحالي. مرّ سيبريانو ألاجور بيده على رأس الكلب ووجه إليه سؤالاً آخر، ماذا تريد، لكن لقية لم يجب، كان يلهث فقط ويفتح فمه كأنه يبتسم حيال تفاهة المسألة. وفي هذه اللحظة بالذات سمع صوت مرسيال يناديه، قعال يا أبتاه، الفطور جاهز. كانت المرة الأولى التى يقدم فيها الصهر على هذا الأمر، لا بد أن شيئاً غير طبيعى يحدث فى البيت وفى حياة هذين الاثنين، ولم يتوصل هو إلى فهم ما هو ذلك الشئ، تخيل ابنته تقول، قاده أنت، بل ربما كان مرسيال، وهذا حدث أكثر استثنائية، هو من بادر، سسأناديه أنا، ولا بد من تفسير لذلك. نهض عن المقعد، داعب رأس الكلب مرة أخرى، وانطلقاً معاً. لم يعبأ سيبريانو ألاجور بأن النملة لن تعود أبداً إلى ذرع طريق عودتها إلى جحر النمل، إنها لا تزال تمسك

الحبة بقوة بين فكيها، ولكن عملها انتهى هناك،
والسبب هو خراقة لقية الذى لا ينتبه أين يضع
قوائمه.

وبينما هم يتناولون الفطور، أخبرهما مرسيال،
كما لو أنه يجيب على سؤال، بأنه اتصل هاتفياً
بوالديه ليقول لهما إن عملاً مستعجلاً يمنعه من
الغداء معهما، ورأت مارتا بدورها أن نقل الخزف
يجب ألا يبدأ اليوم، وهكذا نقضى اليوم معاً، على
افتراض أن لدينا أسبوعين لعمل ذلك وفارق يوم واحد
لن يكون مسألة خطيرة، وقال سيبريانو ألجور إنه كان
قد فكر فى ذلك أيضاً، لاسيما وأن مدير القسم قد
يتصل فى أى وقت، ومن الضرورى أن أكون هنا لأرد
عليه. تبادلنا مارتا ومرسيال نظرات الشك، وقال
مرسيال بحذر، لو أننى كنت مكانك، مع معرفتى
كيف يعمل المركز، لما كنت واثقاً إلى هذا الحد، تذكر
أنه هو نفسه من عرض احتمال أن يقدم لى الجواب
اليوم، وحتى فى هذه الحالة، يمكن أن تكون مجرد
كلمات تقال، من تلك التى لا تعار أهمية كبيرة،
ليست المسألة مسألة وثوق أو عدم وثوق، عندما
تكون سلطة الحسم بين يدي أشخاص آخرين، وعندما
لا يكون فى متناول يدنا تحريهم باتجاه أو آخر، فإن
الشيء الوحيد المتبقى هو الانتظار. ولم يكن عليهم
الانتظار طويلاً، فقد رنّ الهاتف فى الوقت الذى كانت
فيه مارتا تنظف المنضدة. سارع سيبريانو ألجور
وأمسك السماعة بيد مرتجفة، وقال، مشغل خزف

أالجور، ومن الجانب الآخر سأله أحدهم، ربما هي سكرتيرة أو موظفة قسم الهاتف، أنت السيد سيبريانو أالجور، هو نفسه، فقالت، لحظة واحدة، سأحوّلك إلى السيد رئيس القسم، وخلال دقيقة متجرجرة فى الطول، كان على صانع الخزف أن يستمع إلى موسيقى الكمانات التى يُملأ بها، بإلحاح مهووس، هذا النوع من الانتظار، وكان ينظر إلى ابنته، ولكنه بدا كمن لا يراها، وفجأة انقطعت الموسيقى، لقد تم الاتصال، صباح الخير يا سيد أالجور، قال مدير قسم المشتريات، صباح الخير سيدى، الآن بالذات كنت أقول لابنتى وصهرى، وهذا يوم عطلته، إن حضرتك قد وعدتتى، وأنتك لن تتخلف عن الاتصال اليوم، من الملائم الحديث كثيراً عن المواعيد التى يوفى بها من أجل نسيان المرات التى تخلف فيها المواعيد، أجل يا سيدى، كنتُ أدرس اقتراحك، وقد أخذتُ فى الاعتبار مختلف العوامل، سواء الإيجابية منها أم السلبية، أعذرني للمقاطعة، أظن أننى سمعتُ كلاماً عن عوامل سلبية، ليست سلبية بالمعنى الدقيق للكلمة، من الأفضل القول إنها عوامل، قد تكون فى البدء حيادية، ويمكن لها أن تصل إلى ممارسة تأثير سلبى، أجدُ شيئاً من الصعوبة فى الفهم، إذا كان لا يضايقك قولى هذا، إننى أشير إلى واقع أن مشغلك لا يمتلك أية خبرة معروفة فى صناعة المنتجات التى اقترحتها، هذا صحيح يا سيدى، ولكن ابنتى وأنا نتقن إعداد القوالب، ويمكننى القول لك دون غرور إننا ماهران جداً فى صنع القوالب، وإذا كان صحيحاً

أنا لم نلتفت صناعياً إلى هذا العمل، فإن السبب هو أن المشغل كان يتوجه إلى تصنيع الأواني الخزفية منذ البدء، أفهم ذلك، غير أنه لن يكون من السهل في هذه الظروف الدفاع عن الاقتراح، هل تعنى، واسمح لى بالسؤال والتفسير، أنك دافعت عن الاقتراح، أجل، دافعتُ عنه، وماذا عن القرار، القرار المتخذ كان إيجابياً بالنسبة للمرحلة الأولى، آه، شكراً جزيلاً يا سيدى، ولكن لا بد لى من الطلب إليك أن تشرح لى ما تعنيه المرحلة الأولى، هذا يعنى أننا سنوصيك على طلبية تجريبية من مئتي دمية من كل نوع مع احتمال التوصية على طلبيات جديدة، وهذا يعتمد بوضوح على الطريقة التى سيتلقى بها الجمهور البضاعة، لا أدرى كيف أشكرك، بالنسبة إلى المركز يا سيد الجور، أفضل شكر يتمثل فى إرضاء زبائننا، فإذا كانوا راضين، هذا يعنى إذا اشتروا وواصلوا الشراء، فإننا سنكون راضين أيضاً، أنظر ما الذى حدث للأواني الخزفية، لم يعد الزبائن يهتمون بها، وبما أن المنتج، خلافاً لما حدث فى مناسبات أخرى، لا يستحق الجهد ولا الاستثمار فى إقناع الزبائن بأنهم مخطئون، اعتبرنا علاقتنا التجارية منتهية، الأمر بسيط جداً كما ترى، أجل يا سيدى، إنه بسيط جداً، وعسى ألا تلقى هذه الدمة الآن المصير نفسه، بل ستلقى المصير نفسه عاجلاً أو آجلاً، مثل كل شئ فى الحياة، فما لم يعد له نفع فى الاستخدام يرمى، بمن فى ذلك الأشخاص، أجل بالضبط، بمن فى ذلك الأشخاص، فأنا أيضاً سيرموننى عندما لا أعود أنفع، أنت مدير،

أنا مدير، طبعاً، ولكننى مدير فقط بالنسبة لمن هم
تحتى، وفوقى هناك قضاة آخرون، المركز ليس
محكمة، إنك مخطئ، إنه محكمة، ولا أعرف محكمة
أشد منه صرامة، الحقيقة يا سيدى أننى لا أعرف
لماذا تضيع وقتك الثمين فى التحدث فى هذه الشئون
مع صانع فخار لا أهمية له، ألاحظ أنك تكرر كلمات
سمعتها منى البارحة، أظن أننى أتذكر ذلك بهذا القدر
أو ذلك، السبب هو أن هناك أشياء لا يمكن أن تقال
إلا لمن هم تحت، وأنا تحت، لست أنا من وضعك
تحت، ولكنك كذلك حقاً، هازالت لى على الأقل هذه
الفائدة، أما إذا تواصل تقدم مسيرتك المهنية، وهو ما
سيحدث دون شك، فإن كثيرين آخرين سيصيرون
تحت حضرتك، إذا ما حدث ذلك يا سيد سيبيريانو
ألجور، فلن تعود مرثياً لى، هكذا هى الحياة، كما
قلت حضرتك منذ قليل، هكذا هى الحياة، ولكننى
مازلت أنا من يوقّع على الطلبيات حتى الآن، لى يا
سيدى مسألة أريد أخذ رأيك فيها، أى مسألة هى،
إننى أعنى موضوع سحب الخزف، هذا أمر حُسم
وانتهى، وقد منحتك مهلة خمسة عشر يوماً، ولكن
فكرة خطرت لى، أية فكرة، بما أن مصلحتنا، أعنى
مصلحتنا ومصلحة المركز، هى فى إنجاز الطلبية فى
أسرع وقت ممكن، فسيكون من المفيد لنا كثيراً أن
نتمكن من التناوب فى الأمرين، قناوب، أعنى أن
نخصص أسبوعاً لسحب الخزف من هناك، وأسبوعاً
آخر للعمل فى التماثيل الصغيرة، وهكذا على التوالى،
ولكن هذا يعنى التأخر شهراً فى تنظيف المستودع،

بدلاً من خمسة عشر يوماً، صحيح ، ولكننا سنكسب وقتاً في التقدم في العمل، هل قلتَ أسبوعاً للخزف وأسبوعاً للتماثيل الصغيرة، أجل يا سيدي، فلننفع ذلك إذا معكوساً، الأسبوع الأول سيكون للدمى، والأسبوع التالي للخزف، إنها في العمق مسألة علم نفس تطبيقي، فالبناء مُشجع على الدوام أكثر من التدمير، ما كنتُ لأتجرأ على طلب هذا كله منك يا سيدي، إنها طيبة كبيرة منك، فقاطعه رئيس قسم المشتريات أنا لستُ طيباً، إنتى عملى، ودمدم سيبيريانو ألبور، ربما كانت الطيبة أيضاً مسألة عملية، كمر ما قلته، فأنا لم أسمع جيداً، لا تعباً بما أقول يا سيدي، فهو غير مهم، كمره مهما يكن، قلتُ إنه ربما تكون الطيبة مسألة عملية أيضاً، هذا رأى صانع فخار، أجل يا سيدي، ولكن ليس جميع صانعى الفخار لهم الرأى نفسه، صانعو الفخار آخذون بالانقراض يا سيد ألبور، ومثل هذه الأفكار أيضاً. لم يرد رئيس القسم فوراً، لابد أنه يفكر فى ما إذا كان من الملائم مواصلة التلهى بهذا النوع من ألعاب القط والفأر، غير أن موقعه على الخريطة العضوية للمركز ذكره بأن التشكيلات التراتبية تتحدد ويحافظ عليها من خلال ومن أجل احترامها بدقة، وليس بتخطيها أو تحريفها بأى حال، دون نسيان أن التعامل مع المرعوسين أو من هم أدنى مرتبة بإفراط فى الثقة يؤدى إلى تقويض الاحترام وينتهى إلى التجاوزات، أو أنه ينتهى، إذا ما أردنا استخدام كلمات واضحة، دون غموض، إلى ضياع التراتبية، وفقدان الانضباط والفوضى. كانت

مارتا تصر منذ لحظات على جذب انتباه أبيها المستغرق فى الجدل اللفظى دون أن تتوصل إلى مرادها، فخربشت بسرعة على ورقة سؤالين بحروف كبيرة ووضعتهما الآن أمام أنفه، أى دمي، وكم منها؟ عندما قرأهما سيبريانو ألجور رفع يده غير المشغولة إلى رأسه، لا يوجد عذر لسهوه، كثير من الكلام من أجل الكلام، كثير من الحجج والحجج المضادة، بينما ما يهمه أن يعرفه حقاً لم يعرفه إلا جزئياً، لأن رئيس القسم كان قد أخبره، كما نعلم، أن الطلبية ستضم مئتي دمية من كل نوع. الصمت لم يدم طويلاً مثلما من المحتمل أن يكون قد بدا، ولكن لا بد من العودة إلى التذكر أنه فى لحظة صمت، حتى لو كانت أقصر من هذه، يمكن أن تحدث أشياء كثيرة، وعندما يتطلب الأمر، كما فى هذه الحالة، تعدادها، وصفها، شرحها من أجل التوصل إلى فهم شىء يستحق الذكر من المغزى الذى يتضمنه كل منها وجميعها معاً، يظهر على الفور من يتذرع بأن ذلك محال، وأنه لا يمكن لثقب إبرة أن يتسع للعالم، مع أنه يمكن فى الحقيقة أن يتسع لكون بكامله، بل أكثر بكثير، كونين مثلاً. وباستخدام نبرة محترسة، كيلا يكون إيقاظ التنين مفاجئاً جداً، حان الوقت لأن يتلعثم سيبريانو ألجور، سيدي، وهو الوقت الذى يضع فيه رئيس قسم المشتريات أيضاً نقطة نهائية وينهى محادثة ربما سيندم عليها فى الغد، للأسباب المعروضة أعلاه، ويتمنى لو أنها لم تحدث، حسن، لقد اتفقنا ويمكنكم البدء فى العمل، أوراق الطلبية ستخرج اليوم بالذات،

وأخيراً، قال سيبريانو أَلجور إنه مازال هناك تفصيل يجب حله، وأى تفصيل هو هذا، أى منها يا سيدى، أى منها، لقد تحدثتَ عن تفصيل واحد، وليس عدة تفاصيل، أعنى أى الدمى أَلست تريد شراءها، هذا هو التفصيل الذى أود معرفته، جميعها، أجب مدير المشتريات، جميعها، كرر سيبريانو أَلجور مذهولاً، لكنّ الآخر لم يعد يسمعه، إذ كان قد أغلق الخط. نظر صانع الخزف بذهول إلى ابنته، ثم إلى صهره، لم أتصور ذلك قط، سمعتُ ما سمعتهُ ولا أصدقُه، يقول إنه يوصى على مئتين من كل منها جميعها، من الست، سألت مارتا، أظن ذلك، هذا ما قاله: جميعها. ركضت مارتا نحو أبيها وعانقته بقوة، دون أن تقول شيئاً. واقترب مرسيال أيضاً من حميه وقال، الأمور تكون سيئة أحياناً، ولكن يأتى فى نهاية المطاف يوم لا يحمل إلا الأخبار الطيبة. ولو كان سيبريانو أَلجور مهتماً مقدار شعرة بما يقال، ولو لم يشغل تفكيره الابتهاج بالعمل الذى صار مضموناً الآن، فما كان سيتخلف عن الرغبة فى معرفة ما هو الخبر الآخر أو الأخبار الأخرى الطيبة التى حملها معه ذلك النهار. ومن جهة أخرى، كان ميثاق الصمت المتفق عليه منذ ساعات قليلة بين الأبوين المستقبليين على وشك أن يتمزق هناك، وقد انتبهت مارتا إلى ذلك عندما حركت شفيتها كأنها تريد أن تقول، يبدو لى أنتى حامل يا أبتاه، ولكنها تمكنت مع ذلك من كبح الكلمات. ولم يلحظ ذلك مرسيال المتمسك بالوعد المتفق عليه، ولا سيبريانو خالى الذهن من أية شكوك.

صحيح أن مثل ذلك الكشف لا يمكن إلا أن يكون قادراً عليه إلا من يستطيع، فضلاً عن معرفة قراءة الشفتين، وهي مهارة شائعة نسبياً، أن يحدس مسبقاً ما ستقولانه أيضاً فور بدء الفم بالانفتاح. غريبة هي هذه الموهبة السحرية مثل تلك الأخرى، والحديث هنا في أمر آخر، في رؤية ما في داخل الأبدان من خلال كيس الجلد الذي يلفها. على الرغم من العمق المغرى في كلا الموضوعين المناسبين لأغنى التأملات، إلا أنه علينا أن نتخلى عنهما فوراً كي نولى اهتماماً لما انتهت مارتا من قوله، فلنحسب يا أبتاه، مئتان مكررة ست مرات تساوى ألفاً ومئتين، سيكون علينا أن نسلم ألفاً ومئتي دمية، إنه عمل كثير لشخصين ووقت قصير لإنجازه. المبالغة في الرقم أضفت شحوباً على الخبر الطيب الآخر لهذا اليوم، احتمال قدوم ابن لمريال ومارتا، وهو خبر كان يعتبر مؤكداً، ففقد قوته، وتحول إلى مجرد احتمال يمكن أن يحدث في أي يوم، نتيجة عرضية أو متعمدة للقاء جنسى بين رجل وامرأة، عبر السبل المسماة طبيعية ودون اتخاذ تدابير احتياطية. وقال الحارس الداخلى لمريال جاتشو بين الجدّ والمزاح، أرى أننى سأختفى من المشهد من الآن فصاعداً، وأمل ألا تتسوا وجودى على الأقل، فقالت له مارتا، لم توجد قط بقدر ما أنت موجود الآن، وتوقف سيبريانو الجور للحظة عن التفكير فى الألف ومئتي دمية ليسأل نفسه عما تعنيه بقولها ذلك.

من يعيشون فى المركز يموتون أيضاً إذاً، قال سيبريانو ألاجور وهو يدخل إلى البيت والكلب وراءه بعد أن أوصل صهره إلى واجباته، لا أظن أن أحداً تصور عكس ذلك يوماً، ردتّ مارتا، فجميعنا نعرف أن لديهم مقبرة فى الداخل، المقبرة لا تُرى من الشارع، أما الدخان فيُرى، أى دخان، دخان محرقة الجثث، لا توجد محرقة جثث فى المركز، لم تكن موجودة من قبل، أما الآن فموجودة، من قال ذلك، مرسىالك أخبرنى، فعندما دخلنا الجادة رأيتُ دخاناً يتصاعد من السطح، وكان دخان المحرقة التى أتحدثُ عنها، لقد أنجزت، وقال لى مرسىال إنهم بدءوا يواجهون مشكلة ضيق المكان، ما أستغربه هو الدخان، أكاد أراهن أن التكنولوجيا الحالية قد ألغته، إنهم يُجرون تجارب بإحراق أشياء أخرى، ربما بعض البضائع التافهة التى لم تعد رائجة، مثل أطباقنا، دعك من التفكير فى الأطباق، فلدينا عمل كثير ينتظرنا، لقد رجعتُ بأسرع ما يمكن، أوصلتُ مرسىال إلى الباب ورجعت، أجابها سيبريانو ألاجور. إنه يستبعد

الانحراف البسيط عن الطريق الذى سمح له بالمرور من أمام بيت إساورا إستوديوسا ولم ينتبه إلى أن لكلماته رنة تبرير مرتجلة، أو ربما معرفته بذلك لم تتح له تجنب الأمر. صحيح أنه لم يجد الجرأة لإيقاف الشاحنة وطرق باب أرملة جواكين إستوديوسو، ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد الذى جعله يتذكر، حتى باستخدامه نبرة قوية، أن ما خشى منه أساساً هو أن يبدو مضحكاً بوقوفه أمام المرأة دون أن يدري ما يقول لها وينتهى به الأمر إلى سؤالها، كخشية خلاص، عن الإبريق. غير أن شكاً مهماً سيبقى بلا توضيح إلى الأبد، فلو استطاع سيبريانو ألجور أن يتبادل الحديث ولو لدقيقتين مع إساورا إستوديوسا، هل كان سيدخل إلى البيت متحدثاً عن الموتى والدخان ومحارق الجثث، أم أن بهجة الحديث الممتع أمام الباب ستورد إلى روحه موضوعاً أكثر لطفاً، مثل عودة طيور السنونو أو وفرة الزهور التى تُلحظ فى الحقول. وضعت مارتا على منضدة المطبخ تصاميم المرحلة التحضيرية الأخيرة للدمى الست، وفق ترتيب اختيارها، البهلول، المهرج، الممرضة، رجل الإسكيمو، المندرين الصينى، والآشورى الملتحى، متماثلة فى كل شىء مع تلك التى اقتيدت إلى محكمة مدير قسم المشتريات، مع اختلاف أو آخر صغير جداً، بسيط جداً، لا يمكن له أن يكون كافياً لاعتبارها نسخة مختلفة عن تلك التى قُدمت إليه فى الاقتراح. دفعت مارتا كرسيها كى يجلس عليه أبوها، ولكنه ظل واقفاً. كان يسند يديه إلى سطح المنضدة، وينظر إلى الدمى واحدة فواحدة، وأخيراً قال، من المحزن أنه ليس لدينا رسم جانبي

لها، لماذا، لأنه يوفر لنا رؤية أكثر دقة للطريقة التي يتوجب علينا صنعها بها، تذكر أن فكرتى هي فى صنع قوالبهم عراة، ثم إلباسهم بعد ذلك، لا أظن أنه سيكون حلاً جيداً، لماذا، إنك تنسين أن عددها سيكون ألفاً ومئتي دمية، أجل، أعرف ذلك، إنها ألف ومئتان، صنع ألف ومئتي دمية عارية وإلباسها بعد ذلك واحدة فواحدة سيعنى صنعها وإعادة صنعها، وهذا يعنى عملاً مضاعفاً، معك حق، فقد كنت غبية بعدم التفكير فى ذلك، إذا انسقنا فى هذا، فأنا لا أقل عنك غياباً، كنا نظن أن المركز لن يختار أكثر من ثلاث أو أربع دمي، ولم يخطر لنا أن الطلبية الأولى ستكون بهذه الضخامة، وبالتالى، لم يبق أمامنا سوى طريقة واحدة، قالت مارتا، أجل، بالضبط، علينا إعداد الدمى الست التى ستستخدم فى صنع القوالب، وشيها، وصنع العلب، وحسم أمر إذا ما كنا سنعمل الدمى بطريقة الصب فى القوالب أم بحشوها بالصلصال، لا أظن أن لدينا خبرة كافية بطريقة الصب، ومعرفة ذلك نظرياً غير كاف، فنحن نعمل هنا دائماً بالأصابع، قال سيبريانو الجور، فليكن بالأصابع إذاً، أما العلب فسنوصى على صنعها عند نجار، لا بد من رسم الهيكل العام بدقة، قالت مارتا، وكذلك الظهر طبعاً، سيكون عليك أن تبتكرى، لن يكون الأمر معقداً، تكفى بعض الخطوط البسيطة التى توجه ما هو جوهرى فى النموذج. كانا جنرالين مسالمين يدرسان خريطة العمليات، ويصوغان الاستراتيجية والتكتيك، ويحسبان التكاليف، ويقدران

التضحيات. الأعداء الذين سيصرعونهم هم هذه
الدمى الست، نصف الجدية ونصف الفجة، المصنوعة
من ورق ملون، ولا بد من إجبارها على الخضوع
بأسلحة الصلصال والماء، الخشب والجبس، الأصباغ
والنار، وكذلك بمداعبة لا تكل بالأيدى، وهى ليست
ضرورية للحب فقط. عندئذ قال سيبريانو ألبور،
هناك أمر يجب أن توليه اهتمامنا، أن يكون القالب
مكوناً من قطعتين فقط، لأن قطعة أخرى ستجعل
عملنا معقداً، فقالت مارتا، أظن أن قطعتين تكفيان،
فهذه الدمى بسيطة، صدر وظهر وكفى، ولا أريد أن
أتصور المصاعب إذا ما اضطررنا إلى التجرؤ على
دمية حامل الرمح أو معلم المبارزة، أو الفلاح أو عازف
المزمار، أو الرماح الراكب على حصان، أو الفارس ذى
القبعة المزينة بالريش، فقال سيبريانو ألبور، أو
الهيكل العظمى ذى الجناحين والمنجل الطويل، أو
الثالوث المقدس، وهل له أجنحة، أى منهما تعنين،
الهيكل العظمى، له أجنحة، وإن كنت لا أفهم لماذا
يمثلونه مجنحاً ما دام موجوداً فى كل مكان، بما فى
ذلك المركز، مثلما بدا هذا اليوم، فأشارت مارتا، أظن
أنه يعود إلى زمانك القول الشائع إن من يتحدث عن
السفن إنما يرغب فى الإبحار، هذا ليس من زمنى،
بل يرجع إلى زمن جد أبىك الذى لم ير البحر قط،
وإذا كان الحفيد يكثر من الحديث عن السفينة فإنما
يفعل ذلك كيلا ينسى أنه لا يريد السفر فيها، هدنة
أيها السيد أبى، لست أرى الراية البيضاء، هاهى
ذى، قالت مارتا وقبّلتة. جمع سيبريانو ألبور

التصاميم، لقد صارت خطة المعركة موضوعة، ولم يبق سوى عزف البوق وإعطاء الأمر بالهجوم، إلى الأمام، فليبدأ العمل، ولكنه انتبه في اللحظة الأخيرة إلى نقص مسمار في نعل أحد أحصنة هيئة الأركان العامة، ويمكن أن يكون حسم مصير الحرب مرتبطاً بذلك الحصان، وذلك النعل، وذلك المسمار، فمن المعروف أن حصاناً أعرج لا يمكنه حمل رسائل، وإذا ما حملها، تظل هناك المجازفة بأن يبقياها في منتصف الطريق. هازالت هناك مسألة أخرى، وأرجو أن تكون الأخيرة، قال سيبريانو ألبور، ما الذي خطر لبالك الآن، القوالب، ولكننا تكلمنا عن القوالب، تكلمنا عن أمهات القوالب، عن القوالب الأمهات وحدها، وهذه للحفظ، أما ما أعنيه فهي قوالب الاستخدام، لا يمكن التفكير في صنع مئتي دمية باستخدام قالب واحد، لأنه لن يتحمل طويلاً، سنبدأ بدمية مهرج بلا لحية وننتهي بممرضة ملتحية. انحرفت مارتا بنظرها حين سمعت كلمات أبيها الأولى، أحست بأن الدم يصعد إلى وجهها وأنه لا يمكنها فعل شيء لإجباره على العودة إلى كثافته في كنف الأوردة والشرابين، هناك حيث يتنكر الحياء بتلقائية وخفة، والسبب هو تلك الكلمة التي قالها أبوها، أمهات، والكلمات الأخرى التي تتولد منها، أمومة، أمي، أمومي، الذنب هو ذنب صمتها، لن نخبر أبي بالأمر حالياً، ستقول، والآن لا يمكنها الاحتفاظ بالصمت، صحيح أن تأخر الدورة يومين أو ثلاثة أيام، إذا أضفنا هذا اليوم، لا يعنى شيئاً لمعظم

النساء، أما هي فكانت دقيقة دوماً، بالغة الانتظام، بندولاً بيولوجياً، إذا صح هذا التعبير، ولو كان في روحها أدنى قدر من الشك لما كانت أخبرت مرسيال فوراً، وما العمل الآن، فأبوها ينتظر جواباً، أبوها ينظر إليها مستغرباً، حتى أنها لم تبتسم لنكتته عن الممرضة الملتحية، لأنها ببساطة لم تسمعها، لماذا تورد لونك خجلاً، من المستحيل أن ترد بأن ذلك غير صحيح، وأن لون وجهها لم يحمر خجلاً، بعد قليل، أجل، سيكون بمقدورها قول ذلك، لأن لونها سيشحب فجأة، وفي مواجهة هذا الدم الواشى لم يعد أمامها من مفر سوى تقديم اعتراف كامل، أبتاه، أظن أنني حامل، قالت وأخفضت عينيها. انتصب حاجبا سيبريانو ألاجور دفعة واحدة، وتبدلت ملامح الوجه من الاستغراب إلى حيرة مفاجئة، إلى اضطراب، وبدا بعد ذلك كما لو أنه يبحث عن أكثر الكلمات ملاءمة للحالة، ولكنه لم يجد سوى هذه، لماذا تخبريني بذلك الآن، ولماذا تخبريني بهذه الطريقة، ولن تجيبه هي بالطبع لقد تذكرت ذلك فجأة، فلا لزوم لمزيد من التصنع، لأنك قلت كلمة أمّ، هل قلت هذه الكلمة، أجل، قلتها وأنت تتحدث عن القوالب، صحيح، معك حق. وسرعان ما انحرف الحوار نحو اللامعقول، نحو الكوميديا، وأحست مارتا برغبة مجنونة في الضحك، غير أن الدموع طفرت من عينيها فجأة، وعاد التلون إلى وجهها، فليس من غير المعهود أن تتبدى هزتان متناقضتان، وبالغتا التضاد مثل هاتين، بطريقة متماثلة، أجل يا أبتى، أظن أنني حبلى، أمازلت غير

متأكدة بعد، بلى، إننى متأكدة، ولماذا تقولين إنكِ
تظنين، ما أدرانى أنا، الارتباك، العصبية، فهى أول
مرة يحدث لى هذا، هرسيال يعرف ذلك، أخبرته
عندما جاء، لهذا كنتما مختلفين صباح أمس عما
أنتما عليه عادة، يا لما يخطر لك، إنه مجرد انطباع
لديك، فقد كنا مثلما نكون دائماً، إذا كنت تتصورين
أننى أنا وأمك ظللنا مثلما نكون دائماً فى يومك
الأول، بالطبع لا، أعذرني. الاستجواب الذى كانت
مارتا ترى اقترابه منذ بدء الحديث، وصل أخيراً،
ولماذا لم تخبرينى من قبل؟ لديك من الهموم يا أبتاه
ما يكفى ويزيد، وهل ترين همماً فى وجهى الآن بعد
أن علمت بالخبر، سألتها سيبريانو ألاجور، ولكنك لا
تبدو سعيداً كذلك، قالت مارتا محاولة حرف مسار
القدر، إننى سعيد من الداخل، وسعيد جداً، ولكن لا
تنتظري منى بالتأكيد أن أبدأ الرقص، لأنه ليس
أسلوبى، هل أسأت إليك، لقد أسأت لى، أجل، ولو
أننى لم أستخدم كلمة أم، فكم من الوقت كنت سأظل
جاهلاً أن ابنتى حامل؟ كم من الوقت كنت سأظل
أنظر إليك دون أن أعلم أنك، أبتاه، أرجوك، ربما كنتُ
سأنتظر إلى أن يظهر ذلك عليك، إلى أن تبدأ نوبات
غثيانك، وسأكون أنا عندئذ من سأسألك إن كنتِ
مريضة وإن كان بطنك منتفخاً، وعندئذ ستردين يا
للبلاهة يا أبى إننى حبلى ولم أخبرك لأنى نسيت،
أبتاه، أرجوك، كررت مارتا وهى تبكى وأضافت، هذا
اليوم يجب ألا يكون يوم دموع، معك حق، إننى
أتحول أنانياً، ليس الأمر كذلك، بل إننى أتحول

أنانياً، ولكننى مهما أجهدت نفسى فى التفكير لا أتوصل إلى فهم سبب امتناعك عن إخبارى، تكلمت عن الهموم، وهمومى هى مثل همومك، الخزف، الدمى، المستقبل، ومن يشاطرك شيئاً يمكنه مشاطرتك أمراً آخر. مرت مارتا بأصابعها بسرعة على خديها المبللين وقالت، كان هناك سبب، ولكنها كانت صبيانية منى أن أتصور مشاعر لا وجود لها فى الغالب، وإذا كانت موجودة ما كان على أن أتدخل حيث لم يستدعنى أحد، أى قصة هى هذه، وما الذى تعنيه، سألها سيبريانو ألبور، لكن نبرة صوته كانت قد تبدلت، فالإشارة إلى مشاعر غير محددة، وجودها محل شك حيناً ويقىنى فى حين آخر، سبب له الإرباك، إننى أتحدث عن إساورا إستوديوسا، تقدمت مارتا كما لو أنها تدفع نفسها إلى حمام ماء بارد، ماذا، هتف الأب، فكرت فى أنك إذا كنت مهتماً بها، مثلما يخيل إلى أحياناً، فإن ذهابك لتقول لها إنك تنتظر حفيداً يمكن له، وأنا أعرف أنه مجرد هاجس سخيف، لكننى لم أستطع تجنبه، يمكن له ماذا، لست أدرى، ربما جعلها تدرك، جعلها تنتبه... إلى أننى أبله ومضحك، هذه كلماتك أنت وليست كلماتى، وهذا يعنى بكلمات أخرى أن الأرملة العجوز يستعرض نفسه، ويوجه نظرات تودد إلى امرأة أرملة مثله، ولكنها أرملة شابة، وفجأة تظهر ابنة العجوز لتخبره بأنه سيصير جداً، وهذا سينهى كل شىء، لأن زمنك أيها العجوز لا يسمح بالمزيد، عليك أن تكتفى بالتره مع الحفيد، ورفع يديك إلى السماء شاكرًا أنك

عشت كل هذا الوقت الطويل، آوه، أبتاه، سيكون من الصعب أن تقنعيني بأنه لم يكن هناك شيء مشابه لهذا وراء قرارك بإخفاء ما كان يتوجب عليك أن تخبريني به فوراً، لم تكن لدى نوايا خبيثة على الأقل، ما كان ينقص إلا أن تكون لديك نوايا خبيثة، أطلب منك المعذرة، تلعثت مارتا غارقة، وعاد البكاء للانفجار. مرّ الأب بيديه ببطء على شعرها، وقال، دعى الأمر، فالزمن مُعلم مجاملات وهو ينتهى دائماً إلى وضعنا فى المكان الذى يناسبنا، ونحن نتقدم، نتوقف، نتقهقر حسب مشيئته، وخطؤنا هو أن نتصور أننا قادرون على إيجاد التفافات عليه. أمسكت مارتا اليد الآخذة بالانسحاب وقبلتها ضاغطة إياها بشدة إلى شفيتها، سامحنى، سامحنى، راحت تكرر، أراد سيبريانو الجور مواساتها، لكن الكلمات لم تخرج منه، انس الأمر، فليس هناك ما يستحق الاهتمام، ولم تكن هذه الكلمات بالتأكيد هى الأكثر ملاءمة لما يريد. خرج إلى الفناء مشوشاً بفكرة أنه كان جائراً دون شك مع ابنته، بل أكثر من ذلك، كان يعى أنه قال للتو عن نفسه ما كان ينكر تقبله حتى اليوم من أن زمنه كرجل قد بلغ نهايته، وأن المرأة المدعوة إساورا إستوديوسا لم تكن خلال تلك الأيام سوى مجرد وهم فى رأسه، خدعة تقبلها إرادياً، اختلاق أخير من الروح لإلهاء الجسد الحزين، تأثير متعسف من ضوء الغروب الخامد، نفحة عابرة تمر دون أن تخلف أثراً، قطرة مطر صغيرة تسقط وتجف فوراً. لاحظ الكلب لقيه أن صاحبه ليس فى أحسن حال مرة أخرى،

فيوم أمس أيضاً، حين ذهب بحثاً عنه في القرن، استغرب ملامح الشرود لمن يفكر في أمور يصعب فهمها. لمس يده بأنفه البارد والرطب، لا بد أن هناك من علّم هذا الحيوان البدائي رفع قائمته الأمامية مثلما تفعل عادة بتلقائية الكلاب المدربة على التعاليم الاجتماعية، فضلاً عن أنه لا وجود لطريقة أخرى معروفة لتجنب هرب يد السيد المحبوبة فجأة لدى الملامسة، وهذا دليل نهائي على عدم حلّ كل الأمور في العلاقة بين الأشخاص البشريين والأشخاص الكلبيين، وربما كانت هذه الملامسة الرطبة، وهذه البرودة، توقظ مخاوف قديمة في أعماق أجزاء أدمغتنا وأكثرها قدماً، للزوجة الثابتة لريالة هائلة، الانسلاخ المتجدد لأفعى متلوية، النفس الجليدي لمغارة مأهولة بكائنات من عالم آخر. وقد كان الأمر كذلك إلى حدّ سحب معه سيبريانو ألبور يده بسرعة، وإن كان واقع أنه داعب بعد ذلك فوراً رأس لقيه، في رغبة واضحة في الاعتذار، لا بد أن يُفسر كإشارة إلى أنه ربما يتخلى ذات يوم عن ردة الفعل تلك، هذا إذا افترضنا بالطبع أن زمن الحياة المشتركة الذي سيقضيانه معاً سيكون فسيحاً يمكن معه للحركة التي تتبدى الآن كنفور غريزي أن تتحول إلى عادة مألوفة. الكلب لقيه غير مؤهل لفهم هذه الملاحظات، واستخدامه لأنفه هو عمل غريزي، يأتيه من الطبيعة، وهو بعد ذلك أكثر صحية حقيقية من مصافحة الأيدي بين البشر، مهما بدت شدة حميميتها في النظر واللمس. ما كان الكلب لقيه راغباً في معرفته

هو إلى أين سيذهب سيده حين يقرر الخروج من جموده شبه الساهم الذى يراه فيه. ولكى يجعله يدرك أنه ينتظر قراره، كرر ملامسة الأنف، ولأن سيبريانو ألاجور بدأ، فور ذلك، المشى باتجاه القرن، فإن روح الحيوان وهى، مهما اشتد الاعتراض، أكثر منطقية من كل ما فى العالم من أرواح، جعلت لقيه يستخلص أن مرة واحدة غير كافية فى حياة البشر. وبينما كان سيبريانو ألاجور يجلس بتثاقل على المقعد الحجري، راح الكلب يتشمم الحجر السميك الذى ظهرت من تحته السحلية، غير أن هموم السيد الشفافة كانت أقوى فى روحه من إغواء اصطلياد طريدة مشكوك فيها، ولهذا لم يتأخر طويلاً فى الإقعاء أمامه، متأهباً لمحادثة شائقة. أول كلمة تلفظ بها صانع الخزف، انتهى الأمر، دقيقة ومقتضبة مثل حُكم بلاحيثيات، لا يبدو أنه يتضمن أية حلول لاحقة، ومع ذلك، فإن ما هو أكثر جدوى فى مثل هذه الحالات بنظر أى كلب، هو الحفاظ على الصمت طوال الوقت اللازم إلى أن يتعب صمتُ السادة، فالكلاب تعرف تماماً أن الطبيعة البشرية ثرثارة فى التعريف، متهورة وغير رصينة، مهدارة وعاجزة عن إغلاق فمها وإبقائه مطبقاً. والواقع أننا لا نستطيع أن نتصور أبداً العمق السحيق، الذى يمكن أن يبلغه التأمل الباطنى لأحد هذه الحيوانات حين يأخذ بالنظر إلينا، ونظن أنه لا يفعل بكل بساطة سوى النظر إلينا، ولا ندرك أنه يبدو فقط أنه ينظر إلينا، بينما هو فى الحقيقة قد رآنا وبعد أن رآنا ورحل

مخلفاً إيانا نحرك أذرعنا كحلقى على سطح ذواتنا
الخارجى، ونلطح العالم بتفسيرات عقيمة ومخيبة
للآمال. صمت الكلب وصمت الكون المشهور ذاك الذى
أشير إليه فى مناسبة أخرى إشارة لاهوتية، على
الرغم من أن المقارنة بينهما تبدو مستحيلة لكون
الأبعاد المادية والموضوعية لأحدهما شديدة الاختلاف
وغير متكافئة مع الآخر، فإنهما فى نهاية المطاف
متماثلان فى الكثافة والوزن النوعى لدمعتين، والفرق
يكمن فى الألم الذى جعل الدمعتين تطفران وتنزلقان
وتسقطان. لقد انتهى الأمر، أعاد سيبريانو ألبور
القول، ولم يرف جفن للقية، لأنه يعرف أن الذى انتهى
أمره ليس تموين المركز بالأوانى، فهذا أمر صار من
التاريخ، والمسألة الآن مرتبطة بالتنانير، ولا يمكن أن
تكون سوى تنورة المدعوة إساورا إستوديوسا التى رآها
من الشاحنة عندما حمل إليها سيده الإبريق الفخارى،
وهى امرأة جميلة الوجه والقوام على السواء، مع أنه
لا بد من ملاحظة أن هذا الرأى لم يصغ له لقية،
فمسألة الجمال والقبح هذه هى من أفكار البشر، ولو
تكلم لقية، لقال لسيدة، حتى لو كنت الأقيح بين
البشر، فلن يكون لقبحك فى نظرى أى معنى، فأنا لن
أفتقدك إلا إذا صارت لك رائحة أخرى، أو مررت
بيدك على رأسى بطريقة أخرى. غير المناسب فى
الشروود هو السهولة التى يمكن أن يسهو بها الشارد
فى دروب تحرفه عن المسار، مما يفقده خيط تسلسل
الكلمات والأحداث، مثلما حدث للتو مع لقية، الذى
انتبه لجملة سيبريانو ألبور التالية حين صارت فى

منتصفها، وكونها فى منتصفها هو السبب، مثلما يُلاحظ، لغياب الحرف الكبير منها، فقد أنهى الخزاف جملته بالقول، لن أسعى إليها أكثر، وهو لا يشير بالطبع إلى ذلك الحرف الكبير الاستهلالى، لأنه لا يستخدمه وهو يتكلم، بل يشير إلى المرأة المدعوة إساورا إستوديوسا التى تخلى، منذ هذه اللحظة، عن إقامة أى نوع من التعامل معها، كنتُ أتصرف مثل طفل أحمق، ومنذ الآن لن أسعى إليها أكثر، هكذا كانت الجملة كاملة، غير أن الكلب لقية، دون أن يجرؤ على الشك فى القليل الذى سمعه، لا يمكنه عدم إدراك أن كآبة وجه السيد تتناقض بصورة سافرة مع قرار الكلمات، وإن كنا نعرف بدورنا أن قرار سيبريانو ألبور حاسم قاطع، فسيبريانو ألبور لن يسعى أكثر إلى إساورا إستوديوسا، وسيبريانو ألبور يشعر بالامتنان تجاه ابنته؛ لأنها جعلته يرى نور العقل، وسيبريانو ألبور رجل كامل ومكتمل وهو لم يتلف بعد، وليس واحداً من أولئك المراهقين الحمقى الذين، لكونهم فى سن الحماسة الجامحة، يُمضون الوقت فى الجرى وراء الأوهام، والضباب، والتخيلات، ولا ينصرفون عنها حتى عندما تصطدم رءوسهم ومشاعرهم التى يظنون أنهم يشعرون بها بجدار المستحيلات. نهض سيبريانو ألبور عن المقعد الحجرى، بدا أنه يتكلف مشقة فى رفع جسده من هناك، وهذا غير مستغرب، فالوزن الذى يشعر الإنسان به ليس هو نفسه الذى تسجله آلية الميزان، وفى بعض الأحيان يكون أكثر، وفى أحيان أخرى

يكون أقل. سيبريانو ألاجور يتوجه للدخول إلى البيت، ولكنه خلافاً لما أعلن من قبل، لن يشكر ابنته؛ لأنها جعلته يرى نور العقل، لا يمكن طلب ذلك كله من رجل تخلى للتو عن حلم، حتى لو كان حتماً قصير المدى مثلما كان حلمه هذا، إنها مجرد جارة أرملة، سيقول، أجل، وليذهب ليوصى النجار على الصناديق، مع أنها ليست المهمة المستعجلة التي يجب إنجازها، ولكن في ذلك كسباً لبعض الوقت، ففي موضوع المواعيد لم تكن مواعيد النجارين، وكذلك الخياطين، محط ثقة قط، هكذا كانت الأمور في الزمن القديم على الأقل، فمع الملابس الجاهزة ومبدأ اصنع بنفسك تبدل العالم كثيراً. أمازلت غاضباً مني، سألته مارتا، لم أغضب، كانت مجرد خيبة أمل صغيرة وحسب، ولكننا لن نواصل التحدث في الموضوع بقية حياتنا، أنت ومرسيال سيكون لكما ابن، وأنا سيكون لي حفيد، وسيجري كل شيء على ما يرام، كل شيء في مكانه، وقد حان الوقت لأن يوضع حدّ للأوهام، عندما أرجع سنجلس لنضع مخططاً للعمل، علينا أن نستغل هذا الأسبوع إلى أقصى الحدود، ففي الأسبوع القادم سأكون مشغولاً بنقل الخزف، خلال شطر لا بأس به من النهار على الأقل، اذهب بالشاحنة وتجنب الإرهاق، قالت مارتا، المشوار لا يستحق ذلك، فورشة النجارة غير بعيدة. نادي سيبريانو ألاجور الكلب، هلم بنا أيها الحيوان، ومضى لقيه في أثره وهو يفكر، قد يلتقي بها. فالكلاب هي هكذا، تفكر بدلاً عن أصحابها عندما تريد.

أسباب شكوى سيبريانو أَلجور الصادقة ضد سياسة المركز التجارية عديمة الرحمة، والمعروضة بإسهاب فى هذه القصة من وجهة نظر تعاطف طبقى معلن، لا تبتعد مع ذلك فى أية لحظة، حسب اعتقادنا، عن أشد أشكال الحيادية فى الحكم، ولا يمكن لها أن تُنسبنا، وإن كانت تجازف فى تأجيج غير موات لموقد علاقات الخصومة التاريخية الخامد بين رأس المال والعمل، لا يمكن أن تنسبنا، كما قلنا، أن سيبريانو أَلجور المذكور مسئول عن بعض الأخطاء فى ذلك كله، وأول تلك الأخطاء ساذج، برىء، ولكن السذاجة والبراءة، مثلما حدث فى مرات كثيرة، كانتا الجذر الخبيث للأخطاء الأخرى، وكان خطؤه الأول هو التفكير فى أن أذواق معاصرى جده المؤسس وحاجتهم ستظل غير قابلة إلى التبدل، فى موضوع المنتجات الخزفية، إلى أبد الأبدى، أو مدى حياته على الأقل، وهو الأمر ذاته إذا ما أمعنا النظر. لقد رأينا كيف يجرى عجن الصلصال هنا بأشد الطرق الحرفية اليدوية، وقد رأينا كيف أن هذين الدولابىن

متخلفان وشبه بدائيين، ورأينا كيف أن القرن من الخارج يحتفظ بآثار قدم غير مقبولة في عصر حديث، بالرغم من العيوب المستنكرة وغير القابلة للتسامح التي تميزه، ومع ذلك فقد توفرت حتى الآن أريحية تقبل وجود مشغل خزف مثل هذا في الوقت الذي يوجد فيه «مركز» مثل ذلك. سيبريانو ألاجور يشكو ويتذمر، ولكنه يدرك كما يبدو أن الصلصال المعجون لم يعد يخزن بهذه الطريقة، وأن مصانع الخزف الأساسية اليوم لا ينقصها إلا القليل لتتحول إلى مختبرات بموظفين يرتدون أرواباً بيضاء يدونون ملاحظات، وروبوتات ناصعة تنكب على العمل. المكان هنا يفتقر، على سبيل المثال، إلى أجهزة قياس درجة الرطوبة المقبولة، وأجهزة إلكترونية عالية الكفاءة تحافظ على ثباتها، تضبطها كلما زادت أو نقصت، لم يعد ممكناً العمل بالاستعانة بالعين وراحة اليد، باللمس أو الشم، وفق أساليب سيبريانو ألاجور التكنولوجية المتخلفة، والذي قال لابنته للتو؛ بأشد تلقائية في الدنيا، عجينة الصلصال جيدة، رطبة ولدنة، إنها جاهزة، سلسلة في العمل. ولكننا نتساءل الآن، كيف يمكن له أن يكون واثقاً إلى هذا الحد مما يقوله إذا كان لم يفعل أكثر من وضع راحة يده عليها، وضغطها قليلاً ودعك قطعة صغيرة من العجينة بين إصبعه الإبهام وإصبعيه السبابة والوسطى، كما لو أنه، بعينين مغمضتين، وبافتتان كامل بمغزى اللمس المستفسر، لا يختبر في تلمسه خليطاً متجانساً من

الطين الأحمر، والصلصال الصيني، والسيليس الصوانى، والماء، وإنما سَدَى حَرِير ولحمته. الاحتمال الأكبر، مثلما أتاحت لنا الفرصة فى أحد هذه الأيام الأخيرة أن نلاحظ ونضع فى الاعتبار، هو أن أصابعه تعرف ذلك، وليس هو نفسه. وعلى أى حال، لا بد أن حكم سيبريانو أَلجور يتوافق مع واقع الصلصال المادى، ذلك أن مارتا، وهى أصغر سنأً بكثير، وأكثر حداثة بكثير، وأكثر من هذا الزمان بكثير، وليست، كما نعلم، قليلة الخبرة بأى حال فى هذه الفنون، انتقلت دون اعتراض إلى موضوع آخر، فسألت أباهَا، هل تظن أن الكمية ستكون كافية لصنع ألف ومئتى دمية، أظن ذلك، ولكننى سأحاول تعزيزها. انتقلا إلى قسم من المشغل تُحفظ فيه الأكاسيد ومواد أخرى للعمليات النهائية، تفحصا الموجود منها، وسجلا قائمة بالنواقص، سنحتاج إلى ألوان أكثر من هذه التى لدينا، قالت مارتا، فلا بد للدمى من أن تكون زاهية وجذابة للنظر، ونحتاج إلى جيس للقوالب وصابون خزفى، ونفط للأصباغ، أضاف سيبريانو أَلجور، ولا بد أن نُحضر كل ما نحتاج إليه دفعة واحدة، كيلا نضطر إلى قطع العمل فى الذهاب مسرعين والركض للشراء. اتخذت مارتا فجأة هيئة مفكرة، ماذا جرى؟ سألها الأب، لدينا مشكلة جدية، ما هى، كُننا قد قررنا إنجاز حشوة القوالب بالإصبع، أجل، صحيح، ولكننا لم نتحدث عن تصنيع الدمى نفسها، فمن المحال إنجاز ألف ومئتى دمية

بالإصبع، ثم إن القوالب لن تتحمل، ولن يكون العمل مجزياً، سيكون ذلك كمن يريد إفراغ البحر بدلو، معك حق، وهذا يعنى أنه سيكون علينا اللجوء إلى حشوة معجون الباربوتين، ليست لدينا خبرة كبيرة، ولكننا ما زلنا فى السن التى يمكننا فيها التعلُّم، المشكلة الأسوأ ليست هذه يا أبى، ما هى إذاً؟ أذكر أننى قرأت، ولا بد أن الكتاب عندنا فى مكان ما، أنه عند استخدام الباربوتين فى الحشوة، من غير المناسب استخدام عجينة ضاربة إلى الحمرة فيها صلصال صينى أبيض، وعجینتنا تحتويه بنسبة ثلاثين بالمئة على الأقل، رأسى هذا لم يعد ينفع كثيراً، كيف لم أفكر فى ذلك من قبل، لا تلم نفسك، فنحن لم نعتد على العمل بالباربوتين، صحيح، ولكنها معارف أولية بسيطة لدى الخزَّافين، إنها ألف باء المهنة. نظر كل منهما إلى الآخر بحيرة، لم يكونا أباً ولا ابنة، ولا جداً مستقبلياً ولا أمماً مستقبلياً، بل مجرد خزافين فى مأزق حرج حيال المهمة المهولة فى اضطرارهما إلى أن يسحبا الصلصال الأبيض الصينى من عجينة الطين ثم تقليص لزوجته قوامها بعد ذلك بإضافة طين أحمر ناعم ومطبوخ. ومثل هذه العملية الكيميائية غير ممكنة، بكل بساطة. ماذا سنفعل، سألت مارتا، فلنرجع إلى الكتاب، ربما نجد...، لا جدوى من ذلك، فليس بالإمكان استخراج الصلصال الصينى الأبيض من العجينة ولا يمكن تحييده، وما أقوله ليس له أى معنى، فكيف يمكن استخراج الصلصال الصينى أو

تحييده، والحل الوحيد هو فى إعداد وجبة أخرى من الطين بالمكونات الدقيقة، لا وقت لدينا يا أبتاه، أجل، معك حق، لا وقت لدينا. خرجا من مشغل الخزف، هيئتان محبطتان وخامدتان، حتى أن لقية لم يحاول الاقتراب منهما وهما يجلسان الآن فى المطبخ، ينظران إلى التصاميم التى تنظر إليهما، ولا يجدان الطريقة لحل لب المسألة، فهما يعرفان من خلال التجربة أن أنواع الصلصال القوية تميل إلى الانكماش كثيراً، وتتشقق، وتتشوه، فهى لدنة بإفراط، طرية، سهلة القولية، ولكنهما يجهلان النتائج التى يمكن التوصل إليها مع الباربوتين، وخاصة ماهية النتائج السلبية التى ستظهر فى العمل الناجز. بحثت مارتا ووجدت الكتاب، ووجدت فيه أنه من أجل تحضير الباربوتين لا يكفى حل الصلصال بالماء، بل يتوجب استخدام مواد مذيبة، مثل سيليكات الصوديوم، أو كربونات الصوديوم، أو سيليكات البوتاسيوم، وكذلك الصودا الكاوية ما لم يكن هناك خطر من العمل بها، الخزف هو الفن الذى من المحال حقاً فصل الكيمياء فيه عن التأثيرات الفيزيائية والحركية، ولكن الكتاب لا يخبر بما يمكن أن يحدث للدمى إذا ما صنعتها بالصلصال الوحيد المتوافر لدىّ، المشكلة هى الكمية، إذا كانت الدمى قليلة تُمَلأ القوالب بالأصابع، أما ألف ومئتا دمية، أيتها العذراء المقدسة. إذا كنتُ قد فهمت جيداً، قال سيبريانو ألبور، فإن المطلبين الأساسيين الواجب توافرها فى الباربوتين هما الكثافة والميوعة،

هذا ما هو موضع هنا، قالت مارتا، اقرئيه إذاً، بشأن الكثافة، الحالة المثالية هي واحد فاصلة سبعة، هذا يعنى، لتر من الباربوتين يجب أن يزن ألفاً وسبعمئة جرام، وإذا أردت معرفة كثافة ما لديك من الباربوتين، دون أن يكون لديك مقياس كثافة مناسب، فاستخدم عينة وميزاناً، ولا بد بالطبع من حسم وزن العينة، وماذا عن الميوعة، هن أجل قياس الميوعة استخدم مقياس لزوجة، وتوجد منه عدة أنواع، وهنالك نوع منها يقدم قراءة مستقرة فى تدرجات تستند إلى احتمالات نظر مختلفة، هذا الكتاب لا يساعد كثيراً، بللى إنه يساعد، ركزى اهتمامك، إننى أركزه، أحد أكثر الاستخدامات تواتراً هو مقياس لزوجة الفتل الذى يُقرأ وفق درجات جالينكامب، ومن هو هذا السيد، لا ذكر لذلك هنا، قابعى إذاً، وحسب هذا التدرج، فإن الميوعة المثالية تستقر ما بين المئتين والستين والثلاثمئة وستين درجة، ألا يوجد هنا ما هو فى متناول قدرتى على الفهم، سأل سيبريانو ألبور، سيأتى ذلك الآن، قالت مارتا وقرأت، فى حالتنا سنستخدم منهجاً حِرَفِيّاً، تجريبياً وغير دقيق، ولكنه قادر على أن يقدم، فى الممارسة، مؤشراً تقريبياً، وأى منهج هو هذا، دسّ اليد عميقاً فى الباربوتين ثم إخراجها، وترك الباربوتين يقطر من اليد المفتوحة، وتعتبر الميوعة جيدة إذا تشكل بين الأصابع، بعد أن تقطر الباربوتين، غشاء مثل غشاء قوائم البيط، مثل غشاء البيط، أجل، مثل البيط. تركت مارتا الكتاب جانباً

وقالت، لم نتقدم كثيراً، بل تقدمنا بعض الشيء،
فتحن نعرف الآن أنه لا يمكننا العمل دون مادة مذيبة،
وأننا ما لم نتوصل إلى أغشية بط لن يكون لدينا
باربوتين نافع للحشوة، من حسن الحظ أنك فى
مزاج رائق، المزاج مثل المدّ، يعلو لحظة، وينخفض
أخرى، ومزاجى فى حالة صعود الآن، فلنركم من
الوقت سيدوم ذلك، لا بد له أن يدوم، فمصير هذا
البيت بين يديك، البيت أجل، ولكن ليس الحياة، أبهذه
السرعة بدأ المدّ ينخفض، سألته مارتا، إنه فى هذه
اللحظة يتشكك، يتردد، لا يعرف جيداً إذا ما كان
عليه أن يملأ أم يُفرغ، ابق معى إذاً، فأنا أشعر بأننى
أطفو، كما لو أننى غير موقنة بكونى من أظن أنى
أكونه، فى بعض الأحيان أفكر فى أنه ربما من
الأفضل ألا نعرف من نكون، قال سيبريانو ألاجور،
مثل لقيه، أجل، يخيل إلى أن الكلب يعرف عن نفسه
أقل مما يعرفه عن صاحبه الذى يملكه، حتى أنه غير
قادر على التعرف على نفسه فى مرآة، ربما كانت
مرآة الكلب هى سيده، ربما من خلاله فقط يستطيع
التعرف على نفسه، ألمحت مارتا، فكرة جميلة، حتى
الأفكار الخاطئة، كما ترى، يمكن لها أن تكون جميلة،
سنرى كلاباً إذا تخطى الحظ عن عملنا فى مشغل
الخرزف، لا توجد كلاب فى المركز، يا للمركز
التعيس، حتى الكلاب لا تحبه، المركز هو الذى لا يريد
الكلاب، هذه المشكلة لا يمكن أن تهم إلا من يعيش
هناك، قطع سيبريانو ألاجور الكلام فى الموضوع

بصوت متشنج. لم تجب مارتا، فهي تدرك أن أية كلمة تقولها قد تفتح المجال لجدل جديد. وفكرت بينما هي ترتب مرة أخرى التصاميم المتعبة، إذا ما جاء مرسيال غداً إلى البيت وقال إنه صار حارساً مقيماً، وأنه علينا أن ننتقل، فإن ما نفعله هنا يصير بلا معنى، وسيكون سيان إذا ما رافقنا أبي أم لا، فمشغل الخزف في هذه الحالة أو تلك محكوم عليها بالتوقف، وحتى لو أصر هو على البقاء فإنه لن يستطيع العمل بمفرده، وهو نفسه يعرف ذلك. وما الأفكار التي جالت في أثناء ذلك في ذهن سيبريانو ألاجور، إنه أمر مجهول، ولا يجدر بنا أن نخلق له أفكاراً قد تتفق مع أفكاره الحقيقية وال فعلية، بالرغم من أنه، على افتراض أن الكلمة، في نهاية المطاف، لم تُمنح للإنسان من أجل إخفاء ما يفكر فيه، فإنه سيكون من المشروع أن نستنتج شيئاً قريباً مما قاله الخزاف بعد صمته المتأخر، ليس الوهم هو السيئ، وإنما السيئ هو إيهام النفس، ومن المحتمل أنه كان يفكر في الشيء نفسه الذي فكرت فيه ابنته، وحصيلة ما توصل إليه أحدهما لا بد أن تكون، بصورة منطقية صرفة، حصيلة ما توصل إليه الآخر. وعلى كل حال، أضاف سيبريانو ألاجور دون أن ينتبه، أو ربما انتبه، ربما في اللحظة نفسها التي نطق بها الكلمات الأولى لاحظ التلونات التنبؤية لتلك الكلمات، وعلى كل حال، السفينة المتوقفة لا تسافر، فمهما يكن ما سيحدث في الغد لا بد من العمل اليوم، ومن يزرع شجرة لا

يعرف أيضاً إذا ما كان سينتهى مشنوقاً عليها، مع موجة سوداء مثل هذه لا يمكن لزورقنا أن يُبحر، قالت مارتا، ولكنك على حق، فالوقت ليس جالساً فى الانتظار، علينا أن نبدأ العمل، ومهمتى حالياً هى رسم جانبى الدمى وظهورها، وتلوينها، وأقدر أننى سأنجزها قبل حلول الليل إذا لم يشغلنى شىء آخر، لسنا بانتظار زائرين، قال سيبريانو ألاجور، وأنا سأتولى أمر إعداد الغداء، فقالت مارتا، إنه بحاجة إلى التسخين فقط، وإعداد طبق سلطة. ذهبت بحثاً عن أوراق الرسم والألوان المائية والرياش، وخرقة قديمة للتجفيف، ووضعت كل شىء فى ترتيب جيد، بمنهجية، على المنضدة، ثم جلست وتناولت الآشورى ذا اللحية، سأبدأ بهذا، قالت، بسطى قدر ما تستطيعين كيلا تظهر بروزات وثرغرات عند نزع القالب، قالب من قطعتين وكفى، لأن قطعة الثالثة ستكون خارج إمكاناتنا، لن أنسى ذلك. ظل سيبريانو ألاجور لدقائق يرى كيف ترسم ابنته، ثم خرج إلى مشغل الخزف. إنه ذاهب لتأمل الصلصال، ليصلح اليد الملتوية، ليقولب بعض الدمى التجريبية حتى لا تبدو، بصورة سافرة، غير شبيهة ببهايل أو مهرجين، برجال إسكيمو أو ممرضات، بأشوريين أو موظفى مندرين صينيين، وإنما دمي يمكن لأى شخص، رجل أو امرأة، شاب أو عجوز، أن يقول حين ينظر إليها، إنها تشبهنى. وربما يأتى أحد هؤلاء الأشخاص، امرأة أو رجل، عجوز أو شاب، ليأخذ إلى بيته بدافع

الإعجاب، أو ربما الزهو، تشخيصاً شديداً الوفاء للصورة التي يرى نفسه بها، يأتى إلى مشغل الخزف ويسأل سيبريانو ألاجور عن ثمن تلك الدمية التي هناك، ويجيبه سيبريانو ألاجور بأنها ليست للبيع، فيسأله الشخص لماذا، ويرد هو، لأنها كذلك. حلّ المساء، ولم يعد هناك الكثير للغروب عندما دخلت مارتا إلى مشغل الخزف وقالت، لقد انتهيت، وقد تركتها تجف على منضدة المطبخ. بعد ذلك، وكانت قد رأت العمل الذى أنجزه أبوها، دميتين غير مكتملتين بطول شبرين تقريباً، منتصبتين، إحداهما ذكورية، والأخرى أنثوية، كلتاهما عاريتان، يبرز من كتف إحداهما طرف سلك، فعلقت، ليست سيئة يا أبتى، ليست سيئة، ولكن دمانا لا تحتاج لأن تكون كبيرة هكذا، تذكر أننا فكرنا فى أن يكون طولها شبراً بقياس يدك، هن المناسب أن تكون أطول قليلاً، كى تُرى بوضوح فى واجهات المركز، كما أنه يجب التفكير فى تقلص الحجم فى الفرن نتيجة فقدان الرطوبة المتبقية، وما هذه حالياً إلا تجارب، إنها تروقنى على هذه الحال، تعجبنى كثيراً، وهى لا تشبه شيئاً رأيتَه من قبل، مع أن المرأة تذكّرنى بأحد ما، يجب الاستقرار على رأى، قال سيبريانو ألاجور، تقولين إنها لا تشبه أى شىء رأيتَه ثم تضيفين إن المرأة تذكرك بأحد ما، إنه انطباع مزدوج، استغراب وتآلف، ربما لن أضطر إلى تربية كلاب، قد أتفرغ للنحت، فهو أحد أكثر الفنون مردودية كما سمعت، عائلة فنانيين

مثالية، علقت مارتا بابتسامة نصف ساخرة، لحسن الحظ أن مرسيال قد نجا كيلا يضيع منا كل شيء، ردّ سيبريانو ألجور، ولكنه لم يبتسم.

كان هذا هو أول أيام الخلق. وفي اليوم الثاني سافر الخزّاف إلى المدينة ليشتري الجبس الخزفي المخصص للقوالب، إضافة إلى كربونات الصوديوم، وهو ما وجده لاستخدامه كمذيب، والأصباغ، وعدة دلاء بلاستيكية، وملاعق جديدة من الخشب والأسلاك، وموالج، ومصبات لصب الصلصال في القوالب المفرّغة. وقد كانت مسألة الأصباغ موضع جدال حتى خلال عشاء اليوم الأول المذكور وبعده، وتركزت نقطة الجدل حول إذا ما كان يتوجب تزجيج الدمى، وبالتالي إدخالها إلى الفرن بعد طلائها، أم عكس من ذلك، أي طليها على البارد بعد شيّها وعدم إعادتها بعد ذلك إلى الفرن. ففى الحالة الأولى يجب أن يكون الصباغ من نوع، وفي الحالة الثانية يجب أن يكون من نوع آخر، وكان لا بد من اتخاذ القرار فوراً، لا يمكن تأخيرها حتى اللحظة الأخيرة، بعد إمساك الفرشاة باليد، إنها مسألة جمالية، دافعت مارتا عن رأيها، بل هي مسألة وقت، كان رأى سيبريانو ألجور، الطلاء والتزجيج في الفرن يرفع من النوعية والبريق، ألحت هي، ولكننا إذا ما طليناها على البارد فسنجنب حدوث مفاجآت مزعجة، فاللون الذي نستخدمه هو الذي يبقى، ولا نكون مرتهنين لتأثير الحرارة على الغراء، لاسيما عندما تتبدل نزوات نار

الضرن. تغلب رأى سيبريانو ألجور، الأصباغ التى سيشترىها هى المعروفة فى السوق المتخصص باسم أصباغ الخزف، وهى سهلة الاستخدام، وسريعة الجفاف، وتوجد منها تشكيلة ألوان واسعة، أما بالنسبة للمذيب، وهو لا غنى عنه لأن سماكة الطلاء الأصلى تكون كبيرة فى العادة، وإذا لم تكن هناك رغبة فى استخدام مذيب اصطناعى فىمكن استخدام الكيروسين. عادت مارتا لفتح كتاب الفن، بحثت عن الفصل الخاص بالطلاء على البارد وقرأت، يطبق على القطع المشوية مسبقاً، يجرى حف القطعة بورق زجاج ناعم، بحيث يزال أى نتوء أو عيب فى الدمية الناجزة، فيصبح سطحها أكثر تناسقاً ويتيح ذلك التصاقاً أفضل للطلاء فى الأجزاء التى تعرضت لإفراط فى الشئ، حفّ ألف ومئتى دمية بورق الزجاج سيكون ذروة الصبر، وبانتهاء هذه العملية، واصلت مارتا القراءة، يتوجب إزالة كل أثر للغبار الناتج عن الحف باستخدام آلة هواء مضغوط، فقاطعها سيبريانو ألجور، لا توجد لدينا ضاغطة هواء، وتابعت مارتا، أو باستخدام فرشاة قاسية، وهى عملية أبطأ ولكنها أفضل، مازال للأساليب القديمة فائدتها، ليس دائماً، صححت مارتا ثم واصلت القراءة، ومثلما يحدث مع كافة أنواع الطلاء تقريباً، فإن طلاء الخزف لا يظل متجانساً فى العلب لوقت طويل، ولهذا يتوجب تحريكه قبل استخدامه، مسألة أولية، الجميع يعرفونها، واصلى، يمكن استخدام الألوان مباشرة

على القطعة، غير أن ثباتها يتحسن إذا ما بُدئ بطلاء طبقة تحتية تكون عادة باللون الأبيض غير اللامع، لم نفكر في هذا الأمر، من الصعب التفكير في أمر غير معروف، لا أتفق معك في الرأي، فالمرء يفكر تحديداً لأنه لا يعرف، دع هذه المسألة المؤثرة إلى وقت آخر، واستمع إليّ، أنا لا أفعل شيئاً آخر، طبقة الأساس التحتية يمكن إنجازها بالفرشاة، غير أنه قد تكون هناك فائدة في استخدام مسدس البخ للحصول على طبقة أساس أكثر نعومة، لا يوجد لدينا مسدس بخ، أو بطريقة التغطيس، هذه هي الطريقة التقليدية، الطريقة المستخدمة منذ الأزل، وبالتالي سنلجأ إلى التغطيس، العملية كلها ستجرى على البارد، حسن جداً، وبعد طلاء القطعة وجفافها، لا يجب ولا يمكن إخضاعها لأي نوع من الشئ، هذا ما كنت أقوله لك، ففيه توفير للوقت، مازالت هناك توصيات أخرى، لكن أهمها هو وجوب أن يجف اللون تماماً قبل استخدام اللون التالي، إلا في حالة السعى على تأثيرات تركيب أو مزج، لا نريد تأثيرات ولا شفافيات، نريد سرعة، فهذه ليست لوحات زيتية، ولكن جلياب موظف المندرين الصينى يستحق على أى حال معالجة أكثر دقة، ذكّرتة ماريا، وانظر كيف أن التصميم نفسه يجبرنا على تنويع الألوان وزيادة غناها، فلنبسّط. أقضت هذه الكلمة الجدال، ولكنها ظلت ماثلة في روح سيبريانو أليجور وهو يقوم بالمشتريات، والدليل على ذلك أنه اقتنى في اللحظة

الأخيرة مسدساً للبخ. بالنظر على حجم الدمى، فإن سماكة طبقة الأساس لن تؤثر عليها، أوضح فيما بعد لابنته، وأظن أن المسدس سيكون أكثر نفعاً، رشه فى ما حول الدمية وينتهى الأمر، سنحتاج إلى أقنعة، قالت مارتا، الأقنعة غالية الثمن، وليس لدينا نقود لمثل هذا الترف، ليس ترفاً، بل احتياطاً، لأننا سنتنفس وسط سحابة من الأكاسيد، يوجد علاج لهذه الصعوبة، ما هو، سأنجز هذا الجزء من العمل فى الخارج، فى الهواء الطلق، فالطقس الآن مستقر، لماذا تقول «سأنجز» وليس سننجز، سألته مارتا، أنتِ حامل، وأنا لست كذلك، فليكن هذا معلوماً لديك، لقد عاد إليك طيب المزاج أيها السيد الوالد، أفعل ما أستطيعه، أدرك أن هناك أموراً فلتت من اليدين، وأموراً أخرى تهدد بأن تفلت، ومشكلتى هى فى تمييز تلك من أجل هذه التى مازال ثمة ما يستحق النضال فى سبيلها قبل أن تغادرنى دون أسى، أو بأسى، أسوأ أسى يا بنتى ليس ما نشعر به فى لحظته، وإنما ما نشعر به فيما بعد، عندما لا يكون ثمة علاج، يقال إن الزمن يشفى كل شىء، فحن لا نعيش طويلاً للتأكد من ذلك، قال سيبريانو ألبور، وانتبه فى اللحظة نفسها إلى أنه يعمل على الدولار الذى ماتت عليه زوجته عندما صعقتها السكتة القلبية. عندئذ سأل نفسه مدفوعاً بنزاهته الأخلاقية، إذا ما كانت ضمن الأحزان العامة التى يتكلم عنها توجد كذلك تلك الميئة، أم أن الزمن قد أنجز، فى هذه الحالة

الخاصة، مهمته كعلاج متقاعد، أم أن الحزن المذكور، فوق ذلك، ليس حزن الموت بقدر ما هو حزن الحياة، حزن الحياة، حياتك، حياتي، حياتنا، حياة أى شخص. كان سيبريانو ألبور يقول بدمية الممرضة، وكانت مارتا مشغولة بدمية المهرج، ولكن أياً منهما لم يكن راضياً عن المحاولات، ربما لأن الاستنساخ فى نهاية المطاف أصعب من الخلق الحر، هذا ما يمكن أن يقوله على الأقل سيبريانو ألبور الذى كان، بكثير من الهمة والتلقائية فى الحركات، قد صاغ تصوره لشكلى الرجل والمرأة اللذين هناك، ملفوفين بقماش رطب كيلا تجففهما وتشققهما الروح التى تبقيهما منتصبين، ساكنين، ولكنهما حيان مع ذلك. لن ينتهى جهد مارتا وسيبريانو ألبور هذا بسرعة، فجزء من الصلصال الذى يقولون منه الآن دمىة يأتى من دمى أخرى كان عليهما إهمالها وإعادة عجنها، وهذا ما يحدث لكل الأشياء فى الدنيا، حتى الكلمات نفسها، وهى ليست أشياء، وإنما تُحدّد الأشياء على أحسن وجه تستطيعه، وبينما هى تحددها تقوم بقولبتها، وحتى تلك الكلمات التى أفادت بصورة مثالية، على افتراض أن ذلك يمكن له أن يحدث فى مناسبة ما، إنما استُخدمت ملايين المرات واستبعدت مثلها من المرات، وأخيراً يكون علينا نحن، بمذلة، وذيلنا بين ساقينا، مثل الكلب لقيه عندما يجعله الخجل يتكور على نفسه، أن نذهب للبحث عنها من جديد، إنها هى أيضاً طين مداس بالأقدام، معجون ومعلوك، مبتلع

ومعاد ترميمه، فالعود الأبدى موجود، أجل يا سيدى، ولكنه ليس ثابتاً، بل متحولاً. المهرج الذى قولبته مارتا ربما يكون نافعاً، والبلهول أيضاً قريب جداً من البهاليل الحقيقيين، ولكن الممرضة التى تبدو بسيطة جداً، شديدة الصرامة، باللغة الترتيب، تقاوم السماح بإظهار حجم نهدىها تحت الصلصال، كما لو أنها هى أيضاً ملفوفة بقطعة قماش مبللة تكبح بها بقوة بروز الرعوس المدببة. حين كان أسبوع الخلق الأول على وشك الانتهاء، وحين انتقل سيبريانو ألاجور إلى أسبوع التدمير الأول بحمل الخزف من مستودعات المركز وتركه فى العراء كزبالة بلا نفع، كانت أصابع صانعى الخزف، وهى أصابع حرة ومنضبطة فى الآن ذاته، قد بدأت أخيراً بابتكار السبيل ورسم الطريق المستقيم الذى سيقودهما إلى الحجم المناسب، إلى الخط المضبوط، إلى المخطط المتناسق. اللحظات لا تصل متأخرة أو متقدمة أبداً، إنها تصل فى موعدها، وليس فى موعدها، ولا يتوجب أن نشكرها على التوافق، عندما يحدث، بين ما تنويه وما نحتاج إليه. خلال نصف النهار الذى يقضيه الأب فى المهمة العبثية بإفراغ بضاعة بلا فائدة كان قد حملها باعتبارها مرفوضة. تكون مارتا وحدها فى مشغل الخزف مع نصف دزينتها من الدمى الناجزة عملياً، مشغولة الآن فى إضفاء حيوية على زاوية وتدوير انحناءة ما أضفت عليها لمسة غير إرادية شيئاً من الانحطاط، وتساوى ارتفاع القامات، وتعزز القواعد،

وتقدر فى الموقع المناسب فى كل دمىة لخط تقسىم
قطعتى قالبها . لم يكن النجار قد سلم العلب بعد ،
والجبس ينتظر فى أكياسه الكبيرة التى من ورق
سميك مشمع ، غير أن موعد التكاثر كان يقترب .

عندما رجع سىبرىانو أأور إلى البيت فى اليوم
الأول من أسبوع التدمير ، وهو ساخط من سخرىة
الوضع أكثر من استنفاد قواه فى الجهد ، جاء لىروى
لابنته المغامرة المضحكة لرجل يجوب البرارى بحثاً عن
مكان مقفر يمكنه أن يتخلص فيه من الأوانى الخزفية
غير النافعة التى ينقلها ، كما لو أنه يريد التخلص من
برازه ، كمن يمسك بنطاله بيده ، قال ، هذا ما كنت
أشعر به ، وقد فاجأنى أشخاص مرتين ليسألونى عما
أفعله هناك ، فى أرض خاصة ، بشاحنة محملة
بالخزف ، وكان على أن أولف تفسيراً بلا معنى ، فقلت
إننى كنت بحاجة إلى الوصول إلى طريق فى الجهة
الأخرى وفكرت فى أنه يمكن لى الوصول إليه من
هناك ، وأن يعذرونى ، رجاء ، وبما أننا التقينا فإننى
سأكون سعيداً جداً ، إذا ما أعجبهما شىء من حمولة
الشاحنة ، بأن أهديهما إياه ، لم يرغب أحدهما فى أى
شىء ، وأجاب بعجرفة أنه لا يريد فى بيته مثل هذه
الأشياء حتى للكلاب ، أما الآخر فأعجبه إناء حساء
وأخذه ، وأين تركت الخزف فى النهاية ، بالقرب من
النهر ، أين بالضبط ، كنت قد فكرت فى أن حفرة
طبيعية ستكون أكثر الأمكنة ملائمة ، ولكن حتى فى
هذه الحالة ستكون موجودة هناك تحت أنظار من

يمر، مكشوفة، وسيعرفون على الفور المنتج وصانعه،
ومن أجل العار والسخرية لدينا ما هو كاف، أنا
شخصياً لا أشعر بأننى محط أى تهكم أو عار، ربما
كنت ستشعرين بذلك لو أنك كنت مكانى منذ البداية،
هذا محتمل، أجل، وما الذى وجدته أخيراً، لقد
وجدتُ المغارة المثالية بالضبط، وهل توجد مغارات
مثالية، سألته مارتا، ذلك يعتمد على الدوام على ما
سيوضع فيها، وتخيلى فى هذه الحالة حضرة كبيرة،
شبه دائرية، عمقها حوالى ثلاثة أمتار، ويمكن النزول
إليها من منحدر سهل المسلك، مع وجود أشجار
وشجيرات فيها، تبدو للناظر من الخارج مثل جزيرة
خضراء وسط البرية، وفى الشتاء تمتلئ بالماء،
ومازالت فيها بركة راكدة فى قاعها، إنها على بُعد
حوالى مئة متر عن النهر، أنتِ تعرفينها أيضاً؟ سأل
الأب، أعرفها، اكتشفتها عندما كنت فى العاشرة، وقد
كانت المغارة المثالية بالفعل، ففى كل مرة كنت أدخل
هناك، كان يبدو لى أننى أجتاز بوابة إلى العالم الآخر،
لقد ذهبتُ إليها حين كنت فى مثل سنك تلك،
وعندما كان جدى فى هذه السن، وجدى أنا أيضاً،
كل شئ ينتهى إلى الضياع يا أبتاه، فطوال سنوات
كانت تلك المغارة مجرد مغارة، وكانت كذلك بوابة
سحرية فى نظر بعض الأطفال الحالمين، والآن، مع
تراكم الأنقاض فيها، لم تعد لا هذا ولا ذاك، ليس
الحطام كبيراً إلى هذا الحد يا امرأة، وخلال وقت
قصير سيغطيه العُلق البرى، ولن يلحظه أحد، وهل

تركت الكمية كلها هناك، أجل، تركتها هناك، إنها قريبة من القرية على الأقل، وإذا كان الأطفال لا يزالون يترددون على المغارة المثالية، فسيأتي أحدهم ذات يوم إلى بيته ومعه طبق مشروخ، وسيسألونه أين عثر عليه، وسينطلق الجميع عندئذ راكضين للحصول على ما لا يريدونه الآن، إننا مخلوقون هكذا، ولن أستغرب ذلك. أنهى سيبريانو الجور فنجان القهوة الذى وضعته ابنته أمامه عند وصوله، وسأل، هل جاء أى شىء من النجار، لا، أجابت ابنته، لا بد أن أذهب للإلحاح عليه، أظن الأمر كذلك، لأنها أفضل طريقة. نهض الخزاف واقفاً، سأذهب للاغتسال، قال ذلك ومشى خطوتين ثم توقف وسأل، ما هذا، أى شىء تعنى، هذا، قال مشيراً إلى طبق مغطى بفضة مطرزة، هذا كعك، وهل صنعت كعكاً، لم أصنعه أنا، بل جاءونا به، إنه هدية، هدية ممن احزر، لست فى مزاج مناسب للأحاجى، ولكنها واحدة من أسهل الأحاجى. هز سيبريانو الجور كتفيه كأنه يؤكد أنه تجاهل الموضوع، وقال مرة أخرى إنه ذاهب للاغتسال، ولكنه لم يحسم أمره، لم يخطُ الخطوة التى تجعله يخرج من المطبخ، وكانت تدور فى رأسه مناظرة بين خرافين اثنين، أحدهما يحتج بأنه من واجبنا التصرف بعفوية فى ظروف الحياة كلها، فإذا كان هناك شخص لطيف إلى حدٍ إحضار كعك مغطى بفضة مطرزة إلى البيت، فإنه من المناسب والطبيعى السؤال عما يكون صاحب ذلك الكرم غير

المتوقع، وإذا ما جاءنا الرد على شكل أحجية، فإن تظاهرننا بعدم السماع سيكون أكثر من مريب، ومثل هذه الألعاب الصغيرة فى الأسرة والمجتمع ليست كبيرة الأهمية، لأن أحداً لن يستغرق فى استخلاص استنتاجات متسرعة من واقع أننا أصبنا فى معرفة الجواب، لاسيما أن الأشخاص الذين لديهم الدافع لإرضائنا ببعض الكعك لا يمكن أن يكونوا كثيرين، وقد يكونون شخصاً واحداً فى بعض الأحيان، هذا ما كان يقوله أحد الخزافين، ولكن الآخر يردّ بأنه ليس مستعداً لتولى دور المتواطئ فى أحجيات تهريج زائفة، وأن الإصابة فى معرفة اسم الشخص الذى جاء بالكعك هو السبب بالضبط فى عدم النطق به، ثم إن أسوأ الاستنتاجات، فى بعض الحالات على الأقل، ليس فى كونها متسرعة، وإنما فى كونها، بكل بساطة، استنتاجات وحسب. أنت لا تريد أن تحزر إذاً، ألحت مارتا مبتسمة، وسيبريانو ألاجور المستاء قليلاً من ابنته وكثيراً من نفسه، إنما المدرك أن الطريقة الوحيدة للهرب من الحفرة التى أدخل نفسه بنفسه فيها هى فى الاعتراف بالفشل والقيام بالتراجع، قال بجفاء خالطاً الاسم بكلمات، إنها الأرملة، الجارة إساورا إستوديوسا، لتشكرنا على الإبريق. نفت ذلك مارتا بحركة بطيئة من رأسها، اسمها ليس إساورا إستوديوسا، قالت مصححة، بل إساورا مادروجاء، آه، حسن، قال سيبريانو ألاجور، وفكر فى أنه لن يحتاج إلى سؤال صاحبة الشأن، هذا هو إذاً اسمها وهى

عازبة، ولكنه ذكّر نفسه على الفور بأنه كان، وهو جالس على المقعد الحجري بجانب الفرن، وبحضور الكلب لقيه كشاهد، قد اتخذ القرار بأن يعتبر خاطئة وباطلة كل الأقوال والأحداث التي قيلت وجرت بينه وبين الأرملة إستوديوسا، ويجب ألا ننسى أن الكلمات التي نطق بها بالضبط هي لقد انتهى الأمر، ومن غير المعقول الإجهاز بمثل هذه الطريقة الجازمة على واقعة من الحياة العاطفية والعودة بعد يومين إلى اعتبار أن ما قيل لم يُقل. وكان التأثير المباشر لهذه التأمّلات أن اتخذ سيبريانو الجور هيئة الترفع، وتمكن بهذه القناعة من الاقتراب، ورفع الفوطة دون أن ترتعش يده، مظهره يبدو جيداً، قال. وفي تلك اللحظة أدركت مارتا أن الفرصة مواتية لأن تضيف، إنه ذكرى وداع بطريقة ما. نزلت اليد ببطء، وتركت الفوطة تهوى برفق فوق الكعك على شكل تاج دائري، وسمعت مارتا يقول، وداع، فأجابته، أجل، إذا هي لم تجد عملاً هنا، عمل، قال، إنك تردد كلماتي نفسها يا أبتى، لستُ صدى لأي كان، ولست أكرر كلماتك. لم تول مارتا اهتماماً لجوابه وقالت، تناولنا القهوة معاً، وأردتُ أن أقسم الكعك لكنها لم تسمح بذلك، ظلت هنا أكثر من ساعة تتحدث إليّ، أخبرتني شيئاً عن حياتها، عن قصة زواجها، لم يُتح لها الوقت لتعرف إذا ما كانت تلك سعادة أم أنها لم تعد كذلك، هذه الكلمات لها وليست كلماتي، وباختصار، إذا هي لم تجد عملاً فسوف تعود إلى المكان الذي جاءت منه

حيث أسرتها، هنا لا يوجد عمل لأحد، قال سيبريانو
أالجور بجفاء، هذا هو أيضاً ما تعتقده هي، ولهذا
فإن الكعك هو أشبه بالنصف الأول من وداع، أمل ألا
أكون في البيت عندما يحين موعد النصف الثاني،
لماذا، سألته مارتا. لم يجب سيبريانو أالجور على
السؤال. خرج من المطبخ باتجاه غرفة النوم، تعرى
بسرعة، وألقى بطرف عينه نظرة إلى مرآة الخزانة
التي تُظهر جسده كاملاً واندس في الحمام. فتح
الصنبور. اختلط قليل من الماء المالح بالماء العذب الذي
ينزل من الدُش.

بإجماعٍ يستحق التقدير ويبعث على الطمأنينة حول معنى الكلمة، تُعرّف المعاجمُ كلها المضحك بأنه كل ما يبدو جديراً بالضحك والهزل، كل ما يستثير السخرية، كل ما هو استهزائي، كل ما يرتبط بما هو كوميدي. ويبدو أن الظروف المحيطة لا وجود لها في نظر المعاجم، وإن كانت مطالبة إجبارياً بتوضيح ما كنهها، فتسمى تلك الظروف بالحالة أو الخصوصية التي ترافق حدثاً ما، وهذا يوجهنا بوضوح، نقول ذلك بين قوسين، إلى عدم فصل الأحداث عن ظروفها وعدم الحكم على أحدهما دون الموازنة مع الآخر. فليكن إذاً مضحكاً بتفوق هذا السيبريانو أَلجور الذي يُنهك نفسه بنزول منحدر المغارة حاملاً بين ذراعيه الخزف غير المرغوب بدل أن يلقي به بسرعة من فوق بكل بساطة، محولاً إياه إلى كومة من الحطام، مثلما صنّفها بازدراء وهو يصف لابنته إجراءات ووقائع عملية النقل المنهكة. ومع ذلك، ليس هناك حدود لما هو مضحك. فإذا ما حدث، مثلما افترضت مارتا، وتمكن أحد صبية الضيعة من إنقاذ طبق مشروخ من

الكومة وأخذه إلى البيت، فبإمكاننا القول بثقة إن ذلك العطب قد حدث فى المستودع، أو ربما يكون قد حدث من اصطدام قطع الفخار بعضها ببعض، وهو أمر لا يمكن تجنبه خلال النقل من المركز إلى المغارة، بسبب عدم استواء الطريق. تكفى رؤية الحذر الذى ينزل به سيبريانو ألجور المنحدر، وبأى اهتمام يضع على الأرض مختلف قطع الخزف، وكيف ينضدها كل واحدة إلى جانب أختها، وكيف يشابك بينها عندما يكون ذلك ممكناً ونافعاً، تكفى رؤية المشهد الاستهزائى الذى يظهر أمام عيوننا للتأكد من أنه لم ينكسر هنا طبق واحد، ولم يفقد فنجان واحد يده، ولم يفقد أى إبريق منقاره، الخزف المنضد يغطى فى صفوف منتظمة المنعطف المختار من الأرض، ويحيط بجذوع الأشجار، ويلمع تحت النباتات القصيرة، كما لو أنه مكتوب فى أحد الكتب العظيمة أنه بهذه الطريقة وحدها يجب أن تبقى مرتبة حتى استنفاد الزمان والانبعاث غير المحتمل للرفات. قد يقال إن تصرف سيبريانو ألجور مضحك بالمطلق، ولكن سيكون من المستحسن، حتى فى هذه الحالة، ألا ننسى الأهمية الحاسمة لوجهة النظر، ونحن نشير فى هذه المرة إلى مرسيال جاتشو، خلال زيارته إلى البيت فى يوم عطلته، وتنفيذاً لما يُعتبر عادة واجبات أساسية فى التضامن الأسرى، لم يكتف بمساعدة حميه فى تفريغ الخزف، بل عمد أيضاً، دون أن يبدي أى استغراب أو حيرة متشككة، ودون أسئلة مباشرة أو مداورة، ودون نظرات ساخرة أو مشفقة، عمد إلى مجارة حميه

باطمئنان، وبلغ به الأمر، بمبادرة خاصة منه، حدّ ضبط عدم توازن خطر، وتصويب عيب فى أحد صفوف الأوانى، وتقليص ارتفاعها المفرط. وبالتالي فإنه من الطبيعى أن ننتظر، إذا ما كررت مارتا تلك الكلمة المزدرية وغير الموفقة التى استخدمتها فى الحديث مع أبيها، أن يقوم زوجها بالتصحيح لها، مستنداً إلى السلطة غير القابلة للطعن لمن رأى بعينه ما يجب رؤيته، إنها ليست أنقاضاً، وإذا ما ألحت هى، وقد صرنا نعرفها كشخصية تحتاج فى كل أمر إلى تفسير ووضوح، وأصرت على القول بلى يا سيدى إنها أنقاض، فهذه هى التسمية التى تُطلق منذ الأزل على الفضلات والمواد غير النافعة التى يُلقى بها فى المنخفضات حتى ملئها، تستثنى من هذا التخصيص الفضلات البشرية التى لها تسمية أخرى، فالمؤكد أن مرسىال سيقول لها بصوته الجدّى، ليست فضلات، أنا كنتُ هناك. ولسوف يضيف، إذا ما حدث ذلك، وليست مضحكة.

عندما دخلوا إلى البيت كان هناك أمران جديان. فقد سلّم النجار العلب أخيراً، وقرأت مارتا فى كتابها أنه، فى حالة ملء القوالب بوسيلة السكب السائل، فلن يكون بالإمكان إنجاز أكثر من أربعين نسخة مقبولة من كل قالب، فقال سيبريانو الجور، هذا يعنى أننا نحتاج إلى ثلاثين قالباً على الأقل، خمسة قوالب لكل مئتى دمية، سيكون لدينا عمل كثير سابق وعمل كثير تال، ولستُ واثقاً من أن القوالب ستكون

متقنة، بسبب عدم خبرتنا فى هذا الشأن، حتى ستنتهى حسب تقديرك من سحب الخزف كله من مستودع المركز، سألته مارتا، أظن أننى لن أحتاج إلى الأسبوع الثانى كله، ربما سيكون يومان أو ثلاثة أيام كافية، هذا الذى نحن فيه هو الأسبوع الثانى، صحح مرسىال، أجل، إنه الأسبوع الثانى من الأسابيع الأربعة، ولكنه الأول فى نقل الخزف، والأسبوع الثالث سيكون الثانى فى صنع الدمى، أوضحت مارتا، بكل هذا الاختلاط فى أسباب نعم وأسابع لا، لن أستغرب رؤيتكما، أنتِ وأباك مشوشان بعض الشيء، لكل منا أسبابه، فأنا مثلاً حبلى ولم أعتد على الفكرة حتى الآن، وماذا عن الأب، يمكن للأب أن يتكلم عن نفسه إذا شاء، فقاطعها سيبريانو ألبور، لستُ أعانى تشوشاً أسوأ من اضطرارى إلى صنع ألف ومئتى دمية من الصلصال دون أن أدرى إذا ما كنت سأتمكن من إنجازها. كانت الدمى الست فى مشغل الخزف تبدو وهى مصفوفة على اللوح الخشبى مثلما هى عليه من دراماتيكية بالفعل، ستة أشياء تافهة، بعضها أكثر فظاظة من بعض فى ما تمثله، ولكنها جميعها متشابهة فى عدم جدواها المؤلمة. وكما يتمكن الزوج من رؤيتها، كانت مارتا قد نزعَت عنها قطع القماش المبللة التى تلفها، ولكنها أحست بما يشبه الندم لإقدامها على ذلك، فقد بدا أن تلك الكركوزات البليدة لا تستحق الجهد الذى بُذل فيها، ذلك التشكيل وإعادة التشكيل، الصنع والإتلاف، وتلك الإرادة وعدم القدرة، وذلك التجريب والترقيع، ليس

صحيحاً أن الأعمال الفنية الكبرى وحدها هي التي تولد من المعاناة والشك، بل إن جسداً بسيطاً أيضاً وأعضاء بسيطة من الصلصال يمكن لها أن تقاوم الانقياد للأصابع التي تقولبها، والعيون التي تستجوبها، والمشية التي تطلبها. سأطلب في مناسبة أخرى أن يمنحوني إجازة، ويمكن لى أن أساعد في شيء ما، قال مرسيال. وبالرغم من أن الجملة بدت كاملة في صياغتها، إلا أنها كانت تتضمن استطلاعات إشكالية لا يحتاج سيبريانو ألبور إلى ذكرها كي يدركها. فما أراد مرسيال قوله، وانتهى إلى قوله دون النطق به، هو أنه في حالة انتظار ترقية متوقعة إلى هذا الحد أو ذاك إلى مرتبة حارس مقيم، ولن يكون رؤساؤه راضين عن غيابه في إجازة، وبالتحديد في مثل هذا الوقت، كما لو أن الخبر الشائع عن إمكانية ترقيته في الوظيفة لا يعدو كونه حدثاً تافهاً، وعادى الأهمية. ومع ذلك، فقد كانت هذه الاستطالة، بصورة جلية ومؤكدة، هي الأقل إشكالية بين بقية الاستطلاعات الأخرى الموجودة. فالمسألة الأساسية، والكامنة بصورة لا إرادية وراء الكلمات التي قالها مرسيال، مازالت تتمثل بالقلق على مستقبل مشغل الخزف، والعمل الذي يقوم به والأشخاص الذين ينجزونه وعاشوا منه، حياة أفضل أو أسوأ، حتى الآن. فتلك الدمى الست أشبه بست إشارات استفهام ساخرة ولجوجة، كل منها يريد أن يعرف من سيبريانو ألبور إذا ما كان واثقاً جداً من ظنه في أنه يمتلك، وإلى متى يا سيدى العزيز، القوة اللازمة لأن

يدير بمفرده المشغل عندما تذهب ابنته وصهره للعيش في المركز، وإذا ما كان ساذجاً إلى حد الظن بأنه سيتمكن من تلبية الطلبات التالية بانتظام مقبول، في حال شاءت العناية الإلهية أن تأتيه تلك الطلبات، وأخيراً، إذا ما كان أحرق إلى حد تخيل أن علاقاته من الآن فصاعداً مع المركز ومع مدير قسم المشتريات، سواء علاقاته التجارية أم الشخصية، ستكون بحراً متواصلاً ودائماً من الزهور، وسألت دمية رجل الإسكيمو بدقة منزعجة وارتياحية مريرة، وهل تظن أنت أنهم سيحبونني دوماً. وكان في هذه اللحظة بالذات أن مرت ذكرى إساورا مادروجا في ذهن سيبريانو ألبور، فكر فيها كموظفة تساعده في أعمال مشغل الخزف، وترافقه إلى المركز جالسة إلى جانبه في الشاحنة، فكر فيها في أوضاع مختلفة، وفي كل مرة أكثر حميمية وتهديئة، يتناولان الغداء معاً على المائدة نفسها، ويتبادلان الحديث على المقعد الحجري، ويقدمان الطعام للكلب لقية، ويلتقطان ثمار شجرة التوت، ويشعلان المصباح الذي فوق الباب، ويزيحان جانباً ملاءات السرير، إنها أفكار كثيرة بلا شك وبالغة المجازفة بالنسبة لمن لم يشأ حتى مجرد تذوق الكعك. من الواضح أن كلمات مرسيال لم تكن تستدعي جواباً، ولم تكن سوى تأكيد لواقع معروف بجلاء لهم جميعاً، وهي أشبه بقوله بكل بساطة، أرغب في مساعدتكم، ولكن ذلك غير ممكن. ومع ذلك، فقد ظن سيبريانو ألبور أنه عليه أن يقدم تفسيراً لجزء من الأفكار التي شغل بها الصمت الذي تلا ما

قاله مرسيال، ليس الأفكار الحميمة، فهذه يستبقها حبيسة فى الصندوق المصفح لكبيرائه المؤثر كعجوز، وإنما تلك الأفكار التى هى مشتركة، بطريقة أو بأخرى، بين من يعيشون فى هذا البيت، سواء اعترفوا بها أم لم يعترفوا، والتى يمكن اختصارها بأكثر قليلاً من نصف دسطة من الكلمات، ما الذى تراه يخبئه لنا الغد. وقال، الأمر كما لو أننا نمشى فى الظلام، يمكن للمخطوة التالية أن تكون للتقدم أو للسقوط، سنبدأ بمعرفة ما ينتظرنا عندما تُعرض الطلبية الأولى للبيع، وبدءاً من هناك نستطيع وضع حسابات الوقت التى سنحتاج إليه، إذا ما كان طويلاً أو قصيراً، أو لا شىء، وهذا أشبه بمن ينتزع بتلات زهرة أقحوان ليرى ما الذى ستقوله له، الحياة ليست مختلفة كثيراً عن ذلك، فقالت مارتا، إنها غير مختلفة، ولكن ما اعتدنا على لعبه طوال سنوات، علينا أن نلعبه الآن خلال أسابيع أو أيام، لقد انقطع المستقبل فجأة، وإذا لم أكن مخطئاً فإننى قد قلت شيئاً مشابهاً من قبل. توقف سيبريانو الجور قليلاً، ثم أضاف وهو يهز كتفيه، وهذا دليل على أنها الحقيقة الخالصة، فقالت مارتا، بحزم أو نفاذ صبر، لا يوجد أمامنا سوى أحد طريقين، إما أن نعمل مثلما كنا نعمل حتى الآن، دون أن نشغل تفكيرنا بأكثر مما يتطلبه الإنهاء الجيد للعمل، وإما إلغاء كل شىء وإخبار المركز بأننا عدلنا عن قبول الطلبية، ونظل فننتظر، ننتظر ماذا، سألها مرسيال، أن تأتى ترقيتك، وأن ننتقل إلى المركز، وأن يحسم أبى مرة واحدة إن كان يريد البقاء

أو الذهاب معنا، أما ما لا يمكننا عمله فهو البقاء على هذه الحال من نعم ولكن لا، والتي قد تستمر لأسابيع، فقال سيبريانو ألاجور، ويكلمات أخرى، ألا يموت الأب ولا نأكل المرق، أعذر قولك هذا لأننى أعرف ما الذى يجول فى رأسك، لا تغضبا، أرجوكما، طلب منهما مرسيال، فلدى ما يكفى من المرارة مما يتوجب علىّ تحمله من أهلى، اطمئن، ولا تقلق، قال له سيبريانو ألاجور، فبين زوجتك وبينى لا يمكن حدوث استياء حقيقى، حتى لو بدا لعيون البعض أنه كذلك، لا، لا يمكن أن يحدث، مع أننى أشعر أحيانا بالرغبة فى ضربك، هددت مارتا مبتسمة وأضاف، وانتبها إلى أن الأمر سيكون أسوأ منذ الآن، عليكما توخى الحذر، فقد قيل لى إن النساء الحوامل يتعرضن لتبدلات مزاج مفاجئة، ويتوحدمن، وتنتابهن النزوات، والتدل، ونوبات بكاء، وسوء الطبع، فاستعدا لما هو آت، أنا قانع ومستسلم سلفاً، قال مرسيال، وتوجه إلى سيبريانو ألاجور، وماذا عنك يا أبتاه، استسلامى أنا أقدم بسنوات طويلة، منذ يوم مولدها، أخيراً، السلطة كلها للنساء، فارتجفوا أيها الذكور، ارتجفوا وخافوا، هتفت ماريبا. لم يجار صانع الخزف هذه المرة نيرة ابنته المرحة، فقد تكلم من قبل بجد وهدوء كما لو أنه ينتقى واحدة فواحدة الكلمات التى ظلت فى الخلف، فى المكان الذى جرى التفكير فيها وإنضاجها، لا، فهذه الكلمات لم يجر التفكير فيها، ولم تكن بحاجة للنضج، بل برزت فى تلك اللحظة بالذات من روحه مثل جذور صعدت فجأة إلى سطح الأرض، العمل

سيتواصل بصورة عادية، قال، سأنجز تعهداتنا بقدر ما أستطيع، دون مزيد من الشكوى أو الاعتراض، وعندما يتم ترقية مرسيال سأفكر فى الوضع، ستفكر فى الوضع، سألته مارتا، ما الذى يعنيه هذا، إذا ما رأيتُ عدم إمكانية مواصلة العمل فى مشغل الخزف، فسوف أغلقه وأتوقف عن تموين المركز، حسن جداً، وممّ ستعيش بعد ذلك، وأين، وكيف، ومع من، اغتازت مارتا، سأرافق ابنتى وصهرى للعيش فى المركز، إذا كانا لا يزالان راغبين فى أن أكون معهما. كان لتصريح سيبريانو ألبور المفاجئ والحاسم تأثير مختلف على الابنة والصهر. فقد هتف مرسيال، أخيراً، وعانق حماه بقوة، لا يمكنك تصور السعادة التى تمنحنى إياها، قال، لقد كانت شوكة مفروسة فى أعماقى. وكانت مارتا تنظر إلى أبيها نظرة ارتياب فى أول الأمر، كمن لم تصدق ما سمعته، ولكن وجهها راح يشع بالتفهم شيئاً فشيئاً، لقد كان عمل الذاكرة الخدوم يحمل إلى ذاكرتها بعض العبارات الشعبية الشائعة، وبعض بقايا القراءات الكلاسيكية، وبعض الصور المبتذلة، صحيح أنها لم تتذكر كل ما يمكن تذكره، من أمثال، إحراق السفن، قطع الجسور، القطع بسلام، البتر المباشر، قطع الحبال، قطع الشر من جذوره، من يخسر العشرة يكون قد خسر الخمسة، رجل ضائع لا يحتاج إلى نصائح، التخلّى قبل بلوغ الهدف، إنها فجة بلا نفع، عصفور فى اليد خير من عشرة محلقة، هذه العبارات وكثير غيرها، وكلها من أجل قول شىء واحد

فقط، ما لا أريده هو ما لا أستطيعه، وما لا أستطيعه هو ما لا أريده. اقتربت مارتا من أبيها، ومرت بيدها على وجهه بحركة شديدة البطء والرقّة، حركة أمومية تقريباً، سيكون ذلك هو الأفضل، إن كان هذا ما ترغب فيه حقاً، دمدمت، ولم تُبدِ ارتياحاً أكبر من القليل الذى يمكن لتلك الكلمات الفقيرة، شديدة الابتذال، أن تعبر عنه، ولكنها كانت واثقة من أن أباهما سيدرك أنها لم تختبرها بدافع عدم المبالاة، وإنما بدافع الاحترام. وضع سيبريانو أَلجور يده على كتفى ابنته، ثم جذبها نحوه، وطبع قبلة على جبهتها، وبصوت خافت، نطق الكلمة المقتضية التى ترغب فى سماعها وقراءتها فى عينيه، شكراً. مرسيال لم يسأل عنى «شكراً» له، لأنه تعلم منذ زمن بعيد أن الميدان الذى يتحرك فيه هذا الأب وهذه الابنة هو - أكثر من كونه أُسرياً - مقدس وبعيد المنال بطريقة ما. لم يراوده شعور بالغيرة، وإنما فقط غمّ من يعرف أنه مُستبعد نهائياً، ليس من هذا الميدان الذى لا يمكن له أن ينتمى إليه أبداً، وإنما من ميدان آخر، إذا ما كانا هناك فيه، أو إذا ما استطاع هو ذات مرة أن يكون فيه معهما، فسوف يجد أباه وأمه الخاصين ويتعرف عليهما أخيراً. واكتشف نفسه يفكر، دون مفاجأة كبيرة، أنه بالنظر إلى أن حماه قد قرر العيش فى المركز، فإن فكرة أبويه فى بيع بيت القرية والانتقال معه صارت مستبعدة نهائياً، مهما كلفهما ذلك ومهما احتجا، لأن هناك، فى المقام الأول، قاعدة صارمة فى المركز محددة ومفروضة فى تعليمات السكن الداخلى

بعدم قبول أسر كبيرة العدد، وفى المقام الثانى، لأن الانعدام الدائم لأية علاقة تفاهم بين أفراد الأسرتين، يجعل من السهل تصور الجحيم الذى ستتحول إليه حياتهم إذا ما وجدوا أنفسهم مجتمعين فى حيز ضيق. وعلى الرغم من بعض المواقف وبعض حالات التفريج عن النفس التى يمكن لها أن تقود إلى آراء مناقضة، فإن مرسىال لا يستحق أن نعتبره ابناً عاقاً، فالمسئولية فى عدم توافق المشاعر والمشئنة فى أسرته لا تقع على عاتقه وحده، ومع ذلك، وفى إثبات جديد آخر لمدى كون الروح البشرية بئراً موبوءة بالتناقضات، نجده سعيداً؛ لأنه غير مضطر إلى العيش فى البيت نفسه مع اللذين منحاه الحياة. وحيث إن مارتا حبلى الآن، عسى ألا يؤكد القدر المجهول فيها وفيه ذلك الحكم القديم الذى يُرْتَل بصرامة، أبْن أنت وأباً ستكون، ومثلما تفعل سيفعلون بك. من الصحيح تماماً أن الطبيعة العميقة للابن، بطريقة أو بأخرى، وبنوع من الانتحاء الحتمى، تدفع الأبناء إلى البحث عن آباء بدلاء لأسباب طيبة أو خبيثة، ولمسوغات عادلة أو جائرة، فى كل مرة لا يستطيعون أو لا يريدون أو لا يعرفون التعرف على أنفسهم فى آبائهم الحقيقيين. والحقيقة أن الحياة، برغم كل عيوبها، تحب التوازن، ولو أن الأمر بيدها هى وحدها لسعت لأن يكون اللون الذهبى على الدوام فوق اللون الأزرق، وأن يكون لكل تقعر نظيره المحدب، وألا يكون هناك وداع بلا وصول، وأن تتصرف الكلمة والإيماء والنظرة كتوائم لا يمكن الفصل بينها، تقول

الشيء نفسه فى كل الظروف. تتخذ مسارات لا يمكننا التعرف على أنفسنا فى تنامى تفاصيلها ولا نكون قادرين ولا مؤهلين، ولكن لدينا يقيناً مطلقاً بوجودها وبجوهر فضيلتها التواصلية، كما فى جوهر فضائلنا التواصلية، كان مجموع الملاحظات التى توالى متفرقة هو ما وُلِدَ فكرة عند مرسىال جاتشو، نُقلت على الفور إلى الحمى بسعادة بنيوية ظاهرة، من الممكن إحضار ما تبقى من الخزف دفعة واحدة، قال، فاعترض سيبريانو ألبور، أنت لا تعرف كم هى الكمية المتبقية، أظن أنه مازال هناك ما يملأ الشاحنة الصغيرة عدة مرات، أنا لا أتحدث عن شاحنة صغيرة، ما أعنيه هو أن الخزف لا يمكن أن يكون كثيراً بحيث لا يمكن لشاحنة عادية أن تحل المسألة فى حمولة واحدة، ومن أين سنأتى بهذه الشاحنة الكبيرة الرائعة، سألته مارتا، فستأجرها، أجبها، سيكون أجرها غالياً جداً، ولست أملك ما يكفى من المال، قال صانع الخزف، غير أن الأمل أحدث رعشة فى صوته، يوم واحد سيكون كافياً لإنجاز هذا العمل، وإذا ما جمعنا نقودنا، ما لدينا وما لديك، فإننى واثق من أننا سنتوصل إلى ذلك، وحيث إننى حارس داخلى، فربما سيقدمون لى حسماً، ولن نخسر شيئاً إذا ما حاولنا، رجل واحد للتحميل والتفريغ، لا أعرف إن كنت قادراً على ذلك، فأنا لم أعد أكاد أستطيع تحريك ذراعى وساقى، لمن تكون وحدك، سأذهب معك، قال مرسىال، لمن أوافق على ذلك، فقد يتعرفون عليك، وسيكون الأمر سيئاً بالنسبة إليك، لا أظن بوجود أى

خطر، فأنا لم أذهب إلى قسم المشتريات سوى مرة واحدة، وإذا ما وضعتُ نظارة سوداء وقبعة على رأسى يمكن لى أن أتحوّل إلى أى شخص، الفكرة جيدة، جيدة جداً، قالت مارتا، ويمكن لنا بذلك التفرغ لصنع الدمى، هذا هو ما أفكر فيه، قال مرسيال، وأنا أيضاً، اعترف سيبريانو أَلجور. ظلوا يتبادلون النظرات صامتتين، باسمين، إلى أن سأل صانع الخزف، متى، وردّ مرسيال، خُداً بالذات، سنستغل يوم عطلتى، ولن تتوفر فرصة أخرى إلا بعد عشرة أيام، وعندئذ لن يكون هناك ما يستحق العناء، خُداً، كرر سيبريانو أَلجور، وهذا يعنى أننا سنتمكن من البدء فى العمل بجد، وهو كذلك، قال مرسيال، وسنكسب بذلك أسبوعاً تقريباً، لقد منحتنى روحاً جديدة، قال الخزاف، ثم سأله، كيف سنفعل ذلك، فهنا فى القرية لا أظن أنه توجد شاحنات كبيرة للتأجير، سنستأجرها فى المدينة، سنخرج فى الصباح كى يتاح لنا الوقت لاختيار أفضل سعر ممكن، أدرك أن الخروج باكراً سيكون ملائماً، قالت مارتا، ولكننى أظن أنه عليك تناول الغداء مع أبويك. ففى المرة الأخيرة لم تذهب، ولا بد أنهما مستاءان. تشنج مرسيال، لستُ أرغب فى الذهاب، وفوق ذلك، قال متوجهاً إلى حميه، فى أية ساعة يتوجب عليك أن تكون فى المستودع، الساعة الرابعة، أترين، تناول الغداء مع أبوى، والذهاب بعد ذلك إلى المدينة، مع كل الطريق إلى هناك، واستتجار الشاحنة والوصول فى الساعة الرابعة لسحب الخزف، لن يتسع لنا الوقت،

قل لأبويك إنك مضطر لتناول الغداء باكراً، وحتى في هذه الحالة لن يتسع الوقت، ثم إننى غير راغب فى الذهاب، سأذهب فى الإجازة القادمة، اتصل هاتفياً بأمك على الأقل، سأتصل بها، ولكن لا تستغربى إذا ما عادت لتسألنى متى سننتقل. ترك سيبريانو ألبور ابنته وصهره يتجادلان فى مسألة غداء آل جاتشو الأسرى الخطيرة واقترب من الرف الذى تصطف عليه الدمى. ويحذر شديد نزع عنها قطع القماش المبللة، تأملها باهتمام، واحدة فواحدة، إنها لا تحتاج إلا إلى بعض اللمسات الخفيفة فى الرعوس والوجوه، وأجزاء من الأجساد، لكون الدمى صغيرة الحجم، طولها لا يزيد إلا قليلاً على الشبر، أصابها التشقق الحتمى بفعل ضغط القماش عليها، ستتولى مارتا إعادتها كأنها جديدة، وستبقى مكشوفة بعد ذلك، دون غطاء، كى تتخلص من الرطوبة قبل إدخالها إلى الفرن. وجابت جسد سيبريانو ألبور المتعب رعشة سعادة، كان يشعر كما لو أنه يبدأ أشد الأعمال صعوبة ودقة فى حياته كخزاف، الشواء المغامر لقطعة بالغة القيمة الفنية قولبها فنان عظيم لا يهمله أن تقلل من عبقريته حتى الظروف غير المضمونة لهذا المكان البائس، ولأن الكلام يدور عن القطعة الفنية، وكذلك عن الفنان، فلا يمكنه القبول بالنتائج المدمرة التى تنتج عن تبدل فى درجة الحرارة، سواء بسبب الإفراط أو النقص. المسألة هنا فى الواقع، بلا تعظيم ولا درامية، هى فى حمل نصف دسطة من الدمى التافهة إلى الفرن وطهيها كى تنتج كل

واحدة منها مثتى نسخة تافهة، وسيكون هناك من يقول إننا جميعنا نولد بقدر محسوب، ولكن الظاهر للعيان هو أن البعض فقط يأتون إلى هذا العالم كي يصنعوا من الصلصال آدمات وحواءات أو ليُكثِّروا الخبز والسّمك. كانت مارتا ومرسيال قد خرجا من مشغل الفخار، هي من أجل إعداد العشاء، وهو كي يعمق العلاقات التي بدأها مع الكلب لقيه الذي، وإن كان لا يزال يرفض أن يتقبل دون احتجاج وجود زى عسكري فى الأسرة، يبدو مستعداً لاتخاذ موقف تنازل ضمنى مادام ذلك الزى يُستبدل، فور الوصول، بأية ملابس ذات مظهر مدنى، حديثة أو قديمة، جديدة أو عتيقة، نظيفة أو متسخة، لا فرق فى ذلك. سيبريانو ألجور صار وحيداً الآن فى المشغل. اختبر وهو ساه متانة إحدى العلب الخشبية، نقل كيس جبس من مكانه، دون حاجة إلى ذلك، وكما لو أن المصادفة، وليست المشيئة، هي التي قادت خطاه، ووجد نفسه أمام الشكلين اللذين قولبهما، الرجل والمرأة. وخلال ثوان قليلة تحول الرجل إلى كتلة صلصال عديمة الشكل. وربما كان يمكن للمرأة أن تنجو لو لم يرن فى مسمع سيبريانو ألجور منذ الآن السؤال الذى ستوجهه إليه مارتا فى الغد، لماذا، لماذا الرجل وليس المرأة، لماذا أحدهما وليس الاثنى. عُجن صلصال المرأة فوق صلصال الرجل، إنهما قطعة صلصال واحدة مرة أخرى.

**** معرفتي ****
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامه

انتهى الفصل الأول من العرض المسرحى، وجرى سحب ديكورات المشهد، والممثلون يستريحون من جهود التمجيد الإلهى. لم تبق فى مستودعات المركز قطعة واحدة من خزف مشغل آل الجور، ربما بقى بعض الغبار الأحمر المبعثر على الرفوف، ولن يكون من ناقل القول التذكير بأن تماسك المواد ليس أبدياً، طالما أن ملامسة أصابع الزمن المتواصلة وغير المرئية تُبلى حتى المرمر والجرانيت، فكيف لا تفعل ذلك بمجرد صلصال ذى تركيب غير مضمون وشئٌ ربما يكون مخالفاً للأصول. لم يتعرفوا على مرسىال جاتشو فى قسم المشتريات، وهذه نتيجة مؤكدة للقبة والنظارة السوداء، ولكنها نتيجة الذقن غير الحليقة أيضاً التى تركها عمداً لتأكيد فعالية التنكر الحامى، إذ أن أهم الصفات التى تميز أى حارس فى المركز تتضمن حلاقة الذقن المتقنة. وعلى كل حال، لم يفت معاون مدير القسم الاستغراب من التحسن المفاجئ فى سيارة الشحن، وهو موقف منطقى من شخص سمح لنفسه أكثر من مرة من قبل بالابتسام بسخرية

لمرأى الشاحنة الصغيرة العتيقة، غير أن المفاجئ كان، وهذه هي أدنى تسمية فى الظروف الحالية، إطلالة السخط التى لم يكد يكبحها والتى صعدت إلى نظرتة وتقطيب وجهه عندما أخبره سيبريانو ألجور بأنهم مستعدون لسحب كل ما تبقى من البضاعة، كلها، سأله، كلها، أجاب صانع الخزف، فقد أحضرت شاحنة كبيرة ومساعداً. وإذا كان سيخصص لمعاون مدير القسم ذى المزاج المعكر هذا مستقبل أكبر فى الرواية التى نرويها، لكان بإمكاننا دون شك أن نطلب منه فى أحد هذه الأيام أن يكشف لنا عن أعماق مشاعره فى تلك المناسبة، أى السبب الأخير لضيقه - وهو ضيق غير منطقى بكل تأكيد - الذى لم يشأ إخفائه أو لم يستطع إخفائه. وربما سيعمد عندئذ إلى خداعنا بالقول، على سبيل المثال، إنه اعتاد على زيارات سيبريانو ألجور اليومية وإنه - وإن كان لا يستطيع أن يقسم، احتراماً للحقيقة، إنهما صديقان - صار يشعر تجاهه بشيء من التعاطف، وخاصة بسبب الوضع المهنى غير الموفق الذى صار إليه هذا الشيطان البائس. تزييف من أوقح الأنواع وأشدّها جلاء، لأننا إذا ما تحولنا من الاهتمام بما هو سطحى إلى الحفر فى ما هو أعمق، فإننا سنلاحظ أن ما يشى بحنق معاون مدير القسم هو الإحباط من رؤيته كيف تفلت من يديه المتعة الخبيثة التى يجدها من يستمتعون بهزيمة الآخرين حتى عندما لا تكون لهم أية منفعة فى ذلك. وبذريعة أنهم سيحتاجون لساعات من أجل إنجاز العمل وبأنهم يعرقلون إفراغ شحنات بضائع

أخرى، حاول الرجل السيئ جداً أن يمنع تحميل الشاحنة، غير أن سيبريانو ألجور حاصره، مثلما يقال عادة بفصاحة، بين السيف والجدار، إذ سأله من سيتحمل مسئولية نفقات استئجار السيارة الشاحنة فى حال عدم إنهاء العمل، وطالب بسجل الشكاوى، وكضربة نهائية ويأسفة، أكد أنه لن يخرج من هناك دون أن يتكلم إلى رئيس القسم. ومن المعروف فى مراجع علم النفس التطبيقي الأولية، فصل السلوك، أن الأشخاص سيئى الطباع يكونون فى أحيان كثيرة جبناً، ولهذا يجب ألا تُفاجأ بأن الخوف من أن يتعرض لتأنيب رئيسه الأعلى أمام الملأ دفع معاون رئيس القسم إلى تغيير موقفه بين لحظة وأخرى. أفلت من فمه عبارة متغطرسة ليشفى غليل غيظه وانسحب إلى أقصى عمق المستودع، ولم يعد للظهور إلا عندما غادرت الشاحنة القبو أخيراً وهى محملة. لم يحتف سيبريانو ألجور ولا جاتشو بالنصر، لا عملياً ولا مجازياً، فقد كانا متعبين إلى حد لا يمكن لهما معه تبيد النفس القليل المتبقى لديهما فى عبارة استهزاء وتهنئات، واقتصر أكبرهما على القول، سيمرمر حياتنا عندما نأتى بالبضاعة، سوف يتفحص الدمى بعدسة مكبرة وسيرفضها بالعشرات، ورداً أصغرهما بأن ذلك قد يحدث، ولكنه غير مؤكد، وأن رئيس القسم هو من يتولى الموضوع، وقد نجونا من هذه اليوم يا أبتاه، وسنرى ما سيحدث فى المسألة الأخرى، فلا بد للحياة من أن تكون على هذا النحو، عندما يفقد الحماسة شخص، يمسك الآخر بأحشائه

ويجعل منها قلباً . كانا قد أوقفنا شاحنتهما الصغيرة عند ناصية شارع قريب، وستظل هناك إلى أن يعودا من إفراغ حمولة الخزف الأخيرة في المنخفض القريب من النهر، وبعد ذلك سيعيدان الشاحنة الكبيرة المستأجرة إلى الجراج، وأخيراً وبعد أن يكونا مستنفدى القوى، أقرب إلى الموت منهما إلى الحياة، أحدهما لأنه فقد في ردهات المركز الملاء عادة بذل الجهد العضلى الصحية، والآخر بسبب مساوئ التقدم فى السن المعروفة، سيصلان إلى البيت، حين يكون المساء آخذاً بالانتهاء. وسينزل الكلب لقيه إلى الطريق لاستقبالهما وهو يقوم بدوره بالقفزات والنطاط الخاصة بشرطه ككلب، وستكون مارتا بالانتظار عند الباب. ولسوف تسأل، هل حلّ الأمر، هل انتهى كل شىء، وسوف يردان عليها بنعم، لقد انتهى كل شىء، وسيفكر الثلاثة بعد ذلك، أو سيشعرون، إذا ما كان هناك تناقض بين الشعور والتفكير، بأن هذا الفصل الذى انتهى هو نفسه الذى يُنتظر البدء به بفارغ الصبر، وأن الفصول الأول والثانى والثالث، سواء أكانت مهاماً أم حيوات، إنما هى قطعة واحدة على الدوام. صحيح أن بعض الديكورات قد سُحبت من منصة، ولكن الصلصال الذى ستصنع منه الديكورات الجديدة هو صلصال أمس نفسه، وعندما يستيقظ الممثلون، غداً، من حلم الكواليس، سيضعون القدم اليمنى أمام الموضع الذى خلّفوا فيه أثر القدم اليسرى، ثم يضعون اليسرى أمام اليمنى، وأياً يكن ما سيفعلونه، فإنهم لن يخرجوا عن الطريق. وعلى الرغم

من إنهاك مرسيال وتعبه، فإنه سيكرر مع مارتا، كما لو أنها المرة الأولى أيضاً، إيماءات، وحركات، وأنين، وتنهدات الحب. وكذلك الكلمات. وسوف ينام سيبريانو ألاجور بلا أحلام فى فراشه. وفى الصباح الباكر، كما هى العادة، سيُوصل صهره إلى العمل. وربما سيخطر له وهو فى طريق العودة أن يمر على المنخفض القريب من النهر، دون أى مبرر خاص، وحتى دون فضول، فهو يعرف معرفة تامة ما تُرك هناك، ولكنه على الرغم من ذلك كله قد يقترب من حافة المغارة، وإذا ما فعل ذلك فسوف ينظر إلى أسفل، وعندئذ سيتساءل إن كان يتوجب عليه أن يقطع بعض أغصان الشجر كى يغطى الخزف بصورة أفضل، وهذا يعطى فكرة عن أنه لا يريد لأحد آخر أن يعرف ما الأشياء الموجودة هناك، وأنه يريد أن تظل هكذا، مختفية، محفوظة، حتى اليوم الذى تعود فيه لتصير ضرورية من جديد، آه، كم هو صعب انفصالنا عما صنعناه، سواء أكان شيئاً أو حلماً، لاسيما عندما نكون قد دمرناه بأيدينا بالذات.

سأنظف الفرن، قال سيبريانو ألاجور عند الوصول إلى البيت. تجربة الكلب لقية السابقة دفعتة إلى التفكير فى أن صاحبه سيجلس مرة أخرى على مقعد التأملات، فالمسكين مازال يمضى بروح مشوشة بالمتناقضات، الحياة تمضى معه على خلاف ما ينبغى، وفى هذه المناسبات تكون الحاجة إلى الكلاب أكبر، فهى تأتى وتقبع أمامنا وفى عينيها السؤال المؤكد، أتريد مساعدة، وحيث إنه من الصحيح، لأول وهلة،

أنه لا يكون فى متناول يد أحد هذه الحيوانات معالجة تلك الحالات من المعاناة، والغم، وغيرها من الكروب البشرية، فقد يحدث أن يكون السبب كامناً فى واقع أننا غير قادرين على فهم ما هو أبعد أو أقرب من بشرتنا، كما لو أن الكروب الأخرى فى العالم لا يمكن أن تكتسب واقعية ملموسة إلا إذا قسناها بمعاييرنا الخاصة، أو بكلمات أبسط، كما لو أن ما هو بشرى هو وحده الموجود. لم يجلس سيبريانو ألبور على المقعد الحجرى، مرّ بجانبه، وبعد ذلك حرك المزاليج الحديدية السميكة الثلاثة المثبتة فى ثلاثة مستويات مختلفة، فوق، وفى الوسط، وتحت، ثم فتح باب الفرن بصريح حاد من المفاصلات. بعد انقضاء الأيام الأولى من التفحص الحسىّ التى أشبعت الفضول المباشر لمن وصل للتو إلى مكان جديد، لم يعد فى الفرن ما يشدّ انتباه الكلب لقيه. فهو بناء قديم وفض الصنعة، له باب طويل وضيق، والهدف منه مجهول، ولا يعيش فيه أحد، إنه بناء فى جزئه العلوى ثلاثة أشياء كأنها مداخن، ولكنها ليست كذلك بالتأكيد، إذ لم تخرج منها قط أية رائحة طعام محضرة. وزيادة فى حيرته، هاهو ذا الباب ينفتح الآن ويدخل السيد برغبة كما لو أن ذلك المكان هو بيته أيضاً، مثل البيت الآخر الذى هناك. يتوجب على أى كلب، بدافع الحذر والمبدأ، أن ينبح حيال كل المفاجآت التى تواجهه فى حياته، لأنه لا يستطيع أن يعرف مسبقاً إذا ما كانت الطيبة منها ستتحول إلى خبيثة أو إذا ما كانت الخبيثة ستتحلّى عن كونها ما كانت عليه،

ولهذا نبج لقية ونبج، أولاً بقلق عندما بدا أن هيئة السيد تنطفئ في آخر عتمة الفرن، ونبج بعد ذلك سعيداً برؤيته يعود للظهور كاملاً وبملامح متبدلة، إنها معجزات الحب الصغيرة. عندما عاد سيبريانو ألاجور للدخول إلى الفرن، وهو يمسك المكنسة الآن، لم يقلق لقية، فأى سيد، إذا ما أمعنا النظر، هو مثل الشمس والقمر، يتوجب علينا أن نكون صبورين حين يختفى، وانتظار مرور الوقت، ولا يمكن لكلب أن يقول إذا ما كان الوقت قصيراً أو طويلاً، لأنه لا يميز الفرق في المدة بين الساعة والأسبوع، بين الشهر والسنة، فلا وجود بالنسبة لحيوان من هذا النوع إلا للحضور أو الغياب. وخلال تنظيف الفرن، لم يحاول لقية الدخول، انتحى جانباً كيلا يسقط عليه مطر الجزيئات الصغيرة من فتات الصلصال المشوى، وقطع الخزف المكسر الذى تدفعه المكنسة إلى الخارج، وقد استلقى طوال ما احتاجه ذلك ورأسه مستقر بين قائمته. كان يبدو غير عابئ بشيء، وشبه نائم تقريباً، غير أنه كان يمكن لأقل الخبيرين بمعرفة النزوات الكلبية أن يدرك، من مجرد الطريقة المواربة التى كان يفتح بها الكلب عينيه ويطبقيهما بين حين وآخر، أن لقية كان ينتظر وحسب. وبانتهاء عملية التنظيف، خرج سيبريانو ألاجور من الفرن وتوجه نحو مشغل الخزف. وبينما هو فى مجال الرؤية، لم يتحرك الكلب من مكانه، ثم نهض بعد ذلك ببطء، وتقدم وهو يمشى رقبته حتى مدخل الفرن ونظر. إنه بيت غريب وخاؤ، ذو سقف مقبب، بلا أثاث ولا زينات، مبطن

بمكعبات متوازية السطوح ضاربة إلى البياض، لكن أكثر ما أثار في أنف الكلب لقية هو الجفاف الغريب في الجو المنتشر داخلاً وكذلك اللذعة الشديدة للرائحة الوحيدة التي تُشم، نفحة نهائية وأخيرة من تكلس غير متناه، وعسى ألا يفاجئكم التناقض العابق بين نهائية وغير متناه، إذ إن ما نتحدث عنه لم يكن أحاسيس بشرية، وإنما هي ما يمكن لنا تصوره بشرياً حول ما يشعر به كلب عند دخوله أول مرة إلى فرن خزف فارغ. وعلى العكس مما يمكن توقعه بالطبع، لم يترك لقية المكان الجديد معلماً بيوله. صحيح أنه بدأ بالانصياع لما تأمره به الغريزة، وصحيح أنه وصل إلى حدّ رفع قائمته بصورة متوعدة، ولكنه كبح نفسه، توقف في اللحظة الأخيرة والحاسمة، من يدرى إذا ما فعل ذلك خائفاً من الصمت المنجمي المحيط به، من خشونة البناء الفظة، من لون الأرضية والجدارين الشبهي والضارب إلى البياض، ومن يدرى إذا ما ارتاب ببساطة بأن السيد قد يستخدم العنف ضده إذا ما وجد بقعة بول شنيعة توسخ المملكة، البلاط، قبة النار، البوتقة التي يحلم فيها الصلصال كل مرة في أنه سيتحول إلى الألماس. وبضرو ظهره المنفوش، وذيله بين قائمته كما لو أنه يأتي مطروداً من بعيد، خرج الكلب لقية من الفرن. لم يرَ أحداً من أسياده، كان البيت والحقل كأنهما مهجوران، وشجرة التوت، بتأثير زاوية سقوط الشمس، بدت كما لو أنها تعكس ظلاً غريباً يتجرجر على الأرض كأنه آت من شجرة مختلفة. وخلافاً للاعتقاد الشائع عموماً، فإن الكلاب،

مهما أحيطت بالعناية والتدليل، لا تعيش حياة سهلة، والسبب فى المقام الأول، أنها لم تتمكن حتى اليوم من التوصل إلى فهم مُرضٍ بأدنى الحدود للعالم الذى جىء بها إليه، وفى المقام الثانى لأن هذه الصعوبة تتزايد باضطراد بسبب تناقضات وعدم استقرار سلوك الكائنات البشرية التى تشاطرها - إذا صح هذا القول - البيت والطعام وحتى الفراش فى بعض الأحيان. لقد اختفى السيد، ولم تظهر السيدة، والكلب لقية يُفرج عن الكآبة وعن كبح مثانته على المقعد الحجرى الذى لا ينفع فى أى شىء آخر سوى التأمل. فى هذه اللحظة خرج سيبريانو ألبور ومارتا من مشغل الخزف. ركض لقية نحوهما، فى لحظات مثل هذه يراوده الشعور بأنه سيفهم أخيراً كل شىء، ولكن الانطباع لا يستمر، إنه لا يستمر فى أى وقت، فالسيد يصيح به صيحة مدوية، اخرج من هنا، وتصرخ السيدة مذعورة، اهدأ. من الذى يمكن له أن يفهم فى أحد الأيام هؤلاء الناس، ولن يتأخر الكلب لقية فى الانتباه إلى أن السيدين يملكان هناك فى الداخل بعض الدمى الطينية الموضوعة بتوازن قلق على رفين صغيرين، ثلاث دمية لكل منهما على كل رف، ولنتصور الكارثة التى ستقع لو أنهم لم يكبحوا اندفاعى فى الوقت المناسب. يتواجه المتوازنون على رفوف التجفيف الطويلة التى هى منذ أسابيع عارية من الأطباق، والجففات، والفناجين، والصحون الصغيرة، والزبديات، والأباريق، والجرار الصغيرة، والزهريات وغيرها من أواني البيت والحديقة. هذه

الدمى الست التى تبقى معرضة للهواء كى تجف.
محمية بظل شجرة التوت، ولكن الشمس تصلها أحياناً
وهى تطل وتتحرك بين الأوراق، إنما هى الحرس
المتقدم من عمل جديد، فمئات الدمى المماثلة فى
كتائب متراصة ستملاً الرفوف العريضة، ألف ومئتا
دمية، مئتان مكرورة ست مرات، وفق الحسابات التى
أُجريت فى حينها، ولكن الحسابات كانت خاطئة،
فسعادة الانتصار ليست بالناصح الجيد على الدوام،
ويبدو أن هذين الخزافين، على الرغم من ثلاثة أجيال
من الخبرة، قد نسيا أنه لا بد من الاحتياط دوماً،
ذلك أن المقص نفسه يأكل شيئاً من القماش الذى
يقصه، وأنه لا بد من هامش فقدان وخسارة، فهناك
ما يسقط وينكسر، ما يتشوه، ما ينكمش إلى هذا
الحد أو ذاك، ما يفتته الحر لأن القطعة سيئة الصنع،
ما يخرج غير مشوى جيداً لخلل فى دوران الهواء
الساخن، وإلى هذا كله يضاف ما له علاقة مباشرة
باحتمالات الحدوث المادية لعمل فيه الكثير من الفن
الكيميائى، وهو مثلما نعرف ليس بالعلم الدقيق، وإلى
هذا كله، مثلما قلنا، لا بد أن نضيف الفحص الصارم
الذى يفرضه المركز، كالعادة، على كل واحدة من
القطع، والأدهى مع معاون مدير القسم ذاك الذى
يبدو أنه نوى الشر. لم يرد إلى ذهن سيبريانو ألبور
سوى هذين التهديدين، المؤكد والكامن، بينما هو
يكنس الفرن، وهذا هو الجيد فى تداعى الأفكار،
بعضها تأتي ساحبة غيرها، بلا عناء، والبراعة هى
فى عدم السماح بقطع خيط الأفكار، فى فهم أن

كسرة خزف على أرض ليست مجرد حاضرها ككسرة على الأرض، بل هي أيضاً ماضيها عندما لم تكن كذلك، وهي أيضاً مستقبلها الذي لا يُعرف ما الذي ستصير إليه.

يُحكى أنه في أزمنة قديمة كان هناك إلهٌ قرر أن يقول إنساناً من تراب الأرض التي خلقها قبلاً، وأنه بعد ذلك، من أجل أن يمنحه التنفس أو الحياة، نفخ في أنفه. بعض النفوس المتمادية في غيها والناكرة تشير بحذر، عندما لا تعلن بصخب فضائحي، أن ذلك الإله، بعد عملية الخلق السامية تلك، لم يعد قط إلى الاهتمام بفنون الفخار والصلصال، وهي طريقة ملتوية، بكل بساطة، لاستنكار تخليه عن العمل. والمسألة، بالرغم من الأهمية الكبرى التي تكتسبها، هي جدية بما يكفى لأن لا نعالجها بصورة تبسيطية، إنها تتطلب توازناً والكثير من الحيادية، وكثيراً من الروح الموضوعية. وكمعلومة تاريخية، لم يعد عمل القولية منذ ذلك اليوم التاريخي صفة تقتصر على الخالق، وانتقلت المنافسة المستجدة إلى المخلوقات التي - ولا بد من المَعذرة لقول ذلك - ليست مزودة بنفَس كاف. وكانت النتيجة هي تكليف النار بمسئولية كل الأعمال الإضافية التي يمكنها تقديمها، وفي المحصلة، سواء من حيث اللون أم البريق، وحتى من حيث الصوت، كان هناك شبه معقول بشيء حتى لدى خروج صنيعتهم من الأفران. إنه حكم على المظاهر. النار تحقق الكثير، وهذا أمر لا وجود لمن ينكره، ولكنها لا تستطيع تحقيق كل شيء، لديها محدودية

جدية، بل وبعض العيوب الخطيرة، ومنها على سبيل المثال، معاناتها من جوع بقري لا يعرف الشبع يقودها إلى التهام كل ما تجده أمامها وتحويله إلى رماد. وبالعودة إلى المسألة التي تهمننا، مشغل الخزف وعمله، فإننا جميعنا نعرف أن صلصالاً رطباً يُدخَل في فرن هو صلصال سيتفتت في زمن أقصر مما هو مقدر له. هناك شرط أول ولا رجوع عنه تفرضه النار، إذا ما أردنا منها أن تفعل ما نتظر منها فعله، أن يدخل الصلصال جافاً وجافاً جداً إلى الفرن. وهنا نعود صاغرين إلى النفخة في الأنف، وهنا يكون علينا أن نعترف إلى أي حدّ كنا ظالمين ومتهورين عندما جعلنا من أنفسنا عرابي الفكرة الكافرة وتبنيينا أن الإله المذكور قد أولى ظهره، غير مبال، لصينعته. أجل، صحيح أن أحداً لم يعد لرؤية ذلك الإله بعد ذلك، ولكنه خلّف لنا ربما أفضل ما فيه: النفخة، الهواء، الريح، النسيم، الصبا، هذه التي تدخل الآن بنعومة من مناخير دمي الصلصال الست التي انتهى سيبريانو ألبور وابنته من وضعها للتو، بكل عناية، فوق أحد ألواح التجفيف. والإله المذكور كاتب أيضاً، فضلاً عن كونه صانع فخار، فهو يعرف أن يكتب مستقيماً في سطور مائلة، ولأنه لم يكن هنا كي ينفخ شخصياً، فقد أرسل من يقوم بالعمل باسمه، وكل ذلك كيلا تنتهي حياة هؤلاء الصلصال إلى الانطفاء غداً في عناق النار الأعمى والفض. وقولنا غداً هو مجرد طريقة للكلام، لأنه إذا كان صحيحاً أن نفخة واحدة كانت كافية في البدء كي يكتسب صلصال الإنسان النفس

والحياة، فسوف تكون كثيرة النفخات اللازمة لهؤلاء البهاليل، والمهرجين، والآشوريين الملتحين، وموظفي المندرين الصينيين، ورجال الإسكيمو، والمرضات، هؤلاء الموجودون هنا وأولئك الذين سيصطفون في صفوف منتظمة على هذه الألواح الخشبية، من أجل أن يتبخر منهم، شيئاً فشيئاً، الماء الذي من دونه ما كان لهم أن يتوصلوا إلى أن يكونوا ما هم عليه، ويصبح بإمكانهم الدخول واثقين إلى الفرن ليتحولوا إلى ذلك الذي سيكون عليهم أن يصيروا إليه. انتصب الكلب لقية على قائمته الخلفيتين وأسند الأماميتين على حافة اللوح الخشبي كي يرى عن قرب أكثر تلك الكركوزات الست المصطفة أمامه. تشمم مرة، مرتين، ثم فقد اهتمامه بها، ولكن ليس في الوقت المناسب لتفادي الصفة القوية والمؤلة التي وجهها السيد إلى رأسه، ولا لتكرار الكلمات القاسية التي كان قد سمعها من قبل، أخرج من هنا، كيف يمكن له أن يوضح أنه لم يكن ينوى إلحاق أى أذى بالدمى، وأنه أراد فقط أن يراها بصورة أفضل وأن يشمها، ولم يكن من العدل أن تضربنى لأمر بهذه التفاهة، يبدو أنك لا تعرف أن الكلاب لا تستخدم عيون وجهها فقط لتجرى العالم الخارجى، فالأنف هو أشبه بعين متممة ترى ما تشمه، ولحسن الحظ أن المرأة لم تصرخ هي الأخرى اهتداءً، لحسن الحظ أنه يجد على الدوام أحداً قادراً على فهم مبررات الآخرين، بمن في ذلك أولئك الذين لم تتوصل قدرات أسننتهم إلى تقديم التفسيرات، بسبب بكم طبيعى، أو عدم كفاية

المفردات. لم تكن ثمرة حاجة لأن تضريه يا أبتاه، فهو يبدي الفضول وحسب، قالت مارتا. ومن شبه المؤكد أن سيبريانو أَلجور نفسه لم يكن يرغب في إلحاق الأذى بالكلب، وقد صدر عنه ذلك الفعل بقوة الغريزة التي لم تفقدها الكائنات البشر بعد، خلافاً للتفكير الشائع عموماً، وليست قريبة من فقدانها. فالغريزية تتعايش جنباً إلى جنب مع الذكاء، ولكنها أسرع منه بصورة غير متناهية، ولهذا يجد الذكاء المسكين نفسه مضحكاً في أحيان كثيرة، وأنه مزدرى في مناسبات كثيرة، وهذا ما حدث في هذه الحالة، كان ردّ فعل الخراف خوفاً من رؤية تخريب ما كلفه الكثير من الجهد بالطريقة نفسها التي تتصرف فيها اللبؤة بجزع حين ترى وليدها في خطر. ليس كل الخالقين يغلطون عن مخلوقاتهم، سواء أكانت أشبالاً أم دمي، ليسوا جميعهم ينصرفون ويخلفون مكانهم تقلبات نسمة تنفخ بين حين وآخر، كما لو أننا لسنا بحاجة إلى ضرورة النمو هذه، بالذهاب إلى القرن، بمعرفة من نحن. استدعى سيبريانو أَلجور الكلب، تعال هنا يا لقية، تعال إلى هنا. لا وجود عملياً لمن هو قادر على فهم هذه الكائنات، يضربون وفي الحال يأتون ليداعبوا من ضربه، يُضربون في الحال يذهبون لتقبيل اليد التي ضربتهم، من المحتمل أن هذا كله ليس إلا نتيجة المشاكل التي تعرضنا لها منذ بداية الأزمة البعيدة جداً، كيما نتفاهم فيما بيننا، نحن الكلاب، نحن البشر. لقد نسي لقية الصفة التي تلقاها، أما السيد، والسيد يمتلك ذاكرة، فسينساها

غداً أو بعد ساعة، ولكنه لا يستطيع نسيانها فى هذه اللحظة، ففى مثل هذه الحالات تكون الذاكرة مثل ضربة شمس آنية فى الشبكية تخلف حرقة سطحية، شيئاً خفيفاً، لا أهمية له، ولكنه يزعج خلال بقائه، وأفضل ما يمكن فعله هو استدعاء الكلب، القول له، تعال هنا يا لقيه، والكلب سيذهب، إنه يذهب دائماً، وإذا كان يلحس اليد التى تداعبه فلأنها طريقة التقبيل عند الكلاب، وخلال وقت قصير ستختفى الحرقة، وتصبح الرؤية طبيعية، وكأن شيئاً لم يحدث.

قدّر سيبريانو ألاجور كمية الحطب ووجد أنها قليلة. لقد كان يرضى نفسه على امتداد سنوات طويلة بفكرة أنه ستحين الساعة التى يتوجب فيها تقويض فرن الحطب القديم ليقام مكانه فرن جديد، من الأفران الحديثة، تلك التى تعمل بالغاز، والقادرة على تقديم درجات حرارة عالية جداً، وسريعة التسخين وذات نتائج باهرة فى عمليات الطهو. ومع ذلك، كان يحدس فى أعماق نفسه أن ذلك لن يحدث أبداً، وذلك فى المقام الأول بسبب المال الكثير الذى يتطلبه بناء فرن، وهى أموال ليست فى متناول يده، ولكن لأسباب أخرى أيضاً أقل مادية، مثل معرفته المسبقة بأنه سيحزنه تدمير ذاك الذى كان جده قد بناه وقام أبوه بعد ذلك بتحسينه، فتدميره له سيكون كأنه يمحوهما، بمعنى خاص، إلى الأبد عن سطح الأرض، ذلك أن الفرن موجود على سطح الأرض تحديداً. ولديه فوق ذلك سبب آخر، يعترف به أقل، ويلخصه فى خمس كلمات، لقد صرت عجوزاً على

ذلك، ولكن فرناً جديداً يستدعى موضوعياً استخدام أجهزة لقياس درجات الحرارة، وأنايب، ووسائط أمان، وحرّاقات، وهذا يعنى تقنيات أخرى واهتمامات أخرى. ولا يبقى بالتالى من مخرج سوى مواصلة العمل فى الفرن القديم الذى يُغذى بالطريقة القديمة، بحطب، وحطب، وحطب، وربما كان هذا هو أصعب ما يجب تحمله فى أشغال الصلصال. فكما هى الحال فى موقد قاطرات البخار القديمة التى يتوجب قضاء الوقت فى إلقاء رفوش من الفحم عبر فوهة الموقد، يوجب على الخزاف، أو على الأقل سيبريانو ألاجور، غير القادر على دفع أجرة مساعد له، أن ينهك نفسه لساعات فى دس الوقود القديم داخل الفرن، تفرعات أغصان تلفها النار وتلتهمها خلال برهة، وأغصان يأخذ اللهب بعضها ويلعقها شيئاً فشيئاً إلى أن يفتتها إلى جمار، والجيد هو عندما نستطيع تدليل النار بصنوبر ونشارة، فهى تشتعل ببطء أكبر وتوفر حرارة أشد. وسيبريانو ألاجور يتمون من المناطق المحيطة بالقرية، يوصى الحطّابين والمزارعين على بعض شحنات الحطب لإحراقها، ويشترى من مناشر الخشب وورش نجارة الحزام الصناعى بضعة أكياس من النشارة، ويفضل أن تكون نشارة أخشاب قاسية، مثل السنديان أو الجوز أو الكستناء، وعليه أن يقوم بذلك كله وحده، فلا يخطر لباله بالطبع أن يطلب من ابنته، لاسيما وهى حامل، أن ترافقه وتساعده فى حمل الأكياس إلى الشاحنة، إنه يأخذ معه لقيه لينهى المصالحة معه، وهو ما يعنى

أن الحرقفة فى ذاكرة سيبريانو أآور لم تكن، فى نهاية المطاف، قد شفيت تماماً بعد. الحطب الموجود تحت السقيفة المائلة سيكون أكثر من كاف لظهو الدمى الست التى ستستخدم كنموذج. غير أن سيبريانو أآور يتشكك، ويرى أن عدم التناسب الهائل بين الوسائل المستخدمة والنتيجة التى سيتوصل إليها سخيؑ وعبثى؁ إنه عبثى بلا اعتذار؁ هذا يعنى أنه من أجل شىء المادة التافهة المكونة من نصف دسطة من الدمى سيكون بحاجة إلى استخدام الفرن كما لو أنه سيشوى كمية تصل حتى السقف. قال ذلك لمارتا؁ فأعطته الحق؁ وبعد نصف ساعة من ذلك أعطته العلاج؁ الكتاب يشرح كيف يمكن حل المشكلة؁ بل إنه يورد رسماً توضيحياً من أجل فهم أفضل. من المحتمل جداً أن جد أبى مارتا؁ وهو من كان فى أزمنة قديمة جداً؁ قد استخدم ذات مرة؁ فى بدايات مهنته كخزاف؁ ما صار فى هذا العصر عملية شىء قديمة فى مغارة؁ ولكن لا بد أن إنشاء أول قرن قد أعفى ودفع إلى النسيان بطريقة ما الممارسة القديمة البائدة؁ ولم تنتقل إلى أبى سيبريانو أآور. ولحسن الحظ أن الكتب موجودة. ويمكن لنا أن ننساها فى خزانة أو صندوق؁ أو نتركها للغبار والعثة؁ أو نهجرها فى عتمة الأقبية؁ يمكن لنا ألا نمر عليها بعيوننا ولا نلمسها لسنوات وسنوات؁ ولكنها لا تهتم بذلك كله؁ وتنتظر بهدوء منطبقة على نفسها كيلا يضيع شىء مما تحتويه فى داخلها؁ ودوماً تأتى اللحظة؁ يأتى هذا اليوم الذى نتساءل فيه؁ أين هو

ذلك الكتاب الذى يعلم كيفية شى الصلصال، ويظهر
أخيراً الكتاب المطلوب، وهاهو ذا الآن بين يدي مارتا
بينما الأب يحضر إلى جانب الفرن مغارة صغيرة بعمق
نصف متر، ومثلها اتساعاً، فكمية الدمى لا تحتاج لما
هو أكثر من ذلك، ثم يضع فى قاع الحفرة طبقة
أغصان صغيرة ويشعل فيها النار، يتصاعد اللهب،
يداعب الجوانب، تُختزل الرطوبة السطحية، ثم
تضعف النار، ولا يبقى إلا الرماد الساخن وبعض
الجمار الصغيرة جداً، وفوق هذه الجمار والرماد
سُتُنزل مارتا الدمى، بعد أن أعطت لأبيها الكتاب
المفتوح على الصفحة، وتأخذ بتنضيد الدمى الست
التجريبية بعناية قصوى، واحدة فواحدة، دمية موظف
المندرين الصينى، ورجل الإسكيمو، والآشورى الملتحى،
والمهرج، والبهلول، والممرضة، وفى المغارة مازال الهواء
الساخن يخفق، يلامس بشرة الدمى الرمادية التى
تبخر منها الماء كله تقريباً، وكذلك الداخل المصمت
لأبدانها، بفعل حركة الهواء والتنسيم. والآن، عند فوهة
الحفرة، وبسبب عدم وجود شبكة حديدية مناسبة
لهذا الغرض، يضع سيبريانو ألجور قضباناً حديدية
مسطحة، غير ملتصقة بعضها ببعض وغير منفصلة
كثيراً بعضها عن بعض، مثلما يشير الكتاب، فمن
خلالها سيسقط جمر المحرقة التى بدأ الخزّاف
يُسعّرُها. كانا سعيدين باكتشاف الكتاب المنقذ إلى حدّ
أنهما لم ينتبها، لا الأب ولا الابنة، إلى أن ساعة
الغروب التى بدءاً فيها العمل ستضطرها إلى تغذية
الموقد حتى وقت متقدم من الليل، إلى أن تملأ الجمار

الحفرة بالكامل تقريباً وينتهى الشئ. قال سيبريانو
ألجور للابنة، اذهبي أنت ونامي، وسأظل أنا أراقب
النار، فردت عليه، لن أضيع رؤية هذا المشهد مقابل
ذهب العالم كله. جلسا على المقعد الحجري يتأملان
الذهب، وبين حين وآخر كان سيبريانو ألجور ينهض
ويذهب لإلقاء مزيد من الحطب، من أغصان غير
ثخينة كي تسقط الجمار من الفراغات بين قضبان
الحديد، وعندما حان موعد العشاء نزلت مارتا إلى
البيت لتعدّ وجبة خفيفة، تناولاها فيما بعد على
الضوء المتذبذب الذي يتحرك على الجدار الجانبي
للفرن كما لو أنه هو أيضاً يتأجج ناراً من الداخل.
وشاطرهما الكلب لقيه ما هو موجود من طعام، ثم
ربض بعد ذلك عند قدمي مارتا، ينظر بثبات إلى
الذهب، لقد كان في مرات أخرى من حياته قريباً من
مواقف أخرى، ولكن أياً منها لم يكن مثل هذا الموقد،
من المحتمل أنه عنى شيئاً آخر، فالمواقف، سواء أكانت
كبيرة أم صغيرة، متشابهة كلها، إنها حطب مشتعل،
وبريق، وجمر، ورماد، أما ما كان يفكر فيه لقيه فهو
أنه لم يكن قط على هذه الحال، قابلاً عند أقدام
شخصين أسلم إليهما إلى الأبد حبه ككلب، إلى جانب
مقعد حجري مناسب لتأملات جدية، مثلما يمكن له
هو نفسه أن يشهد ابتداء من هذا اليوم ومن خلال
تجربة شخصية مباشرة. ملء نصف متر مكعب
بالجمر يحتاج لوقت، وخاصة إذا كان الحطب، مثلما
يحدث الآن، لم يجف تماماً، والدليل هو رؤية غليان
آخر النسغ في أطراف الأغصان الآخذة بالاحتراق.

سيكون مشوقاً، لو كان ذلك ممكناً، النظر داخلاً، ورؤية إذا ما كان الجمر قد وصل حتى خاصرة الدمى، ولكن ما لا يمكن تصوره هو كيف هي الحال داخل المغارة، المفرقع والمتلألئ بضوء ألسنة اللهب القصيرة المتعددة التي انتهت من استهلاك قطع الحطب الصغيرة المتوهجة الآخذة بالتساقط إلى أسفل. ولأن الليل بدأ بالبرودة، فقد ذهبت مارتا إلى البيت بحثاً عن بطانية، وبإلقائها على الأكتاف، التف بها الأب والابنة. أما من أمام فلا يحتاجان إليها، فما يحدث الآن هو مثل ما كان يحدث في أزمنا مضت، عندما كنا نجتمع حول المدفأة لنتدفأ في ليالي الشتاء، وكان الظهر يرتجف من البرد بينما الوجه واليدان والساقان تشوى. وخاصة الساقين، لأنهما قريبتان جداً من النار. غداً يبدأ العمل القاسى، قال سيبريانو ألبور، أنا سأساعد فيه، قالت مارتا، ستساعدين دون شك، لا مفر من ذلك، على الرغم من أن الأمر يضايقنى، لقد كنتُ أساعد على الدوام، ولكنك الآن حبلى، فى الشهر الأول، وربما أقل، فالحمل غير ظاهر بعد، وأنا أشعر بأننى فى أحسن حال، أخشى ألا نتمكن من إنجاز هذا العمل حتى النهاية، بل سنتمكن، لو أننا نجد على الأقل من يساعدنا، أنتَ نفسك قلت إنه ليس هناك من يرغب فى العمل فى مشاغل خرف، كما أننا سنضيع الوقت كله فى تعليم من يأتى وستكون النتائج أقل من الجهد المبدول، صحيح، أكد سيبريانو ألبور وقد استغرق فى التأمل فجأة. لقد تذكر أن إساورا إستوديوسا، أو إساورا مادروجا، كما

عادت تسمى نفسها على ما يبدو، تسعى للبحث عن عمل، وإذا هي لم تجده، فسوف تغادر القرية، ولكن هذا التفكير لم يقلقه، فهو غير قادر عملياً، ولا يريد أن يتصور المدعوة مادروجا تعمل فى مشغل الخزف، محشورة فى الوحل، فمعرفتها الوحيدة من هذه المهنة هى تلك الطريقة فى احتضان إبريق الفخار ملتصقاً بصدرها، ولكن هذا لا يفيد فى شىء عندما يكون الأمر متعلقاً بصنع الدمى وليس الهددة لها. وفكر الهددة يمكن لأى شخص القيام بها، ولكنه كان يعرف أن ذلك غير صحيح. وقالت مارتا، يمكننا الاستعانة بأحد ليتولى مسئولية الأعمال المنزلية، وهذا يوفر لى الحرية للبقاء فى مشغل الخزف، فقاطعها سيبريانو ألاجور بجفاء، لا نملك نقوداً لدفع ألاجور مساعداً، أو موظفة منزلية، أو امرأة لساعات، أو أى تسمية أخرى، وألحت مارتا، امرأة تكون محتاجة لعمل ولا يهملها لو كسبت قليلاً لبعض الوقت. أزاح الأب البطانية عن كتفيه بنفاد صبر كما لو أنه يختنق، إذا كان ما تفكرين فيه هو ما أتخيله فأظن أنه من الخير أن ينتهى الحديث هنا، بقى أن نعرف إذا كنت قد تخيلت ما تخيلته لأننى فكرتُ فيه، قالت مارتا، أم أنك فكرت فيه قبل أن أتخيله أنا، لا تتلاعبى بالكلمات، أرجوك، أنت تتمتعين بهذه المهارة، أما أنا فلا، لم ترثها عنى، لا بد أن يكون ثمة شىء من حصادنا الخاص، وعلى أى حال، هذا الذى تسميه تلاعباً بالكلمات هو بكل بساطة طريقة لجعل الكلمات مرئية أكثر، يمكن لك أن تعيدى تغطية كلماتك هذه

إذاً، فهي لا تهمنى. أعادت مارتا البطانية إلى ما كانت عليه، وسترت كتفى أبيها وقالت، إنها مغطاة إذاً، وإذا ما كشف أحدهم الغطاء عنها يوماً فلن أكون أنا. انسل سيبريانو ألاجور من تحت البطانية، لا أشعر بالبرد، قال، ثم ذهب ليلقى مزيداً من الحطب فى الموقد. أحست مارتا بالتأثر وهى تتأمل الدقة التى يضع بها الجذوع الجديدة فوق المشتعلة، بانكباب وتدقيق شديد كمن يجبر نفسه على استبعاد أفكار مزعجة، على تركيز كل قوة انتباهه على أمر تافه بلا أهمية. ها كان ينبغى لى أن أعود إلى الموضوع، قالت لنفسها، وخاصة الآن، بعد أن قال إنه سيذهب معنا إلى المركز، ثم إننا، إذا افترضنا أنهما توصلا إلى التفاهم إلى حد موافقتهما على أن يعيشا معاً، فإننا سندخل فى مشكلة عويصة وربما مستحيلة الحل، لأن الذهاب إلى المركز مع الابنة والصهر هو شىء، وشىء آخر هو أخذ زوجة معه، وبدلاً من أسرة واحدة سنكون أسرتين، وأنا واثقة من أنهم لن يتقبلونا، وقد أخبرنى مرسىال بأن الشقق صغيرة هناك، وسيضطران إلى البقاء هنا، وممّ سيعيشان، إنهما شخصان يكاد لا يعرف أحدهما الآخر، كم من الوقت سيستمر تفاهمهما، ما أفعله ليس مجرد تلاعب بالكلمات، بل هو تلاعب بمشاعر الآخرين، يمشاعر أبى بالذات، أى حق لى بذلك، أى حق لك بذلك يا مارتا، جربى أن تكونى فى مكانه، لا يمكنك ذلك طبعاً، وإذا كنت غير قادرة فاصمتى، يقال إن كل شخص هو جزيرة بذاتها، وهذا غير صحيح، كل شخص هو صمت، أجل، صمت، كل واحد مع

صمته، كل واحد مع الصمت الذى يكونه. رجع سيبريانو ألبور إلى المقعد الحجرى، وقام هو نفسه بوضع البطانية فوق كتفيه على الرغم من أنه مازال يحمل فى ملابسه حرارة الموقد، اقتربت مارتا منه، أبى، أبى، قالت، ماذا تريدان، لا شىء، لا تهتم بى. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة عندما امتلأت الحفرة بالجمر. لم تعد ثمة حاجة لبقائنا هنا، قال سيبريانو ألبور، وغداً، عندما تبرد الدمى، سنُخرجها ونرى كيف صارت. رافقهما الكلب لقيه حتى باب البيت. ثم رجع بعد ذلك إلى جانب الموقد وألقى على الأرض. وتحت طبقة الرماد الخفيفة كان يشع نور خافت، فالجمر مازال يتأجج. و فقط عندما انطفأت الجمار بالكامل، أطبق لقيه عينيه لينام.

حلم سيبريانو أَلجور أنه فى داخل فرنه الجديد . وكان يشعر بالسعادة لأنه تمكن من إقناع ابنته وصهره بأن التعاضم المفاجئ فى نشاط مشغل الخزف يتطلب تغيرات جذرية فى عمليات الإعداد، وتحديث سريع لوسائل ومنشآت التصنيع، بدءاً من حالة القرن القديم المستعجلة، المتبقى من حياة حرفية بائدة لا يستحق معها أن يُحتفظ به ولو كأثر متداع فى متحف فى الهواء الطلق. فلنترك جانباً الحنين الذى لا يؤدى إلا إلى الضرر والتخلف، قال سيبريانو أَلجور بحماسة غير معهودة، فالتقدم يندفع دون كايح، وينبغى لنا أن نتخذ القرار بمجاراته، ويا لأولئك الذين يدفعهم الخوف من بلاء مستقبلى إلى البقاء جالسين على حافة الطريق يبكون ماضياً لم يكن أفضل من الحاضر. ولشدة الدقة والكمال اللذين خرجت بهما العبارة، فقد أفحمت الشابين المعارضين. وعلى أى حال، يجب الاعتراف بأن الفروق التكنولوجية بين القرن الجديد والقرن القديم ليست من عالم آخر بأى حال، فما يتضمنه الآخر من قدم، يمتلكه الآن الثانى

من حداثة، والتعديل الوحيد الذى يلفت النظر حقاً يتلخص فى حجم البناء، وفى استطاعته التى هى أكبر مرتين، والصحيح أيضاً، وإن كان ذلك لا يُلاحظ كثيراً، أن ثمة فروقاً، حتى أنها غير عادية بعض الشيء، فى علاقات التناسب بين ارتفاع الفراغ الداخلى وعمقه وعرضه. وحيث إن الأمر كله متعلق بحلم، فينبغى عدم استغراب هذه النقطة الأخيرة. ولكن ما يثير الاستغراب، أجل، مهما كانت كثرة الحريات والمبالغات التى تمنحها الحالة الحُلُمية للحالم، هو وجود مقعد حجرى هناك فى الداخل، مقعد مشابه تماماً لمقعد التأمّلات، ولا يمكن لسبيريانو أَلجور أن يرى منه سوى الجزء الخلفى من مسنده، لأن المقعد يتجه، بصورة غير مألوفة، نحو الجدار الذى فى العمق، على بُعد خمسة أشبار فقط عن الجدار. لا بد أن البنائين هم الذين وضعوه هناك كى يستريحوا عليه فى موعد الغداء، ونسوا إخراجهم بعد ذلك، هكذا فكر سبيريانو أَلجور، ولكنه كان يعرف أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً، فالبناءون، وهذه معلومة تاريخية صارمة، يحبون تناول الطعام فى الهواء الطلق على الدوام، حتى عندما يكون عليهم أن يعملوا فى الصحراء، فما بالك إذا كان الموقع ريفياً لطيفاً مثل هذا المكان، مع ألواح التجفيف تحت شجرة التوت، وهبوب نسيم الظهيرة الخفيف. أياً يكن المكان الذى جئت منه، ستذهب لترافق ذلك المقعد الذى فى الخارج، قال سبيريانو أَلجور، والمشكلة هى فى إخراجك من هنا، فأنت ثقيل جداً لا يمكن حملك

بالذراعين، وإذا ما جررتك فسوف تُحدث شروخاً فى الأرضية، لا أفهم من الذى خطر له حملك إلى داخل الفرن ووضعك بهذا الشكل، فالشخص الذى يجلس سيلتصق أنفه بالجدار. ولكى يُثبت لنفسه أنه محق فى قوله، انسل سيبريانو أَلجور برفق بين أحد جانبي المقعد والجدار الجانبى، وجلس. كان عليه أن يتقبل أخيراً أن أنفه لا يتعرض لأى خطر احتكاك بجدار الأجر المقاوم للحرارة، وأن الركبتين، وإن كانتا متقدمتين فى المستوى الأفقى، إلا أنهما بمنجاة كذلك من أية احتكاكات مزعجة. لكن اليد فيمكن لها، أجل، أن تصل إلى الجدار دون أى جهد. والآن، فى اللحظة التى كانت فيها أصابع سيبريانو أَلجور على وشك أن تلمس الجدار، قال صوت آت من الخارج، لا يوجد ما يستحق عناء إشعالك الفرن. كان الأمر غير المتوقع صادراً عن مرسيال، مثلما هو له أيضاً الظل الذى انعكس لثانية واحدة على جدار العمق ليختفى على الفور. بدا لسيبريانو أَلجور أن طريقة صهره فى التعامل تنم عن تعسف وقلة احترام، لم أمنحه قط مثل هذه الثقة، فكر. ثم قام بحركة ليلتفت ويسأله لماذا لا يوجد ما يستحق عناء إشعال الفرن، وما هذه الطريقة فى التعامل برفع الكلفة معه، ولكنه لم يتمكن من إدارة رأسه، فمما يحدث لنا بكثرة فى الأحلام أننا نود الركض ونكتشف أن الأرجل لا تنصاع، وتكون الأرجل عموماً هى التى لا تستجيب، أما هذه المرة فالرقبة هى التى ترفض الالتفات. ثم إن الظل لم يعد موجوداً، وليس بالإمكان توجيه الأسئلة إلى ظل، هذا

فى حال الافتراض العبثى وغير العقلانى بأن للظل لساناً من أجل صياغة الجواب، ولكن التوافق التكميلى للكلمات التى تفوه بها مرسىال كانت لا تزال تتردد بين سقف الفرن المقبب وأرضيته، وبين جدار وآخر. وقبل أن تتلاشى الذبذبات تماماً ويُتاح الوقت لمادة الصمت المكسور المبعثرة أن تستعيد بنانها، أراد سيبريانو أَلجور أن يعرف الأسباب الغامضة التى تجعل إشعال الفرن أمراً لا يستحق العناء، إذا ما كان هذا حقاً هو ما قاله صوت الصهر، إذ صار يبدو له الآن أن الكلمات كانت غير هذه، بل إنها أكثر غموضاً، لا وجود لما يستحق عناء أن تضحى بنفسك من أجله، كما لو أن مرسىال اعتقد أن حماه، ويبدو أنه لم يرفع الكلفة معه، قد قرر أن يجرب بجسده قوة النيران، قبل أن يسلمها عمل يديه. إنه مجنون، تتمم الخزاف بينه وبين نفسه، لا بد أن صهرى هذا مجنون تماماً كى يتصور مثل هذه الأمور، إذا كنتُ قد دخلتُ إلى الفرن، فإنما فعلت ذلك من أجل، وكان لا بد له من قطع العبارة، فسيبريانو أَلجور لا يعرف فى الواقع سبب وجوده هناك، وليس فى ذلك ما يدعو إلى الاستغراب، مادام يحدث لنا فى أحيان كثيرة، ونحن مستيقظون، ألا نعرف لماذا فعلنا هذا الشئ أو ذاك، فما بلك حين نكون نائمين، ونحلم. فكر سيبريانو أَلجور أنه من الأفضل، ومن الأسهل، أن ينهض بكل بساطة عن المقعد الحجري، وأن يخرج ويسأل صهره أى هراء شياطين مبهم كان ذاك الذى قاله، ولكنه أحس بثقل رصاص فى جسده، أو ليس ذلك بالضبط، فالحقيقة

أن ثقل الرصاص لا يمكن أن يكون كبيراً إلى حد لا تستطيع معه قوة أكبر من رفعه، وما يحدث الآن هو أنه مقيد إلى مسند المقعد، مقيد دون حبال ودون قيود، ولكنه مقيد. حاول أن يدير رأسه مرة أخرى، ولكن الرقبة لم تنصع له. إننى مثل تمثال حجرى يجلس على مقعد حجرى وينظر إلى جدار حجرى، فكر، مع أنه كان يعلم أن الأمر ليس كذلك بالضبط، فالجدار على الأقل، مثلما يمكن لعينيه كخبير فى المواد أن تؤكد، لم يشيد من أحجار، وإنما من آجر مقاوم للحرارة. وكان فى هذه اللحظة أن عاد ظل مرسىال ينعكس على الجدار، لقد جئتُك بالخبر الذى كنا ننتظره بفارغ الصبر منذ زمن، قال صوته، لقد رُقِّيتُ أخيراً إلى حارس مقيم، وهكذا لم يعد ثمة جدوى من مواصلة التصنيع، تستطيع أن تشرح للمركز أننا أغلقنا مشغل الخزف وسيتفهمون ذلك، فهو ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً، لا بد أن تخرج من هناك الآن، لأن الشاحنة أمام الباب من أجل تحميل الأثاث، ويا لخسارة المال الذى أنفق فى بناء الفرن. فتح سيبريانو ألاجور فمه ليحيب، ولكن الظل كان قد مضى، وما كان يريد صانع الخزف قوله هو أن الفرق بين كلمة الحرفى والوصية الإلهية يستند إلى أن هذه الأخيرة تطلبت أن توضع كتابة، وأسفرت مع ذلك عن النتائج المؤسفة المعروفة، وأنه إذا كان مستعجلاً فيمكن له أن يبدأ الرحيل، وهذه عبارة فجة بعض الشيء وتتناقض مع التصريح الوقور الذى أعلنه هو نفسه قبل أيام غير كثيرة، عندما وعد ابنته وصهره

بأن يذهب للعيش معهما حين تتم ترقية مرسيا، وعندما يجعل انتقالهما الحفاظ على سير العمل في مشغل الخزف أمراً مستحيلاً. كان سيبريانو ألاجور يوبخ نفسه لأنه أكد ما لا يمكن للشرف أن يسمح له بتفزيده، عندما ظهر خيال جديد على جدار العمق. وعلى الضوء الخفيف الذي يمكن له الدخول من الباب الضيق لفرن بهذا الحجم، يكون من السهل جداً الخلط بين شبحين بشريين، ولكن صانع الخزف عرف من يكون الشبح الثاني، إذ لا يمكن أن يكون الظل الأشد قتامة ولا الصوت الأشد كثافة هما ظل وصوت الصهر، يا سيد سيبريانو ألاجور، لقد جئتُ فقط لأخبرك بأن طليبتنا من الدمى الخزفية قد أُلغيت، قال مدير قسم المشتريات، لا أعرف ولا أريد أن أعرف سبب حشر نفسك هناك، إذا كنت قد فعلت ذلك لتبدو بطلاً رومانسياً ينتظر أن يكشف له الجدار أسرار الحياة، فإنني أرى بكل بساطة أن ذلك مضحك، أما إذا كانت نواياك تمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، إذا كنت تنوى التضحية بنفسك في النار، مثلاً، فاعلم أن المركز يرفض تحمل أية مسئولية عن الوفاة، فهذا ما كان ينقصنا، أن يأتوا لتحميلنا مسئولية انتحار أشخاص غير أكفاء يحل بهم الإفلاس لكونهم عاجزين عن فهم قواعد السوق. لم يُدر سيبريانو ألاجور رأسه باتجاه الباب، على الرغم من يقينه بأنه صار قادراً على عمل ذلك، كان يعلم أن الحلم قد انتهى، وأنه لا يمكن لشيء أن يمنعه من النهوض عن المقعد الحجري عندما يشاء، غير أن شكاً

واحداً مازال يقلقه، صحيح أنه شك سخي، وصحيح أنه تافه، ولكنه مفهوم مع ذلك إذا ما أخذنا بالاعتبار حالة الحيرة الذهنية التي خلّفه فيها الحلم باضطرابه إلى الذهاب للعيش في المركز نفسه الذي أبدى للتو ازدياداً لعمله، وهذا الشك، ولنتوجه إليه، فنحن لم ننس، له علاقة بالمقعد الحجري. فسبيريانو ألاجور كان يتساءل عما إذا كان قد حمل مقعداً حجرياً إلى السرير أم أنه يستيقظ مغطى بالندى على المقعد الحجري الآخر، مقعد التأمّلات، فالأحلام البشرية هي هكذا، تختار في بعض الأحيان أشياء حقيقية وتحولها إلى رؤى، وفي أحيان أخرى تجعل الهديان يلعب لعبة التخفي بالواقع، ولهذا كثيراً ما نجلس حائرين، الحلم يشد من جهة، والواقع يدفع من الجهة الأخرى، والحقيقة الناصعة هي أن الخط المستقيم لا وجود له إلا في الهندسة، وحتى في هذه الحالة يبدو لنا تجريداً. فتح سبيريانو ألاجور عينيه. إنني في الفراش، فكر باطمئنان، وفي هذه اللحظة انتبه إلى أن ذاكرة الحلم آخذة بالتفط، وأنه لن يتمكن من الاحتفاظ إلا ببعض الأجزاء، ولم يعرف إذا ما كان عليه أن يبتهج بالقليل أم يحزن للإفراط، وكثيراً ما يحدث هذا أيضاً بعد الحلم. كان الوقت لا يزال ليلاً، ولكن أولى تحولات السماء التي تعلن عن اقتراب الفجر لن تتأخر في الظهور. لم يعد سبيريانو ألاجور إلى النوم. فكر في أشياء كثيرة، فكر في أن عمله آخذ بالتحول إلى عدم الجدوى، وأنه لم يعد لوجود شخصه من مسوغ كاف ومقبول وسطياً، إنني عقبه

أمامهما، دمدم، وفى هذه اللحظة ظهرت له نتفة من
الحلم بكل وضوح، كما لو أنها قد قُصت وأُلصقت على
جدار، كان مدير قسم المشتريات وهو يقول له، إذا
كنت تتوى التضحية بنفسك فى النار يا سيدى العزيز،
فليكن هنيئاً لك، ولكننى أنبهك مع ذلك إلى أنه ليس
من تجاوزات المركز، إذا كانت لديه تجاوزات، أن يرسل
ممثلين عنه أو أكاليل زهر إلى مآتم ممونيه القدماء.
عاد سيبريانو ألاجور إلى الوقوع فى الحلم للحظات،
ولا بد أن نسجل بالمناسبة، قبل أن يشار لنا إلى
التناقض الظاهرى، أن الوقوع فى الحلم للحظات
ليس له المعنى نفسه للقول إنه كان قد نام، فالخزاف
لم يفعل شيئاً سوى الحلم مصادفة بالحلم نفسه الذى
كان قد رآه، وإذا كانت كلمات مدير قسم المشتريات
الثانية لم تخرج مماثلة للمرة الأولى بالضبط فإن
السبب فى ذلك بسيط، لأن الكلمات التى نقولها،
ليس فى حياة اليقظة وحدها، إنما تعتمد على مزاج
المناسبة. فتلك الإشارة المزعجة وغير الصحيحة إلى
فرضية التضحية بالنفس فى النار كان لها، مع ذلك،
فضيلة تحويل تفكير سيبريانو ألاجور نحو دمي
الصلصال الموضوع لتشوى فى المغارة، وبعد ذلك،
عبر دروب ومجازات فى الدماغ لن يكون من المستحيل
إعادة بنائها ووصفها بدقة كافية، نحو الاعتراف
المفاجئ بأفضلية الدمية الجوفاء على الدمية
المصمتة، سواء بالنظر إلى الوقت المستخدم أم
الصلصال المستهلك. هذه القدرة المغناطيسية المتواترة
التي تمتلكها البديهييات كى تتبدى دون كثير من

التوسل ينبغي أن تكون محط تحليل معمق من جانب الفقهاء الذين يبحثون في أمور الطبيعة المختلفة - إنما غير المتعارضة بالتأكيد - ما هو مرئى منها وغير مرئى، بمعنى التقصى إذا ما كان يوجد فى الداخل الأكثر حميمية لما يُعرض للنظر، وهناك أسباب كثيرة للشك كما يبدو، شىء كيميائى أو فيزيائى ذو ميل خبيث إلى النفسى والتعمية، أو انزلاق متوعد باتجاه الصفر، أو حلم خواء متسلط على العقل. أياً يكن الأمر، فإن سيبريانو ألاجور راضٍ عن نفسه. منذ لحظات كان يرى أنه يشكل مشكلة لابنته وصهره، وأنه عائق، عقبة، عديم الجدوى، باطل، وهذه الكلمة الأخيرة تعبر عن كل شىء عندما يكون علينا أن نصنف ما يُفترض أنه لم يعد ينفع فى شىء، وها هو الآن قادر على إنتاج فكرة منفعتها فى ذاتها مثبتة مسبقاً فى واقع أن آخرين توصلوا إليها من قبل ووُضعت موضع التنفيذ مرات كثيرة. ليس بالإمكان التوصل إلى أفكار أصيلة على الدوام، ويكفى بكل بساطة التوصل إلى أفكار عملية. يروق لسيبريانو ألاجور أن يطيل أمد البقاء ساكناً فى الفراش، أن يستغل إغفاءة الصباح الطيبة، فهى الأكثر إعادة للنشاط بين كل الإغفاءات، ربما لأننا نعى ذلك بصورة غامضة، غير أن استثارة الفكرة التى خطرت له، وتذكُّر الدمى تحت الرماد الذى لا يزال ساخناً دون شك، وكذلك - ولماذا لا يعترف - الإخبار المسبق المتسرع بأنه لن يعود إلى النوم، كل ذلك معاً جعله يزيح الدثار جانباً ويقفز بسرعة إلى الأرض، منتعشاً

ورشيقيماً كما فى سنوات فتوته. ارتدى ملابسه دون أن يُحدث ضجة، وخرج من الحجرة حاملاً حذاءه بيده، وتوجه على رعوس أصابعه إلى المطبخ. إنه لا يريد لابنته أن تستيقظ، ولكنها استيقظت، أو أنها كانت مستيقظة، مشغولة بجمع فتات أجزاء من أحلامها الخاصة، أو تصيخ السمع إلى العمل الأعمى الذى تحقّقه الحياة، ثانية فثانية، فى رحمها. رن الصوت صافياً وواضحاً فى صمت البيت، أبتاه، إلى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت المبكر، لا أستطيع النوم، وسأذهب لأرى كيف جرى شواء الدمى، أما أنتِ فابقى، لا تنهضى. وأجابت مارتا، أجل سأبقى، إذ لم يكن من الصعب عليها، وهى التى تعرفه، أن تفكر فى أن أباهما يرغب فى البقاء وحيداً خلال عملية إخراج الرماد والدمى من المغارة، مثل طفل يتقدم فى الممر المظلم متلمساً طريقه فى ساعة متقدمة من الليل، وهو يرتعش من الخوف والإثارة ليكتشف أياً من الدمى والهدايا التى حلم بها قد وُضعت فى حذائه. انتعل سيبريانو ألبور حذاءه، فتح باب المطبخ وخرج. كانت أوراق شجرة التوت الوارفة تستبقى الليل محتجزاً بثبات، لن تتركه يذهب سريعاً، فظهور أول أنوار الفجر مازال يحتاج لنصف ساعة على الأقل. نظر إلى كوخ الكلب، ثم جال ببصره فيما حوله، وفوجئ؛ لأنه لم ير الكلب يخرج للقائه. صفر بصوت خافت، ولكن لقية لم يظهر. انتقل صانع الخزف من المفاجأة الحائرة إلى قلق جلى، لا أظن أنه قد ذهب، لا أظن ذلك، دمدم. يمكن له أن يصرخ باسم الكلب،

ولكنه لم يفعل لأنه لا يريد إثارة ذعر ابنته. لا بد أنه يتسكع فى مكان ما، يتسكع متشتمماً كائنأً ليلياً، قال ليطمئن نفسه، ولكنه بينما هو يجتاز الفناء باتجاه الفرن، كان يفكر فى لقية أكثر من تفكيره فى دمي الصلصال التى يتلهف إليها. وكان قد صار على بُعد خطوات قليلة من الحفرة عندما رأى الكلب يخرج من تحت المقعد الحجرى، لقد أخفتنى أيها المحتال، لماذا لم تأت عندما ناديتك، قال له مؤنباً، ولكن لقية لم يقدم أى جواب، كان مشغولاً بالتمطى، وفى إعادة عضلاته إلى أماكنها، فقد شدّ أولاً قائمته الأماميتين إلى الأمام، خافضاً رأسه وعموده الفقرى فى مستوى مائل، ومارس بعد ذلك ما يُفترض أنه، فى مفهومه، تمرين لا بد منه لضبط بدنه وتعديله، بخفض فخذه الخلفيتين وإطالتهما حتى بدا كأنه يريد الانفصال عنهما. الجميع يعرف أن يقول لنا إن الحيوانات قد تخلت عن الكلام منذ زمن بعيد، ولكن ما لا يمكن إثباته أبداً هو أنها لم تواصل التفكير سراً. فانظر، على سبيل المثال، حالة هذا الكلب المدعو لقية، كيف أنه على الرغم من الإضاءة الشحيحة التى بدأت تنزل شيئاً فشيئاً من السماء، يمكن أن يُقرأ فى وجهه ما يفكر فيه، ليس أقل ولا أكثر من صمّ أذنك عن الكلام السخيف، وما يريد قوله بلغته هو أن سيبريانو الجور، مع تجربته الطويلة فى الحياة، وإن كانت قليلة التنوع، لا يحتاج لمن يشرح له ما هى واجبات أى كلب، فمن المعروف جيداً أن الحراس البشرىين لا يحرسون بجد إلا إذا صدر لهم أمر حاسم بذلك، أما الكلاب،

وهذا الكلب بصورة خاصة، فلا ينتظر أن يقال له ابقَ هناك ناظراً إلى النار، ويمكننا أن نكون متأكدين من أنهم سيظلون مفتوحى العيون مادامت الجمار لم تنطفئ. ولا بد على أى حال من العدل مع التفكير البشرى، فتباطؤه المعروف لم يمنعه دوماً من الوصول إلى نتائج صائبة، مثلما حدث الآن بالذات فى ذهن سيبريانو ألاجور، فقد لمع فيه نور مفاجئ استطاع بفضلله أن يقرأ وأن ينطق بصوت عالٍ كلمات الاعتراف بالجميل التى يستحقها الكلب لقيه بجداره، بينما كنتُ أنام فى دفاء ملاءات السرير، ظلمت أنت هنا فى حراسة متيقظة، ليس مهماً أن حراستك لا تفيد عملية الطهو فى شىء، فما يُحسب حقاً هو اللفتة. بعد أن أنهى سيبريانو ألاجور مديحه، ابتعد لقيه راكضاً ليرفع قائمته ويفرغ مثانته، ثم رجع محركاً ذيله وألقى على مسافة قريبة من المغارة، متأهباً لحضور عملية إخراج الدمى. وفى هذه اللحظة أضىء نور المطبخ، فقد نهضت مارتا. أدار صانع الخزف رأسه، لم يكن يرى بوضوح فى روحه إذا ما كان يفضل أن يكون وحيداً أو يرغب فى أن تأتى ابنته لترافقه، ولكنه عرف ذلك بعد دقيقة، عندما أدرك أنها قررت أن تترك له الدور الأساسى حتى اللحظة الأخيرة. ومثل حافة قبة سماوية مضيئة تتقدم دافعة قبة الليل، كانت حدود الصباح تتحرك ببطء نحو الغرب. هبت نسمة قريبة من سطح الأرض حركت، على شكل زويدة، الرماد الذى على سطح المغارة. جثا سيبريانو ألاجور، أزاح جانباً القضبان

الحديدية، وباستخدام الرفش الصغير نفسه الذى حضر به المغارة، بدأ يزيح الرماد المختلط بقطع صغيرة من الفحم غير المحترق تماماً. كانت الجزئيات البيضاء التى لا وزن لها تقريباً تعلق بأصابعه، وبعضها دقيق جداً يستنشقه مع تنفسه، صعدت حتى أنفه وأجبرته على اللهاث، مثلما يفعل لقيه أحياناً. وكلما كان الرفش يقترب من قعر المغارة، كانت الجمار أكثر سخونة، ولكن ليس إلى حد أن تحرق، كانت دافئة ببساطة، مثل جلد بشرى، وطرية وناعمة مثله أيضاً. ترك سيبريانو ألاجور الرفش جانباً ودس يديه فى الرماد. لمس نعومة دمي الصلصال المشوية وخشونتها. وعندئذ، كما لو أنه يشارك فى عملية توليد، أمسك بأصابعه الإبهام والسبابة والوسطى رأس إحدى الدمى وسحبها إلى أعلى. كانت الممرضة. نفض الرماد عن جسدها، ونفخ على وجهها، بدا كما لو أنه يمنحها نوعاً من الحياة، ناقلاً إليها نبض قلبه بالذات. ثم راح يُخرج الكركوزات واحداً فواحداً، الآشورى الملتحى، المندرين الصينى، البهلولى، رجل الإسكيمو، المهرج، أخرجوا جميعهم من المغارة ووضعوا إلى جانب الممرضة، نظيفين إلى هذا الحد أو ذاك من الرماد، ولكن دون الاستفادة الإضافية من النفخة الحيوية. لم يكن هناك من يسأل الخزاف عن أسباب اختلاف المعاملة التى يمكن تحديدها، للوهلة الأولى، باختلاف الجنس، اللهم إلا إذا كان التدخل الخلقى يعتمد ببساطة على أن دمىة الممرضة كانت الأولى فى الخروج من الحفرة، فدائماً، ومنذ أن صار العالم

عالمًا، كان هذا هو ما يحدث، إذ يتعب الخالقون من عملية الخلق عندما لا تعود حدثًا مستجدًا. ومع ذلك، فإنه بعد ما واجهه سيبريانو ألاجور من مصاعب وهو يقولب صدر الممرضة، لن يكون من الخطأ أن نعزو سبب النفخة الأخيرة، وإن كان ذلك بصورة غامضة وغير دقيقة، إلى ذلك الجهد الكبير المبذول للوصول إلى ما يُعدُّ به الصلصال المرن وينكره عليه في آن واحد. من يدري. عاد سيبريانو إلى ملء الحفرة بالتراب الذي هو حق طبيعي لها، وسواءً جيداً كى لا تظل حفنة واحدة منه خارجها، ثم توجه إلى البيت حاملاً ثلاث دمي في كل يد. كان لقيه يتقافز بجانبه بفضول وهو يرفع رأسه. وكان ظل شجرة التوت قد ودَّع الليل، وبدأت السماء تتفتح بالكامل عن أول زُرقة الصباح، ولن تتأخر الشمس عن البيزوغ في الأفق الذي لا يبلغه البصر من هناك.

كيف خرجت الدمى، سألت مارتا حين دخل أبوها، يبدو أنها جيدة، ولكن ينبغي تنظيفها من الرماد العالق بها. سكت مارتا ماء في طست فخارى، اغسلها هنا، قالت. الأولى في دخول الماء هي الأولى في الخروج من الرماد، أهي مصادفة أم توافق، يمكن أن تكون لهذه الممرضة في المستقبل بعض المسوغات للشكوى، ولكن ليس بسبب قلة الاهتمام بها. كيف هو هذا، سألت مارتا غير مدركة المناظرة الدائرة هنا حول جنس الدمى، جيد، كرر الأب باقتضاب. وقد كانت الدمية جيدة في الواقع، الطهو متماثل في كل

الأنحاء، لون أحمر بديع، ودون أدنى شرخ صغير، ومثلها كانت متقنة الدمى الأخرى، باستثناء الآشورى الملتحى، فقد ظهر وعلى ظهره لطخة سوداء، وهى تقتصر لحسن الحظ على بداية تفحم سببه تسرب هواء غير مرغوب. ليس مهماً، لن يتأثر بذلك، قالت مارتا، وتفضل الآن بالجلوس لتستريح ريثما أعدّ لك الفطور، فقد أنهكت جسدك منذ الفجر، لقد أرقّت ولم أستطع العودة إلى النوم، كان يمكن للدمى أن تنتظر حتى طلوع الصباح، أما أنا فلا يمكننى الانتظار، مثلما يقول المثل القديم، من هو قلق لا يمكنه النوم، أو أنه ينام ليحلم بما يُقلقه، وهل استيقظت مبكراً جداً كيلا تحلم، سألته مارتا، هناك أحلام يكون من الأفضل الخروج منها بسرعة، أجاب الأب، وكانت هذه هى الحال الليلة، أجل، إنها الحال هذه الليلة، أترغب فى أن ترويه لى، إنه حلم لا يستحق عناء أن يروى، فى هذا البيت كان قلق أى فرد هو قلق الجميع على الدوام، ولكن ليس الأحلام، إلا إذا كانت أحلام قلق، لا سبيل إلى المناقشة معك، ما دام الأمر كذلك فلا تضع مزيداً من الوقت، أرو لى الحلم، حلمت أن مرسيال قد رُقِيَ وأنهم ألغوا الطلبية، الاحتمال الأكبر لهذا الحلم هو أن الطلبية لن تُلغى، هذا ما أظنه، ولكن المخاوف تعلق واحدة بأخرى والاثنتان بسلة ممتلئة، أما بالنسبة لموضوع مرسيال، فنحن نعرف أنه قد يحدث فى أية لحظة، صحيح، لقد كان الحلم إشعاراً من أجل العمل بسرعة، الأحلام لا ترسل إشعارات، إلا إذا شعر

الحالمون بأنهم تلقوا إشعاراً، لقد نهضت حكيماً يا
أبى العزيز، لكل سن عيوبها، وهذا الأمر يثقل على
فى الأوقات الأخيرة، لحسن الحظ أن أحكامك
تروقتى وأنا أتعلم منها، حتى عندما لا تكون أكثر من
تلاعب بالكلمات، مثلما هى الحال الآن، سألها
سيبريانو ألبور، أظن أن الكلمات لم تولد إلا ليلعب
بعضها مع أخريات، وأنها لا تعرف شيئاً آخر، وأنه
خلافاً لما يقال، لا توجد كلمات فارغة، إنك حكيمه،
هذا مرض عائلى. وضعت مارتا الفطور على
المنضدة، القهوة والحليب، وبعض البيض المقلى، وخبزاً
محمصاً وزيداً، وفاكهة. وجلست قبالة الأب لتراه وهو
يأكل. وأنتِ، سألها سيبريانو ألبور، لا أشعر بالجوع،
أجابته، إنها إشارة سيئة فى الوضع الذى أنتِ فيه،
يقال إن هذه الحالات كثيرة الشيعوع بين الحوامل،
ولكنك تحتاجين إلى تغذية جيدة، ينبغى لك منطقياً أن
تأكلى عن اثنين، أو عن ثلاثة، إذا كان الحمل بتوعم،
إننى أتكلم بجد، لا تقلق، مازالت تنتظرنى نوبات
الغثيان ولا أدرى كم من الإزعاجات الأخرى. ساد
صمت. تكور لقيه على نفسه تحت المنضدة متظاهراً
بعدم الاهتمام بروائح الطعام، ولكن ذلك مجرد إذعان،
فهو يعرف أن دوره فى تناول الطعام سيتأخر بضع
ساعات. هل ستبدأ العمل الآن؟ سألت مارتا، فور
انتهائى من تناول الطعام، أجابها سيبريانو ألبور.
ساد صمت آخر. أبتاه، قالت مارتا، تصور أن مرسىال
يتصل الآن ليخبرنا بأنه قد رُقّى، ألدك سبب ما
للتفكير فى أن هذا سيحدث، ولا أى سبب، إنه مجرد

افتراض، لا بأس، فلنتخيل إذاً أن يرن الهاتف فى هذه اللحظة، وأنت تنهضين للرد، وأن مرسيال يخبرنا بأنه قد رُقّي إلى رتبة حارس مقيم، ما الذى ستفعله فى هذه الحالة، سأنتهى من تناول الفطور، وسأحمل الدمى إلى المشغل وأبدأ بصنع القوالب، كما لو أن شيئاً لم يحدث، أجل، كما لو أن شيئاً لم يحدث، أتظن أنه سيكون قراراً حقيقياً، ألا ترى أن التخلي عن التصنيع وقلب الصفحة سيكون أكثر حكمة، يا ابنتى الحبيبة، من المحتمل جداً أن يكون عدم التعقل وقلة الحكمة واجباً على الشباب، ولكنهما حق للشيوخ يجب احترامه بالطلق، سأسجل ملاحظة بالجزء المتعلق بى، حتى لو اضطررت أنت ومرسيال إلى الانتقال إلى المركز بسرعة، فإننى سأظل هنا حتى أنهى العمل الذى كُلفت به، وبعد ذلك سألتحق بكما، مثلما وعدتكما، هذا جنون يا أبتاه، جنون، قلة حكمة، عدم تعقل، إن رأيك بى ضعيف جداً، الجنون هو أنك تريد القيام وحيداً بمثل هذا العمل، قل لى كيف تتصور ما سأشعر به وأنا أعرف ما الذى يجرى هنا، وكيف تتصورين أنت ما الذى سأشعر به إذا ما تخليت عن عمل فى منتصف الطريق ألا تدركين أنه لم يعد لى وأنا فى هذه المرحلة من الحياة أشياء أخرى أتمسك بها؟ لديك أنا ابنتك، وسيكون لك حفيد، اعذرينى، ولكن هذا غير كاف، سيكون كافياً عندما تذهب للعيش معنا، أعتقد أن الأمر كذلك، ولكننى سأكون قد أنهيت عملى الأخير على الأقل، لا تكن دراماتيكياً يا أبتاه، فمن يدرى ما الذى سيكونه عمك

الأخير. نهض سيبريانو ألاجور عن المائدة. أفقدت الشهية فجأة، سألته الابنة حين رأت بقية من الطعام ظلت في الطبق، أجد صعوبة في الابتلاع، أشعر بعقدة في حنجرتي، إنها الأعصاب، لا بد أنها كذلك، أعصاب. كان الكلب قد نهض أيضاً متأهباً للذهاب وراء سيده. آه، قال سيبريانو ألاجور، نسيت أن أخبرك أن لقيه أمضى الليل كله تحت المقعد الحجري يحرس الموقد، أرى أنه يمكن تعلم بعض الأشياء أيضاً من الكلاب، أجل، يمكن التعلم بصورة خاصة عدم مناقشة ما يجب أن يكون واقعاً، ولا بد أن ثمة بعض الفضائل في الغريزة البسيطة، أتعنى أن الغريزة أيضاً هي ما يدفعك إلى إنهاء العمل، وأنه لدى الكائنات البشرية، أو لدى بعضها، يوجد عامل سلوك شبيه بالغريزة، سألته مارتا، ها أعرفه هو أن للعقل نصيحة واحدة يقدمها إليّ، ها هي، ألا أكون أبله، وأن العالم لن ينتهي لمجرد أنني لم أنهِ الدمى، حقاً، وأية أهمية تحققها للعالم بعض الدمى الطينية إلى هذا الحد أو ذاك، أراهن أنك ما كنت ستبددين هذه اللامبالاة لو كان الحديد، بدل الدمى الطينية، عن سيمفونيات تاسعة أو خامسة، ولسوء الحظ يا ابنتي أن أباك لم يولد ليكون موسيقياً، إذا حسبت أنني كنت أبدى عدم المبالاة فإنني سأحزن، ثم أحسب ذلك طبعاً، اعذريني. وكان سيبريانو ألاجور يوشك أن يخرج، لكنه توقف للحظة أخرى عند عتبة الباب، على أي حال، يجب الاعتراف بأن العقل أيضاً قادر على إنتاج أفكار نافعة، فهذه الليلة، حين استيقظت، خطر لي أنه يمكن

الاقتصاد كثيراً فى الوقت وفى بعض المواد كذلك إذا
ما صنعنا الدمى جوفاء، سوف تجف وتشوى بسرعة
أكبر، وستوفر فى الصلصال، يحيا العقل، أخيراً،
لاحظنى أننى لم أنتبه، فالطيور أيضاً تصنع
أعشاشها مجوفة ولا تتجح بذلك.

ابتداء من هذا اليوم لم يعد سيبريانو أَلجور يتوقف عن العمل فى مشغل الخزف إلا لتناول الطعام والنوم. قلة خبرته بالتقنيات جعلته يتجاهل نسب الجبس والماء فى تصنيع القوالب، وساءت حالة كل شىء عندما أخطأ فى كميات الصلصال والماء والمذيب الضرورية لمزيج متوازن من باربوتين الحشوة، وسكب المزيج الذى حصل عليه بسرعة مفرطة، مما تسبب فى إحداث فقاعات هوائية داخل القالب. أمضى الأيام الثلاثة الأولى فى صنع وتخریب ما يصنع، والقنوط من الأخطاء، لاعناً خرافته، ومهتزاً من السعادة كلما توصل إلى نجاح فى عملية حساسة. عرضت عليه مارتا المساعدة، ولكنه طلب منها أن تتركه بسلام، وهى طريقة فى التعبير لا تتوافق فى الحقيقة على الإطلاق مع الواقع الذى كان يعيشه فى المشغل القديم، بين جبس يتصلب بسرعة كبيرة وماء يصل متأخراً إلى اللقاء، بين معاجين ليست جافة كفاية وخلائط بالغة الكثافة تأبى المرور من المصفاة، وكان الأكثر صواباً له أن يقول، اتركينى بسلام فى

حربى. وفى صباح اليوم الرابع، كما لو أن عفاريت الخبث والأخطاء، ممثلة بمختلف المواد المستخدمة، قد ندمت على أسلوبها القاسى فى تعاملها مع المبتدئ الطارئ فى الفن الجديد، بدأ سيبريانو ألاجور يجد نعومة حيث كان يواجه الخشونة من قبل، ووداعة تملؤه بالامتنان، وأسراراً تتكشف. كان يضع المرجع المساعد فوق الرف، مبللاً، ملطخاً بآثار الأصابع المتسخة، يطلب منه النصيح بين خمس دقائق وأخرى، يخطئ أحياناً فى فهم ما قرأه، وأحياناً يضىء له حدس مفاجئ صفةً بكاملها، وليس من غير المناسب التأكيد أن سيبريانو ألاجور كان يتذبذب بين أشد أشكال التعاسة تمزقاً وأقصى أنواع البهجة كمالاً. كان ينهض من الفراش مع أول أنوار الفجر، وينهى فطوره بلقمتين ويعتكف فى مشغل الخزف حتى موعد الغداء، ثم يشتغل بعد ذلك طيلة فترة بعد الظهر حتى وقت متقدم من السهرة، مع وقفة قصيرة لتناول العشاء بسرعة، وبزهد لا يبقى مديناً معه بشيء للوجبات الخفيفة الأخرى. وكانت الابنة تحتج، سوف تمرض وأنت تعمل بهذه الطريقة وتأكل قليلاً، إننى فى أحسن حال، يجيبها هو، ولم أشعر فى حياتى بأننى أفضل حالاً مما أنا عليه الآن. وكان ذلك صحيحاً وغير صحيح. ففى الليل، عندما يذهب أخيراً للنوم، نظيفاً من روائح الجهد وأوساخ العمل، كان يشعر أن مفاصله تطقطع، وأن بجسده الماء متواصلاً. لم يعد باستطاعتي ما كنت أستطيعه، كان يقول لنفسه، ولكن صوتاً فى أعماق وعيه، صوتاً هو

منه أيضاً، يعارضه، لم تستطع من قبل ما تستطيعه الآن يا سيبريانو، لم تستطع كل هذا قطّ. وكان ينام مثلما يفترض بالحجر أن ينام، بلا أحلام، بلا اهتزاز، يبدو كأنه بلا تنفس، يُريح فوق العالم كل ثقل إنهاكه اللامتناهى. فى بعض الأحيان، كأمٍ قلقة، تستيق مخاوف مستقبلية دون أن تكون قد فكرت فى ذلك، تنهض مارتا فى منتصف الليل لترى كيف هو أبوها. تدخل بصمت إلى حجرته، تقترب ببطء من السرير، تنحنى قليلاً لتسمع، ثم تخرج بالحدز نفسه الذى دخلت به. ذلك الرجل الكبير، ذو الشعر الأبيض والوجه المنهوك، أبوها، كان أشبه بابن لها أيضاً، ومن ينكر هذا لا يعرف إلا القليل من الحياة، فالخيوط التى تشابك العلاقات الإنسانية عموماً، وعلاقات القرابة بصورة خاصة، لاسيما القرابة المقربة منها، هى أشد تعقيداً مما تبدو عليه للوهلة الأولى، نقول آباء، ونقول أبناء، معتقدين أننا نعرف تماماً ما نتكلم عنه، ولا نتساءل حول الأسباب العميقة للعواطف الكامنة هناك، أو اللامبالاة، أو الكراهية. تخرج مارتا من الحجر وتمضى مفكرة إنه نائم (Duerme) وهذه كلمة تبدو فى الظاهر أنها لا تفعل أكثر من التعبير عن حقيقة واقع، ومع ذلك، بستة حروف، بمقطعين صوتيين، كانت قادرة على ترجمة كل الحب الذى يمكن أن يتسع له قلبٌ بشرى فى لحظة معينة. ومن الملائم القول، من أجل تعليم السُّدج، أنه كلما كان التفخيم فى الكلام أكبر، تكون الحقيقة أقل.

توافق اليوم الرابع مع موعد ذهابه لإحضار مرسيال من المركز فى يوم عطلته، وهى العطلة التى ينبغى لنا، بصورة طبيعية، أن ندعوها أسبوعية لو لم تكن، مثلما نعرف، عشرية، أى مرة كل عشرة أيام. قالت مارتا لأبيها إنها ستذهب هى، وألا يقطع عمله، لكن سيبريانو ألاجور أجابها أن لا، وألا تفكر مجرد تفكير فى ذلك، صحيح أن عمليات السطو فى الطريق العام قد تناقصت، ولكن هناك مجازفة على الدوام، إذا كان ثمة خطر علىّ، فإن الأمر ينطبق عليك أيضاً، أولاً أنا رجل، وثانياً لست حاملاً، مسوغان محترمان ينفعان فى تنميقك وحسب، هازال لدى سبب ثالث، وهو المهم، أخبرنى به، لن أتمكن من العمل إلى أن تعودى، أى أن العمل لن يتضرر بذهابى، ثم إن الرحلة ستفيد فى تهوية رأسى، وهذه ضرورة أحتاج إليها، إننى غير قادر على التفكير إلا فى قوالب وخلائط، وستفيدنى أنا أيضاً فى تهوية نفسى، ولهذا سنذهب كلانا لإحضار مرسيال، وسيبقى لقية لحراسة القلعة، إذا كان هذا ما تريدينه، إنس الأمر، فقد كنت أمزح، فأنت معتاد على الذهاب لإحضار مرسيال، وأنا معتادة على البقاء فى البيت، ولتحيا العادة، فلنذهب معاً، بجد، اذهب أنت، بجد. ابتسما وأرجئت المسألة المركزية، أى مسألة المسوغات الموضوعية والذاتية للعادة. وبعد الظهر، عندما حان الوقت، ودون أن يستبدل ملابس العمل كيلا يضيع الوقت، انطلق سيبريانو ألاجور على الطريق. وحين أشرف على الخروج من القرية، انتبه إلى أنه لم يلتفت

لدى مروره قبالة الشارع الذى تعيش فيه إساورا مادروجا، وعندما يقال هنا التفات، يمكن أن يفهم ذلك على أنه التفات إلى هذا الجانب أو ذاك، ذلك أن سيبريانو ألاجور، فى أيام ماضية، كان ينظر فى بعض الأحيان لعله يرى، وفى أحيان أخرى ينظر إلى حيث هو واثق من أنه لن يرى. وخطرت لذهنه فكرة أن يسأل نفسه كيف يفسر عدم المبالاة المحيرة، لكن حجراً فى منتصف الطريق شغله عن ذلك، وضاعت الفرصة. الرحلة باتجاه المدينة انقضت دون مصاعب، تعرض فقط لتأخير سببه حاجز للشرطة يوقف سيارة ويترك التى تليها بهدف تفحص وثائق السائقين. وبينما هو ينتظر أن يعيدوا إليه وثائقه، وجد سيبريانو ألاجور الوقت ليلاحظ أن خط حدود الأكواخ قد انزاح قليلاً باتجاه الطريق العام، وفكر، سيعيدون دفعها إلى الوراء فى أى يوم.

كان مرسيال ينتظر. اعذرني لتأخري، قال الحموم، كان على أن أخرج فى وقت أبكر من البيت، والشرطة أرادت بعد ذلك دس أنفها فى الأوراق، كيف هى مارتا، سأله مرسيال، فى يوم أمس لم أستطع الاتصال بالهاتف، أظن أنها فى حالة جيدة، وعليك أن تكلمها على أى حال، فهى تآكل قليلاً وبلا شهية وتقول إن ذلك عادى بين النساء الحوامل، وقد يكون كذلك فعلاً، فأنا لا أفهم فى هذه الأمور، ولكننى لو كنت مكانك لما وثقت بذلك، سأكلمها، كن مطمئناً، وربما السبب أنها فى بداية الحمل، لسنا نعرف شيئاً، إننا

حيال هذه الأمور أشبه بطفل ضائع، عليك أن تأخذها إلى الطبيب. لم يجب مرسيال بشيء. وصمت الحموم. من المؤكد أنهما يفكران في الشيء نفسه، في أن الفحوص في مستشفى المركز لا مثيل لها في أى مكان آخر، هذا على الأقل ما يعلنه الصوت الشعبى، وستكون العناية أفضل لأنها زوجة موظف، بالرغم من أن الإقامة هناك ليست شرطاً لجعلها مؤهلة للتمتع بالرعاية. وبعد دقيقة، قال سيبريانو ألبور، عندما تشاء سأحضر إليك مارتا. كانا قد خرجا من المدينة، وصار بإمكانهما التحرك بسرعة أكبر. سأله مرسيال، كيف يمضى العمل، هازلنا فى البداية، لقد شوينا الدمى التى قولبناها، وأنا أعمل الآن فى القوالب، وكيف الحال، يخدع أحدهنا نفسه، يظن أن أى صلصال هو صلصال، وأن من يعمل شيئاً يمكنه عمل شيء آخر، ثم يكتشف أن الأمر ليس كذلك، وأنه علينا أن نتعلم من البدء. توقف قليلاً ليضيف بعد ذلك، ولكننى سعيد، إنه شيء قريب قليلاً من كونى أحاول الولادة من جديد، مع الاعتذار للمبالغة، غداً سأساعدك قليلاً، قال مرسيال، ما أعرفه أقل من قليل، ولكننى سأكون نافعاً فى شيء ما، لا، أنت ستبقى مع زوجتك، اخرجنا معاً فى جولة، لن نخرج فى جولة، ولكن علينا الذهاب غداً للغداء فى بيت أبوى، فهما لم يعلما بعد أن مارتا حامل، سيبدأ ذلك بالظهور فى أى يوم، ويمكن لك أن تتصور ما الذى سأسمعه، وسيكونان محققين، لا بد من أن نكون عادلين، قال سيبريانو ألبور. صمت آخر. الطقس

جيد، لاحظ مرسيال، عسى أن يستمر ذلك أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، قال الحمو، فالدمى يجب أن تذهب إلى الفرن جافة إلى أقصى حدّ ممكن. صمت جديد ومديد هذه المرة. كانت الشرطة قد رفعت حاجزها، وكان الطريق مفتوحاً. حاول سيبريانو ألجور أن يتكلم مرتين، وأخيراً تكلم فى المرة الثالثة، هل من جديد بشأن ترقيتك، سأله، لا شىء حالياً، أجاب مرسيال، أتظن أنهم بدّلوا رأيهم، لا، إنها مسألة إجراءات وحسب، فالنظام البيروقراطى فى المركز شديد التكلفة مثل هذا العالم خارجه، مع ما فيه من دوريات شرطة تدقق فى رخص السياقة، وبوليصات التأمين، والشهادات الصحية، إنه الأمر نفسه إلى هذا الحد أو ذاك، يبدو أننا لا نعرف أن نعيش بطريقة أخرى، ربما لا توجد طريقة أخرى للعيش، أو ربما أن الوقت قد فات من أجل وجود طريقة أخرى. لم يعودا إلى الكلام حتى مدخل القرية. طلب مرسيال من حميه أن يمر من أمام بيت أبويه، فقط لما يتطلبه من وقت إخبارهما بأننا سنذهب غداً لتناول الغداء معهما. لم يكن الانتظار طويلاً فى الواقع، ولكن مرسيال بدا، مرة أخرى، غير مرتاح عند دخوله إلى الشاحنة، ها الذى جرى لك الآن، سأله سيبريانو ألجور، ها جرى لى هو أن كل شىء يخرج على أسوأ حال فى علاقتى بأبوى، لا تبالغ يا رجل، فحياة الأسر لم تكن قط ما يمكن تسميته بحراً من الزهور، إننا نعيش ساعات طيبة وساعات سيئة، ونكون محظوظين جداً إذا ما كان معظمها بين بين، دخلتُ،

وكانت أمى وحدها فى البيت، فأبى لم يرجع بعد،
أوضحتُ لها مجيئى، ومن أجل تنشيط المحادثة،
باستخدام نبرة وقورة ومرحة فى الوقت نفسه، نبهتها
إلى أنهما سيطلعان غداً على مفاجأة عظيمة، وبعد
ذلك، يمكنك أن تتكهن ما كان عليه ردّ أمى، لا يمكن
لمواهبى التنبؤية أن تصل إلى هذا الحد، سألتنى
عما إذا كانت المفاجأة العظيمة هى أنهما سيذهبان
للعيش معى فى المركز، وماذا قلت لها أنت؟ قلت أن
لا، وأنه ليس هناك فى نهاية المطاف ما يستحق
تأخير المفاجأة حتى الغد، وقلت لها فلتعلما إذاً أن
مارتا حامل، وسيكون لنا ابن، وقد ابتهجت أمك بذلك
طبعاً، أجل، بالطبع، ولم تتوقف عن معانقتى وتقبيلى،
ولماذا تشكو إذاً، المسألة هى أنه لا بد على الدوام من
ظهور سحابة سوداء فى سماء علاقتى بهما، وهذه
السحابة الآن هى الفكرة الثابتة فى العيش فى المركز،
أنت تعرف أننى لا أنزعج من التخلّى عن مكانى، ولا
بأى حال، فهذا أمر خارج النقاش، ليس لأننى
استبدلتُ أبوى بحمىّ، وإنما لأن لدى كل من أبوى
نصفه الآخر، بينما سيظل الحمى وحيداً، لمن أكون
الشخص الوحيد الذى يعيش وحيداً فى هذا العالم،
أؤكد لك أنك ستكون كذلك فى نظر مارتا، لقد
جعلتنى عاجزاً عن الردّ، هناك أمور لا تحتاج لشدة
وضوحها إلى أى تفسير. وحيال هذا المظهر الحاسم
من الحكمة الأساسية، وجد الخزاف نفسه مرة أخرى
عاجزاً عن الجواب. وقد أسهم سبب آخر كذلك فى
الصمت المفاجئ، ذلك أنهما كانا يمران فى تلك

اللحظة بالذات قبالة شارع إساورا مادروجا، وهو أمر لم يجد معه وعى سيبريانو ألبور، خلافاً لما حدث فى رحلة الذهاب، طريقة للبقاء دون مبالاة. وعند وصولهما إلى مشغل الخزف، أحس مرسيال بسعادة غير متوقعة حين رأى لقيه يستقبله كما لو أنه لا يرتدى زىّ حارس المركز وإنما أشد الملابس سلمية ومدنية. تأثر بشدة قلب الشاب الحساس الذى مازال متأثراً من المحادثة غير الموفقة مع والدته، بمظاهر كشف الحيوان عن مشاعره، فاحتضنه كما لو أنه أحب شخص إليه. إنها لحظات خاصة، ولا حاجة إلى التذكير بأن أكثر شخص يحبه مرسيال فى الحياة هى زوجته، هذه التى تنتظر إلى جانبه بابتسامة حانية أن يأتى دورها فى المعانقة، ولكن مثلما هناك مناسبات تجعلنا فيها مجرد يد على الكتف نذوب فى الدموع، يمكن أيضاً أن يحدث أن تجعلنا سعادة كلب نزيهة نتصالح للحظة قصيرة مع الآلام، ومع الخيبات والمنغصات التى تسبب بها العالم لنا. وحيث إن لقيه لا يعرف إلا القليل عن المشاعر البشرية، فإن وجودها، سواء بجانبها الإيجابى أم السلبي، تبدو مؤكدة بصورة مرضية، ولأن معرفة مرسيال أقل من ذلك بالمشاعر الكلبية، واليقين بشأنها ضئيل والشكوك كثيرة، فلا بد لأحد من أن يوضح لنا يوماً ما هى شياطين الأسباب القابلة لفهم هذا وذاك، التى جعلت كليهما يتعانقان هنا بينما هما لا ينتميان حتى إلى النوع نفسه. وبما أن تشكيل قوالب الدمى كان الحدث الجديد بالمطلق

فى مشغل الخزف، لم يستطع سيبريانو أأجور إلا أن يعرض على صهره ما صنعه فى تلك الأيام، غير أن كبرياءه الذى دفعه إلى رفض مساعدة ابنته، عانى من فكرة أن صهره قد يلاحظ خطأ ما، عيباً يصعب إصلاحه، أو إشارة من تلك الإشارات الكثيرة التى تشى بسهولة بالاحتضار الذهنى الذى عاشه ضمن تلك الجدران الأربعة. وبالرغم من أن مرسيال سيكون مشغولاً جداً مع مارتا بحيث لا يتمكن من الانتباه إلى الصلصال وسيلكات الصوديوم والجبس والعلب والقوالب، فقد قرر الخزاف ألا يعمل اليوم بعد العشاء، وأن يرافقهما فى أحاديث ما بعد تناول الطعام، مما أدى إلى فتح المجال له للتأمل بدقة نظرية كافية فى موضوع يعرف أكثر من أى شخص آخر إلى أى حدّ وبأية نتائج كارثية خالفته فيه الممارسة العملية. أخبر مرسيال مارتا بأنهما سيتناولان الغداء فى اليوم التالى عند أبويه، ولكنه لم يشر ولو بصورة عابرة إلى الحوار المحزن مع أمه، بحيث جعل حماه يفكر فى أنها مسألة انتقلت إلى الميدان الخاص، وأنها مشكلة تُناقش فى حميمية المخدع، وليس لتكرارها والتفصيل فيها فى حديث بين ثلاثة، اللهم إلا إذا كان مرسيال، بأشد مظاهر الحذر جدارة، يرمى ببساطة إلى تجنب الوقوع مرة بعد أخرى فى الجدل حول مسألة الانتقال الشائكة إلى المركز، وقد رأينا بعمق كيف تبدأ، ورأينا بعمق كيف تنتهى.

فى صباح اليوم التالى، وكان سيبريانو ألبور قد انكب على عمله، دخل مرسىال إلى مشغل الخزف، صباح الخير، قال، لقد حضر المتدرب. كانت مارتا آتية معه، ولكنها لم تعرض مشاركتها فى العمل، على الرغم من ثقتها من أن أباهما لن يطردها هذه المرة. كان المشغل أشبه بميدان معركة احتله طوال أربعة أيام شخص وحيد يصارع ضد نفسه وضد كل ما يحيط به، المكان غير مرتب بعض الشيء، قال سيبريانو ألبور معتذراً، لا شيء كما فى السابق، فعندما كنا نصنع الأوانى الخزفية كانت لدينا معايير، كان لدينا روتين ثابت، إنها مسألة وقت فقط، قالت مارتا، فمع مرور الوقت تعتاد الأيدي والأشياء بعضها على بعض، وعندئذ لا تعود الأشياء تريك ولا تسمح الأيدي بالإرباك، فى الليل أشعر بإنهاك شديد تتهدل معه يداى لمجرد التفكير فى أنه على ترتيب هذه الأشياء، كان بإمكانى تولى هذه المهمة بطيبة خاطر لو لم تمنعنى من الدخول إلى هنا، لم أمنعك، لا، لم تقله بهذه الكلمات بالذات، المسألة أنتى لا أريدك أن تتعبى، عندما يأتى وقت البدء بالطلاء سيكون الأمر مختلفاً، لأنك ستعملين وأنت جالسة ولن تضطرى إلى بذل مجهود، فلنر إذا لم يخطر لك عندئذ أن تقول لى إن رائحة الطلاء ستؤذى الطفل، من الواضح أنه لا سبيل إلى التحدث مع هذه المرأة، قال سيبريانو ألبور لمرسىال كمن استسلم لطلب مساعدة، أنت تعرفها قبلى بزمن طويل، تحل بالصبر، ولكن المكان بحاجة إلى تنظيف جدى وترتيب فعال، هذا أمر لا

شك فيه، لدى فكرة، هل يأذن لى السيدان بأن تكون لدى فكرة، إنها لديك، وسوف تنفجرين إذا أنت لم تطرحيها خارجاً، قال الأب متذمراً، وما فكرتك، سألها مرسيال، هذا الصباح سترتاح العجينة، وسوف نعيد هذا المكان كله إلى حالة محترمة، وبما أن أبى الحبيب لا يريدنى أن أتعب فى العمل، فإننى سأكتفى بإصدار الأوامر. تبادل سيبريانو ألجور ومرسيال النظر أحدهما إلى الآخر، ليريا من الذى سيتكلم أولاً، ولأن أياً منهما لم يحسم أمره بالكلام، فقد انتهى إلى القول معاً، موافق. وقبل موعد خروج مرسيال ومارتا إلى الغداء كان مشغل الخزف وكل ما فيه نظيفاً ومرتباً بالقدر الذى يمكن انتظاره من مكان عمل؛ حيث الطين هو المادة الأولية الأولى فى البضاعة المصنّعة. الحقيقة أننا إذا ما مزجنا الماء بالصلصال، أو الماء بالجبس، أو الماء بالإسمنت، فإننا نستطيع أن نقلب مخيلتنا مثلما نشاء من أجل اختراع تسمية لها أقل فظاظاً، أقل ابتذالاً، أقل عادية، ولكننا سننتهى دوماً، عاجلاً أو آجلاً، إلى الوصول إلى الكلمة الدقيقة، الكلمة التى تقول ما يتوجب قوله: طين. آلهة كثيرون، ممن هم معروفون أكثر من غيرهم، لم يرغبوا فى أية مادة أخرى من أجل مخلوقاتهم، ولكن من المشكوك فيه إذا ما كان ذلك التفضيل يمثل اليوم نقطة لصالح الطين أم نقطة ضده.

تركت مارتا غداء الأب جاهزاً، ما عليك إلا تسخينه، قالت وهى تخرج مع مرسيال. تضاءلت

الضجة الضعيفة الصادرة عن الشاحنة وسرعان ما تلاشت تماماً. ساد الصمت فى البيت وفى مشغل الخزف، وسيبقى سيبريانو ألاجور وحيداً طوال أكثر من ساعة. سيكون مرتاحاً من الحالة العصبية فى الأزمنة الأخيرة، ولم يتأخر طويلاً فى الانتباه إلى أن معدته بدأت تقدم له إشارات عدم الرضا. حمل أولاً الطعام إلى لقية، ثم دخل بعد ذلك إلى المطبخ، رفع غطاء القدر وشمّ، الرائحة زكية والطعام لا يزال ساخناً. لم يكن هناك أى سبب يدعو للانتظار. عندما انتهى من تناول الطعام، وبينما هو جالس على أريكة استراحته، أحس أنه بأمان. من المعروف جيداً أن متعة الروح ليست بمنأى عن تحسس التغذية الكافية للجسد، ومع ذلك، إذا كان سيبريانو ألاجور يشعر بالأمان فى هذه اللحظة، إذا كان يشعر بنوع من التحول شبه المبهج فى كيانه كله، فإن ذلك لا يعتمد فقط على الفعل المادى المتمثل فى تناوله الطعام. فحسب الترتيب، ساهم كذلك فى حالته المعنوية السعيدة التقدم المؤكد فى تمكنه من تقنية القولية، والأمل فى أنه اعتباراً من الآن ستنتهى المشاكل أو تتحول إلى مشاكل أقل صعوبة، والتفاهم الرائع بين مارتا ومرسيال الذى يملأ، كما يقال عادة، عينى أى شخص، وأخيراً، وهو أمر لا يقل أهمية، النظافة العميقة للمشغل. تراخى جفنا سيبريانو ألاجور ببطء، وارتفعا ثانية، ثم فتحهما مرة أخرى بمشقة أكبر، وفى المرة الثالثة انتقل إلى محاولة خالية من أية قناعة. وبروحه ومعدته فى حالة امتلاء تام، استسلم

سيبريانو ألبور للانزلاق نحو النعاس. وفى الخارج، فى ظل شجرة التوت، كان لقيه نائماً أيضاً، وكان يمكن لهما أن يظلا على تلك الحال حتى عودة مرسيال ومارتا، ولكن الكلب نبج فجأة. لم تكن نبرة النباح متوقعة ولا خائفة، بل مجرد تنبيه عادى، كمن ينجز واجب وظيفته، حتى لو كنت أعرف الشخص القادم، يتوجب على أن أنبج؛ لأن هذا ما يُنتظر منى فعله. لم يكن نباح لقيه غير المستاء مع ذلك هو ما أيقظ سيبريانو ألبور، ولكن ما أيقظه كان صوتاً، صوت امرأة تنادى من الخارج، هارتا، ثم سألت بعد ذلك، هل أنت فى البيت يا مارتا؟ لم ينهض صانع الخزف عن الأريكة، اكتفى برفع بدنه قليلاً، كما لو أنه يستعد للهرب. توقف الكلب عن النباح، كان باب المطبخ مفتوحاً، وتقدمت المرأة فى ذلك الاتجاه، كانت تقترب أكثر فأكثر، أوشكت على الظهور، فإذا لم يكن هذا اللقاء الجديد نتيجة حدث طارئ، إذا كان مجرد توافق مصادفة محضة، وإذا كان مُقدراً ومسجلاً فى سجل الأقدار، فإنه لا يمكن لزلزال أن يقطع عليه الطريق. كان لقيه هو الذى دخل أولاً يهز ذيله، ثم ظهرت إساورا مادروجا. آه، هتفت متفاجئة. لم يكن النهوض سهلاً على سيبريانو ألبور، فالأريكة المنخفضة والساقان الضعيفتان فجأة كانت السبب فى الهيئة الكئيبة التى بدا بها. قال لها، مساء الخير. وقالت له، مساء الخير، صباح الخير، لا أدري كم هى الساعة بالضبط الآن. فقال، لقد تجاوزت منتصف النهار. وقالت، ظننتُ أن الوقت أبكر. قال هو، هارتا

غير موجودة، ولكن تفضلنى بالدخول. فقالت، لا أريد
إزعاجك، سأعود فى وقت آخر، فما جئت من أجله
ليس مستعجلاً بأى حال. وقال، لقد ذهبت مارتا مع
مرسيال لتناول الغداء فى بيت حميها، لن يتأخرا.
وقالت، جئت فقط لأخبر مارتا بأننى حصلتُ على
عمل. وقال، حصلتُ على عمل، أين. فقالت، هنا
بالذات، فى القرية لحسن الحظ. وقال، وفى أى
شئ ستعملين. قالت، فى متجر، سأتولى الخدمة
على الكونتوار. قال، أيعجبك هذا العمل. قالت، فى
الحياة لا يمكن لنا العمل دوماً فيما يعجبنا، الشئ
الأساسى بالنسبة لى هو البقاء هنا، ولم يجب
سيبريانو على قولها هذا، ظل صامتاً، وقد فوجئ
بالأسئلة التى خرجت من فمه دون أن يفكر فيها
تقريباً، فما يتبادر إلى ذهن أى شخص هو أنه عندما
يوجه أحدهم أسئلة فإنما يفعل ذلك لأنه يريد أن
يعرف، وإذا كان يريد أن يعرف فلا بد أن يكون لديه
سبب، والمسألة المبدئية التى يريد سيبريانو ألجور
توضيحها الآن فى فوضى مشاعره هى سبب أسئلته
التى تكشف - إذا ما فهمت بحرفيتها، ولا يبدو فى
هذه الحالة أن هناك طريقة أخرى لفهمها - عن
اهتمام بحياة هذه المرأة ومستقبلها يتجاوز كثيراً ما
هو طبيعى انتظاره من جار طيب، وهذا الاهتمام من
جهة أخرى، مثلما نعرف جيداً، يتناقض جذرياً مع
قرارات وأفكار راح يتبناها سيبريانو ألجور نفسه على
امتداد هذه الصفحات بشأن إساورا إستوديوسا من
قبل، ومادروجا حالياً. المشكلة جدية وتتطلب تأملاً

واسعاً وواعياً، غير أن المنطق الناظم لهذه الرواية وتوجهها، وإن كان خرقهما ممكناً بين حين وآخر، بل وواجباً في بعض الأحيان، لا يسمحان لنا بأن نترك إساورا مادروجا وسيبيريانو ألجور لمزيد من الوقت في هذا الموقف الحرج، مجبرين على البقاء صامتين أحدهما أمام الآخر، مع وجود كلب ينظر إليهما دون أن يفهم ما الذي يحدث، ومع وجود ساعة حائط تسأل، في تكتكتها، لماذا يريد هذان الاثنان الوقت إذا كانا لا يستغلانه. ومن الضروري بالتالي القيام بشيء ما. أجل، القيام بشيء ما، ولكن ليس أى شيء. صحيح أنه يمكن لنا ويتوجب علينا أن نخرق المنطق الناظم للرواية وتوجهها، ولكن لا يمكن بأى حال على الإطلاق خرق ما يشكل الطابع الحصرى والجوهري لشخص ما، أى شخصيته وطريقته في العيش، وحضوره الخاص المتميز. يمكن لنا أن نتقبل في الشخصية كافة التناقضات، ولكن لا يمكن القبول بأى عدم تماسك فيها، ونصر على هذه النقطة بصورة خاصة؛ لأن عدم التماسك والتناقض، خلافاً لما تشير إليه المعاجم، ليسا مترادفين. ففي أعماق تماسكه بالذات يمضى الشخص أو الشخصية متناقضاً، بينما عدم التماسك، لكونه طبعاً ثابتاً في السلوك أكثر من التناقض، فإنه يصد عن ذاته التناقض، يصفيه، لا يفهم التعايش معه. وانطلاقاً من هذه الرؤية، وإن كنا نجازف في الوقوع في شباك التناقض الظاهري الباعث على الشلل، يجب عدم استبعاد فرضية أن التناقض سيكون، في النهاية، وبصورة محددة، واحداً

من عوامل التماسك المناقضة لعدم التماسك. آه منا،
فهذه التأمّلات النظرية، وربما غير المجردة تماماً من
الأهمية بالنسبة لأولئك الذين يكتفون بالمظهر
السطحي والمألوف للمصطلح، قد أبعدتنا أكثر فأكثر
عن الوضع الحرج الذي تركنا فيه سيبريانو ألاجور
وإساورا مادروجا على انفراد أحدهما مع الآخر، لأن
لقية أدرك أنه لا يحلّ ولا يربط هناك، وأحسن عملاً
بابتعاده وعودته إلى ظل شجرة التوت ليواصل نومه
الذي انقطع. لقد حان الوقت إذاً للبحث عن حلّ لهذه
الحال غير المقبولة، بأن نجعل على سبيل المثال إساورا
مادروجا، وهي أكثر حسماً لكونها امرأة، تنطق بضع
كلمات قليلة لمجرد أن نبين أنه لا فرق فيما تقوله، إذ
يمكن أن تنفع هذه الكلمات مثل أية كلمات سواها،
حسن، سأنصرف إذاً، وفي أحيان كثيرة لا تكون ثمة
حاجة إلى المزيد، فهذه كافية لكسر الصمت، وأن
تحرك جسدها قليلاً كمن تنوى الانسحاب، وقد كان
ذلك وسيلة مباركة في هذه الحالة على الأقل، بالرغم
من أنه لم يخطر لصانع الخزف سيبريانو ألاجور،
للأسف، شيئاً أفضل من إفلات سؤال جعله يوجّه
فيما بعد لكلمات إلى رأسه، وليحكم كلّ منا إذا كان
الحدث يستحق ذلك، وماذا تقولين لي عن إبريقنا؟
سألها، أما زال يؤمن لك خدمة جيدة. وسيوجه
سيبريانو ألاجور لكلمات إلى رأسه كعقوبة لما اعتبره
حماقة لا تغتفر، ولكن فلننتظر إلى ما بعد، حين
يفارقه غضب المعاقبة الذاتية، ويتذكر أن إساورا
مادروجا لم تطلق قهقهة مهينة مقابل ذلك، ولم

تضحك بقسوة، بل إنها لم تبتسم ابتسامة السخرية الخفيفة تلك التي يبدو أن الموقف يتطلبها، بل على العكس من ذلك، بدت جدية، وقاطعت ذراعيها على صدرها كما لو أنها مازال تحتضن الإبريق، ذلك الإبريق الذى أسماه سيبريانو ألاجور إبريقنا دون أن ينتبه إلى الهفوة اللفظية، وربما بعد ذلك فى الليل، بينما كان النعاس يقترب، استجوبته هذه الكلمة حول النية الفعلية التى كانت لديه عندما نطق بها، وإذا ما كان ذلك الإبريق هو إبريقنا؛ لأنه انتقل ذات يوم من يد إلى أخرى، ولأنه يتكلم عنه مثلما كان فى تلك اللحظة، أم إنه إبريقنا لأنه لنا، لنا دون لف ولا دوران، لنا فقط، لنا نحن - الاثنين - لنا ونقطة على السطر. ولن يرد سيبريانو ألاجور على هذه الأسئلة، بل سيدمدم كما فى مرات أخرى، يا للبلاهة، ولكنه يفعل ذلك بطريقة آلية، وبنبرة شديدة الحدة وواثقة، ولكن دون قناعة حقيقية. والآن، وقد انسحبت إساورا مادروجا بعد أن قالت بلعثمة إلى اللقاء فى يوم آخر، الآن وقد خرجت من هذا الباب مثل ظل رقيق، الآن وقد رجع لقيه بعد أن رافقها حتى بداية الدرب المؤدى إلى الطريق العام، ودخل إلى المطبخ بملامح واضحة التساؤل فى انحناءة الرأس، وفى اهتزاز الذيل، وفى انتصاب الأذنين، الآن انتبه سيبريانو ألاجور إلى أنها لم تقل كلمة واحدة فى الرد على سؤاله، لم تقل نعم، ولم تقل لا، وإنما تلك الحركة فى احتضان جسمها فقط، ربما لتجد نفسها فيه، وربما لتحميه أو لتحمى نفسها منه. تطلع سيبريانو ألاجور فيما حوله حائراً،

كما لو أنه ضائع، كانت يدها رطبتين، والقلب منفلتاً في الصدر، ولهفة من تمكن الهرب للتو من خطر لم تتوصل خطورته إلى امتلاك مفهوم واضح. وعندئذ لكم رأسه أول مرة.

عندما رجعت مارتا ومرسيال من الغداء، وجداه في مشغل الخزف، يسكب جيساً سائلاً في أحد القوالب، كيف أمضيت الوقت من دوننا، سألته مارتا، لم أمت من الحنين، إذا كان هذا هو ما تعنيه، لقد قدمتُ الطعام للكلب، وتناول الغداء، واسترحتُ قليلاً، وهأنذا هنا مرة أخرى، وكيف هي الأمور في ذلك البيت؟ لا وجود لشيء خاص، قال مرسيال، وبما أنني كنت قد أخبرتهما بأمر حمل مارتا، لم تجر احتفالات كبيرة، وإنما القبلات والمعانقات العادية في مثل هذه المناسبات، أما عن الشئون الأخرى فلم يدر أي حديث، هكذا أفضل، قال سيبريانو ألاجور، وواصل سكب مزيج الجبس في القالب. كانت يدها ترتجفان قليلاً. سوف آتى فوراً لمساعدتك، إننى ذاهب لاستبدال ملابسى، قال مرسيال. لم تلحق مارتا بزوجها. بعد دقيقة من ذلك، سألتها سيبريانو ألاجور دون أن ينظر إليها، أتريدين شيئاً؟ لا، لا أريد شيئاً، إننى أرى عملي وحسب. مرت دقيقة أخرى، وكان دور مارتا في السؤال، هل تشعر بأنك لست على ما يرام؟ إننى على ما يرام بالطبع، أراك غريباً جداً، مختلفاً، إنهما عيناك، عيناى متفقتان معى عموماً، إنك محظوظة، فأنا لا أعرف أبداً مع من أتفق، أجابها الأب بجفاء. لا

يمكن لمرسىال أن يتأخر طويلاً. ومارتا عادت للسؤال، هل حدث شيء فى غيابنا. ترك الأب الدلو على الأرض، مسح يديه بخرقة، وردّ ناظراً إلى ابنته مواجهة، جاءت إلى هنا إساورا، تلك المدعوة إستوديوسا أو مادروجا، أو أية تسمية تشائين، جاءت للتحديث إليك، إساورا جاءت إلى هنا، ولا أظنها قالت من الكلمات أكثر مما قلته لك للتو، لسنا نملك جميعنا مثل قدرتك التحليلية، وما الذى كانت تريده إذا كانت معرفة ذلك ممكنة، أرادت أن تخبرك بأنها وجدت عملاً، أين، هنا، هذا يسعدنى، يسعدنى كثيراً، سأذهب فيما بعد إلى بيتها. كان سيبريانو ألاجور قد تحول إلى الاهتمام بقالب آخر، أبتاه، بدأت مارتا القول، ولكنه قاطعها، إذا كنت تريدين الكلام فى هذا الموضوع فلا تواصلى، ما طُلب منى أن أنقله إليك صرت تعرفينه، ولا جدوى من أية كلمات أخرى زائدة، إنهم يدفنون البذور أيضاً، ولكنها تنتهى إلى النمو، واعدرنى إذا كان الموضوع نفسه. لم يجيبها سيبريانو ألاجور. وما بين خروج الابنة وعودة الصهر، سيوجه لكمة أخرى إلى رأسه.

كون الكثير من أساطير أصل البشر لا تستبعد الصلصال من عملية الخلق المادية للإنسان هو واقع ذكرناه هنا، وهو فى متناول يد أى شخص متوسط الاهتمام بالتقاويم الكنسية العليمة بكل شىء والموسوعات العليمة بكل شىء تقريباً. وليست هذه، كقاعدة عامة، هى حال المؤمنین بمختلف الأديان الذين يستفيدون من السبل العضوية للكنيسة التى ينتمون إليها لتلقى ودمج هذه المعلومات وكثير غيرها من المعلومات المشابهة أو المماثلة بالأهمية. ومع ذلك، هنالك حالة، حالة واحدة على الأقل، كان لا بد فيها من إرسال الصلصال إلى الفرن حتى يُعتبر العمل منتهياً وناجراً. وكان ذلك بعد محاولات عديدة. فذلك الخالق الفريد الذى نتحدث عنه وقد نسينا اسمه، ربما كان يجهل، أو أنه لم يكن يثق كثيراً بالفعالية الإعجازية للنفخة فى الأنف التى لجأ إليها خالق آخر من قبل أو سيلجأ إليها فيما بعد، مثلما فعل فى أيامنا سيبريانو ألجور، وإن كان قد فعل ذلك دون أية نوايا أخرى سوى النية المتواضعة بتنظيف

وجه الممرضة من الرماد. وبالعودة الآن إلى ذلك الخالق الذى احتاج إلى حمل الإنسان إلى الفرن، وقد جرت الواقعة بالطريقة التى سنشرحها، وحيث يتبدى أن المحاولات المحيطة التى أشرنا إليها كانت نتيجة قصور معرفة الخالق المذكور بدرجات حرارة الطهو. فقد بدأ بصنع هيئة بشرية من الصلصال، وإذا كانت هيئة رجل أو امرأة هو تفصيل لا أهمية له، ثم أدخلها إلى الفرن وأجج النار الكافية. وبعد مرور وقت بدا له مضبوطاً، أخرجها من هناك، و.. رباها، سقطت روحه عند قدميه. فقد خرجت الهيئة سوداء قاتمة، لا تشبه فى شىء الفكرة التى تصورها عن كيف يجب أن يكون الإنسان. ومع ذلك، ربما لأنه كان لا يزال فى بداية نشاطه، لم يجد الشجاعة على تدمير المنتج المحبب فى تجربته. منحه الحياة بضربة من إصبعه على الرأس، وأرسله إلى الدنيا. ثم عاد إلى قولبة هيئة أخرى وأدخلها إلى الفرن، ولكنه اهتم هذه المرة بالانتباه إلى النار. وقد توصل إلى ذلك، أجل، ولكن أكثر مما ينبغى، ذلك أن الدمية خرجت بيضاء كأشد الأشياء البيضاء بياضاً، ولكن الخالق قليل البراعة لم يتوصل إلى المخلوق الذى يحلم به. عاد إلى العمل مرة أخرى، واحتلت هيئة بشرية أخرى المكان فى الفرن، وبالرغم من أن مقياس درجات الحرارة العالية لم يكن قد وُجد بعد، إلا أن المشكلة كانت سهلة الحل استناداً إلى ما سبق، وهذا يعنى أن السر كان يكمن فى عدم تسخين الفرن كثيراً أو قليلاً، أى لا زائداً ولا ناقصاً،

ووفق قاعدة الثلاثة هذه، ستكون النتيجة الآن طيبة. ولكنها لم تكن كذلك. صحيح أن الهيئة الجديدة لم تخرج سوداء، وصحيح أنها لم تخرج بيضاء، ولكن، آه أيتها السماء، لقد خرجت صفراء. وكان يمكن لأى خالق آخر أن يتخلى عن الأمر، وأن يسارع إلى إطلاق طوفان ليُجهز على الأسود والأبيض، ويدق عنق الأصفر، وهو ما يمكن اعتباره محصلة منطقية للتفكير الذى جال فى ذهنه على شكل سؤال، إذا كنت أنا نفسى لا أعرف أن أصنع إنساناً قادراً، فكيف سأتمكن غداً من محاسبته على أخطائه. وطوال أيام عديدة لم يجد صانع فخارنا المرتجل ذاك الجرأة على الدخول إلى المشغل، ولكن بعد ذلك، ومثلما يقال عادة، انقضت عليه من جديد دويبة الخلق وبعد بضع ساعات كانت الهيئة الرابعة قد أنجزت وصارت جاهزة للذهاب إلى الفرن. وبافتراض أنه كان هنالك آنذاك فوق ذلك الخالق خالقٌ آخر، فالاحتمال الأكبر هو أن الأصفر قد رفع إلى الأكبر شيئاً يشبه التوسل، نوعاً من الصلاة، من التضرع، أو أى شىء من هذا القبيل، لا تتركنى أفضل. وأخيراً، أدخل بيدين متلهفتين تلك الهيئة الصلصالية إلى الفرن، وبعد ذلك انتقى بحذر كمية، ووزن الحطب الذى بدا له مناسباً، واستبعد منها الأخضر وشديد الجفاف، وسحب حطبة تشتعل بصورة سيئة ودون لطف، وأضاف أخرى تعطى ناراً مرحة، وقدر بأقرب قدر ممكن الوقت وشدة الحرارة، وكرر التضرع، لا تتركنى أفضل، وقرب

عود ثقاب من الوقود. ونحن بشر هذه الأيام، ممن مررنا بحالات جزع كثيرة، مثل امتحان صعب، أو صديقة تخلفت عن الموعد، أو ابن جعلنا ننتظر، أو وظيفة أنكرت علينا، يمكن لنا أن نتصور ما عاناه ذلك الخالق بينما هو ينتظر نتيجة محاولته الرابعة، والعرق الذى ربما لم يحل دون تجمده إلا القرب من الفرن، والأظفار المقضومة حتى جذورها، كل لحظة تمر كانت تحمل معها عشر سنوات من الحياة، ولأول مرة فى تاريخ مختلف عمليات خلق الكون عرف الخالق نفسه العذابات التى تنتظرنا فى الحياة الأبدية، لكونها أبدية، وليس لكونها حياة. ولكن الأمر كان يستحق ذلك العناء. فعندما فتح خالقنا باب الفرن ورأى ما هو هناك، خرَّ على ركبتيه مفتوناً. هذا الإنسان لم يكن أسود ولا أبيض ولا أصفر، بل كان، أجل، أحمر، أحمر مثلما هو أحمر الفجر والغروب، أحمر مثل مهل البراكين، أحمر مثل النار التى جعلته أحمر، أحمر مثل الدم الذى كان قد بدأ الدوران فى أورده، لأن تلك هى الهيئة البشرية، لأنها الهيئة المنشودة، لم تكن هنالك حاجة لنقرها بالإصبع على الرأس، بل كان يكفى القول لها، قسعالى، لتخرج بنفسها ماشية من الفرن. ومن يجهل ما جرى فى العصور التالية سيقول إنه على الرغم من تلك الوفرة من الأخطاء والجزع، أو بفعل الفضيلة التعليمية والتربوية للتجربة، بفضلها كلها، انتهت القصة إلى بلوغ نهاية سعيدة. ومثلما فى كل أمور هذا العالم، وكل العوالم بالتأكيد، فإن الحكم

يعتمد على وجهة نظر الملاحظ. أولئك الذين رفضهم الخالق، أولئك الذين أبعدهم عنه، وإن كان بأريحية لطيفة تستحق الشكر، أى ذوو البشرة السوداء، والبيضاء، والصفراء، ازدهروا فى العدد، وتكاثروا، وغطوا، إذا صح القول، الكوكب الأرضى كله، أما ذوو البشرة الحمراء، هؤلاء الذين بذل الخالق فيهم جهداً كبيراً، وعانى من أجلهم بجرأ من الهموم والآلام، هم فى هذه الأيام بيانات جلية عاجزة عن كيف يمكن لانتصار أن يتحول، مع مرور الزمن، إلى توطئة خادعة لهزيمة. فالمحاولة الرابعة والأخيرة لأول خالق للإنسان، الذى أدخل مخلوقاته فى القرن، هذه المحاولة التى جلبت له ظاهرياً النصر الحاسم، تحول فى النهاية إلى خيبة حاسمة. وسيبريانو ألبور، وهو كذلك قارئ مواظب لتقاويم وموسوعات تعرف كل شىء أو كل شىء تقريباً، كان قد قرأ هذه القصة عندما كان لا يزال صبيّاً، وقد نسى أشياء كثيرة فى الحياة، ولكنه لم ينس هذه القصة، ومن الذى يستطيع معرفة السبب. كانت أسطورة هندية، ولنكون أكثر دقة، أولئك الذين يُسمون ذوى الجلود الحمراء، ومن خلالها أراد مبدعو الأسطورة القدماء إثبات تفوق عرقهم على أى عرق آخر، بما فى ذلك تلك الأعراق التى لم يكن لديهم آنذاك أى خبر عنها. وحول هذه النقطة الأخيرة، نستبق الاعتراض، ستكون فارغة وغير مجدية الحجة بأنهم ماداموا لا يمتلكون معارف عن أجناس أخرى، فلن يكون بإمكانهم كذلك تصور

أنها بيضاء أو سوداء أو صفراء أو براقية. مجرد خداع. فمن يتعلل بهذه الحجة لا يثبت لنا إلا جهله بأننا نتحدث هنا عن شعب من صانعي الفخار، ومن الصيادين كذلك، علّمهم العمل الشاق في تحويل الصلصال إلى إناء أو إلى معبود أنه يمكن في مجال الصلصال حدوث أى شيء، الكارثة أو المجد، الكمال أو البؤس، السامى أو الفظ. فكم من المرات والمرات، وعلى امتداد كم من الأجيال، كان عليهم أن يُخرجوا من الفرن قطعاً ملتوية، مشروخة، متفحمة، دون شى أو نصف مشوية، وكلها غير نافعة. والواقع أنه لا وجود لفرق كبير بين ما يحدث في فرن مشغل خزف وفرن خبز. فعجينة الخبز ليست إلا صلصالاً مختلفاً، يُصنع من دقيق وخميرة وماء، ومثله مثل الصلصال الآخر، سيخرج من الفرن ناضجاً، أو فجأً، أو محروقاً. ربما في الداخل لا يوجد فرق، يفرج سيبريانو ألاجور عن نفسه، أما هنا، في الخارج، فإننى أضمن أنه مستعد لتقديم كل شىء الآن مقابل أن يكون خبازاً. النهارات والليالى تتوالى، والأمسيات والصباحات. ويرد في الكتب وفي الحياة أن أعمال البشر كانت على الدوام أطول أمداً وأكثر إجهاداً من أعمال الآلهة، وانظر الحالة المذكورة عن خالق ذوى البشرة الحمراء الذى لم ينجز، في نهاية المطاف، سوى أربع هيئات بشرية، ومقابل هذا العمل القليل، على الرغم من ضالة النجاح، وجد مدخلاً إلى تاريخ التقاويم، بينما سيبريانو ألاجور الذى تنتظره في الحقيقة مكافأة

تسجيل لسيرة حياته، أو موجز لها بحروف مسكوبة. عليه أن ينتزع من أعماق الصلصال، فى هذه المرحلة الأولى فقط، مئة وخمسين مرة أخرى، أى ستمئة دمية، بمواصفات وأوضاع اجتماعية مختلفة، ثلاثة منها، البهلول والمهرج والمرضة، هى الأسهل تحديداً أيضاً بفعل النشاطات التى تمارسها، وهو ما لا ينطبق على موظف المدرين الصينى والآشورى الملتحى اللذين لم يكن بالإمكان تقصى ما فعلوه فى الحياة، على الرغم من المعلومات المعقولة المستعادة من الموسوعة. أما رجل الإسكيمو فيفترض أنه مازال يعمل فى الصيد وصيد السمك. صحيح أن ذلك كله سيان بالنسبة إلى سيبيريانو. عندما تبدأ الدمى بالخروج من القوالب، متماثلة فى الحجم، ومخففة باللون المُوحد اختلافات الملابس التى تميزهم، يتوجب عليه أن يبذل جهداً فى الانتباه كيلا يخطئ بها ويخلط بينها. وفى استغراقه الشديد فى العمل ينسى أحياناً أن قوالب الحبس لها محدودية فى الاستخدام، حوالى أربعين استخداماً تقريباً، وبعدها تبدأ الحواف بالتشوه، ويفقدان متانتها ووضوحها، كما لو أن الدمية تبدأ التعب من كينونتها شيئاً فشيئاً، وكما لو أنها تأخذ بالتحول إلى حالة عرى أصلية، ليس حالة عريها الخاصة كتشخيص بشرى، وإنما العرى المطلق للصلصال قبل أن يبدأ الشكل الأول المعبر عن فكرة بإلباسه ثياباً. وكيلا يضيع الوقت بدأ بنبذ الدمى غير النافعة فى أحد الأركان، ولكنه بعد ذلك، وقد هزه

إحساس غريب ولا تفسير له من الشفقة والشعور بالذنب، هب بحثاً عنها، وكان معظمها مشوهاً ومختلطاً من السقوط والتصادم، وصفها بعناية على أحد رفوف المشغل. كان يمكن له أن يعيد عجنها ليمنحها فرصة أخرى بالحياة، وكان يمكن له أن يكورها ويعجنها دون أسى مثلما فعل بدميتى الرجل والمرأة اللتين قولبهما فى البدء، ومازال موجوداً هناك طينُهما الجاف، المشقق، عديم الشكل، ومع ذلك رفع من القمامة المسوخ سيئة التكوين، وحماها، ودثرها، كما لو أنه يحب أعماله الصائبة أقل من أخطائه التي لم يستطع تجنبها. لن يأخذ هذه الدمى إلى الفرن، فعبثاً سيذهب الحطب الذى يحترق من أجلها، ولكنه سيتركها هنا إلى أن يتشقق صلصالها ويتفتت، إلى أن تتفكك أجزاءه وتسقط، وإذا ما طال الزمن كفاية، فحتى التراب الذى ستصير إليه سيتحول من جديد إلى صلصال منبعث. ستسأل هارتا، ما الذى تفعله هنا هذه القطع المشوهة، وسيردّ عليها، إنهم يروقتنى، ولن يقول إنها تروقتنى، لأنه لو قال ذلك فإنه يطردها نهائياً من العالم الذى ولدت من أجله، ولن يعترف بها كصنيعته ليحكم عليها باليتم النهائى والحاسم. صنيعته، وصنiece متعبة، هى كذلك أيضاً عشرات الدمى الناجزة التى تُنقل إلى ألواح التجفيف، هناك فى الخارج، فى ظل شجرة التوت، أما هذه، فلأنها كثيرة، ويكاد لا يمكن تمييز بعضها عن بعض، فإنها لا تطلب من العناية والاهتمام أكثر مما هو ضرورى كيلا

يصيبها الضرر فى اللحظة الأخيرة. وكان لا بد من تقييد لقيه كيلا يصعد إلى ألواح التجفيف، حيث سيقترف أضخم عملية تكسير لم يشهد مثلها تاريخ مشغل الخزف المضطرب قط، وهو تاريخ مسرف، كما هو معروف، بالحطام والخلائط غير المرغوبة. ولنتذكر أنه عندما وضعت الدمى الست الأولى، النماذج الأولية، لتجف هنا، وأراد لقيه أن يتحرى باللمس المباشر ما هى تلك الأشياء، كانت صرخة وصفعة سيبريانو ألجور الفورية كافية لأن تصرف غريزته كصياد - زاد من حدتها جمود تلك الأشياء الغريب - وتحول دون تسببه بأية أضرار، ولكن لا بد لنا من الاعتراف بأنه سيكون من غير المعقول أن ننتظر الآن حيواناً كهذا يصمد دون تأثر أمام استفزاز جيش من المهرجين والمدربين الصينيين، من البهاليل والمرضات، من رجال الإسكيمو والآشوريين الملتحين، تغطيتهم جميعهم جلوداً حمراء سيئة المظهر. استمر الحرمان من الحرية ساعة واحدة. تأثرت مارتا للملامح الحساسة، وحتى المتظارفة التى خضع بها لقيه للعقاب، فقالت لأبيها إن التربية قد تفيد فى شىء، حتى وإن كانت الحالة متعلقة بالكلاب، وأعلنت، المسألة هى فى تكييف المناهج، وكيف ستفعلين ذلك، أول ما يتوجب فعله هو إطلاق سراحه، ثم ماذا بعد ذلك، إذا حاول الصعود إلى الرفوف، يُربط مرة أخرى، وبعد ذلك، يُطلق سراحه ثم يُربط من جديد قدر ما يتطلبه الأمر من المرات، إلى أن يتعلم، للوهلة

الأولى يمكن لهذا أن يعطى نتيجة، وعلى كل حال يجب ألا تخدعى نفسك إذا ما بدا لك أنه قد تعلم الدرس، فهو لن يتجراً بالطبع على الصعود إلى الرفوف وأنت حاضرة، أما عندما يكون وحيداً وليس هناك من يراقبه، فأخشى أن أساليبك التربوية لن يكون لها ما يكفى من القوة لضبط غرائز الجد ابن آوى الكامنة فى رأس لقية، ابن آوى جد الذى كان جد لقية ما كان ليزعج نفسه بشم الدمى، بل كان سيمر بها دون مبالاة ويواصل طريقه بحثاً عما يمكن أكله فعلاً، لا بأس، لكننى لن أطلب منك إلا التفكير فيما سيحدث إذا ما صعد الكلب إلى ألواح التجفيف، والعمل الذى سنفقدّه، هل سيكون كثيراً أم سيكون قليلاً، سوف نرى، ولكن إذا حدث ذلك فإننى أعدك بإعادة صنع الدمى التى تتضرر، وربما تكون هذه هى الطريقة لإقناعك بالسماح لى بمساعدتك، هذا أمر لن نتحدث فيه حالياً، وانصرفى الآن إلى تجاربك التربوية. خرجت مارتا من مشغل الخزف، ودون أن تتفوه بكلمة واحدة، فكت الحبل من الطوق المحيط بعنق الكلب. وبعد أن تقدمت بضع خطوات باتجاه المنزل، توقفت كمن هى ساهية. نظر إليها الكلب وخرّ مقعياً. تقدمت مارتا بضع خطوات أخرى، وتوقفت من جديد، ثم دخلت بعد ذلك بتصميم إلى المطبخ تاركة بابه مفتوحاً. لم يتحرك الكلب من مكانه. أغلقت مارتا الباب. انتظر الكلب قليلاً ثم نهض، وراح يقترب بعد ذلك من الألواح الخشبية. لم تفتح مارتا الباب. نظر

الكلب باتجاه المنزل، تردد، وأعاد النظر ثانية ثم وضع قائمته على حافة اللوح الخشبي حيث تُجفف دمي الآشوريين الملتحين. فتحت مارتا الباب وخرجت. أنزل الكلب قائمته بسرعة وظل واقفاً في المكان نفسه ينتظر. لم يكن هناك ما يدعو إلى الهرب، فوعيه لا يتهمه بفعل أى شيء سيئ. أمسكت به مارتا من الطوق المحيط بعنقه، وربطته مجدداً بالحبل دون أن تتلفظ بكلمة واحدة. عادت بعد ذلك إلى الدخول إلى المطبخ وإغلاق الباب. كان رهانها على أن الكلب ظل يفكر فيما حدث، يفكر، أو يفعل ما يفعله عادة في مثل هذا الوضع. وبعد دقيقتين أعادت تحريره من الحبل، فمن المناسب عدم منح الحيوان وقتاً للنسيان، فالعلاقة بين السبب والنتيجة يجب أن تثبت في ذاكرته. تأخر الكلب وقتاً أطول في وضع قائمته على لوح التجفيف، ولكنه حسم أمره أخيراً، ويمكن القول إنه فعل ذلك بقدر من القناعة أقل من السابق. وعلى الفور وجد نفسه مقيداً من جديد. وابتداءً من المرة الرابعة بدأ يبدي ما يشير إلى أنه قد فهم ما تريده منه، ولكنه واصل رفع قائمته إلى لوح التجفيف، كما لو أنه يريد التأكد من أنه يتوجب عليه عدم وضعهما هناك. وخلال عملية التقييد وفك القيد المتواليه كلها، لم تتفوه مارتا بأية كلمة، كانت تدخل إلى المطبخ وتخرج منه، تغلق الباب وتفتحه، ومع كل حركة من الكلب، وهي الحركة نفسها دوماً، تردّ بحركة منها، هي الحركة نفسها دوماً، في سلسلة من الأفعال

المتوالية والمتبادلة التي لن تتوقف إلا عندما يقدم أحدهما، بفضل حركة مختلفة، على قطع تلك المتوالية. وفي المرة الثامنة التي أغلقت فيها مارتا باب المطبخ وراءها، تقدم لقيه من جديد نحو اللوح الخشبي، ولكنه لدى الوصول إليه لم يرفع قائمته متظاهراً بأنه يريد الوصول إلى الآشوريين الملتحين، بل راح ينظر باتجاه المنزل، دون حراك، منتظراً، كما لو أنه يتحدى السيدة في أن تكون أكثر جرأة منه، كما لو أنه يسألها ماذا لديك الآن للرد على لعبتي العبقرية هذه التي ستمنحني النصر وتمنحك الهزيمة. وكانت مارتا تدمدم لنفسها، لقد كسبتُ، وكنت واثقة من أنني سأكسب. توجهت إلى الكلب وداعبت رأسه، وقالت بلطف، لقيه جميل، لقيه لطيف، وأطل الأب من باب مشغل الخزف ليشهد النهاية السعيدة، جيداً، بقى أن نعرف هل سيكون الأمر نهائياً، فقالت مارتا، إنني مستعدة لوضع يدي في النار لأؤكد أنه لن يعود إلى الصعود إلى ألواح التجفيف. كلمات بشرية قليلة جداً هي تلك التي تتمكن الكلاب من ضمها إلى معجمها الخاص من المهمة والنباح، ولهذا السبب فقط، لأنه لم يفهم ما قاله، لم يحتج لقيه على الرضا الطائش الذي يبديه سيده، إذ يمكن لأي شخص مؤهل في هذه الأمور وقادر على تقدير ما حدث بموضوعية أن يقول إن الرابع في المعركة ليست مارتا، السيدة، مهما كانت قناعتها بذلك راسخة، وإنما الرابع هو الكلب، وإن كان علينا أن نقر أيضاً

بأن أولئك الأشخاص الذين لا يعرفون أن يحكموا إلا على المظاهر سيقولون عكس ذلك بالضبط. فلينسب كل واحد لنفسه النصر الذى يزعم أنه حققه، بمن فى ذلك الآشوريون الملتحون الذين صاروا الآن لحسن الحظ بمنجى من الاعتداءات. أما لقيه، فلن ندعن لتركه هناك بسمعة الخاسر الجائرة. فالدليل المؤكد على أن الفوز كان من نصيبه هو تحوله منذ ذلك اليوم إلى الأشد حرصاً بين الحراس، الذين قاموا يوماً بحماية دمي صلصالية. وكان لا بد من سماعه ينبح مستدعياً سيديه إذا أوقعت هبة ريح مفاجئة نصف دسته من الممرضات.

وجبة الفرن الأولى ضمت ثلاثمئة دمية، أو بكلمة أدق ثلاثمئة وخمسين دمية، آخذين فى الاعتبار إمكانية تلف بعضها. لم يكن هناك متسع لمزيد. وحدث أن كان ذلك فى يوم راحة مرسيال، وحدث بالتالى أن كان أقسى يوم عمل لمرسيال. فبصبر، ووحيداً، ساعد حماه فى ترتيب الدمى على الرفوف داخل الفرن، وتولى تغذية الفرن، وهى مهمة أناس أقوياء، سواء بسبب الجهد البدنى فى نقل الحطب وإدخاله إلى الموقد أم للساعات التى يتطلبها ذلك، لأن مثل هذا الفرن القديم والبدائى بالمقارنة مع أفران التكنولوجيا الجديدة، يحتاج إلى وقت طويل من أجل بلوغ درجة الطهو، دون نسيان أنه لا بد بعد التوصل إليها من الحفاظ عليها ثابتة قدر الإمكان. وسيعمل مرسيال حتى وقت متقدم من الليل، حتى الساعة التى

ينتهى بها الحمى من المهمة التى فرضها على نفسه بالتقدم فى العمل فى المشغل، ويتمكن من المجيء للحلول محله. حملت مارتا العشاء إلى أبيها. وجاءت بعد ذلك بعشاء مرسىال، فتناول طعامه بينما هما جالسان على المقعد الحجرى الذى كان للتأملات يوماً. لم يكن أياً منهما يشعر بالشهية، وكل منهما لأسبابه الخاصة. أراك لا تأكل، لا بد أنه الإجهاد، قالت له، أجل، إننى متعب جداً، لقد فقدتُ عادة بذل الجهد، ولهذا أتكلف مشقة أكبر، قال، فكرة صنع هذه الدمى خطرت لى أنا، أعرف ذلك، كانت فكرتى، ولكن إحساساً بالندم يعذبنى فى هذه الأيام الأخيرة، فطوال الوقت أتساءل هل هناك ما يستحق إقدامنا على صنع الدمى، وأليس هذا كله غير مجدٍ بصورة محزنة، المهم بالنسبة لأبيك الآن هو العمل الذى يقوم به، وليس جدوى هذا العمل، وإذا ما انتزعت منه العمل، أى عمل، فإنك تنتزعين منه، بطريقة ما، مسوغاً من مسوغات العيش، وإذا ما قلت له إن ما يفعله لا ينفع فى شىء، فإن الاحتمال الأكبر أنه لن يصدق ذلك، لأنه لا يستطيع أن يصدق ذلك، وإن كان جلاء الأمر فاقعاً أمام عينيه، المركز توقف عن شراء الأوانى الخزفية منا وتمكن أبى من تحمل الصدمة، لأنك خرجتِ على الفور بفكرة صنع الدمى، يحدثنى قلبى بأن أزمنة سيئة على وشك المجيء، أيام أسوأ من هذه، ترقيتى إلى حارس مقيم، وهى لن تتأخر كثيراً، ستكون يوماً سيئاً بالنسبة لأبيك. لقد قال إنه

سيذهب معنا إلى المركز، هذا صحيح، ولكنه قاله بتلك الطريقة نفسها التي نقول بها جميعنا إننا سنموت ذات يوم بينما هناك جزء من ذهننا يرفض تقبل ما هو معروف بأنه المصير المحتوم للكائنات الحية كلها، يتظاهر بأنه غير معنى بها، وهكذا هي حال أبيك، يقول إنه سيذهب للعيش معنا، ولكنه فى أعماقه كمن لا يصدق ذلك، كمن ينتظر أن يظهر له انعطاف فى اللحظة الأخيرة يحمله إلى طريق آخر، هو يعرف بالتأكد أنه لا يوجد للمركز إلا طريق واحد، طريق يؤدي من المركز إلى المركز، إننى أعمل هناك، وأعرف ما أقوله، وسيكون هناك من يقول إن الحياة فى المركز هى معجزة متواصلة. لم يجبُ مرسىال فوراً. قدم قطعة من اللحم للكلب الذى كان ينتظر بصبر منذ البداية أن تتبقى له فضلة من الطعام، وبعد ذلك فقط قال، أجل، مثلما لا بد أن تكون قد بدت للقية، فى هذا الوقت المتقدم من الليل، قطعة اللحم التى قدمتها إليه. مرّ بيد على ظهر الحيوان مرتين، ثلاث مرات، المرة الأولى بدافع المحبة العادية والمعهودة، والمرتان التاليتان بإلحاح مغموم، كما لو أنه عليه التفريغ عن ذلك الغم فوراً ودون إضاعة للوقت، ولكنه كان هو نفسه من يحتاج إلى الطمأننة، إلى استبعاد فكرة برزت فجأة من المكان الذى اختبأت فيه من الذاكرة، فى المركز لا يتقبلون وجود كلاب. وهذا صحيح، فهم لا يسمحون فى المركز بوجود كلاب ولا قطط، وإنما يسمحون فقط بطيور فى

أقفاص أو أسماك فى أحواض مائية، بل إن هذه الأخيرة صارت أقل منذ أن اخترعت أحواض السمك الافتراضية، بلا أسماك لها رائحة السمك وبلا ماء يتوجب استبداله. وفيها يسبح بظرف خمسون نموذجاً من عشرة أنواع مختلفة من السمك، وكيلا تموت يتوجب رعايتها وتغذيتها كما لو أنها كائنات حية، ولا بد من مراقبة نوعية الماء الذى لا وجود له، ولا بد كذلك من مراقبة درجة الحرارة، وفوق ذلك، كيلا يكون كل شىء واجبات وحسب، يمكن تزيين قعر الحوض بأنواع متعددة من الأحجار والنباتات، والمحظوظ بامتلاك هذه الأعجوبة يجد تحت تصرفه سلسلة من الأصوات التى تتيح له، بينما هو يتأمل أسماكه التى بلا أحشاء ولا حسك، أن يحيط نفسه بأجواء إيقاعية شديدة التنوع، مثل شاطئ كاريبي، أو غابة مدارية، أو عاصفة بحرية. إنهم لا يريدون كلاباً فى المركز، فكر مرسيال مجدداً، ولاحظ أن هذا القلق يخفى، أنياً، القلق الآخر، هل أخبرها بذلك، أم لا أخبرها، بدأ يميل إلى إخبارها، ثم فكر فى أنه سيكون من الأفضل ترك المسألة إلى ما بعد، عندما يأتى وقتها، عندما لا يبقى ثمة مهرب. اتخذ إذاً قرار الصمت، ولكن أى حقيقة هى تلك فى قلب الإرادة المستمر فى حوض رأسنا الافتراضى، وبعد دقيقة من ذلك كان يقول لمارتا، لقد انتبهت للتو إلى أننا لن نستطيع أخذ لقيه معنا إلى المركز، فهم لا يتقبلون حيوانات، وستكون مشكلة جدية أن نضطر إلى ترك

الحيوان المسكين مهجوراً فى الدنيا، فقالت مارتا،
ربما نتمكن من إيجاد حلّ، أستنتجُ من هذا أنك قد
فكرتِ فى الأمر، فوجئ مرسيال، أجل، لقد فكرت
فيه منذ وقت طويل، وما هذا الحل، أظن أن إساورا
لن تمانع بتولى العناية بلقوية، بل إننى أظن أن ذلك
سيسعدها كثيراً، أضف إلى ذلك أن كلاً منهما صار
يعرف الآخر، أتقولين إساورا، أجل إساورا، امرأة
الإبريق، هل تتذكر، من أحضرت لنا الكعك، ومن
جاءت للتحديث معى عندما ذهبنا آخر مرة للغداء فى
بيت أبويك، الفكرة تبدو لى جيدة، وهو أفضل حلّ
للقوية، بقى أن نعرف إذا كان أبوك سيوافق، من
المعروف سلفاً أن نصفاً منه سيعترض، سيقول لا يا
سيدى، فامرأة وحيدة ليست بالرفقة الجيدة لكلب،
وأتصور أنه سيخترع لنا نظرية فى الاختلافات مثل
هذه، وأن هناك بالتأكيد أشخاصاً آخرين لا مانع
لديهم من احتضان الحيوان، ولكننا نعرف كذلك أن
نصفاً آخر منه سيرغب، بكل ما فى الرغبة من قوة،
ألا يكسب النصف الأول، كيف هى تلك الغراميات،
سألها مرسيال، مسكينة إساورا، مسكين أبى، لماذا
تقولين مسكينة إساورا، مسكين أبى، لأنه من الواضح
أنها تحبه، ولكنها لا تتمكن من اجتياز الحاجز الذى
رفعه أمامها، وماذا عنه هو، هو، إنها مرة أخرى
قصة نصفية، فهناك نصف منهما ربما لا يفكر فى
شئ آخر غير هذا الأمر، ونصفه الآخر، قصفه
الآخر فى الرابعة والستين، نصفه الآخر خائف،

الحقيقة أن الناس شديرو التعقيد، هذا صحيح، ولكننا لو كنا بسيطين لما صرنا أناساً. لقية لم يكن معهما، فقد تذكر فجأة أنه لا يوجد أحد سواه من أهل البيت ليرافق سيده العجوز المنهمك وحيداً في المشغل في صنع الثلاثمئة دمية الثانية لعملية التسليم الأولى المؤلفة من ستمئة قطعة، الكلب يرى هذه الأمور وتستثير فيه تشوشاً عظيماً، إنه يتحسسها ولكنه لا يتوصل إلى فهمها، كل ذلك العمل، وكل ذلك الجهد، وكل ذلك العرق، ولست أشير الآن إلى النقود التي سيكسبها في الصفقة، سيكون مبلغاً صغيراً، سيكون بين بين، لن يكون مبلغاً كبيراً في الحقيقة، إنه ما قالتها مارتا قبل قليل عما إذا لم يكن ذلك كله غير مجد بصورة محزنة. ومثلما تبين من قبل، والآن، بفضل الحوار المطول والعميق بين مارتا وماسيال، توفرت لنا الفرصة للتأكيد بأن المقعد الحجري يُسَوِّغُ باتساع ووقار الاسم المهيب الذي أطلقناه عليه، مقعد التأمّلات، ولكن الحاجة تفرض نفسها هنا، وقد حان الوقت للعودة إلى الفرن، ودس مزيد من الحطب عبر فوهة الموقد، بحذر، فلا تنس يا مرسيال أن الإنهاك يشوش الأفعال الانعكاسية الدفاعية، ويزيد من الوقت اللازم للتصرف، فاحذر أن تقفز إليك من الداخل، مثلما حدث في ذلك اليوم اللعين، أفعى اللهب الصافرة التي خلفت ندبة في يدك اليسرى إلى الأبد. وكان هذا تقريباً هو ما قالتها مارتا أيضاً، أنا ذاهبة لجلي الأطباق، وأنت توخي الحذر يا مرسيال.

فى اليوم التالى، حمل سبيرانو أآور من الصبأح الباكر، كالعاده، مرسيال إلى المركز فى الشأحنة الصغيرة. قال له قبل أن يآرآا من البيت، لا أعرآ كيف أشكرآ على المساعده التى قدمتها إلى، وردّ عليه مرسيال، فعلت ما أستطيعه، وأرآو أن يتم كل شىء على ما يرام، إننى واثق من أن الدمى التالىة ستآآا إلى مآهود أقل، فقد توصلتُ إلى مآموعة آيل لتبسيط العمل، هذه هى فآئده مراآمة الآبرة، أظن أن الثلاثمئة دمية الوجة التالىة ستآون على الواح التآفيف آلال أسبوع، إذا ما كانت من الآن آتى عشرة أيام، موعده إآازتى التالىة، فى آالة تسمح بإآخالها إلى الفرن، فىمكنك أن تعتمد على، شكرآ، أآريدنى أن آآبرك شىئآ، أنت وأنا، لولا أزمة الصلصال اللعينة هذه، فىمكن لنا أن نشكل ثنائىآ آيدآ، تترك عملك كآارس فى المركز وتآفرآ لمشآل الآزف معى، هذا مآمكن، ولكن الوقت قد فات للتآكير فى الأمر، ثم لو أننا فعلنا ذلك لكنا كلانا الآن دون عمل، أنا مآزال لدى عمل، هذا صحىآ. وبعد بعض الوقت، بينما هما على الطرىق إلى المآينة، وبعد صمت طویل، قال سبيرانو أآور، لدى فكرة، وأرىء أن أعرآ رأىك فىها، هآت ما لدىك، أن أآضر إلى المركز هذه الثلاثمئة دمية الأولى عندما فىآف الطلاء، وهكذا يرى المركز أننا نعمل بآد، وىبداً البىع قبل الموعد المآرر للتسلىم، وسىكون ذلك آيدآ لهم وأفضل لنا، نتآنب إضاعة كل ذلك الوقت الطویل بانتظار

النتائج، وإذا خرج كل شيء كما هو مُنتظر، يمكننا أن نحضّر الإنتاج التالى بطمأنينة أكبر، دون تسرع كما جرى هذه المرة، ما رأيك بالفكرة، أظن أنها فكرة جيدة، قال مرسيال، وتذكر فى هذه اللحظة أنه رأى جيدة كذلك فكرة وضع الكلب فى رعاية الجارة صاحبة الإبريق، بعد أن أوصلك إلى عمك سأذهب للتحدث مع مدير المشتريات، وأنا واثق من أنه سيوافق على الفكرة، قال سيبريانو ألاجور، أرجو ذلك، أجابه مرسيال، وانتبه إلى أنه يكرر مرة أخرى كلمة تلفظ بها قبل قليل، فهذا ما يحدث لنا مع الكلمات دائماً، نكررها على الدوام، ولكنها فى بعض الحالات، ودون أن يُعرف السبب، تُلاحظ أكثر. وبينما كانت الشاحنة تدخل المدينة، سأل مرسيال، من الذى سيتولى الآن طلاء الدمى، هارتا تصر على أن تطلّيها هى، تقول إنه لا يمكن لى أن أكون فى القديس وأن أقرع الأجراس فى آن واحد، لم تقل ذلك بهذه الكلمات نفسها، ولكن المعنى هو ذاته، ولكن أبخرة الطلاء تسمم، أجل تسمم، ويبدو لى أنها غير مناسبة للوضع الذى هى فيه مارتا، أنا سأتولى الوجه الأول من الطلاء، ويمكننى استخدام المسدس البخاخ فى ذلك، صحيح أنه ينشر الطلاء فى الجو، ولكنه يعوض عن ذلك بسرعة الإنجاز، وبعد ذلك، بعد ذلك يأتى التلوين بالريشة، وهذا غير ضار، كان عليك أن تشتري قناعاً على الأقل، إنه غالى الثمن، تلعثم سيبريانو ألاجور كما لو أنه خجل من كلماته، إذا كنا

قد توصلنا إلى تدبير النقود لاستئجار الشاحنة التي أخرجنا بها ما تبقى من الآوانى فى المركز، فإنه بالإمكان أيضاً تدبير ما يلزم لشراء القناع. لم نفكر فى الأمر، قال سيبريانو ألبور، ثم صحح ما قاله بحزن، لم أفكر فى الأمر. كانا قد صارا فى الجادة التى تقودهما فى خط مستقيم إلى المركز، وعلى الرغم من بعد المسافة، كان يمكن لهما قراءة الإعلان العملاق الذى عُلق على البناء، حضرتك زيوننا المفضل، ولكننا نرجوك ألا تخبر جارك بذلك. لم يعلق سيبريانو ألبور بشيء، أما مرسيال ففاجأه خاطر، إنهم يتسلون على حسابنا. عندما توقفت الشاحنة قبالة بوابة خدمة الأمن، قال مرسيال، بعد أن تنتهى من التحدث إلى مدير قسم المشتريات، مرّ من هنا، فسوف أرى إذا كان بإمكانى الحصول لك على قناع، أنا لا أحتاج إليه، وقد أخبرتك بذلك، ومارتا لن تستخدم إلا الفرشاة، أنت تعرفها جيداً مثلما أعرفها، فى أول فرصة تسهو عنها ستحتل مكانك وعندما تتبته لما حدث يكون الوقت قد فات، لا أدرى كم من الوقت سأتأخر فى قسم المشتريات، هل سأسأل عنك هنا أم أدخل للبحث عنك، لا تدخل، فالأمر لا يستحق عناء الدخول، سأترك القناع عند زميلى الذى أمام البوابة، كما تشاء، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، واعتنِ بمارتا، سأعتنى بها، أجل، كن مطمئناً، فأنت لا تحبها أكثر منى، لست أدرى إذا كنت أحبها أكثر أو أقل، ولكننى

أحبها بطريقة أخرى، مرسيال، ماذا تريد، أن أعانقك، أرجوك. عندما خرج مرسيال من الشاحنة كانت عيناه مخضلتين. ولم يوجه سيبريانو أَلجور أية لكمة إلى رأسه، بل اكتفى بالقول فى نفسه مع نصف ابتسامة حزينة، هذا ما يمكن أن يصل إليه الرجل، أن يجد نفسه يتسول معانقة، مثل طفل يفتقد الحب. شغل الشاحنة ودار حول كتلة البناء التى صارت الآن أكثر اتساعاً نتيجة توسيع المركز، وفكر، بعد بعض الوقت لن يعود أحد إلى تذكر ما كان موجوداً هنا. بعد خمس عشرة دقيقة، كان ينزل إلى القبو شاعراً أنه غريب، كمن يعود إلى مكان بعد غياب طويل ولا يجد تبدلات تسوغ إحساسه، ولكنه لا يستطيع تجاهل ذلك الإحساس أيضاً. وبعد أن أخبر حارس المدخل أنه آت فى طلب معلومات، وليس لإفراغ بضاعة، أوقف الشاحنة فى الخط الجانبى. كان هناك صف طويل من السيارات الشاحنة الكبيرة تنتظر، بعضها ضخم جداً، وكانت لا تزال أمامه ساعتان تقريباً قبل أن تفتح بوابة خدمة تسلّم البضائع. جلس سيبريانو أَلجور بوضع مريح على المقعد وحاول النوم. النظرة الأخيرة التى ألقاها من خلال فتحة الفرن، قبل مجيئه إلى المدينة، كشفت له أن عملية الطهو قد أنجزت، وما عليه الآن إلا أن ينتظر إلى أن يبرد الفرن على مهل، دون تسرع، ببطء، كمن يذهب ماشياً على قدميه. ولكى ينام، راح يعدّ الدمى كمن يعدّ خرافاً، بدأ بدمى البهاليل وعدّها كلها، ثم انتقل إلى المهرجين وتمكن من

الوصول كذلك إلى النهاية، عدد خمسين من هؤلاء،
خمسين من أولئك، أما الزيادة، المتبقية لتعويض
المتضررة، فلم يهتم بها، وأراد بعد ذلك الانتقال إلى
رجال الإسكيمو، ولكن الممرضات، ودون أى تفسير،
تقدمن منه، وفى الصراع الذى اضطر لخوضه من
أجل إبعادهن، غلبه النعاس. لم تكن المرة الأولى التى
يجد نفسه فيها ينهى نعاسه الصباحى فى قبو المركز،
ولم تكن المرة الأولى التى يوقظه فيها صخب محركات
الشاحنات الذى تضخمه الأصداء وتضاعفه. نزل من
الشاحنة وتقدم باتجاه منضدة كونتوار المتابعة
الشخصية، أخبرهم من يكون، وقال إنه آت من أجل
استفسار ويريد التحدث إلى مدير القسم إذا كان ذلك
ممكناً، وأضاف، إنها مسألة مهمة. الموظف الذى
تعامل معه نظر إليه نظرة تشكك، كان أكثر من جلى
أنه لا يمكن للمسألة ولا للشخص الذى أمامه أن
يكونا مهمين، لاسيما أن هذا الشخص قد خرج من
شاحنة صغيرة بأئسة كُتب عليها من الخارج مشغل
خزف، ولهذا أجاب بأن مدير القسم مشغول، وحدد،
إنه فى اجتماع، وسيظل مشغولاً طيلة الفترة
الصباحية، فليقل بالتالى ما الأمر الذى جاء من أجله.
أوضح الخزاف ما عليه أن يوضحه، ولم ينس، من
أجل التأثير على محدثه، الإشارة إلى المكالمات الهاتفية
التي جرت بينه وبين مدير القسم، وأخيراً سمع الآخر
يقول له، سَأذهب لأسأل أحد معاونى المدير. خشى
سيبريانو الجور أن يخرج له ذلك المعاون الخبيث الذى

مرر حياته، ولكن معاون المدير الذى جاء الآن كان مهذباً ولطيفاً، وقد اتفق معه على أن الفكرة رائعة، إنها فكرة جيدة، أجل يا سيدى، إنها جيدة لك وأفضل لنا، فبينما أنتم تصنعون الدفعة الثانية المؤلفة من ثلاثمئة قطعة وتهيئون الأمور لإنتاج الستمئة المتبقية، على دفعتين، مثلما هى الحال الآن، أو فى دفعة واحدة، نأخذ نحن بمراقبة تجاوب جمهور المشترين، وردود الفعل على هذا المنتج الجديد، والتعليقات المعلنة والمضمرة، بل إن ذلك يمنحنا كذلك الوقت لإجراء بعض عمليات السير الموجهة فى منحيين، أولاً حالة البيع الأولية، هذا يعنى اهتمام الزبون، رغبته، إرادته العضوية أو المعللة، وثانياً الوضع الناتج عن الاستخدام، أى الرضا الحاصل، المنفعة المعترف بها، إرضاء الغرور، سواء من الناحية الشخصية أم من وجهة النظر الجماعية، أكانت أسرية، أو مهنية أو رؤية جماعية أخرى، فالمسألة تتلخص أساساً، بالنسبة لنا، فى تحرى إذا ما كانت القيمة الاستعمالية، وهى عنصر متقلب، غير ثابتة وذاتية بامتياز، تزيد كثيراً أو تقل كثيراً عن القيمة التبادلية، فسأله سيبريانو أليجور لمجرد السؤال، وعندما يحدث هذا، ماذا تفعلون؟ ورد معاون المدير بنبرة متنازلة، سيدى العزيز، لا أظنك تنتظر أن أكشف لك هنا عن سرّ النحلة، لقد سمعتُ على الدوام أن سرّ النحلة شىء لا وجود له، وأنه مجرد خدعة، مجرد سرزائف، خرافة لم ينهوا اختراعها، قصة كان يمكن لها أن توجد ولم توجد،

صعك حق، سرّ النحلة لا وجود له، ولكننا نعرفه. فكبح سيبريانو أَلجور نفسه كمن وقع ضحية عدوان غير متوقع. كان معاون المدير بيتسم، ويلح برضا على أن الفكرة جيدة، جيدة جداً، وأنه بانتظار تسلم الدفعة الأولى وبعد ذلك سيخبره بما يحدث. دخل سيبريانو أَلجور إلى شاحنته الصغيرة متضايقاً، تحت وطأة إحساس مقلق بالتهديد، وخرج من القبو. كانت جملة معاون المدير الأخيرة تدور في رأسه، سرّ النحلة لا وجود له، ولكننا نعرفه، نعرفه، نعرفه. رأى قناعاً يسقط، ولاحظ أن وراء القناع يوجد قناع مماثل بالضبط، وأدرك أن الأقنعة التالية ستكون مشابهة تماماً لا محال لتلك التي سقطت، صحيح أن سرّ النحلة لا وجود له، ولكنهم يعرفونه. لا يمكنه التحدث عن تشوشه هذا إلى مارتا ومرسيال لأنهما لن يتفهماه، ولن يتفهماه لأنهما لم يكونا معه هناك، في الجانب الخارجى من منضدة الكونتوار، يسمعان معاون مدير يشرح ما هي القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية، ربما يكمن سر النحلة في خلق دوافع وإحاعات كافية لدى الزبون كي ترتفع تدريجياً في نظره القيم الاستعمالية، وهي خطوة تتلوها بعد وقت قليل رفع القيم التبادلية، تفرضها حاجة المنتج لمشتري سُحبت منه شيئاً فشيئاً، وبخفة، وسائل الحماية الداخلية التي تنتج عن وعى شخصيته بالذات، وهذه الوسائل من قبل، إذا وُجد في أى وقت «من قبل» لا تشوبه شائبة، كانت توفر له، وإن كان بصورة ظرفية

غير ثابتة، إمكانية ما للمقاومة والسيطرة على النفس. المسئولية في ذلك الوضع المعقد والمشوش تقع بكاملها على عاتق سيبريانو أَلجور الذي تجرأ، وهو من هو، مجرد صانع خزف بسيط بلا بطاقة وليس سسيولوجياً ولا عالم اقتصاد، تجرأ في دماغه الجلف، على الركض وراء فكرة، كي ينتهي إلى الاعتراف، نتيجة غياب مفردة مناسبة ولعدم الدقة الخطرة والمحزنة في خصائص المصطلحات المستخدمة، بأنه غير مؤهل لنقل تلك الفكرة إلى لغة علمية بصورة كافية ربما تُسهل لنا، أخيراً، فهم ما أراد هو أن يقوله بلغته. وستبقى لذكريات سيبريانو أَلجور تلك اللحظة الأخرى من تشوش الحياة ومن الخطأ في فهمها، عندما ذهب في أحد الأيام إلى قسم المشتريات في المركز ليسأل عن أحد أبسط الأمور، ورجع من هناك بأشد أنواع الإجابات تعقيداً وغموضاً، وقد كانت ضبابية وغامضة إلى حدّ لم يكن هناك معه ما هو أكثر طبيعية من ضياعها في متاهة دماغه. لقد ظلت النوايا على الأقل بمنجى. ففي عمق نفسه يمكن لسيبريانو أَلجور أن يتذرع دوماً بأنه فعل كل ما في متناول شرطه كخزاف ليحاول كشف المعنى الخفى لعبارة معاون المدير الباسم العَرَافِيَّة، وحتى دون أن يكون واضحاً له هو نفسه أنه لم يتوصل إلى ذلك، إلا أنه خلّف بوضوح لمن يأتي بعد أنه لا يمكن، عبر الطريق الذي اتخذه هو، الوصول إلى أي مكان. هذه الأمور هي لمن يعرف، فكر سيبريانو أَلجور دون

أن يتمكن من إسكات قلقه الداخلى. ونقول نحن، على كل حال، إن آخرين فعلوا أقل وتبجحوا أكثر.

اللقافة التى تركها مرسىال عند حارس البوابة تضمنت قناعين، وليس قناعاً واحداً، تحسباً لتعطّل نظام تنقية الهواء فى أحدهما، كما تقول الملاحظة التى تضمنت من جديد الدعوة، اعتنى لى بهارتا، أرجوك. كان الوقت قد بلغ موعد الغداء تقريباً، صباح ضائع، هكذا فكر سيبريانو ألجور وهو يتذكر القوالب، والصلصال الذى ينتظر، والفرن الذى يفقد حرارته، وصفوف الدمى داخل الفرن. وبعد ذلك، بينما هو فى منتصف الجادة، يقود الشاحنة وظهره إلى جدار المركز الذى عليه عبارة، حضرتك زبوننا المفضل، ولكننا نرجوك ألا تخبر جارك بذلك، يرسم بوقاحة ساخرة خطأً بيانياً للعلاقة التى يتحقق فيها تواطؤ المدينة غير الواعى مع الخداع الواعى، الذى يتحكم فيها ويمتصها، ومرّت فى ذهن سيبريانو ألجور فكرة أنه لم يُضع هذا الصباح وحسب، وأن عبارة معاون المدير الفاحشة قد أطاحت بما تبقى من واقع العالم الذى تعلم فيه وسكنه للعيش، وأنه ابتداءً من اليوم سيكون كل شىء أقل قليلاً من مظهر، من وهم، من غياب معنى، من أسئلة بلا جواب. حال تبعث على الرغبة فى صدم الشاحنة بجدار، فكر. وتساءل لماذا لا يفعل ذلك، ولماذا من المحتمل أنه لن يصل أبداً إلى فعل ذلك، ثم راح يعدد أسبابه. وبالرغم من أن هذا منفصل عن سياق التحليل، من حيث المبدأ على الأقل،

إلا أن الأشخاص ينتحرون تحديداً لأنهم يمتلكون حياة، وأول الأسباب القوية لعدم إقدام سيبريانو أَلجور على عمل ذلك هو واقع أنه حى، ثم ظهرت بعد ذلك فوراً ابنته مارتا، المرتبطة والملتصقة جداً بمسوغ حياة الأب، وكانت كما لو أنها دخلت فى السبب السابق فى آن واحد، وبعد ذلك جاء مشغل الخزف، والفرن، وكذلك الصهر، طبعاً، وهو شاب طيب جداً ويحب مارتا كثيراً، ولقبة، مع أن أناساً كثيرين يرون قول ذلك فاضحاً ولا يمكن تفسيره موضوعياً، غير أنه يمكن حتى لكلب أن يربط شخصاً بالحياة، وكذلك، وكذلك، ولم يجد سيبريانو أَلجور أية أسباب أخرى، ولكنه كان يشعر مع ذلك بأن سبباً آخر مازال ينقصه، ماذا تراه يكون، وماذا لا يكون، وفجأة، دون سابق إنذار، أَلقت الذاكرة فى وجهه اسم ووجه المرأة المتوفاة، اسم ووجه جوستا إساسكا، لأنه إذا كان ما يبحث عنه سيبريانو أَلجور هو أسباب عدم صدمه الشاحنة بجدار، وإذا كان قد وجد أسباباً كافية بعددها وجوهرها، وهى كالتالى، هو نفسه، ومارتا، ومشغل الخزف، والفرن، ومرسيال، والكلب لقبة، وكذلك شجرة التوت التى لم يذكرها من قبل بسبب النسيان، فمن السخف أن السبب الأخير، هذا السبب غير المتوقع الذى أُنذر بوجوده بقلق كظل أو استفزاز، هو شخص لم يعد ينتمى إلى هذا العالم، صحيح أنه ليس أى شخص، وإنما المرأة التى كان متزوجاً منها، زميلته فى العمل، وأم ابنته، ولكن على الرغم من كثرة

المواهب الجدلية التي توضع فى القدر، سيكون من الصعب التأكيد أن ذكرى شخص ميت يمكن لها أن تكون سبباً لدفع شخص حى إلى مواصلة العيش. إن محباً للأمثال والأقوال المأثورة والحكم وغيرها من العبارات الشعبية السائرة، واحداً من غريبى الأطوار أولئك الذين يتصورون أنهم يعرفون أكثر مما علموهم إياه، سيقول إن ثمة قطاً مختفياً هنا وذيله خارج. ومع الاعتذار من عدم مناسبة المقارنة وانطوائها على عدم احترام، فإننا نقول إن ذيل الهر، فى الحالة المطروحة، هى المتوفاة جوستا، ومن أجل العثور على ما تبقى من القط لن يكون علينا سوى الانعطاف عند الناصية. سيبريانو ألجور لن يفعل ذلك. ولكنه على الرغم من كل ذلك، ولدى وصوله إلى القرية، سيترك الشاحنة أمام باب المقبرة التى لم يدخل إليها منذ ذلك اليوم، وسيتوجه إلى مدفن المرأة. سيظل هناك بضع دقائق مفكراً، ربما ليشكر، وربما ليتساءل، لماذا أتيت، وربما يسمع نفسه يسأل، لماذا أتيت، ثم يرفع رأسه وينظر فيما حوله كمن يبحث عن أحد. ولن يكون ممكناً وجود أحد تحت تلك الشمس، وفى موعد الغداء.

أول نصف جيل خرج من القرن كان من دمي رجل الإسكيمو، وهي التي كانت أقرب إلى متناول اليد، عند مدخل القرن بالضبط. إنها مصادفة طيبة الطالع حسب رأى مارتا الفوري، لا يمكن الحصول على بداية أفضل في التدريب، ليس هناك ما هو أسهل من هؤلاء الإسكيمو في الطلاء إلا دمي الممرضات التي لا ترتدى سوى الأبيض. عندما بردت الدمى تماماً حملوها إلى ألواح التجفيف حيث قام سيبريانو ألبور، مسلحاً بمسدس بخ الرذاذ ومحتمياً وراء فلتر القناع، بتغطية الدمى كلها بمنهجية بطلاء الأساس الأبيض الباهت. وتذمر في دخيلته من أنه ليس هناك ما يستدعى تغطيته فمه وأنفه، يكفى أن أقف ضد اتجاه الريح، فيطير الطلاء بعيداً ولا يمسنى، ولكنه فكر بعد ذلك في أنه يتحول إلى جاحد وناكر للجميل، دون أن ينسى أنه في مثل هذا الجو الطيب لن تُعدم أيام لا يهب فيها ولو نسيم خفيف. وبانتهاء الجزء الخاص به من العمل، ساعد سيبريانو ألبور ابنته في تهيئة الألوان، وإناء البترول، ورياش التلوين، ونماذج

الرسوم الملونة التي ستُستخدم كموديل، وأحضر المقعد الذي عليها أن تجلس عليه، وما كاد يراها تقوم بضربة الفرشاة الأولى حتى قال، هذه فكرة سيئة، فبوضع الدمى في صف هكذا، مثلما هي موضوعة، ستضطرين إلى التنقل بالمقعد طوال الوقت على امتداد الصف، وهذا سيُتعبك، ومرسيال قال لى، ما الذى قاله لك مرسيال، سألته مارتا، قال إنه عليك أن تتوخى الحذر الشديد، وأن تتجنبى الإرهاق، ما يسبب لى التعب هو سماع التوصية نفسها مرات عديدة، هذا من أجل خيرك، انظر، إذا ما وضعتُ أمامى دسته من الدمى، أترى، ستكون كلها فى متناول يدي ولن يكون علىّ سوى أن أحرك المقعد أربع مرات، ثم إن تحريكه يفيدنى، والآن بعد أن شرحتُ لك أسلوب عمل هذه السلسلة المعكوسة، أذكرك أنه ليس هناك ما هو أشد ضرراً بمن يعمل إلا حضور من لا يعملون شيئاً، مثلما هو وضعك فى هذه الحالة، لن أنسى أن أقول لك الشيء نفسه عندما أكون أنا من يعمل، لقد فعلت ذلك، بل كان ما فعلته أسوأ، فقد طردتنى، إننى ذاهب، لا يمكن الحديث معك، أريد أن أخبرك بأمرين قبل أن تذهب، الأمر الأول هو أنه إذا كان هناك شخص يمكن التحدث إليه فإنه أنا بالتحديد، وما هو الأمر الثانى، أعطنى قبلة. يوم أمس بالذات طلب سيبريانو ألجور عناقاً من صهره، ومارتا هى من تطلب الآن قبلة من أبيها، هناك شيء يحدث فى الأسرة، لم يعد ينقص إلا أن تبدأ بالظهور فى السماء مذنبات وشفقيات شمالية وساحرات يمتطين

مكانس، وأن ينبح لقيه طوال الليل على القمر، حتى لو لم يكن هناك قمر، وأن تتحول شجرة التوت بين لحظة وأخرى إلى عقيمة. اللهم إلا إذا كان ذلك كله ليس سوى نتيجة حساسيات انفعالية مفرطة، حساسية مارتا؛ لأنها حبلى، وحساسية مرسيال لأن مارتا حبلى، وحساسية سيبريانو أَلجور لكل الأسباب التي نعرفها ولأسباب أخرى لا يعرفها أحد سواه. وباختصار، قَبِلَ الأب ابنته، وقَبِلَت الابنة أباهَا، وقدما للقيه قليلاً من الاهتمام الذي يطالب به، ولم يعد بإمكان أحد التذمر. ومثلما يقال عادة، هنا لم يحدث أى شيء. دخل سيبريانو أَلجور إلى مشغل الخزف كي يبدأ صب دمي الدفعة الثانية الثلاثمئة، وكانت مارتا فى ظل شجرة التوت، أمام النظرات النزيهة للقيه الذى عاد إلى مسئولياته كحارس، تستعد لتبدأ طلاء رجال الإسكيمو. لم تستطع البدء، فقد نسيت أنه لا بد أولاً من المرور على الدمى بورق الزجاج، تشذيبها من زوائد السكب، ومن عدم استواء السطوح، ومن عيوب الإنجاز، ثم تنظيفها من الغبار، ولأن النكبات لا تأتي منفردة، ونسيان شيء عموماً يُذَكِّرُ بنسيان آخر، فإنها لا تستطيع طلاء الدمى مثلما فكرت، بالانتقال من لون إلى آخر على التوالي، دون انقطاع حتى ضربة الفرشاة الأخيرة. فقد وردت إلى ذهنها تلك الصفحة من المرجع التى يُشرح فيها بوضوح أنه يجب أن يجف اللون تماماً قبل استخدام اللون التالى، أجل، ما يناسبنى الآن أكثر هو خط إنتاج متسلسل، قالت، أن تمر الدمى أمامى واحدة فواحدة لتتلقى اللون الأزرق،

ثم تمر مرة أخرى للأصفر، وبعد ذلك من أجل البنفسجي، ثم الأسود، والأحمر، والأخضر، والأبيض، والمباركة النهائية، هذه التي تتضمن كل ألوان قوس قزح، فليمنحك الربُ الصلاح، فأنا من جانبي فعلت ما أستطيعه، ولن يكون كبيراً الصلاح الذي يضيفه الرب المحكوم بالنسيان والوقائع الطارئة غير المتوقعة مثل أي كائن عادي فان آخر. المباركة النهائية التي تعزى إلى تتويج الجهود، وإلا فإن وعينا الذليل بأننا إذا لم نستطع التوصل إلى الإنجاز بصورة أفضل يكون سببه ببساطة هو أننا عاجزون عن ذلك. والتذرع بما يجب أن يكون، ما هو على الدوام إلا إضاعة للوقت، فالذرائع لا تعدو كونها مجموعة كلمات عرضية إلى هذا الحد أو ذاك، تنتظر أن تكتسب من ترتيب صياغتها معنى ليست متأكدة هي نفسها من أنها تتضمنه. تركت مارتا لقية ينظر إلى الدمى، ودون مزيد من الجدل بشأن ما لا مفر منه، ذهبت إلى المطبخ بحثاً عن ورقة الزجاج الناعمة الوحيدة التي تعرف أنها موجودة في البيت وفكرت، هذه ستستهلك في لحظة واحدة، يجب أن أشتري عدداً منها. ولو أنها نظرت من خلال باب مشغل الخزف، لرأت أن الأمور لا تجرى هناك أيضاً على ما يرام. لقد ادعى سيبريانو ألبور أنه قد ابتكر بعض الحيل لتسريع العمل، وهذا صحيح ومن وجهة نظر شمولية، إذا صح التعبير، ولكن السرعة ما لبثت أن أثبتت أنها لا تتناسب مع الإتقان، مما أدى إلى عدد من الدمى ذات العيوب أكبر بكثير مما جرى في المجموعة الأولى.

عندما رجعت مارتا إلى عملها كانت الدمى المعطوبة الأولى مستقرة على الرفوف، غير أن سيبريانو ألاجور، وبعد أن أجرى حسابات للزمن الذى كسبه والدمى التى فقدتها، قرر عدم التخلّى عن سرعة الإنتاج على الرغم من أن حيله التى لا غبار عليها لم تُشرح قط. وهكذا راحت الأيام تمضى. فبعد رجال الإسكيمو جاء دور المهرجين، ثم خرجت الممرضات، وتلا ذلك موظفو المندرين الصينيون، والآشوريون الملتحون، وأخيراً البهاليل الذين كانوا مستقرين إلى جانب جدار الصدراة. أما مارتا فنزلت فى اليوم الثانى إلى القرية واشترت دستتين من ورق الزجاج. وكان ذلك المتجر هو الذى بدأت إساورا العمل فيه، وقد كانت مارتا تعرف ذلك منذ أن زارتها بعد لقاء الجارة المشوّش، بالمعنى العاطفى، مع أبيها. هاتان المرأتان لا تلتقيان كثيراً، غير أن لديهما فائضاً من الأسباب للتحويل إلى صديقتين مقربتين. وبتكتم، بحيث لا تصل الكلمات إلى مسمع صاحب المتجر، سألت مارتا إساورا إن كانت تجد أنها على ما يرام فى هذا العمل، فأجابتها بنعم، إنها على ما يرام، وقالت، يمكن لإحدانا أن نعتاد. كانت تتكلم دون سعادة، ولكن بحزم، كما لو أنها تريد أن تبين أن الرغبة لا علاقة لها بالمسألة، وأن الإرادة، والإرادة وحدها هى التى لها الثقل الحاسم فى قرارها بقبول الوظيفة. كانت مارتا تتذكر كلمات سمعتها من قبل، أى عمل من أجل البقاء والعيش هنا. السؤال الذى وجهته إساورا بعد ذلك، بينما هى تلف أوراق الزجاج باللفظ المطلوب، فهمته مارتا كصدى

مشوه، ولكن يمكن التعرف إليه، لتلك الكلمات، وفي بيتكم، كيف هم الجميع، إنهم متعبون، فالعمل كثير، ولكنهم على ما يرام عموماً، المسكين مرسياال اضطر إلى العمل فى الضرن فى يوم عطلته، أظن أنه مازال يعانى الألم فى كليتيه. كانت أوراق الزجاج ملفوفة وجاهزة، وبينما إساورا تتلقى النقود وتعيد الفكة، سألت دون أن ترفع عينيها، وأبوك. لم تتمكن مارتا من الرد إلا بالقول إن أباهما على ما يرام، ومررت فى ذهنها فكرة غمّ مفاجئة، ها الذى ستفعله هذه المرأة بحياتها عندما يغادر. كانت إساورا تودع، فعليها تلبية زبون آخر، سلّمي، قالت، ولو أن مارتا سألتها فى تلك اللحظة، ها الذى ستفعلينه بحياتك عندما يغادر، فربما كانت ستجيب بهدوء، مثلما أجابت قبل قليل، يمكن لإحدانا أن نعتاد. أجل، إننا نسمع فى أحيان كثيرة، أو أننا نقوله نحن بالذات، يمكن للمرء أن يعتاد، يقولون، نقول، بهدوء يبدو حقيقياً، لأنه لا وجود له فى الحقيقة، ولم يُكتشف بعد أسلوب آخر للتعبير عن استسلامنا بقدر ممكن من الكرامة، وما لا يسأل عنه أحدٌ: ما هى الكلفة حتى يعتاد أحدنا. خرجت مارتا من المتجر والدموع تكاد تطفّر من عينيها. وبنوع من تأنيب الضمير اليائس، كما لو أنها تتهم نفسها بخداع إساورا، فكرت، ولكنها لا تعرف شيئاً، بل إنها لا تعرف أننا على وشك الذهاب من هنا.

نسيا تقديم الطعام إلى الكلب مرتين. كان لقية يتذكر أزمنة عوزه وبؤسه، حين كان الأمل فى الغد هو الطعام الوحيد المتوافر له لساعات طويلة تظل فيها

المعدة متلهفة إلى الطعام، لم يطالب بشيء، أهمل واجباته في الحراسة، استلقى إلى جوار كوخه، فهو يعرف من الخبرة القديمة أن الجسد المستلقى أكثر قدرة على تحمل الجوع، استلقى منتظراً، بصبر، أن يلطم أحد السيدين رأسه براحته ويهتف، يا للشيطان، لقد نسينا الكلب. وليس هذا بالأمر الغريب، فقد نسيا في هذه الأيام نفسيهما بالذات. ولكن بفضل هذا الانكباب الكامل على مهمتهما، واختلاسهما ساعات من النوم، بالرغم من أن سيبريانو ألجور لم يتوقف قطّ عن الاحتجاج على مارتا، عليك أن تستريحى، عليك أن تستريحى، بفضل هذا الجهد المتوازى، كانت الثلاثمئة دمية التي خرجت من الفرن قد نُظفت بورق الزجاج والفرشاة، وطلبت بالأصباغ وجفت جميعها، وعندما جاء اليوم الذى سيذهب فيه سيبريانو ألجور لإحضار صهره من المركز، كانت الثلاثمئة دمية أخرى قد جفت وتصلبت فى صلصالها الخام، دون عيوب مرئية، فهى أيضاً، بفضل الحر والهواء، تخلصت من الرطوبة وصارت جاهزة للطهو. بدا مشغل الخزف كما لو أنه يستريح من كل ذلك الإرهاق، وأن الصمت قد استلقى لينام. وفى ظل شجرة التوت، كان الأب والابنة ينظران إلى الستمئة دمية المصفوفة على الألواح الخشبية ويبدو لهما أنهما أنجزا عملاً عظيماً. قال سيبريانو ألجور، غداً لن أشتغل فى مشغل الخزف، فليس على مرسيال أن يجد نفسه وحيداً فى العمل فى الفرن، وقالت مارتا، أظن أنه علينا أن نستريح بضعة أيام قبل

البدء فى الجزء الثانى من الطلبية، وسألها سيبريانو
ألجور، ما رأيك بثلاثة أيام؟ وردت مارتا، سيكون
ذلك أفضل من أى شىء، وعاد سيبريانو ألجور إلى
السؤال، كيف تشعرين؟ وردت مارتا، متعبة، ولكننى
على ما يرام، وقال سيبريانو ألجور، أما أنا فأشعر
بأننى مثلما لم أكن قط، وقالت مارتا، لا بد أنه ذلك
الشعور الذى اعتدنا تسميته الرضا عن النفس بعد
إنجاز الواجب. وعلى عكس ما يمكن أن يكون قد بدا،
لم يكن فى هذه الكلمات أى نوع من السخرية، لم يكن
يرشح من هذه الكلمات شىء سوى إنهاك يحلو
تسميته غير متنهائٍ لو لم تكن المبالغة فى الوصف
جلية وغير متناسبة. ففى نهاية المطاف لم يكن
الجسد هو ما تشعر بأنه متعب جداً، وإنما لأنها تجد
نفسها عاجزة، وبلا مخرج، وهى تشهد همَّ أبيها المرير
وحزنه الذى لا يمكنه إخفاءه، وتقلب مزاجه، وأساليب
حرصه وسلطته المثيرة للشفقة، والتأكيد الحازم
والمتسلط للشكوك نفسها، كما لو أنه يظن أنه سيتمكن
بهذه الطريقة من انتزاعها من رأسه. وهناك أيضاً
تلك المرأة، إساورا، إساورا مادروجا، الجارة ذات
الإبريق، والتي لم تستطع أن تجيبها بأى شىء أكثر من
إنه على ما يرام على سؤالها الذى دمدمت به خافضة
بصرها بينما هى تعدّ النقود، وأبوك، وقد كان عليها
فى ذلك الحين أن تمسك بها من ذراعها، وتصعد
معها إلى مشغل الخزف، وتدخل وإياها حيث يشتغل
أبوها وتقول، ها هى ذى هنا، ثم تغلق الباب وتتركهما
هناك فى الداخل إلى أن تنفعهما الكلمات فى شىء

ما، حيث إن الصمت، ويا للصمت من مسكين، فهو ليس سوى هذا بالذات، مجرد صمت، ولا أحد يجهل أن من يبدو مفوهين قد تسببوا، في أحيان كثيرة، في تفسيرات خاطئة، ونتائج جدية وكارثية أحياناً. إننا شديداً الاعتدال، شديداً الجبن للمغامرة بالإقدام على عمل كهذا، فكرت مارتا وهي تتأمل أباهما الذي بدا أنه قد نام، إننا سجناء إلى حد بعيد في شبكة ما يسمى العرف الاجتماعي، في شبكة عنكبوت ما هو مناسب وما هو غير مناسب، فإذا ما عُرف أنني أقدمت على عمل كهذا سيقولون لي على الفور إن لقاء امرأة بين ذراعي رجل، وسيكون هذا هو التعبير، ليس إلا إساءة احترام لشخصية الآخر، والأدهى أنه تهور غير مسئول، فمن يدري ما الذي يمكن أن يحدث لهما في المستقبل، فعادة الأشخاص ليست بالشئ الذي يُفبرك اليوم ونستطيع التأكد من أنه سيستمر في الغد، فقد نلتقي ذات يوم بشخص منفصل ممن كنا قد جمعناهم معاً ونجازف بالتعرض لأن يقال لنا لقد كنتم السبب. لم تشأ مارتا الاستسلام لخطبة الحس السليم العام هذه، وقالت لنفسها، إنها الحصيلة المنطقية والارتيازية لمعارك الحياة القاسية، ثم أضافت، أضف إلى ذلك أنه لن يحدث كل شيء بالضرورة غداً، هناك أشياء لا تحدث إلى بعد غد، ماذا قلت، سأل أبوها بسرعة، لا شيء، أجابته، لقد كنت هادئة وصامتة كيلا أوقظك، لم أكن نائماً، ولكنك بدوت لي نائماً، قلت إن هناك أشياء تحدث بعد غد، ييا للغرابة، أنا قلت هذا، سألت مارتا، لم

أحلم به، أنا من حلمت به إذاً، يجب أن أكون قد نمت وأفقت في الحال، فهكذا هي الأحلام، لا رأس لها ولا أقدام، أو أنها برأس وأقدام، ولكن الأقدام تذهب دوماً في اتجاه والرأس في اتجاه آخر، وهذا ما يوضح صعوبة تفسير الأحلام. نهض سيبريانو ألاجور، لقد اقترب موعد إحضار مرسيل، ولكنه كان يفكر في أنه ربما يجدر به أن يذهب باكراً بعض الشيء ويمر بقسم المشتريات، وهكذا أخبرهم بأن الثلاثمائة الأولى قد انتهت ونرتب مسألة التسليم، إنها فكرة جيدة، قالت مارتا. خلع سيبريانو ألاجور ملابسه، وارتدى قميصاً نظيفاً، استبدل الحذاء، وخلال أقل من عشر دقائق كان يصعد إلى الشاحنة، إلى اللقاء، قال، إلى اللقاء يا أبى، اذهب بحذر، وعد بمزيد من الحذر، أتخجلين من قول ذلك، أجل، عد بحذر أشد، لأنكما ستكونان اثنتين، هذا ما أقوله دائماً، وسأظل أقوله، لا يمكن الجدل معك، فأنتِ تجدين جواباً لكل شيء. جاء لقيه ليسأل سيده إذا كان بإمكانه الذهاب معه هذه المرة، ولكن سيبريانو ألاجور قال له لا، وإن عليه أن يصبر، فالمدن ليست المكان الأفضل للكلاب.

ما كان للرحلة، وهي واحدة أخرى بعد رحلات عديدة، أن يكون لها قصة لولا هاجس قلق صانع الخزف بأن شيئاً سيئاً يوشك أن يحدث. تذكر مصادفة ما كان قد سمعه من ابنته، هناك أشياء فقط بعد غد، بضع كلمات متفرقة، دون سبب أو مغزى ظاهر، لم تعرف هي أو لم تشأ تفسيرها، أشك

فى أننى كنتُ نائماً، ولكننى لا أفهم ما الذى دفعها
للتلميح إلى أننى كنت أحلم، فكر، وفى الحال، بعد
تذكّره الجملة مباشرة، ترك تفكيره يوصل فى ذلك
الطريق نفسه وبدأ يترنم فى رأسه بترنيمة متسلطة،
هناك أشياء فقط بعد غد، هناك أشياء فقط فى
الغد، هناك أشياء اليوم، ثم يأخذ بترديد الترنيمة
معكوسة، هناك أشياء اليوم، هناك أشياء فقط فى
الغد، هناك أشياء فقط بعد غد، وراح يكررها مرات
ومرات حتى انتهت إلى فقدان وقعها ومعناها، معنى
غداً وبعد غد وحده ظل فى رأسه، مثل نور إنذار
يضىء وينطفئ، اليوم، هذا اليوم، هذا اليوم، هذا
اليوم، اليوم، اليوم، اليوم. اليوم ماذا، تساءل بعنف،
محاوفاً مناوأة العصبية السخيفة التى جعلت يديه
ترتعثان على المقود، إننى ذاهب إلى المدينة لإحضار
مرسيال، وسأذهب إلى قسم المشتريات لأخبرهم بأن
الدفعة الأولى من الطلبة جاهزة للتسليم، كل ما أفعله
معهود، عادى، منطقى، وليس لدى مسوغ للقلق، وأنا
أقود السيارة بحذر، حركة السير سلسة، عمليات
السطو فى الطريق العام انتهت، أو على الأقل لم يعد
يُسمع شىء عنها، وبهذا لا يمكن حدوث شىء سوى
الرتابة المعهودة، الخطوات نفسها، الكلمات نفسها،
الحركات نفسها، منضدة كونتوار قسم المشتريات،
معاون المدير الياسم أو غير المهذب، أو المدير نفسه ما
لم يكن فى اجتماع وتتملكه نزوة اللقاء بى، وبعد ذلك
باب الشاحنة الذى يُفتح، ومرسيال الذى يدخل،
مساء الخير يا أبتاه، مساء الخير يا مرسيال، كيف

كان عملك هذا الأسبوع؟ ولا أدري إذا كان يمكن لعشرة أيام أن تُسمى أسبوعاً، ولكننى لا أعرف طريقة أخرى لتسميتها، وسيقول هو، كالعادة، وسأقول أنا، أنهينا المجموعة الأولى من الدمى، وقد حددت موعد تسليم الدفعة الأولى مع قسم المشتريات، كيف هى مارتا؟ سيسأل هو، متعبة، ولكنها على ما يرام، سأجيب أنا، وهذه كلمات نقولها باستمرار أيضاً، ولست أستغرب أننا حين ننتقل من هذا العالم إلى العالم الآخر، سنواصل إيجاد القوة لنرد على من تخطر له الفكرة الحمقاء بسؤالنا كيف حالنا، ميتون، ولكننا على ما يرام، هذا ما سنقوله. ولكى يشغل نفسه عن رفقة الأفكار المشثومة الملحة على مضايقته، جرب سيبريانو ألجور أن يوجه اهتمامه نحو المشهد الطبيعى، وفعل ذلك كوسيلة أخيرة؛ لأنه يعرف جيداً أنه لا وجود لما يمكن أن يطمئنه فى المشهد الكثيب للدفيئات البلاستيكية الممتدة إلى أبعد مما يبلغه البصر، على هذا الجانب وذاك، حتى الأفق، مثلما يمكن تمييز ذلك بصورة أفضل من أعلى المرتفع الصغير الذى تصعده الشاحنة فى هذه اللحظة بالذات. وفكر، ويطلقون تسمية الحزام الأخضر على هذا المدى الكثيب، على هذا الميدان الصموت، على هذه الأسراب من كتل الجليد المتسخة التى تقطر عرقاً على من يعملون داخلها، هذه الدفيئات فى نظر أناس كثيرين هى آلات لصنع الخضراوات، والحقيقة أنه لا وجود لأية صعوبة فى ذلك، إنه أشبه باتباع وصفة، تُخلط المكونات المناسبة، وتضبط درجة

الحرارة ودرجة الرطوبة، يُضغَط زَر وبعْد قليل تُخرج خلسة. والاستياء لا يمنع سيبريانو أَلجور بالطبع من الاعتراف بأنه بفضل هذه الدفيئات يحصل على الخضار في الطبق على امتداد السنة، ما لا يستطيع تحمله هو أن يُعمد باسم الحزام الأخضر مكان لا وجود فيه لهذا اللون بالذات، اللهم إلا في الأعشاب القليلة التي تُترك لتنمو على الحواف الخارجية للدفيئات. وهل سيكون الأمر أكثر بهجة لو كان البلاستيك أخضر اللون، سأله فجأة الخاطر الذي يورق الطبقة السفلى من دماغه، هذا الخاطر القلق الذي لا يشعر بالرضا أبداً عما جرى التفكير فيه وأُخذ القرار بشأنه في الطبقة العليا، ولكن سيبريانو أَلجور فضل ألا يردّ على السؤال الوجيه، وتظاهر بأنه لم يسمع، ربما للهجة الوقحة التي تتخذها الأسئلة الوجيهة آلياً بمجرد توجيهها، مهما حاولت التتبع. لم يُحسن من حالته الحزام الصناعي الذي يشبه أكثر فأكثر منشأة أنبوبية في توسع مستمر، هيكل أنابيب صممه غاضب ونفذه مُهلوس، ولكن القليل هو شيء ما، ومن الأسوأ إلى الأقل سوءاً، فقد تعكر تفكيره وتحول قلقه إلى التأفف. لاحظ أن اصطفاًف أحياء الأكواخ صار أقرب كثيراً من الطريق العام، مثل قرية نمل تعود إلى الأخدود بعد المطر، فكر وهو يهز كتفيه، لن تتأخر عمليات السطو على الشاحنات من التجدد، وأخيراً، وببذل جهد هائل لينفصل عن الشبح الجالس إلى جانبه، دخل إلى حركة المرور المضطربة في المدينة. لم يكن موعد خروج مرسيال قد حان بعد،

وكان لديه متسع من الوقت للذهاب إلى قسم المشتريات. لم يطلب التحدث إلى المدير، لأنه يعرف جيداً أن المسألة التي جاء من أجلها ليست سوى ذريعة ليستبقوه في الذهن، مجرد تذكير عابر كيلا ينسوا وجوده، كيلا ينسوا أن هناك فرناً على بُعد حوالي ثلاثين كيلومتراً يشوى صلصالاً بهمة ونشاط، وامرأة تظلي، وأباها يصب القوالب، وعيونهم جميعاً مصوبة إلى المركز، ولا تقولوا لي إنه ليس للأفران عيون، بل لها يا سيدي، ولو لم يكن لها عيون لما عرفت ما الذي تصنعه، إن لها عيوناً، وكل ما هنالك أنها مختلفة عن عيوننا. استقبله معاون المدير الذي التقى به في المرة السابقة، ذلك المعاون اللطيف والباسم، ما الذي جاء بك اليوم، سأله، الثلاثمئة دمية صارت جاهزة، وجئت أسألك متى تريدني إحضارها، عندما تشاء، غداً بالذات، لا أدري إذا كنت أستطيع المجيء غداً، فصهري سيكون في البيت لأنه يوم عطلته، وهو يستغل الفرصة ليساعدني في طهو الثلاثمئة الأخرى، بعد غد إذاً، بأسرع ما يمكن، فقد خطرت لي فكرة وأريد تطبيقها بسرعة، بشأن دُمَي، بالضبط، هل تتذكر أنني حدثتك عن عملية سبر للرأى، أذكر ذلك، أجل يا سيدي، سبر حول حالة المبيعات السابقة والوضع الناشئ عن استخدام المنتج، مرحى، إنك تتمتع بذاكرة جيدة، ليست بالذاكرة السيئة لمن في مثل عمري، هذه الفكرة طبقت في الحقيقة على حالات أخرى وأعطت نتائج معتبرة، وتتلخص في أن نوزع كمية من الدمى على عدد محدد من كبار

المشترين، وفق توزيع اجتماعى وثقافى متنوع، ونستقصى بعد ذلك الرأى الذى تكوّن لديهم حول البضاعة، أقول هذا على سبيل التبسيط، لأن نظام أسئلتنا أشد تعقيداً كما يمكن لك أن تتصور، ليست لدى تجربة يا سيدى، فأنا لم أستطلع ولم أستطلع قط، إننى أفكر فى استخدام الثلاثمائة دمية الأولى فى عملية السبر، واختيار خمسين زيوناً، وتقديم مجموعة كاملة من الدمى الست لكل واحد منهم، وبعد أيام قليلة من ذلك معرفة الرأى الذى تشكل لديهم عن المنتج، تقدمونها مجاناً، سأله سيبريانو ألبور، أتعنى أنكم لن تدفعوا لى، ولا بأى حال يا سيدى العزيز، فالاختبار يجرى على نفقتنا، وبالتالي سنكون نحن من نتحمل التكاليف، لا نريد إلحاق الضرر بك. الراحة التى أحس بها سيبريانو ألبور أزاحت، للحظة، القلق الذى انبثق فجأة فى روحه، هذا هو المهم، ماذا سيحدث إذا كانت نتيجة استطلاع الرأى معاكسة، إذا ما ردّ معظم الزبائن المستقصين، أو جميعهم، على الأسئلة بجواب وحيد ونهائى: هذا منتج لا يهمنى. وسمع نفسه يقول، شكراً، ليس بدافع التهذب فقط، وإنما لأن العدل يفرض على تقديم الشكر، لأننا لا نلتقى فى كل يوم بشخص يطمئنا بالمعلومة الرحيمة بأنه لا يريد إلحاق الضرر بنا. عاد القلق يعضه فى معدته، ولكنه هو نفسه من لم يسمح بخروج السؤال من فمه، سيغادر كمن يحمل فى جيبه رسالة مختومة لا يمكن له فتحها إلا عندما يصير فى أعالي البحر ومصيره محدد،

مرسوم، مكتوب فى تلك الرسالة، اليوم، غداً، بعد غد. كان معاون المدير قد سأله، **ما جاء بك اليوم؟** ثم قال له بعد ذلك، **غداً بالذات**، ثم قال له أخيراً، **بعد غد إذاً**، صحيح أن الكلمات هى هكذا، تذهب وتجىء، وتذهب، وتجىء، وتجىء، وتذهب، ولكن لماذا انتظرتنى هذه الكلمات هنا، لماذا خرجت معى من البيت ولم تتركنى خلال الطريق، ليس غداً، ولا بعد غد، وإنما اليوم، الآن بالذات. وفجأة كره سيبريانو ألبور الرجل الذى أمامه، هذا المعاون اللطيف والحميم، شبه الودود، الذى تمكن فى المرة السابقة من التحدث معه حديث الند للند عملياً، مع الأخذفى الاعتبار بالطبع فوارق السن والوضع الاجتماعى الواضحة التى لم يبدُ له آنذاك أنها يمكن أن تشكل عائقاً أمام علاقة تستند إلى الاحترام المتبادل. إذا ما كانوا يفرسون سكيناً فى بطنك، فلتكن لديهم على الأقل اللياقة الأخلاقية بأن يكشفوا لك عن وجهه يتوافق مع عملية القتل، وجه يرشح حقداً وقسوة، وجه غضب معتوه، أو حتى برودة إنسانية، ولكن حباً بالرب، لا أن يبسموا لك بينما هم يمزقون أحشاءك، ألا يزدروك إلى هذا الحد، ألا يمنحوك آمالاً زائفة، كأن يقولوا لك، **لا تقلق**، بنصف دسطة من قُطب الجراحة ستعود مثلما كنت، أو أن يقولوا لك، **أتمنى من كل قلبى أن تكون النتيجة إيجابية**، ليس هناك ما يفرحنى أكثر من ذلك، صدقنى. هز سيبريانو ألبور رأسه بغموض، بحركة يمكن أن تعنى نعم بقدر ما يمكن لها

أن تعنى لا، وربما ليس لها أى معنى، وقال، على أن أذهب لأخذ صهرى.

خرج من القبو، قام بالالتفاف حول المركز وأوقف الشاحنة أمام باب خدمة الأمن. تأخر مرسيال أكثر مما هو معهود، وبدا عصبياً وهو يدخل إلى الشاحنة، مساء الخير يا أبتاه، قال، فقال سيبريانو أالجور، مساء الخير، كيف كان عملك هذا الأسبوع؟ كالعادة أجاب مرسيال، وقال سيبريانو أالجور، لقد أنهينا مجموعة الدمى الأولى، وقد حددت موعد التسليم مع قسم المشتريات، كيف هي مارتا؟ متعبة، ولكنها على ما يرام. لم يعودا إلى الكلام إلا بعد الخروج من المدينة. وعندما صارا عند مستوى الأكواخ قال مرسيال، أبتاه، لقد أخبرونى للتو بأننى قد رُقيت، فقد صرتُ حارساً مقيماً فى المركز اعتباراً من اليوم. أدار سيبريانو أالجور رأسه باتجاه صهره، نظر إليه كما لو أنه يراه أول مرة، اليوم، ليس بعد غد، ولا غداً، بل اليوم، لقد كان الهاجس على حق. اليوم ماذا؟ سأل نفسه، أهو التوعد الذى تتضمنه أسئلة استطلاع الرأى، أم هذا هو التهديد الآن، وقد تحقق أخيراً بعد الوعد به لوقت طويل. صحيح أنه يُرى - فى الحياة الواقعية أقل مما فى الكتب التى تروى قصصاً - أنه يمكن للمفاجأة المباغثة أن تصيب المرء المفاجأ بالبكم للحظة، ولكن نصف مفاجأة تؤدى إلى الصمت، ربما تظاهراً، وربما لكى تبدو مفاجأة كاملة، لا يتوجب أخذها بالاعتبار فى البدء. إنه اهتمام فى البدء.

فنحن نعرف منذ البداية أنه لا يوجد لدى هذا الرجل الذى يقود الشاحنة أى شك فى أن الخير الرهيب سيأتى ذات يوم، ولكن يمكن لنا أن نتفهم اليوم، وقد وُضع بين نارين، أنه وجد نفسه فجأة بلا قوة على اتخاذ القرار إلى أى منهما يتجه أولاً. وسنكشف منذ الآن، وإن كنا نعرف أننا سنلحق الضرر بانتظام التوالى الذى يجب أن تخضع له الأحداث، أن سيبريانو أَلجور لن يخبر صهره أو ابنته فى هذه الأيام التالية بكلمة واحدة بشأن محادثته المثيرة للقلق مع معاون مدير المشتريات. سينتهى به الأمر إلى التحدث فى الموضوع، أجل، ولكن فيما بعد، عندما يضيع كل شىء. أما الآن فيكتفى بالقول لصهره، قهائى، أعتقد أنك سعيد الآن، كلمات تافهة وغير مبالية تقريباً لا تتطلب كل ذلك الوقت لقولها، ومرسيال لن يشكره عليها، ولن يؤكّد كذلك إذا ما كان سعيداً مثلما يفترض حموه، أو أقل قليلاً، أو أكثر قليلاً، ما يقوله هو جدىّ مثل يد ممدودة، إنه خبر غير طيب بالنسبة إليك. فهم سيبريانو أَلجور ما يرمى إليه، فرماه بنظرة جانبية وهو يرسم ابتسامة تبدو سخرية من استسلامه هو نفسه، وقال، حتى أفضل الأخبار ليست طيبة فى نظر الجميع، فقال مرسيال، سترى كيف أن كل شىء سيُحل على أحسن وجه، لا تقلق، فقد قضى الأمر يوم قلتُ لكما إننى سأذهب للإقامة معكما فى المركز، لقد أعطيت كلمتى، قلتها ولا تراجع عنها، الإقامة فى المركز ليست نفيّاً بأى حال، قال مرسيال، لا أعرف كيف سيكون العيش فى

المركز، سأعرفه عندما أصير هناك، أما أنت فتعرف ذلك، ولكن فمك لم يتلفظ بأى شرح قط، لم تذكر أية قصة، أو أى وصف يتيح لى أن أفهم، ما يسمى فهماً بالفعل، هذا الذى تؤكدُه وأنت واثق من نفسك بأنه ليس نضياً بأى حال، ولكنك كنت فى المركز أيضاً، مرات قليلة، وبصورة عابرة دوماً، كمشتري يعرف ما يريد شراءه، أظن أن أفضل شرح للمركز هو فى القول إنه مدينة ضمن مدينة أخرى، لا أدري إذا كان هذا هو أفضل توضيح، ولكنه غير كافٍ على أى حال لأن أكون فكرة عما فى داخل المركز، يوجد هناك ما هو موجود فى أية مدينة، متاجر، أناس يمرون، يشترون، يتحدثون، يأكلون، يتسلون، يشتغلون، أى أنه بالضبط مثل القرية المتخلفة التى نعيش فيها، إلى هذا الحد أو ذاك، والمسألة فى العمق هى مسألة الحجم، لا يمكن للحقيقة أن تكون بهذه البساطة، أظن أن هناك بعض الحقائق البسيطة، هذا ممكن، لكننى لا أظن أنه يمكن لنا التعرف عليها داخل المركز. ساد الصمت قليلاً، وبعد ذلك قال سيبريانو الجور، وبما أننا نتحدث عن الحجم، فالمثير للاستغراب هو أنتى كلما نظرت إلى المركز من الخارج أشعر بأنه أكبر من المدينة نفسها، هذا يعنى أن المركز موجود ضمن المدينة، ولكنه أكبر من المدينة، أى أنه جزء أكبر من الكل، وربما السبب فى ذلك أنه أكثر ارتفاعاً من المباني المحيطة به، أكثر ارتفاعاً من أى بناء آخر فى المدينة، ربما لأنه منذ البداية راح يبتلع شوارع وساحات وأحياء بكاملها. لم يُجب مرسيال فى الحال،

فقد قدم الحمو للتو توضيحاً شبه بصرى للإحساس المشوش بالضيق الذى يستولى عليه فى كل مرة يرجع فيها إلى المركز بعد يوم الراحة، لاسيما خلال المناوبات الليلية تحت الإضاءة المقتضبة، وهو يجوب الردهات المقفرة، يصعد وينزل فى المصاعد، كما لو أنه يحرس العدم كى يبقى عدماً كما هو. فى داخل كاتدرائية كبرى خاوية، إذا ما رفعنا بصرنا نحو السقوف المقنطرة، نحو أعمال البناء العليا، يملكنا الإحساس بأن ارتفاعها أكبر من الارتفاع الذى تُرى عليه السماء فى حقل مكشوف. وبعد فترة من الصمت، قال مرسيال، أظن أننى أفهم فكرتك، وتوقف عند هذا الحد، فهو لا يريد أن يغذى فى روح حميه تياراً من الأفكار يمكن له أن يقوده إلى الانغلاق وراء خط دفاع يائس. لكن قلق سيبريانو أَلجور كان يمضى فى اتجاه آخر، حتى سيتم الانتقال؟ فى أسرع وقت ممكن، فقد رأيت الشقة التى خصصوها لى، إنها أصغر من بيتنا، ولكن ذلك منطقي، فعلى الرغم من اتساع المركز، إلا أن المكان ليس غير نهائى ولا بد من تقنيه، وهل تعتقد أن المكان سيتسع لنا جميعاً، سأله صانع الخزف متمنياً ألا يفهم الصهر من نيرة السخرية الكئيبة أنه تورط فى الكلام، إنه يتسع، اطمئن، فالشقة بالنسبة لأسرة مثلنا أكثر من كافية ولن نضطر إلى النوم جميعنا معاً، أجاب مرسيال. وفكر سيبريانو أَلجور، لقد أزعجته، ليتنى لم أسأله. ولم يعودا إلى الكلام حتى وصولهما إلى البيت. تلقت مارتا الخبر دون أن تبدى أية مشاعر. فما هو معروف

أنه سيحدث يكون بطريقة ما كما لو أنه قد حدث، فالانتظار يؤدي إلى ما هو أكثر من إبطال المفاجآت، إنه يخدر الانفعالات، فكل ما نتمناه أو نخشاه نكون قد عشناه خلال تمنينا له أو خشيتنا منه. وفى أثناء العشاء، قدم مرسيال معلومة مهمة كان قد نسيها، وقد استاءت مارتا صراحة من هذه المعلومة، هل تعنى أنه لا يمكن لنا أن نأخذ أشياءنا معنا؟ يمكننا أخذ بعضها، زينات البيت مثلاً، ولكن ليس الأثاث، ولا أواني المطبخ، ولا الأواني الزجاجية، ولا أدوات المائدة، ولا الشراشف، ولا الستائر، ولا أغطية الفراش، فالشقة تحتوى كل ما هو ضرورى، هذا يعنى أنه لن يكون هناك انتقال، انتقال، من ذاك الذى يسمى انتقالاً، فقال سيبريانو ألبور، الأشخاص هم الذين ينتقلون، هذا ما يعنيه الانتقال، وهل سنترك هذا البيت بكل ما فيه، قالت مارتا، سترين أنه لا مفر من ذلك. فكرت مارتا قليلاً، وكان عليها بعد ذلك أن تتقبل ما لا بد منه، سأتى إلى هنا بين حين وآخر لفتح النوافذ وتهوية الغرف، فالبيت المقفل هو مثل نباتات تُنسى سقايتها، يموت، يجف، يذبل. عندما انتهوا من تناول الطعام، وقبل أن تنهض مارتا لرفع الأطباق، قال سيبريانو ألبور، لقد كنت أفكر، فتبادلت الابنة والصهر النظرات كما لو أن كلاً منهما ينقل إلى الآخر كلمات إنذار، لا أحد يدري أين يمكن له أن يصل عندما يبدأ التفكير. ولكن الخزاف واصل، الفكرة الأولى هى أن مرسيال سيساعدنى غداً فى العمل فى الفرن، فقالت مارتا، أطلبُ الإذن لتذكيرك

بأننا اتفقنا على ثلاثة أيام من الراحة، أيام راحتك ستبدأ غداً، وأيام راحتك أنت، وراحتي لن تتأخر كذلك، عليها أن تنتظر قليلاً وحسب، حسن، هذه هي الفكرة الأولى، وما الثانية، أو الثالثة، سألته مارتا، تقوم في الصباح بوضع الدمى الجاهزة للطهو في الفرن، ولكننا لن نشعله، لأنى سأتولى ذلك بنفسى فيما بعد، ثم تساعدانى فى تحميل الدمى الجاهزة فى الشاحنة، وبينما أنقلها أنا إلى المركز وأعود، تظلان هنا مطمئنين، بلا أب ولا حم يتدخل حيث لا يستدعيه أحد، فسأله مرسيال أهذا هو الاتفاق الذى توصلت إليه مع قسم المشتريات، تسليم الدمى غداً، لم يكن هذا هو ما فهمته، ظننت أنك ستقلها فيما بعد، عندما نذهب الثلاثة معاً، فرد سيبريانو الجور، هكذا أفضل، يمكننا كسب الوقت، يمكن كسبه من جانب وفقدانه من جانب آخر، لأن الدمى الأخرى ستتأخر، لن تتأخر كثيراً، فسوف أشعل الفرن فور وصولى إلى البيت بعد عودتنا من المركز، ومن يدرى إذا لم تكن المرة الأخيرة، يا لفكرتك هذه، مازال أمامنا صنع ستمئة دمية، قالت مارتا، لست واثقاً جداً من ذلك، لماذا، لدينا فى المقام الأول الانتقال، فالمركز ليس شخصاً يمكنه أن ينتظر انتهاء حمى الحارس مرسيال جاتشو من إنجاز طلبية، حتى لو قلنا، على افتراض توافر الوقت، إننى قادر على إنجاز العمل وحدى، وفى المقام الثانى، وفى المقام الثانى ماذا، سأله مرسيال، هناك دوماً فى الحياة شىء ما يأتى بعد ما يظهر فى المقام الأول، أحياناً يكون لدينا

شعور بأننا نعرف ما هو، ولكننا نود تجاهله، وفي أحيان أخرى لا نستطيع حتى أن نتخيل ما يمكن أن يكون، ولكننا نعرف أنه موجود، دعك من التكلم كعراف، أرجوك، قالت مارتا، حسن، سيصمت العراف، وسنظل إذاً عند ذاك الذى ذكر فى المقام الأول، من أنه إذا توجب الانتقال خلال وقت قصير فلن يكون لدينا وقت لحل مشكلة الستمئة دمية المتبقية، ستكون مسألة يمكن بحثها مع المركز، قالت مارتا متوجهة إلى زوجها، فثلاثة أو أربعة أسابيع أخرى لا يمكن أن تعنى شيئاً لهم، تحدث إليهم، وإذا كانوا قد تأخروا كل هذا الوقت فى حسم مسألة ترقيتك، يمكن لهم مساعدتنا الآن فى هذا الأمر، كما أنهم سيساعدون أنفسهم؛ لأنهم سيحصلون بذلك على الطلبية كاملة، فقال مرسيال، لئن أتحدث فى هذا، فهو لا يستحق العناء، لدينا عشرة أيام كاملة للانتقال، ولا ساعة واحدة زيادة، إنها الأنظمة، يوم إجازتى القادم يجب أن أقضيه فى الشقة، يمكنك أن تأتى لقضاء يوم عطلتك هنا أيضاً، قال سيبريانو الجور، فى بيتك الريفى، لئن يُنظر بعين الرضا أن أرقى إلى حارس مقيم وأتغيب عن المركز فى أول يوم عطلة لى، عشرة أيام هى وقت قصير، قالت مارتا، ربما تكون وقتاً قصيراً لو كان علينا حمل الأثاث وكل ما شابه ذلك، ولكن الشئ الوحيد الذى علينا نقله هو أجسامنا والثياب التى نرتديها، وهذه أشياء يمكن إدخالها إلى الشقة خلال أقل من ساعة عند الضرورة، فى هذه الحال، ماذا علينا أن نفعل بما

تبقى من الطلبية، سألت مارتا، المركز يعرف ذلك،
والمركز سيعلن عن ذلك فى الوقت المناسب، قال صانع
الخزف. رفعت مارتا بمساعدة زوجها الأطباق عن
المائدة، ثم خرجت إلى الباب لتتفحص الشرشف، توقفت
قليلاً وهى تنظر إلى الخارج، وعندما رجعت قالت،
ما زالت هناك مسألة بحاجة إلى حل ولا يمكن
تأجيلها حتى اللحظة الأخيرة، أى مسألة هى هذه؟
سألها مرسيال، الكلب، أجابته، اسمه لقيه، صحح لها
سيبريانو ألبور، وواصلت مارتا، بما أننا لسنا ممن
هم مستعدون لقتله أو تركه مهجوراً، فلا بد لنا من
تأمين مصيره، من أن نعهد به لأحد ما، إنهم فى
المركز لا يقبلون الحيوانات، أوضح مرسيال لحميه
متعمداً، فأراد سيبريانو ألبور أن يعرف، لا يقبلون
ولو سلحفاة بيتية، أو حتى كئارى، أو يمامة على الأقل،
فقالت مارتا، يبدو أنك فقدت فجأة اهتمامك
بالكلب، بل لقيه، بالكلب أو بلقيه، الأمر سيان، المهم
أن نعرف ما الذى سنفعله به، فأنا من جانبى أقول إن
لدى فكرة، وأنا أيضاً، قاطعها سيبريانو ألبور، ونهض
من فورهِ ومضى إلى حجرتهِ. عاد للظهور بعد بضع
دقائق، فاجتاز المطبخ دون أن يتلفظ بكلمة واحدة
وخرج. استدعى الكلب، هيا، تعال كى نقوم بجولة،
قال. نزل معه المنحدر، ولدى الوصول إلى الطريق
العام انعطف نحو اليسار، فى اتجاه معاكس للقريه،
وتوغل فى البريه. لم يبتعد لقيه عن كعبى سيده، لا
بد أنه كان يتذكر أزمنة تشرده التعيسة عندما كانوا
يطردونه بعنف من البساتين ويرفضون إعطاءه ولو

جرعة ماء. ومع أنه لم يكن خوفاً بأى حال، ومع أن أشباح الليل لا تخيفه، إلا أنه كان يفضل أن يكون الآن قابلاً في كوخه، أو أن يكون رابضاً، وهذا أفضل، في المطبخ عند قدمي أحدهم، ولا يقول أحدهم دون اهتمام، كما لو أنه لا فرق لديه، لأن الاثنين الآخرين يظلان في متناول بصره وشمّه، ولأنه يستطيع الانتقال من مكانه عندما يرغب دون أن يطرأ أى تبدل على انسجام اللحظة وسعادتها. لم يدم المشوار طويلاً. الحجر الذى جلس عليه سيبريانو ألاجور سيحل محل مقعد التأمّلات، لهذا السبب خرج من البيت، ولو أنه اختار المقعد الحقيقى فإن الابنة ستراه من باب المطبخ ولن تتأخر عن الاقتراب منه لتسأله إن كان على ما يرام، إنها لفتات اهتمام تُسعد دون ريب، ولكن الطبيعة البشرية مصنوعة بطريقة غريبة جداً يمكن معها لأشد حركات القلب صراحة وتلقائية أن تكون غير مناسبة فى بعض الظروف. ما فكر فيه سيبريانو ألاجور لا يستحق عناء التحدث عنه؛ لأنه فكر فيه فى مناسبات أخرى وقد وردت من ذلك التفكير معلومات أكثر من كافية. والجديد الذى حدث هنا هو أنه سمح بأن تنزلق على وجهه بضع دموع غالية كانت منذ زمن طويل محتجزة هناك، وكانت توشك أن تنسكب على الدوام، ولكنها كانت منذورة لهذه اللحظة الحزينة، لهذه الليلة التى بلا قمر، لهذه الوحدة التى لا تستكين. لم يكن هناك من جديد فى اقتراب لقيه من سيبريانو ألاجور ليلحق دموعه، لأن

ذلك حدث بكثرة فى تاريخ الأساطير وفى عجائب
الناس الكلبيين، إنها حركة مواساة سامية على أى
حال، ومهما بدت لنا مؤثرة، بل ويمكن لها أن تمس
أقل القلوب ميلاً إلى إظهار الأحاسيس، يجب ألا
تنسينا الحقيقة الفجة بأن مذاق الملح الكامن فيها
بوضوح محبب إلى حد بعيد لدى عموم الكلاب. ولكن
هذا الأمر لا ينفى مع ذلك الأمر الآخر، لأننا لو سألنا
لقية عما إذا كان الملح هو سبب لعقه لوجه سيبريانو
أالجور، فربما سيجيبنا بأننا لا نستحق الخبز الذى
نأكله، وأننا غير قادرين على الرؤية أبعد من أنوفنا.
ظل الكلب وصاحبه على تلك الحال أكثر من ساعتين،
كل منهما مستغرق فى أفكاره، ودون دموع يذرفها
أحدهما ويمسحها الآخر، ومن يدرى إذا ما كانا
ينتظران من دوران العالم أن يعيد وضع الأشياء فى
نصابها، دون نسيان بعضها الذى لم يتوصل إلى العثور
على مكان حتى الآن.

فى صباح اليوم التالى، ومثلما كان قد قرر، حمل سيبريانو أآور الدمى الجاهزة إلى المركز. وكانت الدمى الأخرى قد صارت فى الفرن بانتظار عودته. فقد نهض سيبريانو أآور باكراً، بينما كانت ابنته وصهره لا يزالان نائمين، وعندما ظهر مرسىال ومارتا أخيراً عند باب المطبخ ناعسين، كان نصف العمل قد أنجز. تناولوا الفطور معاً متبادلين عبارات تتفق مع المناسبة، أترىد مزيداً من القهوة؟ أعطنى الخبز، هل بقى شىء من المربى؟ وبعد ذلك ساعد مرسىال حماه فيما تبقى من العمل، ثم تولى العمل الحساس بتوضيب الثلاثمئة دمية الجاهزة فى الصناديق التى كانوا يستخدمونها من قبل فى نقل الأوانى الخزفية. وقالت مارتا لأبيها إنها ستذهب مع مرسىال إلى بيت حمويها، لأنه لا بد من إخبارهما بأمر الانتقال القريب، وسنرى كيف سيتلقيان الخبر، ولكنهما لن يظلا هناك على أى حال لتناول الغداء، وأنهت قائلة، من المحتمل أن نكون هنا عند عودتك إلى المركز. وقال سيبريانو أآور إنه سىأخذ لقىة معه، فسألته

مارتا إذا كان يفكر فى أحد فى المدينة عندما قال ليلة أمس إن لديه فكرة أيضاً من أجل حلّ مشكلة الكلب، وأجاب هو أن لا، ولكنه موضوع يمكن درسه، فبهذه الطريقة سيكون لقيه على مقربة منهم، ويستطيعون رؤيته كلما أرادوا ذلك. وأعربت مارتا عن أنها لم تعرف أن لأبيها أصدقاء مقربين فى المدينة، أشخاصاً محل ثقة يستحقون - وقالت كلمة يستحقون متعمدة - أن يُعهد إليهم بحيوان يعتبرونه فى ذلك البيت شخصاً منهم. وردّ سيبريانو ألاجور بأنه لا يتذكر أنه قال يوماً إن له أصدقاء مقربين فى المدينة، وما حمل الكلب معه إلا ليشغل نفسه عن أفكار لا يريد لها أن تشغله. فقالت مارتا إنه إذا كانت لديه مثل هذه الأفكار فعليه أن يشاطر فيها ابنته، فكان ردّ سيبريانو ألاجور عليها بأن التحدث إليها عن أفكاره سيكون أشبه بنزول المطر على الماء، لأنها تعرف أفكاره مثله أو أفضل منه، ليس كلمة كلمة بالطبع، مثل تسجيل آله التسجيل، وإنما تعرفها فى العمق والجوهر، عندئذ قالت له إن الحقيقة، برأيها المتواضع، هى عكس ذلك بالضبط، وإنها لا تعرف شيئاً مما هو جوهرى وعميق، وإن الكثير من الكلمات التى تسمعها منه لا تعدو أن تكون ستائر دخانية، وهو أمر من جهة أخرى غير مستغرب لأن الكلمات، فى أحيان كثيرة، لا تنفع إلا فى ذلك، ولكن هناك ما هو أسوأ من ذلك، عندما تصمت الكلمات تماماً وتتحول إلى جدار صمت متين، فلا يعرف المرء ما الذى عليه عمله أمام ذلك الجدار، ليلة أمس ظلمت هنا

بانتظاركَ، وبعد ساعة ذهب مرسيال إلى الفراش وأنا أنتظر، وأنتظر، بينما السيد أبى يقوم بنزهة مع الكلب لا أدري فى أى مكان، هنا فى الحقول، طبعاً فى الحقول، الحقيقة أنه ليس هناك ما هو أكثر بهجة من المشى فى الحقول ليلاً، دون رؤية أين نضع أقدامنا، كان عليك أن تنامى، هذا ما انتهيتُ إليه طبعاً كيلاً أتحوّل إلى تمثال من الملح، كل شىء على ما يرام إذأ، ولا مزيد من الحديث فى الموضوع، ليس كل شىء على ما يرام، لا يا سيدى، لماذا؟ لأنك سلبتني أعز ما كنتُ أتمنى رؤيته فى تلك اللحظة، وما هو ذلك، رؤيتك تعود، هذا وحسب، رؤيتك تعود، ستفهميننى ذات يوم، أرجو ذلك، ولكن ليس بالكلام، أرجوك، فقد سئمت الكلام. كانت عينا مارتا تلمعان خاليتين من الماء، لا تهتم بي، قالت، يبدو أننا نحن النساء الضعيفات غير قادرات على التصرف بطريقة أخرى عندما نكون حوامل، نعيش كل شىء بطريقة مبالغ فيها. صرخ مرسيال من الفناء بأن الحمولة جاهزة، وأنه يمكنه الانطلاق بها متى شاء. خرج سيبريانو الجور، صعد إلى الشاحنة ونادى لقيه. والكلب الذى لم تخطر لباله إمكانية مثل هذا الحظ، قفز كالبرق إلى جانب صاحبه، وظل هناك جالساً، مبتسماً، بضم مفتوح ولسانه خارج منه، سعيداً بالرحلة التى ستبدأ، وفى هذا الأمر، كما فى أمور أخرى كثيرة، تكون الكائنات البشرية مثل الكلاب، تضع كل آمالها على ما سيأتى عند المنعطف، ثم تقول سنرى بعد ذلك. حين اختفت الشاحنة وراء أول بيوت القرية، سأل مرسيال،

هل تجادلتِ معه، إنها المشكلة الدائمة نفسها، إذا لم نتكلم نكون تعساء، وإذا تكلمنا نختلف، لا بد من الصبر، فلا حاجة لحدة بصر استثنائية لإدراك أن أباك يرى نفسه كما لو أنه يعيش في جزيرة تصبح أصغر مع كل يوم يمر، تفقد قطعة، ثم أخرى، ولاحظي أنه حمل للتو الدمى إلى المركز، وسيعود بعد ذلك ليشعل الفرن، ولكنه يفعل هذه الأشياء كما لو أنه يشك في كونها ما كانت عليه ذات مرة، كما لو أنه يتمنى أن تظهر له عقبة لا يمكن تجاوزها كي يتمكن من القول أخيراً انتهى الأمر، أظن أنك على حق، لا أدري إذا كنت على حق، ولكنني أحاول أن أضع نفسي في مكانه، فخلال أسبوع سيفقد كل ما نراه هنا جزءاً كبيراً من المعنى الذي يمتلكه، سيظل البيت بيتنا، ولكننا لن نعيش فيه، والفرن لن يحتفظ باسمه كفرن إذا لم يكن هناك من يطلقه عليه كل يوم، وشجرة التوت ستواصل إعطاء توتها، ولكنها لن تجد من يأتي لقطافها، وإذا كنت أنا الذي لم أولد ولم أترعرع تحت هذا السقف، لن أجد سهولة في انفصالي عنه، فلن يكون ذلك سهلاً على أبيك، سنأتى إلى هنا بكثرة، أجل، سنأتى إلى البيت الريفى، مثلما سماه هو، فقالت مارتا، وهل يوجد حلّ آخر، تتخلى عن كونك حارساً وتأتى لتعمل في مشغل الخزف معنا، لتصنع خزفاً لا يرغب فيه أحد، أو دمي لن يرغب فيها أحد لوقت طويل، في هذه الحال التي تمضى بها الأمور، لا وجود بالنسبة لى أيضاً سوى حل وحيد، أن أكون حارساً مقيماً في المركز، لقد بلغت ما أردت بلوغه،

عندما كنتُ أظن أن هذا هو ما أريده، والآن، فى الأوقات الأخيرة تعلمتُ من أبيك شيئاً كانت تنقصنى معرفته، ربما لم تنتبهى إلى ذلك، ولكن من واجبى أن أخبرك أن الرجل الذى تزوجت منه هرم أكثر بكثير مما يبدو عليه، لم تقدم لى أى جديد، فقد نلتُ امتياز أن أشهد هرمه، قالت مارتا باسمه. ولكن وجهها اكتسى بالجدية بعد ذلك، الحقيقة أن قلبنا ينقبض حين نفكر فى أنه لا بد لنا من ترك هذا كله، قالت. كانا تحت شجرة التوت، يجلسان معاً، على أحد ألواح التجفيف، ينظران إلى البيت الذى أمامهما، ومشغل الخزف الذى جداره فى الوسط، ولو أدارا رأسيهما قليلاً فسيريان بين الأوراق باب الفرن المفتوح، الصباح جميل، مشمس، ولكنه بارد، ربما سيتبدل الجو. كانا يشعران بأنهما على ما يرام، بالرغم من الحزن، يشعران بأنهما سعيدان تقريباً، تلك الطريقة الكئيبة التى تختارها السعادة، أحياناً، لتتبدى بها، ولكن مرسىال نهض فجأة عن لوح التجفيف الخشبى وهتف، لقد نسيت أبوى، علينا الذهاب للتحديث مع أبوى، أراهن على اثنين مقابل واحد بأنهما سيصران على فكرة أنهما هما من يجب أن يذهبا للعيش فى المركز وليس أبوك، الاحتمال الأكبر أنهما لن يتكلما فى هذا الأمر بحضورى، إنها مسألة لباقة، مسألة ذوق سليم، أملُ ذلك، أمل أن تكونى على حق.

لم تكن كذلك. وبينما سيبريانو ألجور عائد من إيصال الدمى إلى المركز، أثناء اجتيازه القرية باتجاه

البيت، رأى ابنته وصهره يسيران أمامه. كان الصهر يحيط كتفها بإحدى ذراعيه ويبدو كأنه يواسيها. أوقف سيبريانو أَلجور الشاحنة، اصعدا، قال، لم يأمر لقية بالرجوع إلى المقعد الخلفى؛ لأنه يعرف أنهما يرغبان فى أن يكونا معاً. كانت مارتا تحاول مسح دموعها بينما مرسيال يقول لها، لا تضعفى، أنت تعرفين كيف هما، ولو كنت أعرف أن هذا سيحدث لما جئت بكِ معى، ها الذى جرى؟ سألهما سيبريانو أَلجور، مسألة المرة السابقة نفسها، يريدان العيش فى المركز، وأنهما أحق بذلك أكثر من أشخاص آخرين، وأن الوقت قد حان كى يستمتعا بالحياة، ولم يهتما بوجود مارتا، كان مشهداً مؤسفاً حقاً، آسف. ولم يكرر سيبريانو أَلجور هذه المرة استعداداه للمبادلة معهما، لأن ذلك سيكون أشبه بإحداث ألم جديد فى جرح قديم، واكتفى بالسؤال، وكيف انتهى الجدل؟ قلتُ لهما إن الشقة التى خُصصت لى هى لزوجين مع ابن فقط، وإن أقصى ما يمكن تقبله هو وجود شخص آخر من الأسرة إذا ما استُخدمت لإقامته حجرة صغيرة مخصصة فى الأصل لأن تكون غرفة مهملات، أما شخصان فلا متسع لهما بأى حال، وماذا قالاً؟ أرادا أن يعرفا ما الذى سيحدث إذا ما أنجبنا مزيداً من الأبناء، وقد أجبتهما بالحقيقة، بأن المركز فى مثل هذه الحالة ينقلنا إلى شقة أوسع، فسألانى لماذا لا يستطيعون عمل ذلك الآن، ويأخذون فى الاعتبار أن أبوى الحارس المقيم يريدان كذلك العيش فى المركز، وماذا قلت أنت؟ قلت لهما إن الطلب لم يقدم فى

الوقت المحدد، وإن هناك أنظمة، ومهلاً، وقواعد لا بد من التقيد بها، وربما سيكون من الممكن العودة إلى دراسة المسألة فيما بعد، وهل تمكنت من إقناعهم؟ لا أعتقد ذلك، ولكن الفكرة بأنه يمكن لهما الانتقال إلى المركز في وقت لاحق حسنت قليلاً من مزاجهما، حتى المرة القادمة، أجل، والدليل أنهما لم يتوقفا عن القول لى إنهما ليسا المذنبين في أن المسألة لم تُعالج في الوقت المناسب، أبواك ليسا مغفلين بأي حال، وخاصة أمي، فهذه الحرب في العمق هي حربها أكثر منها حرب أبي، وقد كانت عصية على القضم دائماً. كانت مارتا قد توقفت عن البكاء، وأنت، كيف تشعرين؟ سألتها سيبريانو ألبور، بالمهانة والعار، في البدء كانت مهانة اضطراري حضور جدل يدور ضدى مباشرة، ولكننى لا أستطيع التدخل فيه، وما أشعر به الآن هو العار، أوضحي، سواء شئنا ذلك أم لم نشأ فإن لهما الحق مثلنا، ونحن من نلوى عنق الأمور كيلا يتمكننا من الذهاب إلى المركز، لا تقولى نحن، إننى أنا، قاطعها مرسيال، فأنا من لا أريد العيش مع أبوى، أما أنت وأبوك فلا علاقة لكما بهذا، ولكننا شريكان بالتواطؤ في ظلمك، أنا أعرف أن موقفى سيبدو مستتكرأ إذا ما نُظر إليه من الخارج، ولكننى اتخذته مشيئتى الحرة والواعية من أجل تجنب شرور أكبر، وإذا كنتُ أنا نفسى غير راغب فى العيش مع أبوى، فإن رغبتى أقل فى جعل زوجتى وابنى يعانيان ذلك، صحيح أن الحب يوحد، ولكنه لا يوحد الجميع، بل يمكن أن تكون مسوغات اتحاد البعض بالتحديد هي

مسوغات فراق آخرين، وكيف يمكنك أنت أن تكون متأكداً من أن مسوغاتنا تميل إلى جانب الاتحاد، سأله سيبريانو الجور، هناك سبب واحد فقط يشعرني بالسعادة لكوني لستُ ابنك، فأجابه مرسيال، دعني أحزر الحل، ليس ذلك صعباً، لأنك لو كنت ابني لما كنت متزوجاً من مارتا، بالضبط، لقد حزرت. ضحكا كلاهما، وقالت مارتا، أتمنى عند هذا الحد أن يكون وليدي قد اتخذ القرار الحكيم بالولادة ابنة انثى، لماذا؟ سألتها مرسيال، لأن هذه الأم المسكينة لن تجد القوة لتتحمل وحدها اعتداد أبيه وجده بنفسيهما. وتكرر الضحك، ولحسن الحظ أن أبوى مرسيال لم يمرا من هناك، لأنهما كانا سيظنان أن آل الجور يسخرون منهما، ويخدعون ابنيهما إلى حدّ جعله يضحك ممن منحاه الحياة. كانوا قد تجاوزوا آخر بيوت القرية. نبج لقية بسعادة حين رأى من أعلى المنحدر سطح مشغل الخزف، وشجرة التوت، والجزء العلوى من أحد جدران الفرن. ويقول العليمون إن السفر مهم جداً لتكوين الروح، ومع ذلك لا حاجة لأن يكون المرء متنور الذهن كي يدرك أن الأرواح، مهما كانت رحالة، لا بد لها من العودة بين حين وآخر إلى البيت، لأنها فيه فقط تتمكن من الحصول على فكرة مرضية إلى حد مقبول عن ذاتها والحفاظ عليها. فقالت مارتا، إننا منهمكون فى الحديث عن عدم الانسجام الأسرى، وعن العار والمذلة، وعن الاعتزاز بالنفس، وعن الرتابة والطموحات البائسة، ولا نفكر فى هذا الحيوان المسكين الذى لا يمكنه أن يتصور أنه

بعد عشرة أيام لن يكون معنا . أنا أفكر فى ذلك، قال مرسيال . لم يتكلم سيبريانو ألبور . أفلت يده اليمنى عن المقود، وكما لو أنه يداعب طفلاً، مرّ بها على رأس الكلب . عندما توقفت الشاحنة إلى جانب سقيفة الحطب، كانت مارتا أول من خرج، سأذهب لإعداد الغداء، قالت . ولم ينتظر لقيه أن يفتحوا له الباب، بل انسل بين المقعدين الأماميين، وقفز على ساقى مرسيال ثم خرج مندفعاً باتجاه الفرن، بمثانة مروعة تطالب براحة عاجلة . وقال مرسيال، الآن وقد صرنا وحدنا، أخبرنى كيف جرى تسليم البضاعة؟ لا جديد، كالعادة، قدمت وثائق التسليم وأنزلت الصناديق، تم العد، والموظف الذى تعامل معى تفحص الدمى واحدة واحدة ولم يجد شيئاً سيئاً، لم تكن أية واحدة منها مكسورة، ولم يكن هناك أى تقشر فى الطلاء، فقد قمت بعمل جيد عندما علّبتها، ولا شىء غير ذلك؟ لماذا تسألنى، أشعر منذ أمس بأنك تخفى شيئاً ما، لقد أخبرتك بما حدث دون أن أخفى أى شىء، لستُ أتحدث الآن عن تسليم البضاعة، فهذه الفكرة دارت فى رأسى مذ أحضرتنى من المركز، هذا الذى تعنيه إذا؟ لا أدرى، إننى أنتظر أن توضح لى، الألباز المضمره على سبيل المثال فى محادثة أمس ليلاً، خلال العشاء . ظل سيبريانو ألبور صامتاً، ينقر بأصابعه على إطار مقود السيارة كما لو أنه يقرر أية إجابة سيقدم بناء على إذا ما كانت نقرة الأصابع النهائية فردية أم زوجية . وأخيراً قال، قعال معى . خرج من الشاحنة وتقدم باتجاه الفرن ومرسيال

يتبعه . وكان قد وضع يده على أحد مزاليج الإغلاق، ولكنه توقف لحظة وطلب، لن تقول لمارتا كلمة واحدة مما ستسمعه، أعدك بذلك، ولا كلمة واحدة، لقد وعدتك. فتح سيبريانو ألاجور باب الفرن. أظهر ضوء النهار فجأة الدمى الصغيرة المجتمعة والمرتبة، عمياء بسبب الظلام من قبل، وعمياء بفعل النور الآن. قال سيبريانو ألاجور، من الممكن، بل من المحتمل جداً، أن هذه الدمى الثلاثمائة لن تخرج من هنا، لماذا؟ سأله مرسيال، قسم المشتريات قرر إجراء سير للسوق لتقويم درجة اهتمام الزبائن، والدمى التي نقلتها اليوم ستستخدم في ذلك، سير للسوق بدمى من الصلصال، سأله مرسيال، هذا ما أوضحه لي أحد معاوني المدير، ذاك الذي يزعجك، لا، بل معاون آخر، معاون لطيف، باسم، يتكلم معنا كما لو أنه يريد إدخالنا في قلبه. فكر مرسيال قليلاً وقال، لم يعد هذا مهماً في العمق، لا فرق لدينا، فخلال عشرة أيام على كل حال سنكون قد انتقلنا للعيش في المركز، أتظن أن الأمر غير مهم حقاً، وأنه لا فرق لدينا، سأله الحم، انظر، إذا خرجت نتيجة السير إيجابية فسيكون لدينا وقت لإنهاء الدمى وتسليمها، أما بقية الطلبية، كما هو منطقي، فستلغى بصورة آلية نتيجة الواقع الحتمي بأن مشغل الخزف سيتوقف عن العمل، وإذا كانت النتيجة سلبية، لدى رغبة في القول إن ذلك سيكون أفضل، لأنك ستتجنب أنت ومارتا مشقة الاضطرار إلى طهو الدمى وطلائها. أغلق سيبريانو ألاجور باب الفرن ببطء وقال، إنك تنسى بعض مظاهر

المسألة، وهى مظاهر تافهة الأهمية حقاً، مثل ماذا؟ إنك تنسى الصفعة التى يعينها رفضهم ثمرة عملك، وتنسى أنه لولا مصادفة توافق هذه الأحداث المشؤومة مع الانتقال إلى المركز لكنا فى الوضع نفسه الذى وجدنا أنفسنا فيه عندما توقفوا عن شراء الأوانى الخزفية، وكنا سنظل بلا الأمل السخيف بأنه يمكن لبعض دمي الصلصال المضحكة أن تنقذ حياتنا، هذا ما علينا التعايش معه، وليس مع ما سيكون أو ما كان يمكن أن يكون، يا لفلسفتك العجيبة والمسألة، اعذرني إذا كنتُ غير قادر على بلوغ ما هو أكثر من هذا، وأنا لا أستطيع بلوغ ما هو أبعد، ولكننى ولدت برأس يعانى داء عضالاً من القلق مما سيكون أو مما كان يمكن أن يكون، وما الذى جنيته من هذا القلق؟ سأله مرسيال، معك حق، لا شيء، مثلما أحسنتُ صنعاً بتذكيرى بأنه يتوجب التعايش مع ما هو كائن، وليس مع وهم ما كان يمكن أن يكون، لو أنه كان. وفى أثناء ذلك كان لقيه قد استراح من حاجته العضوية العاجلة، واستعادت قوائمه رشاقتها بعد انفلاته فى الركض فى محيط المكان، اقترب منهما وهو يهز ذيله، وهذا دليل معهود على السعادة والمودة، مع الأخذ فى الاعتبار هذه المرة اقتراب موعد الغداء، مما يعنى حاجة بدنية ملحة أخرى. داعبه سيبريانو ألجور بلى أذنه برفق، علينا أن ننتظر إلى أن تستدعينا مارتا يا فتى، فليس من اللائق أن يأكل كلب البيت قبل أصحابه، يجب احترام التراتبية، قال. ثم توجه إلى مرسيال، كما لو أن الفكرة قد خطرت له للتو،

سأشعل الفرن اليوم، قلت إنك ستشعله غداً، عند عودتك من المركز، لقد فكرتُ في الأمر ملياً، وستكون طريقة لشغل نفسي بينما تستريحان، أو إذا كنتما تفضلان فيمكنكما استغلال الشاحنة والقيام بنزهة، فمن المحتمل أنكما لن ترغبيا، بعد الانتقال، في الخروج من البيت الجديد بسرعة، وأقل من ذلك إلى مثل هذه الأماكن، إذا كنا سنأتى إلى هنا أم لا، ومتى سنفعل ذلك، هي أمور سننظر فيها فيما بعد، وما أريدك أن تقوله لى هو هل تعتقد فعلاً أنني رجل يمكن أن يخرج للنزهة مع مارتا وأتركك وحدك هنا تدس الحطب في الموقد، يمكننى عمل ذلك دون مساعدة، يمكنك ذلك طبعاً، ولكننى أنا أيضاً أرغب فى أن أكون جزءاً فعلاً فى هذه المرة الأخيرة التى يُشعل فيها الفرن، إذا ما قُدر لها أن تكون المرة الأخيرة، سنبدأ بعد الغداء إذا كان هذا هو ما ترغب فيه، هووافق، وأرجوك أن تتذكر أنني لا أريد كلمة واحدة حول مسألة السبر، يمكنك أن تطمئن. توجهنا إلى البيت والكلب يتبعهما، وكانا على بعد أمتار قليلة عندما ظهرت مارتا أمام باب المطبخ، كنتُ قادمة لاستدعائكما، قالت، فالغداء جاهز، سأقوم أولاً بتقديم الطعام للكلب، فقد فتحت الرحلة شهيته، قال الأب، طعامه موجود هناك، أشارت مارتا. تناول سيبريانو الجور القدر وقال، قعال معى يا لقية، لحسن الحظ أنك لستَ شخصاً، لأنك لو كنت شخصاً لبدأت ترتاب بما نعاملك به من عناية ورعاية فى الفترة الأخيرة. كانت قصعة لقية، كالعادة، إلى جانب

الكوخ الصغير، وإليها توجه سيبريانو ألاجور. سكب محتويات القدر فى القصعة وظل للحظة يتأمل الكلب وهو يأكل. وفى المطبخ، كان مرسيال يقول، سوف نشعل الفرن بعد الغداء، اليوم، سألت مارتا باستغراب، أبوك لا يريد ترك العمل إلى الغد، لسنا فى عجلة من أمرنا، لدينا ثلاثة أيام من الراحة، إنه يعرف أسبابه، وكالعادة، أسبابه لا يعرفها أحد سواه. قدر مرسيال أنه من الأفضل عدم الرد، فالقم عضو يكون محط ثقة أكبر كلما احتفظ بالصمت أكثر. بعد قليل دخل سيبريانو ألاجور إلى المطبخ. كان الطعام على المائدة، وكانت مارتا تسكب. وبعد قليل سيقول الأب، سوف نشعل الفرن، وسترد مارتا، عرفتُ ذلك، لقد أخبرنى مرسيال.

بهذه الكلمات أو غيرها جرى التذكر هنا أن الأيام السابقة كلها كانت عشية لليوم الحالى، وأن الأيام الآتية كلها ستكون كذلك. والعودة لأن يكون اليوم عشية، ولو لساعة واحدة، هى الرغبة المستحيلة لكل أمس مضى ولكل يوم آخذ بالمضى. لا يمكن لأى يوم أن يكون عشية طيلة الوقت الذى حلم به. بالأمس كان سيبريانو ألاجور ومرسيال جاتشو يدسان حطبا فى الموقد، ولو أن أحداً مرّ من تلك الأماكن ولم يكن مطلعاً على حقيقة الأحداث، لأمكن له أن يفكر، معتقداً أنه مصيب، إنهما هناك من جديد، وسيقضيان حياتهما فى ذلك. وهما الآن فى الشاحنة الصغيرة التى مازالت تحمل عبارة مشغل خزف

مكتوبة على اللوحتين الجانبيتين للهيكل، يتجهان إلى المدينة وإلى المركز، ومعهما مارتا جالسة إلى جانب السائق الذى هو زوجها فى هذه المرة. أما سيبريانو أَلجور فيجلس وحيداً فى المقعد الخلفى، ولقبة لم يأت معهم، فقد بقى لحراسة البيت. الوقت صباحاً، وباكراً جداً، فالشمس لم تولد بعد، والحزام الأخضر لن يتأخر فى الظهور، وبعد ذلك يأتى الحزام الصناعى، ثم أحياء الأكواخ، وبعدها الأرض المحايدة، وبعد ذلك البنايات قيد البناء عند الحد الفاصل، وبعد ذلك المدينة، الجادة الكبرى، وأخيراً المركز. أى طريق يُتخذ سيؤدى إلى المركز. لن يفتح أى من ركاب الشاحنة فمه طوال الطريق. فأناس مفوهون مثل هؤلاء، يبدو أنه ليس لديهم ما يقولونه فيما بينهم. ويُفهم فى الواقع أنه لا يوجد ما يستحق عناء الكلام، وإضاعة الوقت واستهلاك اللعاب لصياغة أقوال، جمل، كلمات، مقاطع صوتية فى حين أن ما يفكر فيه أحدهم يفكر فيه الآخران أيضاً. فلو قال مرسيال مثلاً، فحن ذاهبون إلى المركز لرؤية البيت الذى سنعيش فيه، فسوف تقول مارتا، يا للتوافق الغريب، فقد كنت أفكر فى الشيء نفسه، وحتى لو أنكروا سيبريانو أَلجور وقال، أنا لم أكن أفكر فى ذلك، ما كنتُ أفكر فيه هو أننى لن أدخل، سأظل فى الخارج منتظراً، فإنه يتوجب علينا ألا نغير اهتماماً لقوله، مهما كانت حازمة النبيرة التى ترن فى آذاننا، فسيبريانو أَلجور فى الرابعة والستين من العمر، وقد تجاوز سن نوبات غضب الطفولة ومازالت أمامه

سنوات عديدة ليصل إلى زمن نوبات غضب الشيخوخة. والحقيقة أن ما كان يفكر فيه سيبريانو ألبور هو أنه ليس أمامه مفر من مرافقة ابنته وصهره، وأن يبدى أفضل الملامح الممكنة حيال تعليقات كليهما، وتقديم رأى إذا ما طلبا منه ذلك، وباختصار، مثلما كان يقال فى الروايات القديمة، استنفاد كأس المرارة حتى البراز. وبفضل الوقت المبكر، وجد مرسىال مكاناً لإيقاف الشاحنة على بعد أقل من مئتى متر من المركز، ولكن الأمر سيختلف بعد أن يستقر بهم المقام، فالحراس المقيمون لهم حق الانتفاع بستة أمتار مربعة فى مرآب السيارات الداخلى. لقد وصلنا، قال مرسىال دون حاجة إلى ذلك وهو يشدّ مكبح اليد فى الشاحنة. لم يكن المركز مرئياً من هناك، ولكنه سيظهر أمامهم فور الانعطاف من ناصية الشارع الذى تركوا فيه السيارة. وشاءت المصادفة أن يكون تلك الجهة، النقطة، القسم، الوجه، الجانب الذى يسكن فيه المقيمون. المشهد لا يشكل أى جديد بالنسبة للثلاثة، غير أن هناك فرقاً كبيراً بين النظر لمجرد النظر، والنظر فى الوقت الذى يكون هناك من يقول لنا، فافذتان من تلك النوافذ ستكونان لنا، فافذتان فقط، سألت مارتا، لا يمكننا التذمر، فهناك شقق لها نافذة واحدة فقط، قال مرسىال، وهذا دون الحديث عن نوافذتهم باتجاه الداخل، باتجاه أى داخل، داخل المركز طبعاً، أتعنى أنه توجد شقق تطل نوافذها على داخل المركز نفسه، وما أدراك أن هناك أشخاصاً كثيرين يفضلونها، يرون أن

تلك الإطلالة أكثر لطفاً وتنعواً وتسلية بكثير، بينما المشهد من هذا الجانب يقتصر على سطوح البنايات نفسها والسماء نفسها، **من** يعيشون فى تلك الشقق لا يرون من المركز على أى حال سوى الطابق الذى يتفق فى الارتفاع مع الطابق الذى يعيشون فيه، أشار سيبريانو ألبور دون اهتمام حقيقى كبير سوى أنه لم يشأ الظهور كمن انسحب علانية من الحديث، **مقاس** الطوابق التجارية مرتفع، والأمكنة مكشوفة وفسيحة، وما أسمعته أن أولئك الأشخاص لا يملون من المشهد، وخاصة كبار السن منهم، **لم** ألاحظ قط وجود تلك النوافذ، سارعت مارتا إلى القول كى تتجنب تعليق أبيها المتوقع على التسلية التى تناسب المسنين أكثر من غيرهم. إنها مخفية بالطلاء، قال مرسيال. كانوا يمشون على امتداد الواجهة حيث يوجد المدخل المخصص لموظفى الأمن، وكان سيبريانو ألبور يمضى متأخراً خطوتين ممانعتين إلى الوراء، كما لو أن يقاد بخيط غير مرئى. أشعر بالعصبية، قالت مارتا بصوت خافت كيلا يسمعها أبوها، **بعد** أن نصير هنا سيكون كل شىء أسهل، إنها مسألة تعود، أجابها مرسيال بصوت خافت أيضاً. بعد التقدم قليلاً، وكما هو طبيعى، سألته مارتا، **فى** أى طابق الشقة، **فى** الطابق الرابع والثلاثين، **كل** هذا الارتفاع، **يوجد** أربعة عشر طابقاً آخر فوقنا، يمكن لعصفور فى قفص معلق على النافذة أن يتخيل أنه طليق، **هذه** النوافذ لا يمكن فتحها، لماذا، بسبب وجود أجهزة تكييف الهواء، **هذا** واضح. كانوا قد وصلوا إلى

الباب. دخل مرسيال أولاً، وجه تحية الصباح إلى الحراس الذين فى الخدمة، وقال بصورة عابرة، زوجتى، حماى، وفتح البوابة المؤدية إلى الداخل، دخلوا فى مصعد، سنذهب لإحضار المفتاح، قال مرسيال. خرجوا من المصعد فى الطابق الثانى، اجتازوا ممراً طويلاً وضيّقاً، جدرانها رمادية مع أبواب متباعدة على الجانبين. فتح مرسيال أحد الأبواب. هذا هو قسمى، قال. ثم وجه تحية الصباح إلى زملائه فى العمل، وقدمهما من جديد، زوجتى وحماى، وأضاف بعد ذلك، سنذهب لرؤية الشقة. توجه إلى خزانة مكتوب عليها اسمه، فتحها، تناول حزمة مفاتيح وقال لمارتا، هذه هى. دخلوا فى مصعد آخر. إن له سرعتين، أوضح مرسيال، سنبدأ بالبطيئة. ضغط الزر المناسب، وبعد ذلك الزر الذى يحمل الرقم عشرين، سنذهب أولاً حتى الطابق العشرين كى يتاح لنا الوقت لنرى. كان جانب المصعد المطل على الداخل زجاجياً، وكان المصعد يجتاز الطوابق بتكاسل مستعرضاً الطوابق والأجنحة والمتاجر والأدراج المهيبة والسلالم الميكانيكية، ونقاط اللقاء، والمقاهى، والمطاعم، والشرفات المزودة بمناضد وكراسٍ، وصلالات السينما والمسارح والديسكو، وشاشات تلفاز عملاقة، وما لا حصر له من الزينات والألعاب الإلكترونية والبالونات، والنوافير، ومؤثرات مائية أخرى، والردهات والحدائق المعلقة، والملصقات والبيارق، والشاشات الإلكترونية، ودمى المانيكان، ومقصورات قياس الملابس، وواجهة كنيسة، ومدخل

إلى الشاطئ، وكازينو، وملعب تنس، وصالة رياضية، وأرجوحة جبل روسي، وحديقة حيوان، وحلبة سيارات كهربائية، وسيكلوراما، وشلال، كل ذلك ينتظر، كل شيء صامت، ومزيد من المتاجر، مزيد من الردهات، مزيد من دمي المانيكان، ومزيد من الحدائق المعلقة، وأشياء ربما لا يعرف أحد أسماءها، أشبه بصعود إلى الفردوس. وما فائدة هذه السرعة، أمن أجل إمتاع البصر، سأل سيبريانو ألبور، لا تُستخدم هذه المصاعد إلا كوسيلة حراسة إضافية، قال مرسيال، فعاد سيبريانو ألبور يسأل، ألا يكفي لهذا الهدف الحراس والكشافات وكاميرات الفيديو وبقية تجهيزات التطفل الأخرى؟ يمر من هنا كل يوم عشرات آلاف الأشخاص، ولا بد من الحفاظ على الأمن، أجابه مرسيال بوجه متوتر وتأنيب معاكس في صوته، أبتاه، قالت مارتا، دعك من الوخز، أرجوك، فقال مرسيال، لا تقلقى، فنحن متفاهمان دوماً، حتى عندما يبدو الأمر غير ذلك. كان المصعد يواصل صعوده ببطء. وكانت إضاءة الطوابق لا تزال مختزلة إلى أدنى الحدود، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من الأشخاص، موظف هناك أو هناك جاء باكراً لضرورة ما أو بدافع السعادة، مازالت هناك ساعة على الأقل كي تُفتح الأبواب للجمهور. المقيمون الذين يعملون في المركز ليسوا بحاجة إلى الاستعجال، ومن يريدون الخروج لا يجتازون فضاءات المتاجر أو اللهو، بل ينزلون مباشرة من شققهم إلى الكراجات تحت الأرضية. ضغط مرسيال الزر السريع عندما توقف

المصعد، وبعد ثوان قليلة كانوا فى الطابق الرابع والثلاثين. وبينما هم يجتازون الممر المؤدى إلى القسم السكنى، أوضح مرسيال أن هناك مصاعد مخصصة لاستخدام المقيمين، وأنهم إذا كانوا قد استخدموا هذا المصعد اليوم، فمن أجل المرور لإحضار المفتاح. ابتداء من هذه اللحظة ستبقى المفاتيح معنا، إنها لنا، قال. وخلافاً لما كانت مارتا وأبوها يظنان أنهما سيجدانه، لم يكن هناك ممر واحد يفصل بين مجموعة الشقق التى تطل على الشارع وتلك التى تطل على الداخل. أجل، كان يوجد ممران، وبينهما مجموعة شقق أخرى، ولكن هذه المجموعة لها ضعف عرض الأخرين، مما يعنى، إذا تحدثنا بإسهاب، أن القسم المأهول من المركز مؤلف من أربعة صفوف متوازية من الشقق، مصفوفة مثل صفائح بطارية أو مثل خلايا نحل، المجموعتان الداخليتان ملتحمتان ظهراً لظهر، والمجموعتان الخارجيتان متصلتان بالجزء المركزى من خلال الممرات. قالت مارتا، هؤلاء الناس لا يرون ضوء النهار وهم فى البيت، وكذلك من يعيشون فى الشقق المطلة على داخل المركز، أجابها مرسيال، ولكن هؤلاء، مثلما قلت أنت، يمكنهم التسلى برؤية المشاهد والحركة، أما من هم هنا فهم محبوسون عملياً، لا يمكن أن يكون سهلاً بأى حال العيش فى هذه الشقق، بلا ضوء الشمس، ويتنفس هواء معلب طيلة اليوم، غير أن هناك من يفضلونها ويجدونها أكثر راحة، ولديهم فيها المزيد من وسائل الراحة، فهم جميعهم يملكون على سبيل المثال أجهزة أشعة فوق بنفسجية،

ومعدات تبديل الجو، وأجهزة لضبط درجتى الحرارة والرطوبة بدقة صارمة بحيث يظل البيت، فى الليل والنهار، وفى كل فصول السنة، محتفظاً برطوبة وحرارة ثابتة، لحسن الحظ أننا لم نُعطِ واحدة من هذه الشقق، فلست أدري إذا كان بإمكانى العيش لوقت طويل فيها، قالت مارتا، على الحراس المقيمين أن يعتبروا أنفسهم محظوظين بحصولهم على شقة عادية، من ذات النوافذ، فقال سيبريانو الجور، لم يخطر ببالى قط أن كونى حمى حارس مقيم فى المركز هو أفضل حظ وأعظم امتياز ادخرته لى الحياة. كانت الشقق محددة بأرقام كما لو أنها غرف فندق، والفرق الوحيد هو وضع خط مائل بين رقم الطابق ورقم الباب. أدخل مرسيال المفتاح، فتح الباب وتنحى جانباً، يمكنكما الدخول، رجاء، لقد وصلنا البيت، قال بصوت عالٍ متصنعاً حماسة لا يشعر بها. لم يكونوا سعداء ولا مستثارين بحدث جديد. توقفت مارتا عند العتبة، ثم تقدمت ثلاث خطوات غير واثقة، ونظرت فيما حولها. ظل مرسيال والأب فى الخلف. وبعد دقائق من التردد، كما لو أنها متشككة حول ما هو الشيء المناسب الذى عليها عمله، توجهت وحدها إلى أقرب باب إليها، نظرت إلى الداخل وواصلت قُدماً. وكان أول تعرف لها على البيت على النحو التالى، الانتقال بسرعة من حجرة النوم إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى الحمام، ومن حجرة المعيشة التى ستكون غرفة طعام أيضاً إلى الغرفة الصغيرة المخصصة للأب، لا يوجد مكان للوليد، فكرت بذلك

وتابعت التفكير فوراً، سيظل معنا مادام صغيراً، وبعد ذلك سنرى، فربما يعطوننا بيتاً آخر. رجعت إلى المدخل، حيث كان مرسيال وسيبريانو ألاجور بانتظارها. هل انتهيت من رؤيته؟ نعم، وكيف بدا لك؟ بالنسبة لى جيد، هل انتبهت إلى أن الأثاث جديد، كله جديد، مثلما قلت لك، وأنت يا أبتاه، ما رأيك، لا يمكننى إبداء رأى حول ما لا أعرفه، هلم إذا وسأكون مرشدتك. بدا واضحاً أنها متوترة، عصبية، بعيدة جداً عن حالتها المعهودة وهى تعلن تسمية حجرات البيت وكأنها تعلن عن مديح لها، هنا حجرة نوم الزوجين، وهنا المطبخ، وهنا الحمام، وهذه صالة المعيشة التى ستستخدم أيضاً كغرفة طعام، وهنا الحجرة المريحة والفسيحة التى سينام فيها أبى العزيز ويستمتع بالراحة التى يستحقها، لا يوجد مكان للطفلة عندما تكبر، ولكن ريثما تكبر سنجد حلاً. ألا يروقك البيت، سأله مرسيال، إنه البيت الذى سنحصل عليه، ولن نقدم شيئاً بالجدل حول إذا كان يروقنا كثيراً أو قليلاً أو لا يروقنا، كمثلى من ينتزع بتلات زهرة أقحوان. التفت مرسيال إلى حميه طالباً العون دون أن يقول شيئاً، وإنما اكتفى بالنظر إليه، فقال سيبريانو ألاجور، لا بد من الاعتراف بأن البيت غير سيئ، كأنه جيد، والأثاث من خشب جيد، من الواضح أن الأثاث يجب أن يكون مختلفاً عن أثاثنا، فهم يصنعون الأثاث الآن بهذا الأسلوب، بحدود واضحة، ليس مثل أثاثنا الذى يبدو كما لو أنه مرّ بالفرن، أما ما سوى ذلك فإنه يمكن لأحدنا أن يعتاد

على الدوام، فالمرء يعتاد على الدوام. قطبت مارتا ما بين حاجبيها خلال خطبة أبيها، وأظهرت على شفثيها تقطيب ابتسامه وبدأت جولة أخرى فى البيت، وراحت فى هذه المرة تفتح أدراجاً وخزائن وتغلقها، مقومة محتوياتها. وأوماً مرسيال إيماءة شكر إلى حميه، ثم نظر إلى الساعة وأخبرهما، لقد اقترب موعد التحاقى بالعمل. وقالت مارتا من الداخل، لن أتأخر، سأتى حالاً، هذه هى فوائد الشقق الصغيرة، يطلق أحدها بكل ما لديه من حذر زفرة كان يكبحها فى داخله، وفى الحال يقول له شخص فى الجهة الأخرى من البيت، لقد أطلقت زفرة، لا تنكر ذلك. ومازال هناك من يتذمر من الحراس، ومن كاميرات الفيديو، ومن الكشافات وغيرها من الأجهزة. الزيارة إلى البيت أنجزت، ومن خلال اختلاف المزاج الذى دخلوا به عن الذى خرجوا به، دون أن نحاول كشف أسرار القلوب، بدا أن تلك الزيارة تستحق العناء. نزلوا مباشرة من الطابق الرابع والثلاثين إلى أسفل لأن مارتا والأب لم يُزودا بعد بالوثائق التى تعتبرهم مقيمين، وكان على مرسيال أن يرافقهم حتى المخرج. وما كادوا يخطون بضع خطوات بعد أن أُغلق باب المصعد حتى قال سيبريانو ألبور، يا للإحساس الغريب، أشعر كأن الأرض ترتعش تحت قدمى. توقف، أرهف سمعه وأضاف، لدى إحساس بأنى أسمع شيئاً كأنه ضجة آلات حفر، إنها آلات حفر بالفعل، قال مرسيال وهو يسرع خطواته، إنهم يعملون فى ورديات متواصلة من ست ساعات كل وردية، دون توقف، وهم

على عمق أمتار كثيرة تحت الأرض، أهي أعمال بناء؟ قال سيبريانو أليجور، أجل، يقال إنه ستقام مستودعات مبردة جديدة وربما شيء أكثر من ذلك، ربما مزيد من مواقف السيارات، الأعمال هنا لا تنتهي أبداً، فالمركز يكبر كل يوم، حتى عندما لا يُلاحظ ذلك، إذا لم يكن من الجوانب، فإنه يكبر إلى أعلى، وإذا لم يكن إلى أعلى، فإلى أسفل، أظن أنه بعد قليل، عندما يبدأ كل شيء بالعمل، لا تعود ضخمة آلات الحفر مسموعة، مع انطلاق الموسيقى، والإعلان عن البضائع بمكبرات الصوت، وصخب أحاديث الناس، والسلالم الآلية التي تصعد وتنزل دون توقف، ستكون ضخمة الحفارات كما لو أنها غير موجودة. كانوا قد وصلوا إلى الباب. قال مرسيال إنه سيتصل هاتفياً عند حدوث أي جديد، وإنه من المناسب في أثناء ذلك تهيئة ما هو ضروري من أجل الانتقال، واختيار ما لا بد منه فقط، فأنتما تعرفان الآن المكان المتوافر لنا، ولا بد أنكما قد لاحظتما أنه لا يوجد متسع زائد. كانوا قد أصبحوا على الرصيف، على وشك الوداع، ولكن مارتا قالت، يبدو في الواقع كما لو أنه لن يكون ثمة انتقال، فبيت مشغل الفخار مازال لنا، وما يمكننا إحضاره من هناك هو لا شيء تقريباً، ويبدو أن ما يحدث أشبه بخلعنا ثوباً لنرتدى غيره، شيء شبيه بكرنفال أقنعة، أجل، لاحظ الأب، فالأمر هكذا ظاهرياً، وإن يكن خلافاً لما يُعتقد ولما يؤكّد دون تفكير بأن المسوح يصنع الراهب، فالشخص مكوّن أيضاً من

الملابس التي يرتديها، يمكن ألا يُلاحظ ذلك فوراً، ولكنها مسألة منح مزيد من الوقت للوقت فقط. وداعاً، وداعاً، قال مرسيال وهو يودع امرأته بقبلة، لديكما الطريق كله لتتفلسفا، فاستغلا الفرصة. توجهت مارتا وأبوها إلى حيث تركا الشاحنة. وعلى واجهة المركز، فوق رأسيهما، كان هناك إعلان عملاق جديد يقول: كنا سنبيع كل ما تحتاج إليه لولا أننا نفضل أن نحتاج إلى ما لدينا كي نبيعه لك.

**** معرفتي ****
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامه

خلال رحلة العودة إلى البيت، أو إلى بيت مشغل الخزف، مثلما قالت مارتا لتمييزه عن البيت الآخر، وعلى الرغم من عبارة مرسيال نصف المرحة ونصف الودودة، لم يتكلم الأب والابنة إلا قليلاً، قليلاً جداً، بالرغم من أن أبسط استعراض للاحتتمالات الكثيرة الناجمة عن الوضع توحى بأنهما قد فكرا كثيراً. ولكن استباقنا لما فكرا فيه بافتراضات متهورة أو استنتاجات محظوظة، أو ما هو أسوأ من ذلك، بتكهنات طائشة، لن يكون، من حيث المبدأ، إذا ما أخذنا في الاعتبار الخفة والوقاحة اللتين تُزدرى بهما في قصص من هذا النوع أسرار القلوب، لن يكون استباقنا لما فكرا فيه، كما قلنا، بالمهمة المستحيلة، ولكن بما أنه سيكون عليهما عاجلاً أو آجلاً أن يعبرا عن تلك الأفكار بأفعال، أو بكلمات تؤدي إلى أفعال، فقد بدا لنا أنه من الأفضل المضي قدماً والانتظار باطمئنان إلى أن تكون الأفعال والكلمات هي التي تكشف الأفكار. بالنسبة للأمر الأول، لم يكن علينا الانتظار طويلاً، إذ إن الأب والابنة تناولوا الغداء

بصمت، وهذا يعنى أن أفكاراً جديدة راحت تتضمن إلى أفكارهما فى الطريق، وفجأة قررت هى أن تكسر الصمت، فكرتك بالاستراحة ثلاثة أيام كانت رائعة، وفضلاً عن أنها تستحق الشكر، فإنها كانت مبررة تماماً فى حينها، غير أن ترقية مرسىال قد بدلت الموقف بالكامل، وقد فكرتُ فى أنه ليس لدينا سوى أسبوع واحد لترتيب الانتقال وطلاق الثلاثمائة دمية المشوية التى تنتظر فى الفرن، ونحن مضطرون إلى تسليم هذه الكمية، أنا أيضاً تُقلقنى مسألة الدمى، ولكننى توصلت إلى نتيجة مختلفة عما توصلت إليه، لست أفهم، لدى المركز الآن دفعة من ثلاثمائة دمية، وهى كافية فى الوقت الحالى، قدمى الفخار ليست ألعاب كمبيوتر ولا أساور ممغنطة، والناس لن يتدافعوا صارخين أريد رجل اسكيمو لى، أريد آشورياً ملتحمياً، أريد ممرضة، حسن جداً، أعتقد أن زبائن المركز لن يتشاجروا من أجل الحصول على دمية موظف المندرين الصينى أو البهلولى أو المهرج، ولكن هذا لا يعنى أنه علينا ألا ننهى العمل، لا يعنى ذلك بالطبع، ولكننى أرى أن الأمر لا يستدعى منا التعجل، أعود لتذكيرك بأن لدينا أسبوعاً واحداً لإنجاز كل شىء، لم أنس ذلك، ماذا تعنى إذاً، ما أعنيه هو ما قلته أنت عند الخروج من المركز، ففى العمق يبدو كما لو أنه لن يكون ثمة انتقال، فبيت مشغل الخزف، هكذا سميتِه أنت، موجود هنا، وبما أن البيت موجود، فإن المشغل بكل تأكيد موجود معه، أنا أعرف أنك محب كبير للأفاز، لست محباً للأفاز، بل أحب الأمور

الواضحة، الأمر سيان، أنت لا تحب الألفاظ، ولكنك
ملغز، وسأكون شاكرة لك إذا أوضحت لى إلى أين تود
الوصول، أريد الوصول بالضبط إلى حيث نحن فى
هذه اللحظة، وحيث سنكون خلال أسبوع آخر وآمل
بأسابيع أخرى كثيرة بعد ذلك، لا تدفعنى إلى فقدان
صبرى، أرجوك، أنا الذى أرجوك، فالأمر بسيط
ببساطة أن اثنين زائد اثنين تساوى أربعة، أما فى
رأسك فإن اثنين زائد اثنين تساوى دائماً خمسة أو
ثلاثة أو أى عدد آخر ما عدا الأربعة، سوف تقدمين،
أشك فى ذلك، تخيلى أننا لم نطلِ الدمى، وأننا
انتقلنا إلى المركز وتركنا الدمى فى الفرن حيث هى
الآن، لقد تخيلتُ ذلك، وأن العيش فى المركز ليس
نظياً، مثلما بين مرسيال بوضوح شديد، فالأشخاص
الذين يقيمون هناك ليسوا محبوسين، إنهم أحرار فى
الخروج عندما يشاءون، وقضاء اليوم كله فى المدينة
أو فى الريف والعودة فى الليل. توقف سيبريانو
أالجور ونظر بفضول إلى ابنته وهو يعرف أنه سيشهد
يقظة إدراكها. وكان هذا هو ما حدث، فقد قالت
مارتا باسمه، إننى أخضع نفسى للعقوبة، فاثنان زائد
اثنان فى رأسك يمكن لها أن تكون أربعة أيضاً، لقد
قلتُ لك إن الأمر بسيط، سنأتى لإنجاز العمل عندما
يكون ذلك ضرورياً وبهذه الطريقة لن نضطر إلى إلغاء
طلبية الستمائة دمية المتبقية، المسألة تتلخص فى
الاتفاق مع المركز على مهل التسليم التى تناسب
الطرفين، بالضبط. صفقت الابنة لأبيها، وشكرها
الأب على التصفيق. بل يمكن لنا مواصلة التصنيع،

قالت مارتا وقد تحمست فجأة لبحر الاحتمالات الإيجابية الذى انفتح أمامها، ولن نضطر إلى إغلاق مشغل الخزف، إذا ما استمر المركز على اهتمامه بالدمى، بالضبط، ومن يتحدث عن دمي يمكنه التحدث كذلك عن أفكار أخرى قد تخطر لنا ويقتنعون بها، أو أن نضيف ست دمي أخرى إلى التي لدينا، وهو كذلك. وبينما الأب والابنة يتذوقان حلاوة الاحتمالات المستقبلية التي بينت لنا مرة أخرى أن الشيطان ليس وراء الباب على الدوام، سنستغل هذا التوقف القصير لنتفحص التأثير الحقيقي والمغزى الحقيقي لتفكير كل منهما، ولهذين التفكيرين اللذين راحا يعبران عن نفسيهما أخيراً بعد ذلك الصمت الطويل. ومع ذلك فقد نبهنا من قبل إلى أنه لن يكون بالإمكان التوصل إلى نتيجة، ولو مؤقتة، مثلما هي النتائج كلها، ما لم نبدأ بتقبل مقدمة أولية قد تكون صادمة في الحقيقة للأرواح السوية وحسنة التكوين، ولكن ذلك لا يجعلها أقل حقيقية، مقدمة أن التفكير المعلن يكون في أحيان كثيرة قد دُفع إلى الخط الأول، إذا صح هذا التعبير، بتفكير آخر قدر أن انكشافه غير مناسب. ففي حالة سيبريانو ألاجور، ليس من الصعب فهم أن بعض تصرفاته الغريبة يحركها القلق الذي ينتابه بشأن نتيجة السبر، وبالتالي فإنه حين ذكر ابنته بأنهما قادران، حتى وهما يعيشان في المركز، على المجيء للعمل في مشغل الخزف، إنما أراد بذلك ببساطة أن يصرفها عن طلاء الدمى، فقد يحدث أن يأتي غداً أو بعد غد أمر من معاون المدير الباسم، أو

من مسئولة الأعلى بإلغاء التسلم، وستشعر هي بالاستياء لتركها العمل في منتصفه، أو ستشعر إذا ما كانت قد أنهته بأنهم قاموا بعمل لا جدوى منه. ما يفاجئ أكثر هو تصرف مارتا، البهجة المندفعة والمثيرة للقلق بطريقة ما حيال الافتراض المشكوك فيه بأن مشغل الخزف سيحافظ على نشاطه، ما لم يتمكن من إقرار علاقة بين هذا السلوك والتفكير الذى تسبب فيه، وهو تفكير مازال يلاحقها بعناد مذ دخلت إلى الشقة فى المركز وأقسمت بينها وبين نفسها ألا تبوح به لأحد، لا لأبيها، بالرغم من وجوده هنا على مقربة كبيرة منها، ولا لزوجها نفسه، فهذا ما ينقصها، بالرغم من حبها الشديد له. فما مر فى ذهن مارتا وترسخ عند اجتيازها عتبة باب منزلها الجديد، فى ذلك الطابق الرابع والثلاثين الشاهق ذى الأثاث الفاتح والنافذتين الدواريتين اللتين لم تجد الشجاعة للاقتراب منهما، هو أنها لن تتحمل العيش بقية حياتها هناك فى الداخل، دون أى يقين آخر سوى كونها زوجة الحارس المقيم مرسيال جاتشو، ودون أى غد سوى الابنة التى تظن أنها تحملها فى أحشائها. أو الابن. وقد فكرت فى ذلك كله طوال الطريق حتى الوصول إلى بيت مشغل الخزف، وواصلت التفكير بينما هى تعدّ الغداء، وقد ظلت تفكر وهى تدفع الطعام بالشوكة، لانعدام الشهية، من جانب إلى آخر فى الطبق، وواصلت التفكير عندما قالت لأبيها إنه من واجبهما، قبل الانتقال إلى المركز، إنهاء الدمى التى تنتظر فى الفرن. وإنهاء الدمى يعنى طليها

بالأصباغ، والطلاء تحديداً هو العمل الذى يناسبها القيام به، فهو يمنحها على الأقل ثلاثة أو أربعة أيام من الجلوس تحت شجرة التوت، بينما لقيه رابض إلى جانبها، يضحك بضمه المفتوح ولسانه خارجه. لم تكن تطلب ما هو أكثر من ذلك، كما لو أن تلك هي الرغبة الأخيرة اليائسة التي يملئها محكوم عليه بالموت، وفجأة، وبكلمة بسيطة، فتح لها أبوها باب الحرية، يمكنها المجيء من المركز كلما أرادت، يمكنها فتح باب بيتها بمفتاح بيتها، واللقاء في الأماكن نفسها بكل ما تركته هنا، والدخول إلى مشغل الخزف لتتأكد من أن الصلصال يتمتع بالرطوبة المناسبة، ثم تجلس بعد ذلك إلى الدولاب، وتسلم يديها إلى الصلصال البارد، الآن فقط أدركت أنها تحب هذه الأماكن مثلما تحب الشجرة، إذا كانت قادرة على الحب، جذورها التي تغذيها وترفعها في الفضاء. كان سيبريانو ألاجور ينظر إلى ابنته، يقرأ وجهها كما في صفحات كتاب مفتوح، كان قلبه يؤله من الخدعة التي فتنها بها إذا ما كانت نتائج استطلاع الرأي سلبية إلى حد ما وجعلت قسم المشتريات في المركز يتخلى عن الدمى إلى الأبد. نهضت مارتا عن الكرسي، وتقدمت لتقبله وتعانقه، هما الذي سيحدث خلال بضعة أيام، فكر سيبريانو ألاجور في استجابة للمعانقة المحبة، ولكن الكلمات التي تلفظ بها كانت مختلفة، إنها هذه الكلمات المعهودة، مثلما كان يؤمن أجدادنا تقريباً: ما دامت هناك حياة فالأمل موجود. كان يمكن للنبرة المستسلمة التي أفلت بها الكلمات أن تثير شكوك

مارتا لو لم تكن مستسلمة لآمالها السعيدة. فلنستمتع إذاً باطمئنان بأيام راحتنا الثلاثة، قال سيبريانو ألبور، فنحن نستحقها حقاً، ولسنا نسرقتها من أحد، وبعد ذلك نبدأ بترتيبات الانتقال، كن قدوة واذهب لنوم قيلولة، قالت له مارتا، فقد أمضيت يوم أمس كله فى العمل فى الفرن، واليوم استيقظت باكراً، فالتحمل له حدود حتى لأب مثل أبى، أما بشأن الانتقال فاطمئن، لأنه من اختصاص ربة البيت. انسحب سيبريانو ألبور إلى غرفته، خلع ثيابه بالحركات البطيئة لإنهاك ليس فى الجسد وحده، وانبطح على السرير مطلقاً زفرة عميقة. لم يبق طويلاً على تلك الحال. استوى على الوسادة ونظر فيما حوله كما لو أنها المرة الأولى التى يدخل فيها إلى هذه الحجرة ويحتاج إلى تثبيتها فى ذاكرته لسبب غامض، وكما لو أنها كذلك المرة الأخيرة التى يأتى فيها، ويسعى الآن لأن تنفعه الذاكرة مستقبلاً فى تذكر شىء أكثر من تلك البقعة على الجدار، وذلك الشعاع الضوئى على الأرضية الخشبية، وتلك الصورة لزوجته على الصوان ذى الأدرج. وفى الخارج نبج لقية كما لو أنه سمع شخصاً مجهولاً يصعد الأكمة، ولكنه صمت بعد ذلك، الاحتمال الأكبر أنه يردّ، دون اهتمام خاص، على نباح كلب بعيد، أو أنه أراد ببساطة أن يذكر بوجوده، لا بد أنه أحس بأن هناك فى الجو شيئاً لا يستطيع فهمه. أغمض سيبريانو ألبور عينيه ليستحضر النوم، ولكن مشيئة العينين

كانت مختلفة. ليس هنا ما هو أشد حزناً، ما هو أشد حزناً بصورة بائسة، من عجز يبكى.

جاء الخبر فى اليوم الرابع. كان الطقس قد تبدل، وصار المطر يهطل بين حين وآخر فى الخارج ليشكل فى برهة برك ماء فى الفناء، وينقر على أوراق شجرة التوت المجعدة مثل عشرة آلاف دقة طبل. كانت مارتا تُعد قائمة الأشياء التى يجب أخذها يادئ ذى بدء إلى الشقة، ولكن بوعى متيقظ، فى كل لحظة، للتناقض بين دافعين يناويان فى أعماقها، أحدهما يدفعها بأشد الحقائق كمالاً، باتجاه أن الانتقال ليس انتقالاً إذا لم يكن ثمة ما يُنقل، وآخر ينصحها ببساطة بترك كل شئ على حاله، تذكى أنه عليك الأخذ فى الاعتبار أنك ستعودين مرات كثيرة لتعملى وتتنفسى هواء الريف. أما سيبريانو ألبور، وبنية تنظيف رأسه من شباك عنكبوت القلق التى تجبره على النظر إلى الساعة عشرات المرات فى اليوم، فقد شغل نفسه فى كنس وتنظيف مشغل الخزف من أقصاه إلى أقصاه، رافضاً مرة أخرى المساعدة التى أرادت مارتا تقديمها إليه، سأكون أنا من عليه بعد ذلك سماع عتاب مرسىال، قال. وكان لقيه قد أرسل منذ بعض الوقت إلى كوخه الصغير لأنه لوث بصورة مؤسفة أرض المطبخ بالوحد العالق بقوائمه بعد توقف زخة المطر الأولى ومحاولته انتهاز فرصة توقف المطر. لن يكون الماء كثيراً إلى حدّ الدخول إلى كوخه، ولكن بدافع التحسب أدخل سيده أربع قطع آجر تحته محولاً ملجأ

كليبياً عادياً ومعاصراً إلى كوخ من أكواخ ما قبل التاريخ. وكان منهمكاً في هذا الأمر عندما رنّ الهاتف. رفعت مارتا السماعة منذ اللحظة الأولى، وحين سمعت الصوت القائل، هنا المركز، ظنت أنه مارسيال، وظنت أنهم سيحولون إليه المكالمة، ولكن الكلمات التالية لم تكن كذلك، مدير قسم المشتريات يريد التحدث إلى السيد سيبريانو أَلجور. على وجه العموم، يمكن لسكرتيرة أن تعرف الموضوع الذى سيطرحه رئيسها عندما يطلب منها إجراء مكالمة هاتفية، أما عاملة مقسم عادية فلا يمكن لها أن تعرف شيئاً، ولهذا تبدو أصواتهن محايدة، غير مبالية، كمن لم يعد ينتمى إلى هذا العالم، ومع ذلك لا بد لنا من إنصافهن بالتفكير فى أنهن قد يكن ذرفن ذات يوم دموع حزن إذا ما خمنّ ما حدث بعد قولهن بصورة آلية، يمكنك التكلم. بدأت مارتا بتخيل أن مدير قسم المشتريات يريد التعبير عن معارضته للتأخر فى تسليم الثلاثمائة دمية المتبقية، ومن يدرى إذا كان سيتحدث كذلك عن الستمائة الأخرى التى لم يبدأ العمل بها، وعندما هرعت راكضة إلى مشغل الخزف لتستدعى أباهما، بعد أن قالت لعاملة المقسم، لحظة واحدة، كانت تفكر فى أن توجه إليه كلمة تأنيب سريعة حول الخطأ المرتكب فى عدم مواصلة العمل لتكون المجموعة الأولى من الدمى جاهزة. ولكن كلمة التأنيب ظلت عالقة بلسانها حين رأت تحوّل وجه أبيها عند سماعها تعلن، مدير قسم المشتريات يريد التحدث معك. لم يرَ سيبريانو أَلجور أنه من المناسب

له أن يركض، ولا بد من الاعتراف له بالجدارة الكافية فى ثبات خطواته التى قادتة حتى مقعد المحكمة التى سينطق فيها بالحكم عليه. تناول الهاتف الذى تركته ابنته على المنضدة، إننى أنا، سيبريانو ألاجور، وقالت عاملة المقسم، حسن، سأحوّل لك المكالمة، ساد صمت، أزيز خفيف، وتكتكة، ثم دوى من الجانب الآخر صوت مدير قسم المشتريات راعداً، قوياً، مساء الخير يا سيد ألاجور، مساء الخير يا سيدى، أظن أنك تتصور السبب الذى دفعنى للاتصال بك اليوم، ظنك فى مكانه يا سيدى، تفضل وأخبرنى، توجد أمامى نتائج ومحصلات السبر حول بضاعتك الذى قرر أحد معاونى المدير، بموافقتى، أن يجريه، وما هى هذه النتائج يا سيدى، سأله سيبريانو ألاجور، يؤسفنى أن أبلغك أنها لم تكن جيدة بالقدر الذى كنا نتمناه، إذا كان الأمر كذلك فلن يتأسف أحد سواى، أخشى أن مشاركتك فى حياة مركزنا قد بلغت نهايتها، فى كل يوم تبدأ أمور جديدة، ولكنها جميعها تنتهى عاجلاً أو آجلاً، ألا تريد أن أقرأ لك النتائج، بل تهمنى أكثر محصلة السبر، وهذه صرت أعرفها، المركز لن يشتري مزيداً من دمانا. مارتا التى كانت تستمع بجزع متزايد إلى كلمات أبيها، رفعت يدها إلى فمها كأنها تريد كبح صرخة. أوماً لها سيبريانو ألاجور طالباً منها الهدوء، وكان فى الوقت نفسه يرد على سؤال مدير قسم المشتريات، أتفهم رغبتك فى ألا تبقى ظلال أى شك فى روى، وأنا أتفق مع ما قلته للتو حضرتك من أن تقديم المحصلة النهائية دون

عرض مسبق للأسباب التي أدت إلى ذلك يمكن أن يفهم على أنه طريقة غير بارعة في التغطية على قرار متعسف، وهذا ما لا يمكن أن يكون، بكل تأكيد، من أساليب المركز، لحسن الحظ أنك متفق معي، من الصعب عدم الاتفاق معك يا سيدي، يمكنك إذاً أن تدون ملاحظات حول النتائج، قل ما لديك، مجموعة الزبائن التي وقع عليها الخيار للمشاركة في السبر تم تحديدها منذ البداية باستبعاد الأشخاص الذين بسبب السن، والوضع الاجتماعي، والتربية والثقافة، وكذلك بسبب عاداتهم الاستهلاكية المعروفة، سيكونون معارضين مسبقين وجازمين لاقتناء سلعة من هذا النوع، ومن الملائم أن تعرف يا سيد الجور أننا إذا كنا قد اتخذنا هذا القرار، فإنما ذلك من أجل ألا نضربك منذ البداية، شكراً جزيلاً يا سيدي، سأقدم لك مثلاً، فلو أننا اخترنا خمسين شاباً حديثاً، خمسين فتى وفتاة من زمننا، لكان يمكن لك يا سيد الجور أن تكون واثقاً من أن أيّاً منهم لن يرغب في أن يحمل إلى بيته واحدة من دُماك، وإذا ما أخذوها فإنما يفعلون ذلك لاستخدامها في شيء مثل وضعها كهدف للرماية، أتفهم ذلك، لقد اخترنا خمسة وعشرين شخصاً من كل جنس من الجنسين، ومن مهن ومداحيل وسطية، أشخاصاً من حيثيات أسرية متواضعة، مازالوا مرتبطين بالأذواق التقليدية، وابتدال البضاعة لا يؤثر كثيراً على المشهد في بيوتهم، ومع هذا كله، أجل يا سيد الجور، مع هذا كله كانت النتائج سيئة، ماذا يمكنني أن أفعل يا سيدي،

عشرون من الرجال وعشر نساء أجابوا بأن دمي الصلصال لا تروقهم، وأربع نساء قلن إنه يمكنهن أن يشتريين الدمى لو أنها أكبر حجماً، وثلاث يمكنهن أن يشترينها لو أنها أصغر حجماً، ومن الرجال الخمسة المتبقين، قال أربعة إنهم لم يعودوا في سن اللعب، واحتج آخر من واقع أن ثلاثاً من الدمى تمثل شخصيات أجنبية، والأدهى أنها شخصيات إكزوتكية، أما بالنسبة للنساء الثماني المتبقيات، فإن اثنتين منهن قلن إنهن يتحسسن من الصلصال، وأربعاً لديهن ذكريات سيئة مع هذا النوع من الأشياء، واثنتين فقط أجابتا بالإعراب عن شكرهما الكبير للفرصة التي أُتيحت لهما بتزيين منزلهما مجاناً بدمى لطيفة جداً، ولا بد من الإضافة أن الأمر يتعلق بامرأتين متقدمتين في السن وتعيشان وحيدتين، فقال سيبريانو الجور، أتمنى معرفة اسمى وعنوانى هاتين السيدتين لأقدم لهما الشكر، هتأسف، ولكننى غير مخول بكشف معلومات شخصية عن الأشخاص المستطلعين، إنه شرط صارم فى سبر من هذا النوع، احترام سرية الإجابات، ربما يمكنك أن تخبرنى على أى حال إذا ما كان هؤلاء الأشخاص يعيشون فى المركز، أى أشخاص تعنى، جميع الأشخاص، سأله مدير قسم المشتريات، لا يا سيدى، فقط الشخصان اللذان تطفأ برؤية أن دُمانا لطيفة، قال سيبريانو الجور، بما أن الأمر يتعلق بمعلومة غير جوهريّة بصورة خاصة، فلا أظن أننى أخون السرية التى تحكم استطلاعات الرأى إذا ما قلت لك إن هاتين المرأتين تعيشان خارج المركز، فى

المدينة، شكراً جزيلاً لهذه المعلومة يا سيدى، هل أفادتك فى شىء، للأسف لا يا سيدى، لماذا كنت تريد معرفة ذلك إذاً، كان يمكن أن تتاح لى الفرصة للقاء بهما وتقديم الشكر لهما شخصياً، أما إذا كانتا تعيشان فى المدينة فالأمر شبه مستحيل، ولو كانتا تعيشان هنا، عندما قلت لى فى بداية هذا الحديث إن مشاركتى فى حياة المركز قد بلغت نهايتها، كنت على وشك أن أقاطعك، لماذا، لأن حياتى، على عكس ما تظن، وعلى الرغم من أنكم لا تريدون رؤية خرف ودمى هذا الخراف، ستظل مرتبطة بالمركز، لست أفهم، أرجوك أن توضح، خلال خمسة أو ستة أيام سأبدأ العيش هناك، فصهرى قد رُقى إلى حارس مقيم وسأذهب للعيش مع ابنتى وصهرى، يسعدنى هذا الخير وأهنئك، أنت رجل محظوظ جداً فى نهاية المطاف، لا يمكنك أن تشكو، فقد كسبت كل شىء عندما كنت تظن أنك خسرت كل شىء، لست أشكو يا سيدى، هذه هى المناسبة للإعلان أن المركز يكتب سويلاً فى سطور مائلة، وإذا أراد يوماً أن ينتزع بيد، يهرع بسرعة إلى التعويض باليد الأخرى، إذا لم تخنى الذاكرة، فإن هذا الذى قلته عن السطور المائلة والكتابة السوية يقال عن الرب، أبدى سيبريانو الجور ملاحظته، فى هذه الأزمنة يكاد يكون الأمر نفسه عملياً، ولست أبالغ إذا ما قلت إن المركز، باعتباره موزعاً دقيقاً للخيرات المادية والروحية، ينتهى به الأمر إلى التوالد بذاته من ذاته، بدافع الحاجة المحضة، وهذا شىء، وإن كان يصدم بعض المتزمتين

شديدي الحساسية، إلا أنه يشارك في الطبيعة الإلهية، وهل توزعون هناك الخيرات الروحية أيضاً يا سيدي، أجل، ولا يمكنك تصور أن المنددين بالمركز، وهم في الحقيقة أقل عدداً في كل يوم وأقل عنفواناً، مصابون بالعمى المطلق تجاه الجانب الروحي من نشاطنا، بينما الحقيقة أن الحياة تكتسب بفضل هذا النشاط معنى جديداً بالنسبة للملايين وملايين الأشخاص غير السعداء، والمحبطين، والمخذولين، وهذا يعنى، سواء شئت أم لم تشأ، صدقنى، أن ذلك ليس حصيلة المادية الدنيئة، وإنما الروحانية السامية، أجل يا سيدي، يُسعدنى جداً أن أقول لك يا سيد الجور إننى وجدت فيك شخصاً من الممتع، حتى فى الظروف الصعبة مثلما هو هذا الظرف الآن، التحدث إليه فى هذه المسائل الجدية وغيرها من المسائل التى تهمنى كثيراً للبعد الواسع الذى تضيفه، بطريقة ما، إلى عملى، وآمل أن نتمكن من اللقاء فى مرات أخرى بعد انتقالك الوشيك إلى المركز وأن نواصل تبادل الأفكار، أنا أيضاً يا سيدي، طاب مساؤك، طاب مساؤك. أغلق سيبريانو الجور الهاتف ونظر إلى ابنته. كانت مارتا تجلس ويدها على حضنها، كما لو أنها احتاجت فجأة إلى حماية أول تكورات بطنها التى مازالت غير ملحوظة تقريباً. قخلوا عن الشراء، سألته، أجل، قاموا بعملية سبر بين الزبائن وخرجت النتيجة سلبية، ولن يشتروا حتى الثلاثمائة دمية التى فى الفرن، لا. نهضت مارتا، مشت حتى باب المطبخ، نظرت إلى المطر الذى لا يتوقف عن الهطول، ومن

هناك أدارت رأسها قليلاً وسألت، أليس لديك ما تود قوله لى، بلى، أجابها الأب، تكلم إذاً، كلى آذان مصغية. استند سيبريانو ألبور إلى عارضة الباب، تنفس بعمق، وانطلق بعد ذلك، لم أكن غير مهياً للخبر، كنت أعرف أن هذا قد يحدث، وقد كان أحد معاونى مدير القسم هو من أخبرنى بأنهم سيُجرون سبراً لتقويم استعداد الزبائن تجاه الدمى، والاحتمال الأكبر أن الفكرة ولدت من المدير نفسه، وأنا ظلمتُ مخدوعة خلال هذه الأيام الثلاثة، مخدوعة من قبلك، من قبل أبى، أحلم بمشغل فخار يعمل، وأتخيل أننا نخرج من المركز فى الصباح الباكر، ونأتى إلى هنا ونشمر عن أذرعنا، نشم رائحة الصلصال، وأعمل إلى جانبك، ويكون مرسىال معى فى أيام عطلته، لم أشأ لك أن تعانى، إننى أعانى الآن مرتين، نواياك الطيبة لم توفر على شيئاً، أطلب منك المَعذرة، وأرجوك ألا تضيع الوقت فى طلب المَعذرة، فأنت تعرف أننى أسامحك دائماً، مهما كان ما تفعله، لو أن القرار كان مختلفاً، ولو قرر المركز شراء الدمى، لما عرفت قط بالوضع الحرج الذى تعرضنا له، لم يعد وضعاً حرجاً الآن، إنه واقع، لدينا البيت، ويمكننا المجئ إليه عندما نشاء، أجل، لدينا البيت، بيت يطل على المقبرة، عن أية مقبرة تتحدثين، مشغل الفخار، الفرن، ألواح التجفيف، أكوام الحطب، ما كان ولم يعد كائناً، أية مقبرة أكبر من هذا، سألت مارتا وهى على حافة البكاء. وضع الأب يده فوق كتفها، لا تبكى، أعترفُ أننى أخطأت بعدم إخبارك بما جرى. لم تجب مارتا،

ذكَرَتْ نَفْسَهَا بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حَقِّهَا تَأْنِيْبُ أَبِيهَا، فَهِيَ
أَيْضاً قَدْ أَخْفَتْ عَنْ زَوْجِهَا سِراً لَنْ تَخْبِرَهُ بِهِ أَبَداً،
كَيْفَ سَتَتَمَكِّنِينَ الْآنَ، وَقَدْ فَقدتِ الْأَمَلَ، مِنْ الْعَيْشِ
فِي تِلْكَ الشَّقَةِ، كَانَتْ تَسْأَلُ نَفْسَهَا. كَانَ لَقِيَةٌ قَدْ خَرَجَ
مِنْ كَوْخِهِ، وَكَانَتْ تَسْقُطُ عَلَيْهِ قَطْرَاتٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْمَاءِ
تَنْزَلِقُ عَنْ شَجَرَةِ التُّوتِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَحْسُمْ أَمْرَهُ. كَانَتْ
قَوَائِمُهُ مَتَسَخَّةً، وَفَرُوهُ يَقْطُرُ، وَكَانَ مَوْقِناً مِنْ أَنَّهُ لَنْ
يُسْتَقْبَلُ بِتَرْحَابٍ. وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ الْحَدِيثُ يَدُورُ عَنْهُ عِنْدَ
بَابِ الْمَطْبِخِ. فَعِنْدَمَا رَأَتْهُ يَظْهَرُ وَيَقِفُ نَاطِراً، سَأَلَتْ
مَارْتَا، هَذَا سَنَفْعَلُ بِهَذَا الْكَلْبِ. وَبِاطْمِئْنَانٍ، كَمَا لَوْ أَنَّ
الْأَمْرَ يَتَعَلَقُ بِمَسْأَلَةِ نَوْقِشْتِ أَلْفِ مَرَّةٍ وَلَمْ يَعِدْ فِيهَا مَا
يَسْتَحِقُّ الرَّجُوعَ إِلَيْهِ، أَجَابَهَا الْأَبُ، سَأَسْأَلُ الْجَارَةَ
إِسَاوَرَا مَادْرُوغَا إِذَا كَانَتْ تُودِ الْاِحْتِفَازَ بِهِ، لَا أُدْرِي
إِذَا كُنْتُ أَسْمَعُ جَيْداً، أَرْجُوكَ أَنْ تَكْرُرَ مَا قَلْتَهُ، هَلْ
قَلْتِ إِنَّكَ سَتَذْهَبُ لِتَسْأَلَ الْجَارَةَ إِسَاوَرَا مَادْرُوجَا إِذَا
كَانَتْ تُودِ الْاِحْتِفَازَ بِلَقِيَّةِ، لَقَدْ سَمِعْتُ مَا قَلْتَهُ
بِالضَّبْطِ، فَهَذَا هُوَ مَا قَلْتَهُ، عِنْدَ إِسَاوَرَا مَادْرُوجَا، إِذَا
مَا وَاصَلْتِ الْإِلْحَاحَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فَسَوْفَ أُرِدُ عَلَيْكَ،
عِنْدَ إِسَاوَرَا مَادْرُوغَا، وَسَتَعُودِينَ إِلَى السُّؤَالِ، عِنْدَ
إِسَاوَرَا مَادْرُوغَا، وَسَتُضْمِئُ بِقِيَّةِ الْمَسَاءِ عَلَى هَذِهِ
الْحَالِ، إِنَّهَا مَفْاجِئَةٌ هَائِلَةٌ، لَا يُمْكِنُ لِلْمَفْاجِئَةِ أَنْ تَكُونَ
بِهَذِهِ الضَّخَامَةِ، إِنَّهَا الشَّخْصَ نَفْسَهُ الَّذِي كُنْتُ تَفَكِّرِينَ
فِي تَرْكِ الْكَلْبِ عِنْدَهُ، لَيْسَتْ الْمَفْاجِئَةُ فِي الشَّخْصِ،
الْمَفْاجِئَةُ فِي نَظْرِي هِيَ أَنَّكَ أَنْتَ مِنْ خَرَجَ بِالفِكْرَةِ، لَا
وَجُودَ لِأَحَدٍ فِي الْقَرْيَةِ، وَرَبْمَا فِي الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ، يُمْكِنُ
تَرْكِ لَقِيَّةِ عِنْدَهُ، وَإِلَّا فَضَلْتُ قَتْلَهُ. كَانَ الْحَيَوَانَ لَا يَزَالُ

ينظر من بعيد آملاً وهو يهز ذيله ببطء. انحنى سيبريانو ألاجور وناداه، لقيه، تعال إلى هنا. والكلب الذى كان يقطر ماء بدأ يهز نفسه كاملاً، كما لو أنه من غير المسموح له الاقتراب من سيده إلا بوقار وبمظهر لائق، ثم جرى بسرعة للقاء به، وبعد برهة كان رأسه الضخم يستند إلى صدر سيبريانو ألاجور بقوة كبيرة يبدو معها أنه يريد الدخول داخل الصدر. عندئذ سألت مارتا أباه، لكى يكون كل شيء على ما يرام، وكيلا يكون لقيه وحده بين ذراعيك، قل لى إذا كنت قد أخبرت مرسيال بشأن عملية السبر، أجل، أخبرته، ولكنه لم يقل لى شيئاً، للسبب نفسه الذى جعلنى لا أخبرك أنا بشيء. وبوصول الحوار إلى هذه النقطة، ربما كان ينتظر أن ترد عليه مارتا، الحقيقة أن ذلك يبدو مستحيلاً يا أبى، تخبره هو، وتتركنى أنا فى الغفلة، فردّ فعل الناس عموماً يكون على هذا النحو، لا أحد منهم يروقه البقاء على الهامش، وأن يُنتقص من حقه فى المعلومات والمعرفة، وإن كان يمكن لأحدنا، فى أوقات متباعدة، أن يلتقى باستثناء نادر فى عالم التكرار المزعج هذا، مثلما كان يمكن أن يسميه الحكماء الأورفيون، والفيثاغورثيون، والرواقيون، الأفلاطونيون المحدثون، لو أنهم لم يفضلوا، بإلهام شاعرى، منحه تسمية العود الأبدى الأكثر جمالاً وأشدّ وقعاً. لم تعترض مارتا، لم تثر فضيحة، بل اكتفت بالقول، كنت سأغضب كثيراً لو لم تكن قد أخبرت مرسيال. انفصل سيبريانو ألاجور عن الكلب، وأمره بالرجوع إلى كوخه، وقال، إننى

أُتصرف بصورة صائبة أحياناً. ظلاً يتأملان المطر الذى لا يتوقف عن الهطول، ويسمعان مونولوج شجرة التوت، وعندئذ سألت مارتا، **ها الذى نستطيع فعله بهذه الدمى التى فى الفرن، وأجاب الأب، لا شىء.** الكلمة الجازمة القاطعة لم تترك أى شك، لم يتلفظ سيبريانو ألبور، بدلاً منها، بواحدة من تلك العبارات الشائعة التى ترمى إلى الظهور بمظهر النفى الجازم، ولكنها لا تعطى أهمية لحملها فى ذاتها نفيين اثنين، مما يحولها، حسب رأى النحويين المعتمد، إلى نفى قاطع، كما فى هذه العبارة مثلاً، **لا يمكننا عمل أى شىء،** التى تزعج نفسها بأن تنفى نفسها لكى تعنى، باختصار، أنه مازال بالإمكان عمل شىء.

اتصل مرسيال بعد العشاء، **إننى أكلمك من البيت،** فاليوم غادرت حجرة نوم عاملى الأمن المشتركة، وسأنام هذه الليلة فى سريرنا، **هكذا أفضل،** وستكون سعيداً بالطبع، أجل، ولدى أخبار لك، **ونحن أيضاً لدينا خبر،** قالت مارتا، **هن أين نبدأ،** بأخبارى أم بأخباركم، سألها، من الأفضل البدء بالخبر السيئ، وترك الخبر الطيب، إذا كان موجوداً، إلى النهاية، أخبارى ليست طيبة ولا سيئة، إنها أخبار وحسب، **سأبدأ أنا إذا بما لدينا هنا،** لقد اتصلوا بنا بعد ظهر اليوم من المركز ليخبرونا بأنهم لن يشتروا الدمى، فقد أجروا عملية سبر وكانت النتيجة سلبية. سادت لحظة صمت فى الجانب الآخر. انتظرت مارتا. ثم قال مرسيال، **كنت أعرف بأمر ذلك السبر،** عرفت أنك

كنت تعرف، لقد أخبرنى أبى، كنت أخشى أن تكون نتيجة السبر...، وقد تحقق ما كنت تخشاه، هل أنت غاضبة منى لأنى لم أخبرك، لست غاضبة منك ولا منه، فهكذا هى الأمور، لا بد من بذل الجهد لفهمها وتقبلها، ولكن أكثر ما ضايقنى هو أننى فقدت الحلم بأننا، حتى ونحن نعيش فى المركز، نستطيع مواصلة العمل فى مشغل الخزف، لم أفكر قطّ فى مثل هذا الاحتمال، لم تكن فكرة من رأسى، بل خرجت فى محادثة مع أبى، ولكن لم يكن بإمكانه التأكد من أن الدمى ستقبل، أراد لى ألا أقلق، مثلما أردت أنت، ونتيجة الخدعة أننى عشت سعيدة مثل عصفور ساذج خلال هذه الأيام الثلاثة، أشعر برغبة فى القول إن شيئاً أفضل من لا شىء، وباختصار، لن نبكى على الحليب المسكوب الذى أسال الكثير من الدموع فى العالم، أخبرنى الآن بما لديك من أخبار، لقد منحونى ثلاثة أيام إجازة من أجل الانتقال، بما فيها يوم راحتى العادية، ويأتى هذه المرة يوم الإثنين، وهكذا سأخرج من هنا يوم الجمعة عند الغروب، فى سيارة أجرة، فليس هناك ما يستحق أن يأتى أبوك لأخذى، وسنعد كل شىء يوم السبت، ويوم الأحد صباحاً نرفع الأشرعة، ما نحتاج إلى حملة معنا صار جاهزاً، قالت مارتا بصوت ساه. وساد صمت آخر. ألسنت سعيدة، سألها مرسيال، إننى، إننى سعيدة، ردت مارتا. ثم كررت، إننى، إننى سعيدة. وفى الخارج نبج الكلب لقية، لا بد أن شبحاً فى الليل قد تحرك.

كانت الشاحنة محمّلة، ونوافذ وأبواب مشغل الخبز والبيت مغلقة، ولم يكن قد تبقى، كما قال مرسيال قبل أيام، سوى رفع الأشرطة. وخلافاً لعادته، بملامح متوترة، وقد بدا فجأة أكثر هرمياً، نادى سيبريانو ألبور الكلب. وبالرغم من نبرة الكآبة التي يمكن لأذن مرهفة أن تميزها، رفع صوت السيد من حماسة لقية. كان الكلب يمضى حائراً، قلقاً، يركض من جانب إلى آخر، يشم الحقائق والحزم التي يُخرجونها من البيت، ينبح بقوة ليشدّ الانتباه، وها هي هواجسه تصيب، فأمر فريد، خارج المألوف، كان يُهياً له في الفترة الأخيرة، وقد جاءت الآن اللحظة التي سيقدر فيها مصير وجوده الحظ، أو القدر، أو المصادفة، أو قلب الإرادة والخضوع البشري. كان يقبع إلى جوار الكوخ الصغير منتظراً، ورأسه ممدود فوق قائمته الأماميتين. وعندما قال السيد، لقية، تعال. ظن أنه يدعوه للصعود إلى الشاحنة مثلما حدث في مرات أخرى، إشارة إلى أن شيئاً لم يتغير في حياته، وأن هذا اليوم سيكون كما أمس، مثلما هو

حلم الكلاب الدائم. استغرب أن يربطوا الحزام بطوق عنقه، فذلك غير معهود حين يسافرون، ولكن الاستغراب تضاعف، وتحول إلى تشوش، عندما مرت السيدة والسيد الأصغر سناً بيديهما على رأسه، وقد فعلا ذلك فى الوقت نفسه الذى راحا يتمتمان بكلمات غير مفهومة، وكان يتردد فيها اسمه الحالى لقية بصورة مثيرة للقلق، بالرغم من أن ما كانا يقولانه له لم يكن على شىء من السوء، سنأتى لرؤيتك فى أحد هذه الأيام. شدّ الحزام يجعله يدرك أنه عليه اللحاق بالسيد، وعاد الوضع يتضح من جديد، فالشاحنة للسيد الأخرين، ومع هذا السيد ستكون النزهة مشياً على الأقدام. وحتى فى هذه الحال مازال وجود الحزام يفاجئه، ولكنه مجرد أمر ثانوى بلا أهمية، فعند الوصول إلى الحقول سيفلته السيد كى يركض فى أثر أى كائن حتى يظهر أمامه، حتى لو لم يكن سوى سحلية تافهة. الصباح بارد، والسماء غائمة، ولكن دون توعده بهطول مطر. لقد صاروا على الطريق العام، وبدلاً من الذهاب يساراً باتجاه الحقول المفتوحة، مثلما كان يأمل، انحرف السيد باتجاه اليمين، وسوف يذهبان بالتالى إلى القرية. ثلاث مرات، خلال الطريق، كان على لقية أن يكبح خطواته بغتة. وكان سيبريانو ألاجور يمضى مثلما يمضى جميعنا فى ظروف مشابهة لهذه، عندما نبدأ الجدل بتكاسل مع كائننا الحميم الداخلى إذا كنا نريد أو لا نريد ما صار واضحاً أننا نريده، يبدأ الأمر بجملة ولا ينتهى، يتوقف أحدنا فجأة، يركض كما لو أنه ذاهب

لينقذ أباه من المشنقة، يتوقف أحدنا مرة أخرى، حتى إن الأمر ينتهى بأشد الكلاب صبراً وانكباباً إلى التساؤل إذا لم يكن من الأفضل له أن يكون عند سيد أشد تصميماً. ولكنه لا يعرف مع ذلك إلى أى حد كان حاسماً تصميم هذا السيد. لقد صار سيبريانو ألاجور أمام باب إساورا مادروجا، يمد يده ليطرق الباب، يتردد، يتقدم مرة أخرى، وفى هذه اللحظة ينفتح الباب كما لو أنه كان بانتظاره، ولكن هذا غير صحيح، ذلك أن إساورا مادروجا قد سمعت الجرس وجاءت لترى من هناك. صباح الخير يا سيدة إساورا، قال صانع الخزف، صباح الخير يا سيد ألاجور، اعذرى مجيئى لإزعاجك فى بيتك، ولكن لدى أمراً أريد التحدث فيه مع حضرتك، أن أطلب منك جميلاً كبيراً، تفضل بالدخول، يمكننا التحدث هنا بالذات، لا حاجة إلى الدخول، أرجوك، أدخل، بلا تكلف، هل يمكن للكلب أيضاً أن يدخل، سأل سيبريانو ألاجور، فقوائمه متسخة، لقية أشبه بفرد من الأسرة، ونحن صديقان قديمان. أغلق الباب، وانغلقت ظلال الصالة الصغيرة عليهم، أومأت إساورا مشيرة إلى أريكة، وجلست هى أيضاً. لدى إحساس بأنك تعرفين سبب مجيئى، قال صانع الخزف بينما هو يجعل الكلب يربض عند قدميه، هذا محتمل، ربما تكونين قد تبادلت بعض الحديث مع ابنتى، حول ماذا، حول لقية، لا، لم نتحدث قط حول لقية بهذا المعنى الذى تشير إليه، أى معنى، هذا الذى قلته عن تبادل حديث، لقد تحدثنا بالطبع عن لقية أكثر من مرة،

ولكننا لم نتبادل حديثاً خاصاً به بالذات. أخفض سيبريانو ألجور عينيه، ما جئت أطلبه منك هو أن تستبقى لقيه عندك خلال غيابي، هل ستذهب إلى الخارج، سألته إساورا، سأذهب الآن بالذات، ويفترض أننا لا نستطيع أخذ الكلب معنا، فالمركز لا يتقبل وجود حيوانات، سأستبقيه عندي، أعرف أنك ستعتنين به كما لو أنه لك، سأعتني به أفضل مما لو كان لي، لأنه لك أنت. ودون أن يفكر فيما يفعله، ربما لكى يريح أعصابه، نزع سيبريانو ألجور الحزام من طوق رقبة الكلب. أظن أنه على تقديم اعتذار، لماذا، لأننى لم أكن مهذباً جداً مع حضرتك على الدوام، ذاكرتى تتذكر أشياء أخرى، مساء اليوم الذى التقيت بك فى المقبرة، وما تحدثنا به عن قبضة الإبريق المفلتة، وزيارتك إلى بيتى لتحمل لى إبريقاً جديداً، أجل، ولكننى كنت بعد ذلك قليل اللباقة، فظاً، ولم يكن ذلك مرة واحدة ولا مرتين، لا أهمية للأمر، بل له، الدليل على أنه بلا أهمية هو أننا معاً هنا الآن، ولكننا على وشك ألا نكون كذلك، أجل، إننا على وشك ألا نكون كذلك. لا بد أن غيوماً قاتمة قد غطت السماء، فالعتمة الخفيفة داخل البيت صارت أشد كثافة، وسيكون من الطبيعى أن تنهض إساورا الآن عن مقعدها لتشعل الضوء. ولكنها لم تفعل، ليس بسبب عدم المبالاة أو أى سبب خفى آخر، وإنما ببساطة لأنها لم تنتبه إلى أنها تكاد لا تستطيع تمييز ملامح سيبريانو ألجور الجالس هناك قبالتها بالذات، على مسافة قريبة من ذراعه إذا ما انحنى قليلاً نحو

الأمم، أما زال الإبريق فعلاً، يبرد الماء، سألها سيبريانو الجور، كما فى اليوم الأول، وفى هذه اللحظة انتهت إلى ازدياد الظلمة فى الحجر، يجب على أن أشعلَ النور، قالت لنفسها، ولكنها لم تنهض. لم يُقل لها قط إن أشخاصاً كثيرين فى العالم تبدل مصيرهم جذرياً بهذه الحركة بالغة البساطة المتمثلة بإشعال النور أو إطفائه، سواء أكان مصباحاً قديماً، أو شمعة، أو قنديل بترول، أو مصباحاً من المصابيح الحديثة، صحيح أنها فكرت فى أنه عليها النهوض، فهذا ما تقتضيه العادات، ولكن الجسد يرفض ذلك، لا يتحرك، يرفض تنفيذ أمر الدماغ. كانت تلك هى الظلمة التى يحتاج إليها سيبريانو الجور كى يتجرأ أخيراً ليصرح، أحبك يا إساورا، وردت هى بصوت بدا متألماً، وجئت لتقول لى هذا فى يوم مغادرتك، سيبدو بلا جدوى قوله من قبل، مثلما هو بلا جدوى، فى نهاية المطاف، قوله الآن، ومع ذلك قلته لى، لقد كانت الفرصة الأخيرة، ولك أن تأخذى الأمر على أنه وداع، لماذا، لأنه ليس لى ما أقدمه لك، فأنا من جنس آخذ بالانقراض، ليس لى مستقبل، وحتى ليس لى حاضر، بل لك حاضر، هذه اللحظة، هذه الغرفة، ابنتك وصهرك اللذان سيأخذانك معهما، وهذا الكلب القابع عند قدميك، ولكن ليس هذه المرأة، لم تسألنى رأى، ولا أريد أن أسألك، لماذا، أكرر، لأنه ليس لى ما أقدمه لك، إذا كان ما قلته قبل لحظة نابعاً عن إحساس وتفكير، فإن لديك الحب، الحب ليس بيتاً، ولا ثياباً، ولا طعاماً، ولكن الطعام والملابس والبيت،

بجد ذاتها، ليست حياً، لا حاجة بنا إلى التلاعب بالكلام، فالرجل لا يطلب من امرأة أن تتزوج منه إذا لم تكن لديه وسائل لكسب عيشه، وهل هذه هي حالتك، سألته إساورا، أنت تعرفين جيداً أنها كذلك، فمشغل الخزف قد أُغلق، وأنا لا أتقن عملاً آخر، ولكنك ستعيش على حساب صهرك، لا يوجد لدى مخرج آخر، يمكنك أن تعيش كذلك على ما تكسبه امرأتك، كم من الوقت سيستمر الحب في هذه الحال، سأل سيبريانو ألبور، لم أشتغل حين كنت متزوجة، وكنت أعيش على ما يكسبه زوجي، لا أحد يرى سوءاً في ذلك، فقد كانت هذه هي العادة، ولكن ضعى رجلاً في هذا الوضع وأخبريني بما سيحدث فيما بعد، هل على الحب إذاً أن يكون مكرهاً على الموت لهذا السبب، سألته إساورا، أيمنك للحب أن ينتهي لسبب بسيط كهذا، لست في وضع يسمح لي بالإجابة، فأنا أفتقد الخبرة. وبتحفظ، نهض لقيه، فزيارة المجاملة في رأيه أخذت تطول كثيراً، وهو يريد الآن العودة إلى كوخه، إلى شجرة التوت، إلى مقعد التأملات. قال سيبريانو ألبور، على أن أذهب، لأنهم ينتظرونني، أهو الوداع، سألته إساورا، سنأتي بين حين وآخر لنرى كيف هو لقيه، ولنرى إذا ما كان البيت لا يزال قائماً، إنه ليس وداعاً إلى الأبد. أعاد شبك الحزام بطوق رقبة الكلب وقدمه إلى إساورا، إنني أتركه لك، إنه كلب وحسب، وإن كان. لن نعرف أبداً الاعتبار الأنطولوجية التي كان سيبريانو ألبور يستعد لتطورها كلمة الربط التي تركها معلقة في

الفضاء، لأن يده اليمنى، هذه التى تمسك الحزام، ضاعت أو وجدت نفسها بين يدي إساورا مادروجا، المرأة التى لم يشأ ضمها إلى حاضره والتى تقول له الآن مع ذلك، أحبك يا سيبريانو، أنت تعرف أنني أحبك. انزلق الحزام إلى الأرض، وحين أحس لقيه أنه طليق، ابتعد ليشم أسفل الجدار، وعندما أدار رأسه بعد قليل أدرك أن الزيارة قد انحرفت عن طريقها، وأن ذلك العناق لم يكن مجرد مجاملة، ولا تلك القبلات، ولا ذلك التنفس المتقطع، ولا تلك الكلمات التى تبدأ الآن أيضاً ولكنها لا تتمكن من الانتهاء، إنما لها أسباب أخرى مختلفة. كان سيبريانو الجور وإساورا قد نهضا، وكانت هى تبكى من السعادة والأسى، وكان هو يتلعثم، سأعود، سأعود، من المحزن أن الباب الخارجى لا يفتح على مصراعيه كى يتمكن الجيران من تناقل الكلام عن أن أرملة إستوديوسو والعجوز صاحب مشغل الخزف متحابان حباً حقيقياً ومعلنأ فى نهاية المطاف. وبصوت استرد شيئاً من نبرته الطبيعية، كرر سيبريانو الجور، سأعود، سأعود، لا بد من وجود حلّ لنا، الحلّ الوحيد هو أن تبقى، قالت إساورا، أنت تعرفين جيداً أنني لا أستطيع، سنظل هنا فى انتظارك، أنا ولقيه. الكلب لم يفهم سبب إمساك المرأة بالحزام المتصل بعنقه، مع أن الثلاثة يتجهون نحو الباب، وهذه إشارة واضحة إلى أنه هو وسيده سيغادران أخيراً، ولا يفهم لماذا لم ينتقل الحزام بعد إلى يد من ثبته برقبته. كان الرعب يتصاعد من أحشائه إلى حنجرته، ولكن أعضائه

ترتعث فى الوقت نفسه من التهيج الناتج عن الخطة التى انتهت غريزته إلى رسمها، التحرر بشدة عنيفة واحدة عندما يُفتح الباب، وبعد ذلك سينتظر ظافراً فى الخارج أن يأتى سيده للقاءه. لم يُفتح الباب إلا بعد معانقات أخرى وقبلات أخرى، وكلمات هامسة أخرى، ولكن المرأة كانت تثبته بقوة بينما هى تقول، أنت ستبقى، أنت ستبقى، هكذا هى شئون التكلم، فالفعل نفسه الذى عجز عن إبقاء سيبريانو ألبور هو الذى لا يسمح للقية الآن بالهرب. أُغلق الباب، وفصل بين الحيوان وسيده، ولكن هكذا هى أمور الإحساس، فلا يمكن لغم هجران أحدهما، فى هذه اللحظة على الأقل، أن يأمل بالتعاطف أو الاستجابة من سعادة الآخر الممزقة. ولن يكون بعيداً اليوم الذى سنعرف فيه كيف سارت حياة لقية فى بيته الجديد، وما إذا كان تأقلمه مع سيدته الجديدة مريحاً أو مكلفاً، وما إذا كانت المعاملة الطيبة والعاطفة غير المحدودة اللتان أحاطته بهما كافيين لأن يُنسيه حزن هجرانه الجائر. أما من علينا متابعته الآن فهو سيبريانو ألبور، لا شىء سوى متابعته، السير فى أثره، مرافقة خطواته المسرنة. أما عن تخيل كيف يكون من الممكن أن تجتمع فى شخص واحد مشاعر شديدة التناقض مثل - فى الحالة التى ننظر فيها - أشد أشكال السعادة عمقاً وأشد أنواع الاستياء وخزاً، من أجل أن نكتشف بعد ذلك أو نبتدع التسمية الوحيدة التى سيتميز بها الشعور الخاص الناجم عن ذلك الدمج، وهذه مهمة جرى السعى إليها مرات كثيرة فى الماضى، وفى كل

مرة كان الأمر ينتهى بالاستسلام - كما لو أنه أفق يتفكك دون توقف - لعدم بلوغ ولو عتبة باب الأشياء التى لا يمكن وصفها والأمل بالألا تظل كذلك. فالتعبير البشرى المثرثر لم يعرف بعد، ومن المحتمل أنه لن يعرف أبداً، التعرف، والاعتراف، وتوصيل كل ما هو قابل للاختبار والإحساس به إنسانياً. هناك من يؤكد أن السبب الرئيسى فى هذه الصعوبة الجدية جداً يكمن فى واقع أن الكائنات البشرية مصنوعة بصورة أساسية من طين، والطين، كما تشرح لنا الموسوعات بدقة، هو صخر رسوبى حُتاتى، مكون من جزيئات بالغة الدقة بحجم واحد/مئتين وخمسين سيسافو فى المليمتر. وحتى اليوم، مهما كانت التنوعات التى قدمتها اللغات، لم يتم التوصل إلى تسمية لهذا الشيء.

فى أثناء ذلك، وصل سيبريانو ألبور أخيراً إلى نهاية الشارع، وتحول إلى الطريق العام الذى يقسم البلدة فى منتصفها، ليس ماشياً ولا متجرجراً، ليس راكضاً ولا طائراً، كما لو أنه يحلم بأن يتحرر من نفسه ويصطدم طوال الوقت بجسده، وصل إلى أعلى المرتفع؛ حيث كانت الشاحنة تنتظره وفيها صهره وابنته. كانت السماء قد بدت، من قبل، أنها ليست مهيأة لهطول المطر، ومع ذلك، بدأ يتساقط الآن مطر متردد، ربما لم يأت ليستم طويلاً، ولكنه يزيد من كآبة هؤلاء الأشخاص، الذين تفصلهم لفة عجلة عن أماكنهم المحببة، حتى مرسياى نفسه كان يشعر بأن معدته تعارضه بالقلق. دخل سيبريانو ألبور إلى

الشاحنة، جلس إلى جانب السائق، فى المكان الذى تُرك له وقال، هيا بنا. ولن يتفوه بأية كلمة أخرى حتى الوصول إلى المركز، حتى الدخول إلى مصعد الحمولة الذى صعد به مع الحقائق وحزم الأمتعة إلى الطابق الرابع والثلاثين، وحتى فتح باب الشقة، وحتى هتاف مرسيال، ها قد وصلنا، فى هذه اللحظة فقط فتح فمه كى يُصدر بعض الأصوات القليلة المنتظمة، وإن لم يخرج معه شئ من حصاده، فقد اكتفى بأن يكرر، مع إضافة تفخيمية، صحيح، ها قد وصلنا. ومارتا ومرسيال لم يتكلما بدورهما إلا قليلاً خلال الطريق. الكلمات الوحيدة الجديرة بأن تسجل فى هذه القصة، ولو بصورة عرضية محضة، للتنويه بشخصين لم نكد نسمعهما يتكلمان معاً، هى ما قالاه لدى مرور الشاحنة قبالة بيت أبوى مرسيال، هل أخبرتهما بأننا سنذهب اليوم، سألته مارتا، أجل، أول أمس، حين جئت من المركز، بقيت معهما لوقت قصير، وكانت سيارة الأجرة تنتظرني، ألا تريد التوقف الآن، عادت تسأله، إننى متعب من الجدل، وضجِر حتى قمة رأسى، حتى وأنت كذلك، ألا تتذكرين كيف تصرفا عندما ذهبنا معاً، أنت لا تريدين بالتأكيد أن يتجدد ذلك المشهد، قال مرسيال. هذا محزن، فهما أبواك على كل حال، إنه تعبير مثير للفضول جداً، أى تعبير تعنى، على كل حال، ولكنه يقال هكذا، صحيح، إنها كلمات تبدو للوهلة الأولى ليست أكثر من جملة تزيينية لا بد منها بكل المعانى، ولكنها تسبب لنا الخوف حين نبدأ التفكير فيها ونفهم إلى أين تريد الوصول، على

كل حال، قالت مارتا، إنها طريقة مواربة أخرى للقول لا مناص، أو ما باليد حيلة، أو لا بد مما لا بد منه، أو الاستسلام ببساطة، وهذه هي الكلمة الأقوى، وباختصار، يتوجب علينا على الدوام العيش مع آبائنا، قال مرسيال، وأنهت مارتا، دون نسيان من سيعيش مع الأبوين اللذين سنكونهما. عندئذ نظر مرسيال إلى يمينه وقال، هذا الحديث عن الآباء والأبناء المتخاصمين ليس له أية علاقة بك طبعاً، غير أن سيبريانو ألاجور لم يجب، واكتفى بهز رأسه بغموض. ومارتا الجالسة خلف زوجها، كانت ترى أباهما جانبياً تقريباً. ما الذى جرى مع إساورا يا ترى، فكرت، لم يكن بالطبع مجرد وصول فقط، وترك لقيه عندها والعودة، فالتأخر يعنى أن كلاً منهما قال شيئاً للآخر، لست أدري ما الذى أنا مستعدة لأن أقدمه مقابل أن أعرف ما الذى يفكر فيه، وجهه يبدو هادئاً، ولكنه فى الوقت نفسه وجه شخص غير واع بالكامل، وجه شخص هرب من خطر ويُفاجأ أنه مازال حياً. وكانت ستعرف أكثر بكثير لو أنها رأت أباهما مواجهة، وربما كانت ستقول حينئذ، أعرفُ هذه الدموع التى لا تُذرف وتُسْتهلك فى العينين، أعرف هذا الألم السعيد، هذا النوع من السعادة المؤلمة، هذه الحالة من الامتلاك وعدم الامتلاك، من الرغبة فى الشئ وعدم القدرة على تحقيقه. ولكن الوقت مازال مبكراً لكى يجيبها سيبريانو ألاجور. كانوا قد خرجوا من القرية، وخلفوا وراءهم البيوت الثلاثة المهدمة، وهم يجتازون الآن الجسر القائم فوق نهر مياه قاتمة وكريهة الرائحة.

وإلى الأمام، فى منتصف الحقل، حيث تلمح تلك الأشجار المجتمعة، يقبع كنز آثار مشغل خزف سيبريانو ألبور مختفياً وسط أجمة العليق. يمكن لأى كان أن يقول إن ألف عام قد انقضت منذ أن أفرغ هناك آخر بقايا حضارة قديمة.

عندما نزل مرسيال فى الصباح التالى ليوم عطلته من الطابق الرابع والثلاثين لبدأ الخدمة كحارس مقيم بكل معنى الكلمة، كانت الشقة مرتبة، نظيفة، والأشياء التى جىء بها من البيت الآخر فى أمكنتها المناسبة، وبانتظار أن يبدأ السكان أيضاً، دون مقاومة، بشغل الأمكنة التى تخصصهم. لن يكون ذلك سهلاً، فالشخص يتحرك، يفكر، يسأل، يتشكك، يتحرى، يريد أن يعرف، وإذا كان صحيحاً أنه ينتهى عاجلاً أو آجلاً، مجبراً بعادة الإذعان إلى الخضوع مثل الأشياء، ولا يظن أحد أن هذا الخضوع يكون نهائياً فى جميع الحالات. المسألة الأولى التى يتوجب على السكان الجدد حلّها، باستثناء مرسيال جاتشو الذى سيستمر فى عمله الروتينى والمعروف بالسهر على أمن الأشخاص والممتلكات المؤسسية أو المرتبطة آنياً بالمركز، المسألة الأولى، كما قلنا، ستكون العثور على جواب مُرضٍ للسؤال، ماذا سأفعل الآن. مارتا تحمل على كاهلها إدارة البيت، وعندما يحين الموعد سيكون لديها ابن تربيته، وسيكون ذلك أكثر من كافٍ لإبقائها مشغولة خلال ساعات طويلة من النهار وبعض ساعات الليل. ومع ذلك، بما أن الأشخاص، مثلما أشرنا أعلاه، هم ذوات مفكرة فضلاً عن أنهم ذوات فاعلة،

فإنه علينا ألا نُفاجأ إذا ما توصلت إلى التساؤل، فى منتصف عمل أخذ منها ساعة من الوقت وسيشغلها لساعتين أخريين، وما الذى سأفعله أنا الآن. ولكن سيبريانو أَلجور، على كل حال، هو من يجد نفسه فى مواجهة أسوأ الأوضاع، وضع النظر إلى يديه ومعرفة أنهما لم تعودا تنفعان فى شىء، النظر إلى الساعة ومعرفة أن الساعة التالية ستكون مشابهة لهذه الحالية، والتفكير فى يوم غد ومعرفة أنه سيكون خاوياً مثلما هو اليوم. وسيبريانو أَلجور ليس مراهقاً، لا يمكنه قضاء اليوم منبطحاً على سرير لا تكاد تتسع له غرفته الضيقة جداً، والتفكير فى إساورا مادروجا، وتكرار الكلمات التى قالها أحدهما للآخر، وإنعاش - إذا كان بالإمكان إطلاق هذه التسمية الطموحة على عمليات الذاكرة غير المادية - القبلات والمعانقات التى تبادلاها. سيكون هناك أناس يفكرون فى أن أفضل دواء لداء سيبريانو أَلجور هو أن ينزل الآن إلى المرآب ويركب الشاحنة ويذهب لزيارة إساورا مادروجا التى لا بد أنها تفكر، هناك بعيداً، بتلهفات مماثلة فى الجسد والروح، وأنه بالنسبة لرجل فى الوضع الذى هو فيه، رجل لم تعد الحياة تحتفظ له بانتصارات صناعية وفنية ذات أهمية من الدرجة الأولى أو الثانية، وما زالت لديه امرأة يحبها وقد اعترفت بأنها تبادله الحب، هو أسمى المباركات والحظوظ. من يقول هذا لا يعرف سيبريانو أَلجور. فمثلما كان قد قال لنا إن الرجل لا يطلب من امرأة أن تتزوجه إذا كان لا يملك حتى الوسائل لضمان ما يقيم أوده،

وسيقول لنا الآن أيضاً إنه لم يولد ليستغل الظروف المواتية والتصرف كما لو أن له حقاً مزعوماً بالمنافع الناجمة عن ذلك الاستغلال لأنه، فضلاً عن تبريره بالمزايا والخصائص التي تجمله، وجّه اهتمامه ورغباته كرجل إلى امرأة. وبكلمات أخرى أكثر صراحة ومباشرة، سيبريانو ألجور غير مستعد، ولو كلفه ذلك كل آلام ومرارات الوحدة، لأن يمثل أمام نفسه دور الشخص الذي يزور المعشوقة بصورة دورية ويعود دون أية ذكريات عاطفية سوى أمسية أو ليلة يمضيها في تهيج البدن وهز المشاعر، مُودِعاً لدى الخروج بقبلة ساهية على وجهٍ فقد مكياجه، ومخلفاً كذلك، في الحالة الخاصة التي نحن بصددتها، مداعبة على رأس كلب والقول له، إلى اللقاء في المرة القادمة يا لقية. ومع ذلك مازالت لدى سيبريانو ألجور وسيلتان أخريان للهرب من السجن الذي رأى فجأة أن الشقة قد تحولت إليه، كيلا نتحدث عن وسيلة التهدئة البسيطة وقليلة الديمومة المتمثلة في الاقتراب بين حين وآخر من النافذة والنظر إلى السماء من خلف الزجاج. الوسيلة الأولى هي المدينة، فسيبريانو ألجور الذي عاش طوال الوقت في القرية التافهة التي لم نكد نتعرف عليها، والذي لم يعرف من المدينة إلا تلك المناطق التي يمر بها في طريقه، صار بإمكانه الآن تبديد وقته بالتنزه، بالتسكع، بتوفير هواء للريشة، وهذا تعبير مجازي وكاريكاتيري لا شك في أنه آت من زمن مضى، عندما كان النبلاء وسادة البلاط يضعون ريشاً على قبعاتهم ويخرجون لشم الهواء بها.

وسيجد تحت تصرفه أيضاً حدائق المدينة ومنتزهاتها العامة حيث يجتمع عادة الرجال المتقدمون فى السن مساءً، أولئك الرجال ذوو الوجوه والحركات التقليدية التى للمتقاعدين والعاطلين، وهما طريقتان مختلفتان لقول الشيء نفسه. يمكن له أن ينضم إلى أولئك الرجال ويصادقهم، وأن يلعب الورق بحماسة حتى المغيب، إلى أن لا يعود بإمكان عينيه قصيرتى النظر تمييز إذا كان اللعب لا يزال للأوراق الحمراء أم أنه عاد إلى الأوراق السوداء. وسيطلب لعبة الثأر إذا خسر، وسيمنحها إذا كسب، فالقواعد فى الحديقة بسيطة ويمكن تعلمها بسرعة. أما الوسيلة الثانية، ولا حاجة إلى ذكر ذلك، هى المركز نفسه الذى يعيش فيه. إنه يعرفه من قبل، بكل تأكيد، أقل من معرفته المدينة على أى حال، لأنه لم يستطع قط أن يحفظ فى ذاكرته المسارات التى اتخذها فى المرات العديدة التى دخل فيها، بصحبة ابنته على الدوام، لشراء بعض الأشياء. أما الآن، فيمكن القول إن المركز كله صار له، لقد وضعوه له على طبق إيقاع وضوء، ويمكن له أن يتسكع فيه قدر ما يشتهى، وأن يهدى لنفسه الموسيقى السهلة والداعية أحياناً. أجل، عندما جاءوا للتعرف على الشقة، كان بإمكانهم استخدام مصعد فى الجانب المقابل، وخلال الصعود، يمكن لهم فضلاً عن رؤية صالات ومتاجر، وسلالم آلية، ونقاط التقاء، ومقاهٍ ومطاعم جديدة، أن يروا منشآت أخرى لا تقل أهميةً وتنوعاً عن تلك الأشياء الأولى، مثلما هى أرجوحة خيول دوارة، أرجوحة دوارة بمركبات

فضائية، مركزاً للأطفال، ومركزاً للفتيان، وبنفاً للحب، وجسراً معلقاً، وقطاراً شبحياً، ومركز استشارات تنجيم، ومكتب مراهنات، ومحللاً للرماية، وميدان جولف، ومستشفى فخم، وآخر أقل فخامة، وملعب بولينج، وصالة بيليارد، وخريطة عملاقة، وباباً سرّياً، وباباً آخر عليه إعلان يقول اختبر أحاسيس طبيعية، مطر، رياح، ثلوج على هواك، وسوراً صينياً، وتاج محل، وهرماً مصرياً، ومعبد كرنك، ومجرى مائياً مفتوحاً يعمل أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم، ودير مارفا(*) (كوبرجاً للكهنة، وخليجاً ضيقاً، وسماء صيف بغيوم بيضاء طافية، وبحيرة، وشجرة نخيل حقيقية، وهيكل عظيمياً لديناصور، وآخر يبدو حياً، وجبل هيمالايا مع قمة إفرست، ونهر أمازون مع هنود، وطوقاً حجرياً، وحصان طروادة، وكرسياً كهربائياً، وفصيلة إعدام، وملاكاً ينفخ البوق، وقمر اتصالات، ومُذنباً، ومجرة، وقزماً كبيراً، ومارداً صغيراً، وباختصار، قائمة هائلة من الأعاجيب لن تكفى ثمانون سنة من حياة البطالة للتمتع بها، حتى لو أن الشخص قد ولد فى المركز ولم يخرج قط إلى العالم الخارجى.

وباستبعاد تأمل المدينة وسطوحها من وراء نافذتى الشقة بسبب القصور الواضح، وإلغاء إمكانية التردد على المنتزهات والحدائق؛ لأن سيبريانو ألاجور لم يصل إلى حالة معنوية يمكن تصنيفها على أنها يأس نهائى

(*) قصرودير مارفا Marfa فى البرتغال انتهى بناؤه فى العام ١٧٢٠

كمحاكاة لقصر وديز الإسكوريال الأسباني.

أو غثيان مطلق، والتخلى عن زيارات التنفيس العاطفى والجسدى المغرية، إنما الإشكالية، لبيت إساورا مادروجا، للأسباب القوية المذكورة آنفاً، لم يبق أمام أبى مارتا، إذا لم يشأ قضاء بقية حياته متثائباً وخبيط رأسه، مجازياً، بجدران سجنه الداخلى، سوى الانطلاق فى اكتشاف الجزيرة العجيبة التى نُقل إليها بعد غرق سفينته، وتفحصها بصورة منهجية. وفى الصباح، بعد تناول الفطور، يوجه سيبريانو أَلجور إلى ابنته عبارة، إلى اللقاء بتعجل، وكمن هو ذاهب إلى عمله، يصعد أحياناً حتى الطابق الأخير، وينزل فى أحيان أخرى إلى مستوى الأرض، مستخدماً المصاعد وفق حاجته إلى المراقبة، مرة بالسرعة القصوى، ومرة بالسرعة الدنيا، ويتقدم عبر ردهات وممرات، ويجتاز صالات، ويلتف حول مجتمعات فترينات هائلة ومعقدة، ومناضد كونتوار، وصالات عرض، وواجهات مع كل ما هو موجود للأكل والشرب، للبس والانتعال، للشعر والبشرة، للأظفار وللزغب - سواء أكان الزغب علوياً أم سفلياً - للتعليق بالرقبة، أو التعليق بالأذان، للوضع بالأصابع أو للرنين فى المعاصم، للتركيب أو لل فك، للظهو أو للخياطة، للطللى أو نزع الطلاء، للزيادة أو الإنقاص، للتسمين أو التنحيف، للتمديد أو التقليص، للإملاء أو الإفراغ، وذكر هذا كله كأننا لم نذكر شيئاً، لأنه لا يمكن كذلك لثمانين سنة من حياة البطالة أن تكون كافية من أجل قراءة وتحليل الخمسة والخمسين مجلداً، والألف والخمسمئة صفحة فى كل واحد من المجلدات التى تؤلف كتالوج المركز التجارى. مما لا

شك فيه أن البضائع المعروضة ليست هي أكثر ما يهم سيبريانو ألاجور، كما أن الشراء ليس مسألة من اختصاصه ولا صلاحيته، فهناك من يكسب المال من أجل ذلك، أى الصهر، وهناك بعد ذلك من يتحكم بالمال ويتدبر وينفق، أى ابنته. هو من يمضى ويداه فى جيبه، متوقفاً هنا وهناك، سائلاً أحد الحراس عن الطريق، وربما مصطدماً به فى بعض الأحيان، ولكن ليس بهرسيال بأى حال، كيلا تظهر ملامح من العلاقة الأسرية بينهما، وخاصة بالاستفادة من أئمن منافع العيش فى المركز وأكثرها إثارة للحسد، ألا وهى الاستمتاع مجاناً أو بأسعار مخفضة، بوسائل الجذب الكثيرة المتوافرة للزبائن. وقد قدمنا عن وسائل الجذب هذه روايتين معتدلتين ومكثفتين، الأولى حول ما يُرى من مصعد هذا الجانب، والثانية حول ما يمكن أن يُرى من مصعد ذاك الجانب، ومع ذلك، وفى سبيل هوس بالموضوعية وصرامة بتقديم المعلومات، علينا أن نتذكر، سواء فى الحالة الأولى أم الثانية، أننا لم نذهب إلى ما هو أبعد من الطابق الرابع والثلاثين. وفوق هذا الطابق، كما نتذكر، يوجد عالم من أربعة عشر طابقاً آخر. ولأن الأمر يتعلق بشخص ذى روح فضولية بصورة معقولة، فلن يكون من الضرورى القول إن أولى خطوات تحرى سيبريانو ألاجور ستتوجه إلى الباب السرى الغامض الذى سيظل غامضاً، إذ على الرغم من قرع الجرس اللجوج وبعض الطرقات بالأصابع، لم يظهر أحد من الداخل ليسأله عما يريد. غير أنه كان عليه أن يقدم تفسيرات وتوضيحات كاملة

لحارس اجتذبت الضجة أو قادته، وهو الاحتمال الأكبر، صور دراة الفيديو المعلقة فى المركز، جاء ليسأله من يكون وما الذى يفعله فى ذلك المكان. أوضح سيبريانو ألبور أنه يعيش فى الطابق الرابع والثلاثين وأنه أحس، وهو يمر من هناك، باهتمام مبعثه اللوحة المعلقة على الباب، مجرد فضول يا سيدى، مجرد فضول ممن ليس لديه ما يفعله. طلب منه الحارس بطاقة هويته، والبطاقة التى تعتمد كعميم، وقارن الوجه مع الصورة فى كلتا البطاقتين، تفحص بعدسة مكبرة بصمات الأصابع التى على الوثيقتين، ومن أجل أن ينتهى أخذ بصمة الإصبع نفسها التى طبعها سيبريانو ألبور، بعد التهيئة اللازمة، على ما يجب أن يكون قارئ الكمبيوتر النقال الذى أخرجه الحارس من جراب يعلقه بكتفه، وهو يقول فى الوقت نفسه، لا تقلق، إنها شكليات، وتقبل منى نصيحة على أى حال، لا ترجع إلى هنا، لأنك تعقد حياتك بذلك، يكفى أن تكون فضولياً مرة واحدة، إضافة إلى أن الأمر لا يستحق الفضول، فلا وجود لشيء سرى وراء هذا الباب، فى أزمنة أخرى، كان هناك سر، أما الآن فلا، إذا كان الأمر كما تقول، لماذا لا يرفعون اللوحة عن الباب، سأله سيبريانو، إنها تنفعنا فى معرفة الأشخاص الفضوليين الذين يعيشون فى المركز. انتظر الحارس ابتعاد سيبريانو ألبور حوالى عشرة أمتار، ثم لحق به إلى أن وجد حارساً زميلاً، وكيلاً يتم التعرف عليه، حول إليه مهمة المراقبة، ما الذى فعله، سأله الحارس مرسيال جاتشو

مدارياً قلقه، كان يقرع الباب السرى، هذا ليس خطيراً، فهو يحدث عدة مرات كل يوم، قال مرسيال وقد اطمأن، أجل، ولكن على الناس أن يتعلموا ألا يكونوا فضوليين، أن يمروا عرضاً ولا يدسوا أنوفهم حيث لم يدعهم لا أحد، إنها مسألة وقت ومهارة، أو مسألة قوة، قال مرسيال، لم تعد القوة ضرورية، اللهم إلا فى حالات قصوى، وقد كان بإمكانى اعتقاله طبعاً للتحقيق معه، ولكننى وجهت إليه نصيحة مستخدماً الأسلوب النفسى، على أن ألحق به، فقد يفلت منى، قال مرسيال، إذا ما لاحظت فيه شيئاً مريباً أخبرنى به كى نضيفه إلى إضبارته ونوقّع عليه كلانا. ذهب الحارس الآخر، أما مرسيال، وبعد أن تابع عن بعد حماه المتسكع حتى طابقيين إلى أعلى، توقف عن ملاحظته. كان يسأل نفسه ما إذا كان مناسباً التكلم إليه وتوصيته بتوخى الحذر فى تجواله فى المركز، أو التظاهر بأنه لم يعلم بأمر الحادث الصغير وتمنى ألا يقع آخر أشد خطورة. وكان القرار الذى اتخذه هو هذا الأخير، ولكن عندما أخبره سيبريانو الجور، أثناء تناول العشاء، بما حدث وهو يضحك، لم يجد بداً من اتخاذ دور الناصح والطلب منه أن يتصرف بطريقة لا تلفت انتباه أحد، سواء الحراس أم غير الحراس، إنها الطريقة الصحيحة الوحيدة فى التصرف لمن يعيشون هنا. عندئذ أخرج سيبريانو الجور ورقة من جيبه، لقد استنسخت بعض عبارات لوحات الإعلان المعروضة، قال، وأرجو ألا أكون قد لفتُ اهتمام أى جاسوس أو مراقب، وهذا ما أرجوه أنا أيضاً، قال

مرسيال باستياء، هل من المريب استنساخ عبارات معروضة ليقرأها الجمهور، سأله سيبريانو ألبور، قراءتها أمر طبيعي، أما استنساخها فلا، وكل ما هو غير طبيعي يثير الريبة بأنه غير طبيعي على الأقل. ومارتا التي كانت معهما، ولم تشارك في الحديث، طلبت من أبيها، اقرأ العبارات. مسد سيبريانو ألبور الورقة على المنضدة وبدأ يقرأ، كن جسوراً، واحلم. نظر إلى ابنته وصهره، ولأنه لم يبد عليهما أنهما مستعدان للتعليق، واصل القراءة، عش جراً الحلم، هذه العبارة تنوع على العبارة الأولى، وتأتي الآن التالية، واحد، اكسب عملياتياً، اثنان، بحار الجنوب في متناول يدك دون أن تخرج من بيتك، ثلاثة، ليست هذه فرصتك الأخيرة ولكنها الأفضل، أربعة، نفكر طوال الوقت فيك وقد حان الوقت لأن تفكر فينا، خمسة، أحضر أصدقاءك إذا كانوا يشتركون، ستة، معنا لن ترغب أبداً في أن تكون شيئاً آخر، سبعة، أنت أفضل زبائننا، ولكن لا تخبر جيرانك بذلك، هذه العبارة معلقة في الخارج، على الواجحة، قال مرسيال، وهي الآن في الداخل، لا بد أنها أعجبت الزبائن، أجاب الحمو، ماذا وجدت أكثر في مغامرتك الاستطلاعية هذه، سألته مارتا، سوف يغلبك النعاس إذا ما بدأتُ بالكلام، نوّمني إذاً، أكثر ما أمتعني هي الأحاسيس الطبيعية، وما هو هذا، عليك أن تستخدمى مخيلتك، لا مشكلة في ذلك، تدخلين قاعة انتظار، تشتريين تذكرك، لم يتقاضوا منى سوى عشرة بالمائة من قيمة التذكرة، فقد حسموا خمساً وأربعين

بالمئة لأنى مقيم وحسم آخر مماثل لأن عمرى يزيد على الستين عاماً، يبدو أن تجاوز الستين أمر رائع، قالت مارتا، بالضبط، فكلما ازددت هرماً تكسب أكثر، وعند موتك ستكون ثرياً، وماذا حدث بعد ذلك، سأله مرسيال بنفاد صبير، ألم تدخل هناك قط، سأله الحمو مستغرياً، أعرف أن المكان موجود، ولكننى لم أدخله قط، لم يُتح لى الوقت، ليست لديك إذاً أدنى فكرة عما فقدته، إذا لم نخبرنا سأذهب إلى الفراش للنوم، هددت مارتا، حسن، بعد أن تدفعى ويعد أن يقدموا إليك واقياً مطرياً، وقبعة، وجزمة مطاطية، ومظلة، وهذه كلها أشياء ملونة، ويمكنك أيضاً أخذها سوداء، ولكن يتوجب دفع مبلغ إضافى، تنتقلين إلى مقصورة لارتداء الملابس فيأمرك مكبر صوت بانتعال الجزمة، والمعطف المطرى، والقبعة، وبعد ذلك تدخلين فى نوع من الممر حيث يصطف الأشخاص فى صفوف رباعية، ولكن بفاصل كبير فيما بينهم كى يتحركوا براحة، وقد كنا حوالى ثلاثين شخصاً، بعضهم يجربون أول مرة، مثلى، وآخرون بدا لى أنهم يترددون إلى هناك بين حين وآخر، وخمسة على الأقل مجربون تماماً، وقد سمعتُ أحدهم يقول إن هذا مثل مخدر، يجربه المرء ويتعلق به. وماذا بعد ذلك، سألته مارتا، بعد ذلك بدأ المطر، فى البدء بضع قطرات خفيفة، ثم أقوى قليلاً، وجميعنا فتحنا المظلات، وعندئذ أصدر مكبر الصوت الأمر بأن نتقدم، لا يمكن وصف ذلك، لا بد للمرء من أن يكون قد عاشه، بدأ المطر يهطل طوفانياً، وفجأة هبت ريح، جاءت فى هبة

قوية، ثم أخرى، هناك مظلات انقلبت، وقبعات طارت عن الرؤوس، والنساء كن يصرخن كيلا يضحكن، والرجال يضحكون كيلا يصرخوا، والرياح تزداد قوة، إنه إعصار، الأشخاص يقطرون ماء، يسقطون أرضاً، ينهضون، ويعودون للسقوط، والمطر يشكل سيلاً، احتجنا إلى عشر دقائق لاجتياز ما أُقدر أنها عشرون أو ثلاثون متراً، وبعد ذلك، سألته مارتا متثابرة، بعد ذلك رجعنا إلى الخلف وفي الحال بدأ الثلج، في البدء ندف متفرق يبدو كألياف قطن، كانت تسقط أمامنا كستارة تكاد لا تسمح لنا برؤية زملائنا، وكانت مظلات بعضهم لا تزال مفتوحة دون أن تنفع في شيء سوى عرقلة الحركة، وأخيراً وصلنا إلى مقصورة استبدال الملابس وكانت هناك شمس ساطعة بديعة، شمس في مقصورة استبدال الملابس، تشكك مرسيال، لم تكن مقصورة عندئذ وإنما نوع من البرية، وكانت تلك هي الأحاسيس الطبيعية، سألته مارتا، أجل، لا وجود فيها لما لا يحدث خارجاً كل يوم، كان هذا هو تعليقى بالضبط عندما كنا نعيد المواد، وكان من الأفضل لى أن أظل صامتاً، لماذا، لأن أحد المجريين نظر إلى باستخفاف وقال كم تحزنتى، لأنك لن تفهم أبداً. بدأت مارتا رفع المائدة بمساعدة زوجها. غداً أو بعد غد سأذهب إلى الشاطئ، أعلن سيبريانو الجور، لقد ذهبتُ إلى هناك مرة، قال مرسيال، وكيف هو، من النوع التروبيكالى، الحر شديد والماء فاتر، وماذا عن الرمل، لا يوجد رمل، بل محاكاة للرمل من البلاستيك، ولكنه يبدو حقيقياً من

بعيد، ولا وجود لأمواج بالطبع، إنك مخطئ، لديهم
آلية لإحداث أمواج كما البحر، ليس صحيحاً، بل هو
صحيح، يا للأشياء التي يمكن للبشر اختراعها، أجل،
قال مرسيال، وهذا محزن بعض الشيء. نهض
سيبريانو ألبور، دار دورتين حول نفسه، طلب من
ابنته أن تعطيه كتاباً وعندما كان على وشك الدخول
إلى حجرته قال، لقد كنتُ هناك تحت، لم تعد الأرض
تهتز، ولا يُسمع ضجيج حضارات، فرد مرسيال، لا بد
أنهم أنهوا العمل.

كانت مارتا قد اقترحت على زوجها أن يستغلوا أول يوم عطلة قادم له منذ أن جاءوا للعيش فى المركز للذهاب إلى بيت مشغل الخزف من أجل جلب بعض الأشياء التى اشتاقت إليها على حد قولها، عند الانتقال يؤخذ عادة كل ما يملكه المرء، ولكن هذه ليست حالتنا، بل أكثر من ذلك، إننى مقتنعة بأننا سنضطر إلى الذهاب مرات أخرى، ولهذا الأمر، فى العمق، بعض الظرافة، يمكننا قضاء الليل فى سريرنا والعودة فى صباح اليوم التالى، مثلما كنتَ تفعل من قبل. وأجاب مرسىال بأنه لا يرى من المناسب خلق وضع ينتهون فيه إلى عدم معرفة أين يعيشون حقاً، أبوك يحاول إشعارنا بأنه يستمتع جداً باكتشاف أسرار المركز، ولكننى أعرفه، فوراء ذلك الوجه مازال الرأس يعمل، لم يخبرنى بكلمة واحدة مما جرى فى بيت إساورا، لقد انغلق تماماً، وليست هذه عادته، فبطريقة أو بأخرى، حتى وهو ساخط، ينتهى على الدوام إلى فتح ما فى قلبه لى ولو بأسلوب فظ، وأظن أن ذهابنا إلى البيت قد يساعده، من المنطقى

أنه يريد أن يرى كيف هو لقية، وسيتبادل الحديث مرة أخرى معها، لا بأس، إذا كانت هذه هي فكرتك، فسوف نذهب، ولكن تذكرى ما أقوله لك، إما أن نعيش هنا أو نعيش فى مشغل الخزف، فمحاولة العيش فى المكانين كما لو أنهما مكان واحد سيكون كالعيش دون أى مكان، لميت الأمر يكون كذلك بالنسبة لنا، يكون كذلك، كيف، أن نعيش فى اللامكان، جميع الناس بحاجة إلى منزل، ونحن لسنا استثناءً، لقد انتزعوا منا البيت الذى كان لنا، هازال لنا، ولكن ليس مثلما كان فى السابق، بيتنا الآن هو هذا. نظرت مارتا فى ما حولها وقالت، لا أظن أنه سيكون كذلك أبداً. هز مرسيال كتفيه، وفكر فى أن آل الجور هؤلاء أناس يصعب فهمهم، ولكن حتى وهم كذلك لن يستبدلهم بأى شىء فى الدنيا. هل سنخبر أباك، سنخبره فى اللحظة الأخيرة فقط، كيلا يبدأ بالتحرق لهفة ويتسمم دمه.

لم يتوصل سيبريانو الجور إلى معرفة أن ابنته وصهره قد أعدا مشروعاً له. فى يوم عطلة مرسيال جرى إلغاؤه، وحدث الشىء نفسه لزملائه فى الوردية. فبتكتهم مطلق، أُطلع الحراس المقيمون، هم وحدهم، لأنهم يُعتبرون جديرين بمزيد من الثقة، على أن أعمال التهيئة لبناء مستودعات التبريد الجديدة قد أخرجت إلى النور فى الطابق صفر - خمسة شيئاً يتطلب تقصياً خذراً ومتأنياً، منذ الآن صار الدخول إلى المكان محظوراً، قال قائد الحراس، وخلال بضعة أيام

سيبدأ فريق مختلط من الاختصاصيين بالعمل هناك، سيكون بينهم جيولوجيون، وعلماء آثار، وسوسيولوجيون، وانثروبولوجيون، وأطباء، وقانونيون، وتقنيو إعلان، بل قيل لى إنه سيكون ضمن الجماعة فيلسوفان، لا تسألونى لماذا. توقف قليلاً، ومرّ بعينيه على العشرين رجلاً المصطفين أمامه، ثم واصل، من المنوع التكلم مع أى كان حول ما أخبرتكم به أو ما ستتوصلون إلى معرفته مستقبلاً، وعندما أقول مع أى كان فإن أياً كان يعنى الزوجة، الأبناء، الآباء، سرية تامة ومطلقة هي ما أطلبكم بها، مفهوم، مفهوم يا سيدى، ردّ الرجال فى جوقة، حسن، المدخل إلى المغارة، وقد نسييت أن أخبركم أن المسألة تتعلق بمغارة، المدخل موجود فى الطابق صفر - خمسة، وسيُحرس ليلاً ونهاراً، دون انقطاع، فى نوبات من أربع ساعات، وعلى هذه السبورة تستطيعون رؤية ترتيب نوبات الحراسة، الساعة الآن الخامسة مساءً، وفى الساعة السادسة سنبداً. رفع أحد الرجال يده، يريد أن يعرف، إذا كان ذلك ممكناً، متى تم اكتشاف المغارة ومن كان يحرسها منذ ذلك الحين، سنكون مسئولين عن الأمن منذ الساعة السادسة، قال، وبالتالي لا يمكن تحميلنا مسئولية أى خطأ يمكن أن يكون قد حدث قبل ذلك، مدخل المغارة اكتُشف هذا الصباح بينما كان يجرى قلب التراب يدوياً، فأوقف العمل فوراً وجرى إخبار الإدارة، ومنذ تلك اللحظة ظل ثلاثة مهندسين من الإدارة فى المكان طوال الوقت، هل يوجد شىء داخل المغارة، أراد حارس آخر

أن يعرف، أجل، أجابه القائد، ستتاح لكم الفرصة لرؤية ما هو موجود بأم أعينكم، أهو خطير، وهل من المناسب أن نذهب مسلحين، سأل الحارس نفسه، مما عُرف حتى الآن، لا وجود لأى خطر، ومع ذلك، وعلى سبيل الاحتياط، عليكم عدم اللمس أو الاقتراب كثيراً، فنحن نجهل النتائج التى قد يسفر عنها اللمس، علينا أم على ما هو موجود هناك، تجرأ مرسيال على السؤال، على الجانبين، وهل توجد أكثر من مغارة واحدة، أجل، قال القائد، وصمت وجهه عن أى تعبير. وبعد ذلك، كما لو أنه بذل جهداً ليتغلب على نفسه، واصل قائلاً، والآن، إذا لم تعد لديكم أسئلة تطرحونها، فخذوا فى اعتباركم ما يلى، فى المقام الأول، بالنسبة للتساؤل حول ذهاب الحارس مسلحاً أو غير مسلح، أرى أنه يكفى حمل الهراوة، ليس لأننى أفكر فى أنكم قد تضطرون إلى استخدامها، وإنما لتشعروا بأنكم أشد عزيمة، فالهراوة هى جزء أساسى من الزى، ومن دونها يشعر الحارس الذى بالزى الرسمى أنه عار، وفى المقام الثانى، من لا يكون فى نوبة الحراسة عليه أن يرتدى الزى المدنى ويجول بين الطوابق كلها بهدف التنصت إلى الأحاديث التى لها علاقة أو يبدو أن لها شيئاً من العلاقة بالمغارة، فإن حدث ذلك، بالرغم من أن هذا الاحتمال غير قائم عملياً، يجب إخبار خدمة الأمن المركزية فوراً لاتخاذ الاحتياطات اللازمة. توقف القائد عن الكلام قليلاً، ثم انتهى إلى القول، هذا هو كل ما تحتاجون إلى معرفته، وأكرر مرة أخرى، انتبهوا إلى الشعار، السرية

المطلقة، فحياتكم المهنية هي التي في اللعبة. اقترب الحراس من السبورة حيث وُزعت ورديات الحراسة، ورأى مرسيال أن ترتيبه التاسع، وبالتالي سيكون في الحراسة بين الساعة الثانية فجراً والسادسة من صباح يوم بعد غد. هناك تحت، على عمق ثلاثين أو أربعين متراً، لن يُلاحظ الفرق بين النهار والليل، والحقيقة أنه لن يكون هناك سوى ظلمات يقطعها ضوء جاف من الكشافات ومن أضواء الموقع. وبينما المصعد يحمله إلى الطابق الرابع والثلاثين، كان يفكر فيما يمكنه أن يقوله لمارتا دون أن يُخل كثيراً بالتعهد الذي التزم به، بدا له المنع مطلقاً، فمن حق الشخص، بل من واجبه أيضاً أن يثق بأسرته، ومع ذلك، ليست هذه إلا نظريات، ومهما قلب الأمر لن يجد مفرّاً من الانصياع للأوامر، فالأوامر هي الأوامر. لم يكن حموه في البيت، إنه يمضى في جولاته الاستكشافية كطفل فضولي، في البحث عن مغزى الأشياء، وبمكر كافٍ للعثور عليها مهما كانت خفية. قال لمارتا أن مواعيد خدمته قد تبدلت مؤقتاً، وأنه سيذهب الآن بملابس مدنية، ولن يكون ذلك بصورة دائمة، وإنما لبضعة أيام فقط. سألته مارتا لماذا وأجابها بأنه غير مخول بقول ذلك، وإنه أمر سرّي، وبرر موقفه، لقد أعطيت كلمة شرف، ولم يكن ذلك صحيحاً، فالقائد لم يطلب منه أن يلتزم بكلمة شرف، إنها صيغ زمن آخر وعادات أخرى تخرج معنا بين حين وآخر دون تفكير، مثلما يحدث مع الذاكرة التي لديها مما تعطينا أكثر من القليل الذي نطلبه منها. لم تجب مارتا، وفتحت

الخبزانة وأخرجت عن المشجب إحدى بدلات زوجها،
أظن أن هذه تنفعك، قالت، إنها تنفعنى تماماً، قال
مرسيال سعيداً؛ لأنه متفق معها فى مثل هذه النقطة
المهمة. فكر فى أنه من الأفضل أن يخبرها بما تبقى،
وأن يحلّ المسألة دفعة واحدة، فلو أنه كان محل
الزميل الذى سيدخل الحراسة بعد قليل لكان يتصل
بمارتا فى هذه اللحظة بالذات، لدى خدمة من
الساعة السادسة حتى العاشرة، لا تسألينى شيئاً، إنه
سر، هذه العبارة تنفع، ويكفى أن يبدل الساعة واليوم،
لدى خدمة بعد غد، منذ الثانية فجراً حتى السادسة
صباحاً، لا تسألينى شيئاً، إنه سر. نظرت إليه مارتا
مأخوذة، فى هذا الوقت يكون المركز مغلقاً، حسن،
لن تكون الخدمة فى المركز تحديداً، ستكون خارجه
إذاً، فى الداخل، ولكن ليس فى المركز، لا أفهمك،
أفضلُ ألا توجهى إلى أسئلة، أنا أقول فقط إننى لا
أفهم كيف يمكن أن يكون ذلك، فى آن واحد، داخل
مكان وخارجه، سيكون ذلك فى الحفريات المخصصة
لمستودعات التبريد، ولكننى لن أخبرك بأكثر من ذلك،
هل وجدوا بترولاً، أم منجم ماس، أم الحجر الذى
يشير إلى سرّة العالم، سألته مارتا، لا أعرف ما الذى
وجدوه، ومتى ستعرف، عندما تأتى نوبة حراستى، أو
عندما تسأل زملاءك الذين ذهبوا قبلك، لقد
حظروا علينا الكلام فى الموضوع فيما بيننا، قال
مرسيال وهو يحرف بصره لأن كلماته هذه لا تستحق
أن تسمى حقيقية، ولكنها قد تكون كذلك بفهم
مصلحى لأوامر القائد وتوصياته، فهم يستند إلى

الصعوبات البلاغية التي فرضتها المناسبة، يبدو أنه سرّ كبير، قالت مارتا، أجل، يبدو أنه كذلك، تنازل مرسيال بقول ذلك بينما هو يحاول أن يضبط بقلق مبالغ فيه معصمى القميص ليظهرها بمقاس دقيق من تحت كمى السترة. وقد بدا وهو بملابسه المدنية أكبر سناً مما هو عليه فعلاً. هل ستأتى لتناول العشاء؟ سألته مارتا، ليست لدى أية أوامر معاكسة، ولكننى سأتصل إذا تعذر على المجرى. خرج قبل أن يخطر لزوجته توجيه أسئلة أخرى، وكان يشعر بالراحة؛ لأنه استطاع الهرب من فضولها اللجوج، ولكنه كان مستاء فى الوقت ذاته لأن التحفظ لم يكن، من جانبه، أسلوب الوفاء الذى يُنصح به، لقد كنتُ وفياتاً، أجل يا سيدى، برر نفسه أمام نفسه، فمنذ البدء نبهتها إلى أن الأمر سرى. وعلى الرغم من الحمية والمسوغ اللذين يساندان تبريره، إلا أن مرسيال لم يتوصل إلى إقناع نفسه. وعندما رجع سيبريانو ألاجور إلى البيت بعد ساعة من ذلك، وقبل أن يتمكن من استرداد تماسكه بعد رعب القطار الشبح، سألته مارتا، هل رأيت صهرى، لا، لم أره، لو أنك رأيتَه فربما لن تستطيع التعرف عليه، لماذا، جاء لاستبدال ملابسه، وهو يقوم بالحراسة الآن بملابس مدنية، كيف ذلك، إنها الأوامر التى تلقاها، الحراسة بالملابس المدنية ليست حراسة، وإنما تجسس، أصدر الأب حكمه. وأخبرته مارتا بما تعرفه، وهو لا شىء تقريباً، ولكنه كان كافياً لأن يشعر سيبريانو ألاجور بتبخر اهتمامه بنهر الأمازون وهنوده حيث كان يفكر

أن يذهب فى اليوم التالى. هذا غريب، منذ البدء راودنى هاجس بأن شيئاً يُحضر له هنا، ما الذى تعنيه بقولك منذ البدء، سألته مارتا، هذه الأرض التى أحسستُ بها تهتز وضجة آلات الحفر، هل تتذكرين، عندما جئنا لرؤية الشقة، سنكون فى ورطة إذا ما تملكنا الهواجس فى كل مرة نسمع فيها آلة حفر تعمل، مثل ضجة ماكينة الخياطة تلك التى كنا نظن أننا نسمعها فى جدار المطبخ، وكانت أمى تقول إنها إشارة إلى عذاب أبدي لخياطة، يا للمسكينة، لاقترافها خطيئة العمل يوم الأحد، ولكن يبدو أننى أصبت تماماً هذه المرة، يبدو ذلك، قالت مارتا مكررة كلمات قالها زوجها، وقال سبيريانو ألجور، فلنر ما الذى سيخبرنا به عندما يأتى. لم يعرفا المزيد. فقد اقتصر مرسيال على الإجابات التى كان قد قدمها، كررها مرة بعد أخرى، وقرر أخيراً وضع نقطة نهاية للمسألة، سأكون أول من يعترف، إذا ما ألتحتم، بأن الأمر هو ترهة، ولكنه الأمر الذى تلقيته، ولا أريد مزيداً من الكلام فى الموضوع، أخبرنا على الأقل لماذا تحولت فجأة إلى القيام بالدورية بالملابس المدنية، طلب الحمومنه، فحن لا نقوم بدوريات، بل نسهر على أمن المركز، ولا شىء غير ذلك، حسن جداً، فليكن، ليس لدى ما أضيفه، وأرجوك أن تكف عن الإلحاح، قاطعه مرسيال غاضباً. نظر إلى امرأته كما لو أنه يسألها عن سبب صمتها، ولماذا لا تدافع عنه، فقالت هى، مرسيال على حق يا أبت، فلا تلح، ثم توجهت إلى زوجها وقالت بينما هى تقبله من جبهته،

المعذرة، فنحن آل الجور أفضاظ بعض الشيء. شاهدوا بعد العشاء برنامجاً تليفزيونياً تبثه قناة المركز الداخلية، وتقتصر مشاهدته على المقيمين، وبعد ذلك انسحبوا إلى غرفتي نومهم. وأعدت مارتا الاعتذار فى الغرفة مظفأة الأنوار، فقبلها مرسيال، وإذا كان لم يتابع بقبلة ثانية وثالثة فلأنه أدرك فى الوقت المناسب أنه، بالسير فى هذا الطريق، سينتهى إلى إخبارها بكل شيء. أما سيبريانو الجور الذى كان يجلس فى سريره، والنور مضاء، فظل يفكر ويعيد التفكير لينتهى إلى أنه عليه أن يكتشف ما يجرى فى أعماق المركز، وأنه إذا كان هناك باب سرى آخر، فلا يمكن لهم فى هذه المرة على الأقل أن يقولوا له إنه لا وجود لشيء فى الجانب الآخر. معاودة ملاحقة مرسيال لا تستحق العناء، فضلاً عن أنهما يظلمان بذلك الشاب المسكين، فإذا كان قد تلقى أوامر وقام بتنفيذها، يتوجب تهنئته على ذلك وليس إخضاعه لأساليب الابتزاز العاطفى المختلفة التى يبرع الأقارب بها، إننى حموك، وأنت صهرى، أخبرنى بكل شيء، وفكر، مارتا محقة، فنحن آل الجور شديرو الفظاظ. سيتخلى عن الذهاب غداً إلى نهر الأمازون والهنود وسيعكف على ذرع المركز من أقصاه إلى أقصاه مصغياً إلى أحاديث الناس. فأى سر، من حيث الجوهر، هو أشبه إلى هذا الحد أو ذاك بالرقم السرى لصندوق خزنة، فمع أننا لا نعرفه إلا أننا نعرف أنه مكون من ستة أعداد، ومن المحتمل أن يتكرر واحد منها أو أكثر، ومهما كانت الاحتمالات

كثيرة ومتنوعة إلا أنها ليست لانهاائية. والمسألة، كما
فى كل شئون الحياة، هى مسألة وقت وصبر، فكلمة
من هنا، وكلمة أخرى من هناك، وشئ مضمّر، وتبادل
نظرات، وصمت مفاجئ، هى شروخ صغيرة متفرقة
تأخذ بفتح ثغرة فى الجدار، فن التقصى هو فى
معرفة التقرب منها، فى إلغاء الفواصل التى بينها،
وستأتى على الدوام لحظة نتساءل فيها عما إذا لم
يكن حلم الأسرار وطموحها وأملها السرى هو، فى
نهاية المطاف، احتمال ألا تبقى كذلك، ولو بصورة
غامضة ونائية. خلع سيبريانو ألبور ثيابه، وأطفأ
النور، وظن أنه سيقضى الليل مؤرقاً، ولكنه استغرق
بعد خمس دقائق فى نوم عميق وخال من الأحلام،
حتى أنه ما كان لإساورا نفسها أن تتمكن من التقصى
عن البوابة الأخيرة التى أغلقها فى أعماقه.

عندما خرج سيبريانو ألبور من حجرة النوم
متأخراً عن مواعده المعهود، كان الصهر قد ذهب إلى
العمل. حيا ابنته تحية الصباح وهو لا يزال ناعساً،
وجلس ليتناول الفطور، وفى هذه اللحظة رنّ الهاتف.
ذهبت مارتا لترد ورجعت بسرعة، مكالمة لك. طفر
قلب سيبريانو ألبور، لى، من الذى يمكن له أن
يتصل بى، سأل وهو متأكد تماماً من أن ابنته
ستجيبه، إنها إساورا، ولكن ما قالته كان، إنها مكالمة
من قسم المشتريات، من أحد معاونى المدير. وفى
حيرة بين خيبة أمله من أن المكالمة ليست آتية ممن
يرغب فيها، وراحته لأنه لن يكون مضطراً إلى تقديم

تفسير لابنته عن سبب هذه الحميمية مع الجارة، وإن كان علينا ألا ننسى أنه يمكنه القول ببساطة إن الأمر يتعلق بلقوية، حزنه للفراق مثلاً. توجه سيبريانو ألاجور إلى الهاتف، وعرف بنفسه وبعد قليل كان يرد عليه من الجانب الآخر للخط معاون المدير اللطيف، لقد كانت مفاجأة لي معرفة أنك قد جئت للعيش في المركز، مثلما ترى، ليس الشيطان وراء الباب دوماً، هذا قول قديم ولكنه أكثر صحة بكثير مما نتصور، هذا هو الواقع، قال سيبريانو ألاجور، سبب هذه المكالمة هو الطلب إليك أن تمر عندنا بعد ظهر اليوم لتقبض ثمن الدمى، أية دمي؟ الثلاثمائة دمية التي سلّمتها إلينا من أجل عملية السبر، ولكن تلك الدمى لم تُبع، وبالتالي لا وجود لما يمكن أن أقبضه، سيدي العزيز، قال معاون المدير بتذلل غير متوقع في صوته، اسمح لنا أن نكون نحن القضاة في هذه المسألة، ولك أن تعرف أنه على الرغم من أن دفع مبلغ يمثل خسارة تزيد على المئة بالمئة، مثلما هو الأمر في هذه الحالة، إلا أن المركز يصفى حساباته دوماً، إنها مسألة أخلاق، وبما أنك صرت تعيش معنا الآن، فسوف تبدأ فهم ذلك بصورة أفضل، إنني متفق معك، ولكنني لا أفهم لماذا ترتفع الخسارة إلى ما يزيد على مئة بالمئة، عدم التفكير في هذه الأمور هو الذي يؤدي بالاقتصاديات الأسرية إلى الدمار، من المؤسف أنني لم أعرف ذلك من قبل، سجل عندك، أولاً سوف ندفع ثمن الدمى كاملاً حسب الفواتير المحررة، دون إنقاص سنتيم واحد، حتى هنا أستطيع الفهم، ثانياً

سيكون علينا، بكل تأكيد، أن ندفع تكاليف عملية السبر، هذا يعنى المواد المستخدمة، والأشخاص الذين حللوا المعطيات، والوقت المستخدم فى العملية، ولو فكرت فى أن تلك المواد وأولئك الأشخاص وذلك الوقت وكل ما استُخدم فى السبر كان يمكن أن يُستخدم فى مهمات ذات مردود، لما احتجت إلى ذكاء كبير للتوصل إلى نتيجة أن فى الأمر خسارة تفوق المئة بالمئة، مع الأخذ فى الاعتبار ما لم يُبع وما أُنفق للتوصل إلى أنه يتوجب علينا عدم بيعه، يؤسفنى أننى تسببت بكل هذه الأضرار للمركز، إنها رهانات المهنة، أحياناً تخسر، وأحياناً تكسب، والقضية لم تكن خطيرة على أى حال، إنها مجرد صفقة صغيرة، فقال سيبريانو ألبور، يمكن لى أن أستحضر هواجسى الأخلاقية أيضاً لأرفض قبض المال عن عمل امتنع الناس عن شرائه، ولكن من المناسب لى قبض هذه النقود، هذا مسوغ جيد، بل هو أفضل المسوغات، سأمر عليكم بعد الظهر، لا حاجة بك إلى السؤال عنى، اذهب مباشرة إلى الصندوق، هذه هى العملية التجارية الأخيرة التى نجريها مع مؤسستك المنقرضة، ونريد أن تحتفظ عنا بأفضل الذكريات، شكراً جزيلاً، واستمتع الآن بما تبقى من حياتك، فأنت فى المكان المثالى لذلك، هذا ما بدا لى أيضاً يا سيدى، انتهز ضربة الحظ هذه، إننى أفعل ذلك. أغلق سيبريانو ألبور الهاتف، سيدفعون لنا ثمن الدمى، قال، لم نخسر كل شىء. أومأت مارتا بإشارة من رأسها يمكن لها أن تعنى أى شىء، الموافقة، عدم

الموافقة، اللامبالاة، وانسحبت إلى المطبخ. ألا تشعرين بأنك على ما يرام، سألتها أبوها وهو يطل من الباب، قليل من التعب فقط، لا بد أنه الحيل، أراك خاملة الهمة، عليك أن تسلى نفسك، القيام بجولة خارجاً، مثلك، أجل مثلى، هل يروقك كثيراً كل ما هو فى الخارج، سألتته مارتا وأضافت، فكر مرتين قبل أن تجيب على سؤالى، يكفى أن أفكر مرة واحدة، لا يروقنى أى شىء، إننى أتظاهر وحسب، تظاهرت أمام نفسك بالطبع، لقد صرت كبيرة بما يكفى لتعرفى أنه لا وجود لطريقة أخرى، حتى لو بدا غير ذلك، فنحن لا نتظاهر أمام الآخرين، بل نتظاهر أمام أنفسنا، يسعدنى سماع ذلك من فمك، لماذا؟ لأنك تؤكد ما كنت أفكر فيه عنك فى مسألة إساورا مادروجيا، لقد تبدل الوضع، وهذا يزيد من سعادتى، سأتكلم عندما تحين الفرصة، فأنا الآن مثل مرسيال، فم مطبق.

حملة سيبريانو ألاجور التنصتية لم تعط أية نتيجة، وبعد ذلك، أثناء تناول الغداء، وبنوع من الاتفاق المضمرة، لم يحاول أى من الثلاثة مقارنة مسألة الحفريات الحساسة وما عُثر عليه هناك. خرج الحموم والصهر فى آن واحد، وذهب مرسيال ليعاود عمله فى التنصت والتجسس، ربما دون نتيجة، مثلما كان الأمر لكليهما فى الفترة الصباحية، وذهب سيبريانو ألاجور ليسأل، أول مرة، كيف يمكنه الوصول إلى قسم المشتريات من داخل المركز. لاحظ أن علامته الفارقة

كمقيم، وكذلك الصورة وخاتم الإصبع الإبهام، تمنحه بعض التسهيلات في التحرك، عندما أشار له الحارس الذى سأله إلى الطريق كما لو أنه أسهل أمر فى العالم، اذهب عبر هذا الممر، فى خط مستقيم، وحين تصل إلى نهايته تابع الإشارات، ولن تضل الطريق. كان فى الطابق الأرضى، وكان عليه فى مكان من طريقه أن ينزل إلى القبو، حيث كان يأتى، فى أزمئة أكثر سعادة - وهذا حكم لا يشاركه فيه معاون المدير اللطيف بكل تأكيد - ليُسَلِّم بضاعته من الأطباق والفناجين الخزفية. سهمٌ دلالة وسلِّم آلى أشارا إليه من أين عليه الذهاب. إننى أنزل، فكر، إننى أنزل، إننى أنزل، كرر، ثم فكر بعد ذلك، يا للحمافة، إننى أنزل بالطبع، فهذا ما تُستخدم فيه السلالم عندما لا تُستخدم فى الصعود، فمن يكونون فى مصعد، حين لا ينزلون، يصعدون، ومن لا يصعدون، ينزلون. بدا أنه توصل إلى نتيجة لا جدال فيها، من تلك التى لا يوجد لها أية إجابة منطقية محتملة. وبصورة مفاجئة، كما فى وميض البرق وسرعته، مرَّ فى ذهنه تفكير آخر، النزول، النزول إلى هناك. أجل، النزول إلى هناك. القرار الذى توصل سيبريانو ألاجور إلى اتخاذه للتو هو أنه سيحاول هذه الليلة النزول إلى حيث يقوم مرسىال بحراسته، ما بين الساعة الثانية فجراً والسادسة صباحاً، وهذا أمر يجب ألا ننساه. ولكن الحس السليم والحذر اللذين لهما فى هذه الأحوال على الدوام كلمة يقولانها، كانا يسألانه كيف

يتصور أنه سيصل، دون معرفته الدروب، إلى مكان
بمثل ذلك الخفاء، وأجاب هو بأن توليفات الأرقام
السرية وتركيب أجزاء المصادقات، على الرغم من أنها
كثيرة جداً بالفعل، إلا أنها ليست بلا نهاية، ومن
الأفضل لنا أن نجازف بالصعود إلى شجرة التين في
محاولة للوصول إلى الثمرة بدل الاستلقاء في ظل
الشجرة وانتظار أن تسقط ثمرة التين في فمنا.
سيبريانو أَلجور الذي مَثُل في صندوق قسم
المشتريات بعد أن ضلَّ الطريق مرتين، بالرغم من
مساعدة الأسهم ولوحات الدلالة، لم يكن هو نفسه
ذاك الذي اعتدنا على معرفته. وإذا كانت يده قد
ارتعشتا كثيراً فليس السبب هو استثارة بائسة لكونه
يقبض مقابل عمله نقوداً لم تكن في حسبان، وإنما
لأن أوامر العقل المشغول الآن بأمر أكثر أهمية
وتوجيهاته تصل متفرقة، مشوشة، مناقضة للنهايات
الخاصة بكل منها. عندما رجع إلى المنطقة التجارية
في المركز بدا أكثر اطمئناناً بقليل، فقد انتقل الهياج
إلى الجانب الداخلى. لقد تخلص من القلق بيديه،
وصار الدماغ يحوك بصورة متوالية حياً، مراوغات،
استراتيجيات، مكاييد، دهاءات، والوصول إلى حد
إمكانية اللجوء إلى التحريك عن بُعد من أجل نقل
هذا الجسد نافذ الصبر الذى يتكلف مشقة في
التحكم به، في لحظة واحدة، من الطابق الرابع
والثلاثين إلى منطقة الحفريات الغامضة. ومع أن
ساعات طويلة من الانتظار مازالت أمامه، إلا أن
سيبريانو أَلجور قرر العودة إلى البيت. أراد أن يعطى

ابنته النقود التي تلقاها، ولكنها قالت له، احتفظ بها لك، فأنا لست بحاجة إليها، ثم سألته، أتريد قهوة، أجل، هذه فكرة جيدة. صُنعت القهوة، وسُكبت في فنجان، وشُربت، وكان كل شيء يشير إلى أنه لن يكون كلام بينهما الآن، ويبدو، كما فكر سيبريانو أَلجور أحياناً، مع أننا لم نسجل تلك الأفكار في حينها، يبدو أن هذا البيت، هذا الذي يعيشون فيه الآن، يتمتع بالموهبة الخبيثة في إسكات الناس. وبالرغم من ذلك، فإن دماغ سيبريانو أَلجور الذي اضطر إلى التخلي عن وسيلة التحريك عن بعد، لقصور في المهارة الكافية، يحتاج بالضرورة إلى معلومة محددة ستتحوّل من دونها خطة غارته الليلية إلى مجرد هباء. ولهذا وجه السؤال بينما هو يتظاهر بالشroud ويحرك بالملعقة بقايا القهوة المتبقية في الفنجان، أتعرفين على أي عمق توجد الحفريات، لماذا تريد معرفة ذلك، مجرد فضول، لا شيء أكثر، لم يتكلم مرسيال عن هذا الأمر. أخفى سيبريانو أَلجور ضيقه بأفضل ما استطاع وقال إنه سيذهب لينام قيلولة. أمضى فترة بعد الظهر كلها في حجرته، ولم يخرج إلا عندما استدعته ابنته لتناول العشاء، وكان مرسيال قد جلس إلى المائدة. ومثلما حدث عند الغداء، لم يدُر أي حديث عن الحفريات إلا عند الانتهاء من تناول العشاء، وكان ذلك حين اقترحت مارتا على زوجها، عليك أن تنام حتى موعد النزول، لأنك ستمضي الليل مستيقظاً، فأجابها الزوج، مازال الوقت مبكراً جداً، ولا أشعر بالنعاس، عندئذ انتهز سيبريانو أَلجور

فرصة التراخي غير المتوقع، وكرر سؤاله، **على** أى عمق توجد هذه الحفريات؟ لماذا تريد معرفة ذلك؟ لتكوين فكرة، مجرد فضول. تردد مرسيال قبل أن يجيب، وحين بدا له أن المعلومة لا تشكل جزءاً من مجموعة المعلومات السرية الصارمة، قال أخيراً، **يُ**دخل إليها عبر الطابق صفر - خمسة، **ظننتُ** أن آلات الحفر كانت تعمل على عمق أكبر بكثير، فقال مرسيال، إنها على عمق خمسة عشر أو عشرين متراً تحت الأرض، **هعك** حق، إنه عمق جيد. ولم يعد إلى الكلام فى الموضوع. ولم **يُ**بد مرسيال بدوره ما يشير إلى أنه تضايق من ذلك الحديث المقتضب، بل على العكس، يمكن القول إنه شعر بشيء من السعادة لأنه استطاع التحدث قليلاً - دون الدخول فى شئون خطيرة وسرية - فى مسألة يمكن أن **يُ**لحظ بسهولة أنها تُقلقه. ومرسيال ليس هيباً أكثر مما هم الناس العاديون، ولكن لا تُسعده فكرة قضاء أربع ساعات محشوراً فى حفرة، بصمت مطلق، وهو يعرف ما وراءه. **ف**حن لم **نُ**درّب على حالات مثل هذه، قال له أحد زملائه، عسى أن يحضر الاختصاصيون الذين تحدث القائد عنهم فى أسرع وقت كى **نُ**سحب من تلك الخدمة، هل شعرتَ بالخوف، سأله مرسيال، **خ**وف بما تعنيه كلمة خوف، ربما لم أشعر به، ولكننى **أُن**بهك إلى أنك ستشعر، فى كل لحظة، كما لو أن أحداً خلفك سيضع يده على كتفك، **ل**يس هذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث، الأمر يعتمد على نوع اليد، وإذا أردت أن أكلمك بكل صراحة، إنها أربع ساعات

من الصراع مع رغبة مجنونة فى الهرب، فى الفرار، فى الاختفاء من هناك، يقال إن الرجل الذى يتلقى تحذيراً يساوى رجلين، وهكذا صرت أعرف ما الذى ينتظرنى، لم تعرف ذلك، إنك تتخيله فقط، وتتخيله بصورة سيئة، صحح له زميله. الساعة الآن هى الواحدة والنصف، ومرسيال يودع مارتا بقبلة، وتطلب هى منه، لا تتأخر بعد انتهاء مناوبتك، سأجىء راكضاً، وغداً سأخبرك بكل شىء، أعدك بذلك. رافقته مارتا حتى الباب، تبادلا قبلة أخرى ثم عادت إلى الداخل، فرتبت أولاً بعض الأشياء، واستلقت بعد ذلك لتنام. لم تكن تشعر بالنعاس. وكانت تقول لنفسها إنه لا يوجد سبب للقلق، وإن حراساً آخرين قد قاموا بالحراسة ولم يحدث أى شىء، وكم من المرات تحدث أسرار رهيبه من أجل إزاحة قشة صغيرة، كما لو أنها أفاع حقيقية بسبعة رءوس، وعندما تُرى عن قرب لا تكون سوى هباء، دخان، وهم، مشيئة فى اختلاق ما هو غير معقول. كانت الدقائق تمضى، والنعاس يبتعد أكثر، وانتهى الأمر بمارتا إلى القول لنفسها إنه من الأفضل لها أن تشعل النور وتقرأ فى كتاب، وبدا لها فى تلك اللحظة أنها تسمع انفتاح باب حجرة أبيها. ولأنه ليس من عادة أبيها النهوض ليلاً، فقد أرهفت سمعها، ربما يكون ذاهباً إلى الحمام، غير أن الخطوات بدأت تتقدم شيئاً فشيئاً بحذر، ولكنها مسموعة، فى ردهة المدخل الصغيرة. وفكرت، ربما يكون ذاهباً إلى المطبخ ليشرب ماء. طقطقة قفل

الباب الخارجى التى لا التباس فيها جعلتها تنهض
بتفجل. أَلقت على نفسها الروب بأقصى سرعة
وخرجت. كانت يد الأب على قبضة الباب. إلى أين
أنت ذاهب فى هذا الوقت، سألته مارتا، هنا، قال
سيبريانو أَلجور، لك الحق فى الذهاب حيث تشاء،
فأنت راشد ومُلَقَّح، ولكنك لا تستطيع الذهاب دون أن
تقول كلمة واحدة، كما لو أنه لا وجود لأحد فى
البيت، لا تجعلينى أضيع الوقت، لماذا، أَلأنك تخشى
الوصول بعد الساعة السادسة، سألته مارتا، هادمتِ
تعرفين إلى أين أريد الذهاب، فليستِ بحاجة إلى
مزيد من التوضيح، فكر على الأقل فى أنك قد
تسبب مشاكل لصهرك، أنتِ نفسك قلتِ إننى راشد
ومُلَقَّح، ولا يمكن بالتالى لمرسيال أن يكون مسئولاً عن
تصرفاتى، ربما يكون لأرباب عمله رأى آخر، لن
يرانى أحد، وإذا ما اعترض أحدهم سببلى فسوف
أقول إننى مصاب بداء السير وأنا نائم، ظرافتك
ليست مقبولة فى هذه اللحظة، سأتكلم بجد إذاً،
أمل أن تفعل ذلك، ثممة شىء يحدث تحت وأحتاج
إلى معرفته، مهما كان ما هو هناك فلن يظل سراً
مدى الحياة، وقد قال لى مرسيال إنه سيخبرنا بكل
شىء عند عودته من ورديته، هذا جيد، ولكن الوصف
لا يكفينى، أريد أن أرى بأم عيني، فى هذه الحالة
اذهب، اذهب ولا تعذبنى أكثر، قالت مارتا وقد بدأت
تبكى. اقترب أبوها منها، أحاط كتفيها بذراعه،
احتضنها، أرجوك، لا تبكى، قال، السيئ فى هذا كله
هو أننا لم نعد نحن أنفسنا منذ انتقلنا إلى هنا.

قبلها، ثم خرج مغلقاً الباب بحذر . ذهبت مارتما بحثاً عن بطانية وكتاب، جلست على أريكة فى الصالة، وغطت ركبتيها . ولم تكن تدري كم من الوقت سيستغرقه الانتظار .

ما كان يمكن لخطة سيبريانو أَلجور أن تكون أكثر بساطة . كانت تتلخص فى النزول فى مصعد الشحن حتى الطابق صفر - خمسة وأن يسلم نفسه اعتباراً من هناك للمصادفة . فبأسلحة أقل بكثير جرى كسب معارك، فكَرَّ، وبأسلحة أكثر بكثير جرت خسارتها، أضاف بهوس إلى عدم التحيز . كان قد فكر فى أنه من المحتمل أن تكون مصاعد الشحن، باعتبارها مخصصة لنقل البضائع حصراً، غير مزودة بكاميرات فيديو، أو أن الكاميرات لا تُرى على الأقل، وإذا كانت هناك واحدة منها، من الصغيرة جداً والمموهة، فإن الاحتمال المؤكد هو أن يكون اهتمام المراقبين فى مركز المراقبة مسلطاً على المداخل الخارجية وعلى الطوابق التجارية والملاهى . أما إذا كان مخطئاً فلن يتأخر فى معرفة ذلك . ففى المقام الأول، وبافتراض أن طوابق البيوت السكنية التى فوق الأرض تشكل كتلة واحدة مع الطوابق العشرة التى تحت الأرض، فإن ما يناسبه هو استخدام أقرب مصعد بضائع إلى الواجهة الداخلية كيلا يضطر إلى إضاعة الوقت فى البحث عن طريق بين مئات حاويات البضائع من كل الأنواع والأحجام التى سيتصور أنها محفوظة فى الأقبية، وخاصة فى الطابق صفر - خمسة الذى هو موضع

اهتمامه. لم يفاجأ كثيراً عندما وجد نفسه فى حيز فسيح، مفتوح، خالٍ من البضائع، ولا شك فى أنه مخصص لتسهيل الدخول على موقع الحفر. كان قسم من الحائط الرئيسى، بين عمودين، قد حطم وأزيل، من هناك يتم الدخول. نظر سيبريانو ألبور إلى الساعة، كانت الثانية وخمساً وأربعين دقيقة، وعلى الرغم خفوت الإنارة الدائمة فى القبو، إلا أنها لم تكن تسمح بتمييز إذا ما كان هناك ضوء فى داخل الحفريات يخفف من سواد المدخل الذى سيبتلعه. كان على أن أحضر معى مصباحاً يدوياً، فكر. عندئذ تذكر أنه قرأ ذات يوم أن أفضل طريقة للدخول إلى مكان مظلم، إذا أراد أن يرى ما فى الداخل فوراً، هو إغماض العينين قبل الدخول وفتحهما بعد ذلك. أجل، فكر، هذا ما على عمله، أغمض عيني وأهوى هناك إلى أسفل، حتى مركز الأرض. لم يهو. فعلى مستوى الأرض تقريباً، إلى يساره، كان هناك ضوء خافت سرعان ما تحدد، بعد خطوات، على أنه صف مصابيح على امتداد المكان. وكانت المصابيح تضىء مسطحاً ترابياً مائلاً تحول فى نهايته إلى مصطبة يخرج منها مسطح منحدر آخر. بدا الصمت كثيفاً وزخماً إلى حد أنه كان بإمكان سيبريانو ألبور معه أن يسمع دقات قلبه. وفكر، فلنذهب إلى هناك، لا بد أن مرسيال سيمر بأعظم رعب فى حياته. بدأ بنزول المسطح المائل، ووصل إلى المصطبة، ثم نزل على المسطح المائل التالى، ومصطبة أخرى، وهناك توقف. كان أمامه مصباحان كشافان أحدهما موضوع فى

هذا الجانب والآخر فى الجانب المقابل، بحيث لا ينفذ الضوء بقوة إلى الداخل، ويظهر الشكل الطولى لمغارة. وفى مصطبة ترابية إلى اليمين توجد حضرتان صغيرتان. كان مرسيال يجلس على كرسى صغير بلا مسند للظهر، وإلى جانبه منضدة عليها مصباح يدوى. ولم يكن قد رأى حماه بعد. خرج سيبريانو من شبه ظلمة المصطبة الأخيرة وقال بصوت عال، لا تخف، إننى أنا. نهض مرسيال بتسرع، أراد أن يتكلم لكن حنجرتة لم تسمح بمرور الكلام، وهذا أقل ما يسببه الوضع، وليرمه بأول حجر من يظن أنه كان سيقول بكل ما فى العالم من طمأنينة، مرحباً، أنت هنا. وعندما صار حموه أمامه فقط، تمكن مرسيال، وإن كان بمشقة، من القول، ما الذى تفعله هنا؟ كيف خطرت لك فكرة المجيء الحمقاء، ومع ذلك، وخلافاً لما يقتضيه المنطق، لم يكن هناك استياء فى صوته، وما كان يُلحظ، إلى جانب الطمأنينة الطبيعية لمن لم يعد يشعر أخيراً بأنه مهدد بظهور مشئوم، هو نوع من السعادة الخجولة، شىء أشبه بإحساس بالامتتان ربما ينتهى إلى الاعتراف به ذات يوم. ما الذى تفعله هنا، كرر، لقد جئتُ لأرى، قال سيبريانو ألجور، ولم يخطر لك التفكير فى المشاكل التى ستحل بى إذا ما شاع الأمر، لم تفكر فى أن ذلك قد يكلفنى وظيفتى، ستقول إن حماك مجنون ماكر، وغير مستؤل عن أفعاله، ويجب إدخاله مصحة أمراض عقلية، وتثبيته بقميص مجانين، ولا شك فى أننى سأكسب الكثير بهذه التفسيرات. التفت سيبريانو ألجور نحو الفجوة

وسأل، هل رأيت ما هو موجود هناك فى الداخل، لقد رأيت، أجاب مرسيال، وما هو، قأكد بنفسك، إليك المصباح اليدوى إذا شئت، ألا تأتى معى، لا، أنا ذهبت وحدى أيضاً، هل يوجد طريق محدد، مسار ما، لا، عليك أن تمضى إلى اليسار دائماً وألا تترك ملامسة الجدار، وفى العمق ستجد ما تبحث عنه. نضاء سيبريانو ألجور المصباح اليدوى ودخل. لقد نسيت أن أغمض عيني، فكر. كان ضوء المصباحين غير المباشر لا يزال يسمح برؤية ثلاثة أو أربعة أمتار من الأرض، وما تبقى كان أسود مثل جوف الجسم. كان هناك منحدر قليل الانحدار، ولكنه غير منتظم. بدأ سيبريانو ألجور النزول بحذر وهو يلمس الجدار بيده اليسرى. وعلى مسافة معينة، بدا له أن هناك إلى يمينه شيئاً يمكن له أن يكون مصطبة وجداراً. قال لنفسه إنه سيتفحص ما هو ذلك عند عودته، ربما هو بناء لمنع انهيار التراب، وواصل النزول. راوده إحساس بأنه قد مشى كثيراً، ربما حوالى ثلاثين أو أربعين متراً. نظر إلى الورا، نحو مدخل المغارة. كان المدخل الذى يقطعه ضوء المصباحين يبدو بعيداً حقاً، لم أمش كل تلك المسافة، وما يحدث هو أننى مشوش. كان يدرك أن الخوف قد بدأ يحك أعصابه بمراوغة، وهو الذى كان يتصور نفسه جسوراً جداً ومتفوقاً فى الشجاعة على مرسيال، والآن يوشك أن يدير ظهره ويركض صاعداً المنحدر بتعثر. استند إلى الصخر، تنفس بعمق، لن أهرب حتى لو اضطررت إلى الموت هنا، قال ذلك وبدأ المشى. وفجأة، ظهر

الجدار أمامه كما لو أنه قد التف حول نفسه فى زاوية قائمة. كان قد وصل إلى أقصى المغارة. أخفض بؤرة ضوء المصباح اليدوى ليتأكد من ثبات الأرض، خطا خطوتين وكان فى منتصف الخطوة الثالثة عندما اصطدمت ركبته اليمنى بشىء صلب جعله يطلق أنة. ومع الصدمة اهتز الضوء، وبرز أمام عينيه، لبرهة، ما بدا أنه مقعد حجرى، وبعد ذلك، فى اللحظة التالية، رأى هيئات مصطفة غير واضحة المعالم ظهرت واختفت. هزت رعشة عنيفة أعضاء سيبريانو ألجور، تراخت شجاعته مثل حبل بدأت خيوطه الأخيرة تنقطع، ولكنه سمع فى داخله صرخة تأمره، قذكر، حتى لو اضطرتت إلى الموت. كنس ضوء المصباح اليدوى المرتعش المقعد الحجرى ببطء، ولامس بصورة باهتة بعض الأقمشة القائمة، صعد الضوء، وما بدا هناك هو جسد بشرى جالس. وإلى جانبه، مغطاة بالأقمشة القائمة نفسها، كانت خمسة أجساد مماثلة أخرى تجلس، جميعها منتصبية الجذع كما لو أن وتداً حديدياً قد أدخل من جمجمة كل منها وثبتها فى جلوسها على المقعد الحجرى. كان جدار صدر المغارة الأملس على بعد عشرة أشبار من محاجر العيون الغائرة، حيث كرات العيون قد اختزلت إلى حبة من غبار. ها هذا، دمدم سيبريانو ألجور، أى كابوس هذا، من هم هؤلاء الأشخاص. اقترب أكثر، ومرّ ببطء بالمصباح اليدوى على الرعوس القائمة والمتيبسة، هذا رجل، وهذه امرأة، وهذا رجل آخر، وامرأة أخرى، ثم آخر، وامرأة أخرى، ثلاثة رجال وثلاث نساء، رأى

بقايا أربطة يبدو أنها استُخدمت لتثبيت أعناقهم ومنعها من الحركة، أخفض بعد ذلك بؤرة ضوء المصباح، وكانت أربطة أخرى تتدلى من أرجلهم. عندئذ، ببطء، ببطء شديد، مثل نور غير متعجل في الظهور، وإن كان يصل ليكشف حقيقة الأشياء حتى في أشد مخابئها ظلمة وخفاء، رأى سيبريانو ألجور نفسه يدخل مرة أخرى إلى فرن مشغل الخزف، ورأى المقعد الحجري الذي تركه عمال البناء مهجوراً وجلس عليه، وسمع مرة صوت مرسيال، بكلمات مختلفة الآن، تناديه وتعيد مناداته، بقلق، ومن بعيد، أبتاه، هل تسمعني، أجبني، وكان الصوت يدوي متردداً داخل المغارة، والأصداً تتحول من جدار إلى آخر، تتعاضم، وما لم يصمت مرسيال لحظة فلن يكون بإمكاننا سماع صوت سيبريانو ألجور يقول، نائياً، كما لو أنه صدى أيضاً، إنني على ما يرام، لا تقلق، لن أتأخر. كان الخوف قد تلاشى. وداعب ضوء المصباح اليدوي مرة أخرى الوجوه التعيسة، والأيدي المعروقة التي هي مجرد جلد وعظم يتقاطع على الأرجل، بل إنه قاد كذلك يد سيبريانو ألجور عندما امتدت بخشوع يمكن القول إنه ديني لو لم يكن إنسانياً ببساطة، ولامست جبهة المرأة الأولى المتييسة. لم يعد ثمة ما يستبقيه هناك، لقد فهم سيبريانو ألجور. وحيث إن طريق الجلجلة الدائري يجد أمامه جلجلة على الدوام، فإن الصعود كان بطيئاً ومؤلماً. نزل مرسيال للقاءه، ومدّ يده لمساعدته، ولدى الخروج من الظلمة إلى النور ظهرا متعانقين دون أن يدريا منذ متى. كان سيبريانو

أجور مستنفذ القوى، فانهار على الكرسي الصغير، وأحنى رأسه على المنضدة، ودون ضجة، ودون أن يكاد يلمح إلا اهتزاز كتفيه، انخرط فى البكاء. لا تتوقف يا أبتاه، أنا أيضاً بكيت، قال مرسيال. بعد قليل، وكان سيبريانو أأجور قد سيطر إلى هذا الحد أو ذاك على مشاعره، نظر إلى صهره بصمت كما لو أنه لا يجد فى تلك اللحظة طريقة أفضل من تلك ليقول له إنه يقدره كثيراً، ثم سأله، أتعرف ما هو كل ذلك، نعم، فقد قرأت شيئاً منذ زمن، أجاب مرسيال، وأنت تعرف أيضاً أن ما هو هناك، بالرغم مما هو عليه، ليس فيه شىء من الواقع، لا يمكن له أن يكون حقيقياً، أعرف، ومع ذلك، أنا لمست بيدي هذه جبهة إحدى أولئك النساء، لم تكن وهماً، لم يكن حلماً، وإذا ما رجعت الآن فسوف أجد الرجال الثلاثة أنفسهم والنساء الثلاث أنفسهن، وحيال التقييد نفسها، والمقعد الحجري نفسه، والجدار الذى أمامهم نفسه. إذا لم يكونوا هم أولئك، لأن أولئك لم يوجدوا قط، فمن هم هؤلاء، سأله مرسيال، لا أدرى، ولكننى بعد أن رأيتهم أفكر فى أنه ربما يكون ما لا وجود له حقاً هو ما نسميه اللاوجود. نهض سيبريانو أأجور ببطء، كانت ساقاه لا تزالان ترتجفان، ولكن قوى جسده عموماً كانت قد عادت إليه. قال، حين كنت أنزل راودنى إحساس بأننى رأيت شيئاً يمكن أن يكون جداراً ومصطبة، إذا استطعت أن تبدل اتجاه أحد هذين المصباحين الكشافين، ولم يحتج إلى إكمال الجملة، فقد كان مرسيال قد بدأ بتدوير عجلة، وتحريك عتلة،

وامتد الضوء بعد ذلك على الأرض باتجاه الداخل حتى اصطدم بقاعدة سور يقطع المغارة من جانب إلى آخر، ولكن دون أن يصل إلى الجدارين. لم تكن هناك أية مصطبة، وإنما ممر على امتداد الجدار. هناك شيء ناقص، دمدم سيبريانو ألجور. تقدم بضع خطوات وتوقف فجأة، إنه هنا، قال. وعلى الأرض بدت بقعة سوداء كبيرة، كانت الأرض محروقة في ذلك المكان، كما لو أن موقداً كان يشتعل لزمن طويل. لم يعد هناك ما يستحق مواصلة التساؤل عما إذا كانوا قد وُجدوا أم لم يوجدوا، قال سيبريانو ألجور، فالأدلة موجودة هنا، وكل شخص سيستخلص النتائج التي يراها صحيحة، وأنا استخلصت نتائجي. عاد المصباح الكشاف إلى مكانه، وعادت الظلمة كذلك، ثم سأل سيبريانو ألجور، هل تريدني أن أبقى هنا لمراقبتك، لا، شكراً، قال مرسيال، عدّ إلى البيت، لا بد أن مارتا مغمومة وتفكر في الأسوأ، إلى اللقاء إذاً، إلى اللقاء يا أبتاه، وتوقف قليلاً ثم أضاف بابتسامة نصف مكرهة، مثل مراهق يتكتم في الوقت نفسه الذي يستسلم فيه، شكراً لأنك جئت.

نظر سيبريانو ألجور إلى الساعة عندما وصل إلى الطابق صفر - خمسة. كانت الرابعة والنصف. حملة مصعد الشحن إلى الطابق الرابع والثلاثين. لم يره أحد. فتحت له مارتا الباب بصمت، وبالحذر نفسه أعادت إغلاقه، كيف هو مرسيال؟ سألت، إنه على ما يرام، لا تقلقى، فلديك رجل عظيم، هذا ما أقوله

لك أنا، ماذا يوجد تحت؟ دعيني أجلس أولاً، أشعر كما لو أنني ضُربت بشدة، فهذه الجهود ليست لمن هو فى مثل سنى، ماذا يوجد تحت؟ عادت مارتا لسؤاله بعد أن جلس، يوجد تحت ستة أشخاص ميتين، ثلاثة رجال وثلاث نساء. لا يفاجئنى ذلك، فهذا هو بالضبط ما فكرتُ فيه، إن الأمر يتعلق ببقايا بشرية، وهذا يحدث بكثرة فى الحفريات، وما لا أفهمه هو سبب كل هذا الغموض، وكل هذه الأسرار، وكل هذه الحراسة، فالعظام لن تهرب، ولا أظن أن سرقتها تستحق الجهد، لمو أنكِ نزلتِ معى لكنتِ فهمتِ، مازال أمامكِ متسع من الوقت للذهاب إلى هناك، دعكِ من هذه الأفكار، ليس من السهل ترك هذه الأفكار بعد أن رأيت ما رأيته، ما الذى رأيته؟ من هم أولئك الأشخاص، أولئك الأشخاص هم نحن، قال سيبريانو أَلجور، ما الذى تعنيه، أعنى أننا نحن، أنا، أنت، مرسيال، المركز كله، وربما العالم بأسره، أرجو أن توضح، ركزى انتباهك، واسمعى. احتاجت رواية القصة نصف ساعة. استمعت إليها مارتا دون أى مقاطعة. وأخيراً قالت، أجل، أظن أنك على حق، إننا نحن. لم يقولا المزيد إلى أن جاء مرسيال. وعندما دخل، عانقته مارتا بقوة، ماذا سنفعل؟ سألته، ولكن مرسيال لم يجد الوقت للرد. إذ كان سيبريانو أَلجور يقول بصوت حاسم، أنتما ستقرران بشأن حياتكما، أما أنا فساذهب.

هاسى أشيأؤك، قالت مارتا، إنها غير كثيرة،
تتسع لها أصغر حقيبة وتزيد، يبدو أنك حدست
مسبقاً أنك لن تبقى إلا ثلاثة أسابيع، فقال سيبريانو
ألجور، قأتى لحظة فى الحياة يكفيننا فيها أن نحمل
جسدنا وحده على كاهلنا، إنها جملة جميلة، أجل يا
سيدى، ولكن الأفضل منها أن تخبرنى على ماذا
ستعيش، انظرى إلى الزنايق البرية، فهى لا تحوك ولا
تنسج، إنها جملة جميلة أيضاً، ولهذا لم تتوصل تلك
الزنايق إلا أن تكون زنايق برية، إنك ارتيابية هائجة،
كلبية مقرفة، أبتاه، أرجوك، أنا أتكلم بجد، اعذرينى،
أفهم أن الأمر كان صدمة لك، مثلما كان بالنسبة لى
أيضاً، بالرغم من أننى لم أذهب إلى هناك، أفهم أن
أولئك الرجال والنساء هم أكثر بكثير من مجرد كونهم
أناساً ميتين، لا تواصلى، فلأنهم أكثر بكثير من مجرد
كونهم أناساً ميتين لا أؤيد مواصلة العيش هنا، وماذا
عنا، ماذا عنى، سألته مارتا، قررا بشأن حياتكما،
أما أنا فقد قررت، لن أظل طوال ما تبقى من أيام
حياتى مقيداً إلى مقعد حجرى وناظراً إلى جدار،

وكيف ستعيش؟ لدى النقود التي دفعوها لى مقابل
الدمى، ستكفى لشهر أو شهرين وبعد ذلك سنرى،
لستُ أعنى النقود، فبطريقة أو بأخرى لن ينقصك ما
هو ضرورى للطعام والكساء، ما أعنيه هو أنك
ستضطر إلى العيش وحيداً، لدى لقيه، وستأتين
لزيارتى بين حين وآخر، أبتاه، ماذا، هناك إساورا،
ما علاقة إساورا بهذا، قلت لى إن الوضع بينكما
قد تبدل، لا أدرى كيف ولا لماذا، ولكنك قلت لى ذلك،
هذا صحيح، بما أن الأمر كذلك، ماذا تعنين؟
أعنى يمكنكما العيش معاً. لم يجب سيبريانو أالجور.
حمل الحقيبة وقال، إننى ذاهب. عانقته الابنة،
سنذهب لزيارتك فى أول يوم عطلة لمرسيال، وفى
أثناء ذلك أطلعنا على أخبارك، عندما تصل اتصل
هاتفياً لتخبرنا كيف هو البيت ولقيه، لا تنسَ لقيه.
وبينما إحدى قدميه خارج الباب، قال سيبريانو أالجور،
قبلى مرسيال عنى، ولكنك قبلته، فقد ودعته، أجل،
ولكن أعطيه قبلة أخرى. عندما وصل إلى آخر الممر،
أدار رأسه. كانت الابنة فى الطرف الآخر، بين
الأبواب، تلوح له مودعة بإحدى يديها بينما هى تغطى
فمها باليد الأخرى كيلا تنفجر فى البكاء. إلى اللقاء
قريباً، قال، ولكنها لم تسمعه. حمله مصعد الشحن
إلى المرآب، لا بد له الآن من معرفة أين ترك الشاحنة
متوقفة، وما إذا كان محركها سيدور بعد ثلاثة أسابيع
من التوقف، فالبطاريات تلعب ألعاباً خبيثة أحياناً،
وفكر بقلق، هذا ما كان ينقصنى. لم يحدث ما كان
يخشاه، فقد قامت الشاحنة بواجبها. صحيح أن

الكونتكت لم يعمل فى المرة الأولى ولا فى الثانية، ولكن المحرك دار فى المرة الثالثة بضجة جديدة بمحرك آخر. وبعد دقائق من ذلك كان سيبريانو ألبور قد صار فى الجادة العريضة، لن نقول إن الطريق كان مفتوحاً أمامه، ولكن كان يمكن له أن يكون أسوأ بكثير، وعلى الرغم من البطء، كانت حركة المرور بالذات هى التى تقوده. ليس غريباً أن تكون حركة المرور كثيفة، السيارات تقدر يوم الأحد، ويكاد يكون من المستحيل على صاحب سيارة أن يقاوم ما يسمى الضغط النفسى، والسيارة يكفيتها أن تكون هناك، لا تحتاج إلى الكلام. وأخيراً خلف المدينة وراءه، وأحياء الضواحي راحت تمر، وبعد قليل ستظهر الأكواخ، أتكون قد وصلت خلال ثلاثة أسابيع إلى الطريق العام، لا، مازال أمامها حوالى ثلاثين متراً، وبعد ذلك جاء الحزام الصناعى، وكان العمل فيه متوقفاً بالكامل تقريباً، فمصانع قليلة فقط على ما يبدو هى التى تجعل العمل المتواصل ديانتها، والآن الحزام الأخضر، الدفيئات الشهباء، الرمادية، الشاحبة، أكون هذا هو السبب فى فقدان العبارات ألوانها، ولن يطول الوقت حتى تصير بيضاء من الخارج مثلما هى تصير الآن من الداخل ويكون لها مذاق أى شىء لا طعم له. سننطف الآن إلى اليسار، هناك حيث تبدو تلك الأشجار، أجل، تلك المجتمعة كما لو أنها باقة، يوجد مكن أثرى مهم لم يُكتشف بعد، وأنا أعرف ذلك من مصدر موثوق، والحظ لا

يحالفنا فى كل يوم لتلقى معلومات من هذا النوع من فم الصانع نفسه . تساءل سيبريانو أَلجور كيف أمكن له أن يسمح بإبقائه محبوساً طيلة ثلاثة أسابيع دون أن يرى الشمس والنجوم لو لم يكن، مقيد العنق، فى طابق رابع وثلاثين بنافذتين لا يمكن فتحهما، بينما لديه هنا هذا النهر، صحيح أنه كربه الرائحة وشحيح الماء، وهذا الجسر، وصحيح أنه قديم ومهمل، وهذه الأنقاض التى كانت بيوتاً لأناس، والقرية التى ولد وترعرع وعمل فيها، مع الطريق العام الذى يقطعها والساحة فى أحد أطرافها، وهذان الشخصان اللذان يمضيان هناك، ذلك الرجل وتلك امرأة، إنهما أبوا مرسيال، ونحن لم نرهما حتى الآن على الرغم من الوقت الذى استمرته هذه القصة، ولا يمكن لأحد من هذه المسافة أن يقول إن لهما سوء الطبع الذى يُنسب إليهما وقدما عنه أدلة كافية، إنه خطر المظاهر، وعندما تخدعنا تكون الخدعة على الدوام نحو الأسوأ . أخرج سيبريانو ذراعه من نافذة الشاحنة وحياهما كما لو أنهما صديقان قديمان، وكان من الأفضل ألا يفعل ذلك، فالاحتمال الأكبر أنهما سيظنان الآن أنه سخر منهما، وهذا ليس صحيح، ولم تكن هذه هى نيته، فما يحدث هو أن سيبريانو أَلجور سعيد، فخلال ثلاث دقائق سيرى إساورا وسيكون لقيه بين ذراعيه، ما لم يكن الحدث معكوساً تماماً، أى ستكون إساورا بين ذراعيه بينما لقيه يتقافز منتظراً أن يولياها الاهتمام . تجاوز الساحة، وفجأة، دون إنذار،

انقبض قلب سيبريانو أَلجور، فهو يعرف عن الحياة، كلاهما يعرف، أنه لا يمكن لأى حلاوة اليوم أن تقلل من مرارة الغد، وأن ماء هذا الينبوع لا يمكنه منع العطش من قتلك فى تلك الصحراء. إننى بلا عمل، إننى بلا عمل، وهذا هو الجواب الذى كان عليه أن يقدمه، دون مزيد من اللف والدوران والتهرب، حين سألته مارتا على ماذا سيعيش، إننى بلا عمل. فى هذا المدخل نفسه، فى هذا المكان بالذات، كما فى اليوم الذى رجع فيه من المركز بخبر أنهم لن يشتروا منه مزيداً من الخزف، خفف سيبريانو أَلجور من سرعة الشاحنة. لم يكن يريد الوصول، وأراد أن يكون قد وصل، وبين هذا الأمر وذاك ها هو منعطف الشارع الذى تسكن فيه إساورا مادروغا، البيت هو ذاك، وفجأة صارت الشاحنة أكثر سرعة، وفجأة انضغطت المكابح، وفجأة قفز منها سيبريانو أَلجور، وفجأة صعد الدرجات، وفجأة رن الجرس. طرق الباب مرة، مرتين، ثلاث مرات. لم يظهر أحد ليفتح الباب، ولم يُعط أحدٌ أية إشارة من الداخل، لم تأت إساورا، ولم ينبح لقية، والصحراء التى كانت للغد قرّبت موعدها إلى اليوم. ويجب أن يكون كلاهما هنا، فالיום هو الأحد، ولا يوجد عمل، فكر. رجع إلى الشاحنة مشوشاً، قاطع ذراعية على المقود، الأمر الطبيعى هو أن يسأل الجيران، ولكنه لم يرغب فى يوم من الأيام بالكشف عن حياته، والحقيقة أننا عندما نسأل عن شخص ما فإننا نخبر عن أنفسنا

أكثر بكثير مما يمكن تصوره، وما ينقذنا هو أن أسمع معظم من نسالهم ليست مهياًة لفهم ما يختفى وراء كلمات بالغة البراءة مثل هذه، هل رأيت مصادفة إساورا مادروغا. وبعد دقيقتين سيعترف بأنه، إذا ما فكر جيداً، سيكون من المثير للشبهة توقفه منتظراً أمام البيت بقدر ما هو مثير للشبهة ذهابه، بحركات طبيعية زائفة، لسؤال أول جار عما إذا كان قد رأى، مصادفة، خروج إساورا. سأذهب للبحث، فكر، فقد أجدهما. لم توصله الجولة فى القرية إلى أى نتيجة، بدا وكأن إساورا ولقية قد مسحا عن وجه الأرض. قرر سيبريانو الجور الذهاب إلى بيته، وسيعود للبحث عنهما فى المساء، وفكر، لا بد أنهما خرجا إلى مكان ما. زغرد محرك السيارة زغرودة العودة إلى المنزل، وصار بإمكان السائق أن يرى أعلى أغصان شجرة التوت، وفجأة، مثل برق أسود، جاء لقية من أعلى، كان ينبح ويركض مندفعاً من أعلى الأكمة كما لو أنه أصيب بمس من الجنون، كان قلب سيبريانو الجور على بُعد نبضة من الإغماء، ليس بسبب الحيوان، فهذا الحب مهما كان كبيراً لا يصل إلى ذلك الحد، وإنما لأنه فكر فى أن الحيوان ليس وحده، وإذا لم يكن وحيداً، فإن هناك شخصاً واحداً فى العالم يمكن أن يكون معه. فتح باب الشاحنة، وبقفزة واحدة نط الكلب إلى ذراعيه، فكان الكلب أخيراً هو صاحب المعانقة الأولى، وراح يلحس وجهه ويحول دون رؤيته الطريق، هذا الطريق الذى تظهر فيه إساورا مادروغا

ذاهلة، فليتوقف الآن كل شيء، رجاء، لا يتكلمن، ولا يتحركن أحد، ولا يتدخلن أحد، هذا هو المشهد المؤثر بامتياز، السيارة التي تتقدم صاعدة الأكمة، المرأة التي فى الأعلى تتقدم خطوتين وفجأة لا تستطيع المشى أكثر، انظروا إلى يديها المضمومتين إلى الصدر، إلى سيبريانو ألبور الذى يخرج من الشاحنة كما لو أنه يدخل فى حلم، إلى لقيه الذى يمضى خلفه ويتشابك بساقيه، ومع ذلك لا يحدث شيء سيئ، فهذا ما كان ينقص، أن يسقط أحد الشخصوس الرئيسية الثلاثة بصورة ضد سكونية فى لحظة ذروة الحدث، هذا العناق وهذه القبلة، هذه القبلات وهذه المعانقات، كم من المرات نحتاج لأن نذكركم بأن الحب نفسه الذى ينهش هو الذى يتوسل الآن أن ينهشوه، وقد كان الأمر كذلك على الدوام، على الدوام، ولكن هناك مناسبات ننتبه فيها أكثر. وفى وقفة بين قبليتين سأل سيبريانو ألبور، كيف حدث أن جئت إلى هنا؟ لكن إساورا لم تجب فى الحال، كانت هناك قبلات أخرى يتوجب إعطاؤها وأخذها، قبلات مستعجلة مثل الأولى منها، وأخيراً وجدت النفس الكافى لأن تقول، لقد هرب لقيه فى اليوم التالى لذهابك، فتح ثقباً فى سور الحديقة وجاء إلى هنا، ولم أجد طريقة لإجباره على الرجوع، كان مصمماً على انتظارك حتى لا أدرى متى، وكانت الوسيلة الوحيدة هى تركه، وإحضار الطعام والماء إليه، ومرافقته قليلاً، مع أننى أظن أنه لم يكن بحاجة لمرافقة. بحث سيبريانو ألبور فى جيوبه عن مفتاح البيت بينما هو يفكر ويتخيل، سوف ندخل

كلانا، سوف ندخل معاً، وصار المفتاح فى يده أخيراً
عندما رأى أن الباب مفتوح، فهكذا يجب أن تكون
الأبواب لمن يصل آتياً من بعيد، لم يكن بحاجة لأن
يسأل عن السبب، فقد قالتة إساورا بهدوء، هارتا
تركت معى مفتاحاً كى أحضر بين وقت وآخر لتهوية
البيت، لتنظيفه من الغبار، وهكذا، ومع مسألة لقية،
صرت أحضر كل يوم، قبل ذهابى للعمل فى المتجر
صباحاً، وفى نهاية المساء، بعد انتهاء العمل. أعطت
انطباعاً بأن لديها شيئاً آخر تضيفه، لكن شفيتها
انطبقتا بحزم كما لو أنهما تريدان منع الكلمات من
المرور، لن تخرجى أيتها الكلمات من هنا، كانت
الشفتان تأمران، ولكن الكلمات اجتمعت، ضمت
قواها، وأقصى ما توصل إليه الحياء هو أن إساورا
أخفضت رأسها واختزلت صوتها إلى همهمة، فى
إحدى الليالى ظلت هنا ونمت فى فراشك، قالت.
نحن ندرك أن هذا الرجل صانع فخار، وهو بالتالى
عامل يدوى، بلا رهافة تكوين ثقافى وقتى باستثناء ما
ضرورى لممارسة مهنته، وفى سن تجاوزت سن
النضج، وقد تربي فى زمن كان الصواب فيه أن يكبح
الأشخاص، كل واحد فى ذاته وجميعهم فى جميع
الناس، التعبير عن مشاعر الجسد ولهفته، وإذا كان
صحيحاً أنه لا يمكن أن يكونوا كثيرين من هم قادرون
فى وسطه الاجتماعى والثقافى على لى ذراعه فى
شئون الحساسية والذكاء، إلا أن سماعه من فم امرأة
لم ينم معها بحميمية قط، أنها نامت فى فراشه،
مهما كان الاندفاع الذى يمضى به نحو البيت الذى

جرت فيه الواقعة، فلا بد له من أن يوقف خطاه، وينظر بذهول إلى المخلوقة المتجاسرة، فالرجال، ويجب علينا أن نعترف بذلك دفعة واحدة، لن يتوصلوا أبداً إلى فهم النساء، ولحسن الحظ أن هذا الرجل استطاع، دون أن يدري كيف، أن يكتشف وسط اضطرابه الكلمات المضبوطة تماماً التي تتطلبها المناسبة، ولن تنامى بعد اليوم فى سرير آخر. والحقيقة أن هذه الجملة يجب أن تكون على هذا النحو، وكانت ستفقد كل تأثير لو أنه قال، على سبيل المثال، كمن يضع توقيعه على اتفاق تعايش، حسن، بما أنك نمت فى فراشى، سأذهب أنا لأنام فى فراشك. كان سيبريانو ألاجور وإساورا قد تعانقا مجدداً بعد ما قاله، وليس صعباً تصور الحماسة التي فعلا بها ذلك، غير أن أمراً مفاجئاً حدث، ويبدو أن المشاعر العاطفية لا تشارك فيه، فسيتُ إخراج الحقيبة من السيارة، كان هذا ما قاله. ودون أن ينتبه بعد إلى نتائج التصرف المفاجئ، ومع لقية الذي يتقافز وراءه، فتح باب الشاحنة الصغيرة وأخرج الحقيبة. وقد جاءه أول حدس لما سيحدث عندما دخل إلى المطبخ، والثاني عندما دخل إلى غرفة النوم، وإن كان لم يصل إلى اليقين المؤكد إلا عندما سألته إساورا بصوت بذلت جهداً كيلا يرتعش، هل جئت لتبقى هنا. كانت الحقيبة على الأرض بانتظار أن يفتحها أحد، وهذه العملية، بالرغم من أنها ضرورية، إلا أنها تستطيع الانتظار إلى ما بعد. أغلق سيبريانو ألاجور الباب. وهناك لحظات كهذه فى الحياة، من

أجل أن تفتح فيها السماء لا بد من إغلاق باب. بعد نصف ساعة من ذلك، وقد صار بسلام، مثل شاطئ تراجع المدّ عنه، روى لها سيبريانو أَلجور ما جرى فى المركز، واكتشاف المغارة، وفرض السرية، والحراسة، والنزول إلى موقع الحفريات، والظلمة فى الداخل، والخوف، والموتى المقيدىن إلى المقعد الحجرى، ورماد الموقد. فى البدء، عندما رأت صعود الشاحنة على الأكمة، فكرت إساورا أن سيبريانو أَلجور قد رجع لأنه لم يستطع تحمل الفراق والغياب، وقد أرضت هذه الفكرة، كما يمكن الافتراض، لهفة قلبها كعاشقة، أما الآن، بينما رأسها يستريح على تجويف كتفه، وتشعر بيده على خصرها، بدا لها أن السببىن مناسبان بالتساوى، أضف إلى ذلك، إذا ما تكلفنا مشقة ملاحظة أن هناك وجهاً واحداً على الأقل، وجه عدم الاحتمالية، يتلامس فيه هذا السبب وذاك ويشتركان، فيتلاشى آلياً أى مسوغ جدى للتأكيد بأن السببىن متناقضان فيما بينهما. وإساورا مادروجا غير الضليعة بصورة خاصة فى التاريخ القديم والاختلاقات الميثولوجية، ولكنها لم تحتج إلا إلى كلمتين بسيطتين كى تفهم ما هو جوهرى فى المسألة. ومع أننا نعرف الكلمتين، إلا أننا لن نخسر شيئاً فى كتابتهما مرة أخرى، إننا فحن.

وفى المساء، مثلما كان مقرراً، اتصل سيبريانو أَلجور هاتفياً بمارتا كى يقول لها إنه وصل بخير، وإن البيت كان كما لو أنه تُرك بالأمس، وإن لقيه، لولا

قليل، كان سيصاب بالجنون من السعادة، وإنه يرسل إليها قبلة من إساورا. **من أين تتكلم؟** سألتته مارتا، **من البيت طبعاً؟ وإساورا، إساورا موجودة هنا إلى جانبي، أتريدين التكلم معها، أجل، ولكن أخبرني أولاً بما يحدث، ما الذى تشيرين إليه؟ إلى هذا بالضبط، إلى أن إساورا موجودة عندك، هل يضايقك ذلك؟ دعك من السخافات واترك الطاحونة تدور، أجبني، إساورا ستبقى معي، وأنت مع من ستبقى، سنبقى أحدها مع الآخر، إذا كان هذا ما تودين سماعه. ساد صمت في الجانب الآخر. وبعد ذلك قالت مارتا، لقد منحتنى سعادة عظيمة، فبيرة الصوت لا تدعو إلى التصديق، **لا** علاقة لنبرة الصوت بهذه الكلمات وإنما بالأخرى، أية أخرى، **يوم غد، المستقبل، لدينا متسع من الوقت للتفكير في المستقبل، لا** تتصنع، ولا تغمض عينيك عن الواقع، فأنت تعرف جيداً أن الحاضر قد انتهى بالنسبة لنا، أنتم في حالة جيدة، ونحن سنرتب أمورنا، **لا** أنا في حالة جيدة ولا مرسيال في حالة جيدة، **لماذا؟** إذا كان لا وجود لمستقبل هناك، فلن يكون له وجود هنا أيضاً، أوضحي بصورة أفضل، أرجوك، **لدى ابن ينمو في أحشائي، فإذا رغب في أحد الأيام، عندما يصير سيد أفعاله، أن يعيش في مكان مثل هذا، فسيكون قد فعل ما دعته إليه إرادته، أما ولادته هنا فلا، كان عليك أن تفكرى في ذلك من قبل، لا** وجود لتأخر في الوقت من أجل إصلاح خطأ، حتى عندما لا يكون بالإمكان معالجة النتائج، وفي حالتنا مازال بالإمكان معالجتها،**

كيف؟ يتوجب علينا أولاً أن نتحدث كثيراً، أنا ومرسيال، وبعد ذلك سنرى، فكرى جيداً ولا تتسرعى، يمكن للخطأ كذلك يا أبتاه أن يكون نتيجة التفكير جيداً، أضف إلى ذلك أنه غير مكتوب، حسب علمى، فى أى مكان أن التسرع يستدعى بالضرورة الوصول إلى نتائج سيئة، أمل ألا تخطئى أبداً، لست طموحة إلى هذا الحد، ما أريده هو ألا أخطئ هذه المرة، والآن، إذا كنت لا تتضايق، فلنضع نقطة النهاية لحوار الأب والابنة، واستدع إساورا فلدى الكثير للتحديث فيه معها. أعطاهما سيبريانو ألبور الهاتف وخرج إلى الفناء. ها هو مشغل الفخار حيث مازالت بقية متوحدة من الصلصال آخذة بالتبمس، وهناك الفرن الذى توجد فيه ثلاثمئة دمية يسأل بعضها بعضاً من أجل أية شياطين صنعوها، وهناك الحطب الذى ينتظر دون جدوى أن يُلقى به إلى النار. ومارتا تقول، إذا لم يكن لنا مستقبل هناك، فلن يكون لنا هنا أيضاً. لقد عرف سيبريانو ألبور السعادة اليوم، السماء المفتوحة لحب أنجز معلناً، والآن ها هى من جديد غيوم العاصفة، ظلال الشك والخوف الخبيثة، يكفى رؤية ما دفعه له المركز مقابل الدمى، فحتى لو شدوا الحزام حتى آخر ثقب فيه، لن يكفهم ذلك المبلغ لأكثر من شهرين، والفرق بين ما تكسبه البائعة إساورا مادروجا فى المتجر والصفى لا بد أن يكون عملياً صفراً آخر. وبعد ذلك، تساءل ناظراً إلى شجرة التوت، وأجابت شجرة التوت، بعد ذلك يا صديقى العجوز، المستقبل كالعادة.

بعد مرور أربعة أيام عاودت مارتا الاتصال، سنأتى إليكم غداً مساءً. أجرى سيبريانو ألاجور حساباً سريعاً، ولكن عطلة مرسيال ليست الآن، لا، ليست الآن، ماذا حدث؟ وفر الأسئلة إلى أن نأتى، أتريدون أن أجيء لإحضاركما، ليس هناك ما يستحق المشقة، سنأتى بسيارة أجرة. قال سيبريانو ألاجور لإساورا إن الزيارة تبدو له مستغربة، وأضاف، اللهم إلا إذا كان توزيع أيام العطل قد تبدل بفعل خلل بيروقراطى تسبب به اكتشاف المغارة، ولكن الطبيعى فى مثل هذه الحالة أن تخبرنى بذلك دون أن تطلب توفير الأسئلة إلى أن يصبحوا هنا، يوم واحد يمر بسرعة، قالت إساورا، وغداً سنعرف. وأخيراً لم يمر اليوم بالسرعة التى تنبأت بها إساورا. فأربع وعشرون ساعة من التفكير هى وقت طويل جداً، يقال أربع وعشرون ساعة لأن الحلم ليس كل شىء، قليلاً، ربما، توجد أفكار أخرى فى رءوسنا تسدل ستارة وتواصل التفكير دون أن يدري أحد. لم ينس سيبريانو ألاجور كلمات مارتا الحاسمة عن الابن الذى سيولد، أما ولادته هنا فلا، جملة واضحة بالمطلق، بلا لف ولا دوران، وليس واحدة من توليفات الأصوات الحلقية المنظمة إلى هذا الحد أو ذلك، والتى تبدو حين تؤكد، أنها تتشكك بنفسها بالذات. والمحصلة بالتالى، وفق منطق سليم، لا يمكن أن تكون إلا واحدة، مارتا ومرسيال سيغادران المركز. إذا فعلا ذلك سيكون تهوراً، يقول سيبريانو ألاجور، على ماذا سيعيشان بعد ذلك، هذا السؤال نفسه يمكن أن يوجه إلينا، قالت

إساورا، ولا ترانى قلقة بسبب ذلك، لأنك تؤمنين
بالعناية الإلهية التى تسهر على البائسين، لا، إننى
أؤمن بأنه توجد فرص فى الحياة يتوجب علينا فيها
الانقياد لتيار ما يحدث، كما لو أننا نفتقر إلى القوة
اللازمة للمقاومة، ولكننا نكتشف فجأة أن النهر قد
تحول لمصلحتنا، ولا ينتبه إلى ذلك أحد سوانا، وقد
يظن من ينظر إلينا أننا مشرفون على الغرق، فى حين
أن مركبنا يكون أكثر ثباتاً من أى وقت آخر، عسى أن
يكون الوضع الذى نحن فيه واحدة من هذه الحالات.
لن يتأخرا طويلاً فى معرفة ذلك. خرجت مارتا
ومارسيال من سيارة الأجرة، أنزلا من حقيبة الأمتعة
بعض الحزم، أقل مما حملاه من قبل إلى المركز، وعبر
لقية عن تأثره بالركض منتشياً فى دورتين حول
شجرة التوت، وعندما نزلت السيارة المنحدر لترجع
إلى المدينة، قال مرسيال، لم نعد موظفين فى المركز،
قدمتُ استقالتي كحارس. لم يجد سيبريانو الجور
وإساورا أنه من المناسب أن يبديا المفاجأة، لأنها
ستبدو فوق ذلك زائفة، ولكنهما كانا مجبرين على
توجيه سؤال، احد تلك الأسئلة غير المجدية التى يبدو
أنه لا يمكننا العيش من دونها، أنت متأكد من أن هذا
هو الأفضل لكما؟ وأجاب مرسيال، لا أدرى إذا كان
الأفضل أو الأسوأ، فعلتُ ما كان يتوجب فعله ولم أكن
وحدى، فقد استقال زميلان آخران، أحدهما خارجى
والآخر مقيم، وماذا عن المركز، ماذا كان ردّ فعلهم،
من لا ينضبط لا ينفع، وأنا كنتُ قد تخلّيت عن كونى
منضبطاً، هاتان الجملتان الأخيرتان قيلتا بعد العشاء،

ومتى شعرت أنك لم تعد منضبطاً، سأله سيبريانو
ألجور، كانت المغارة هي القطرة الأخيرة، وقد كانت
كذلك بالنسبة إليك أيضاً، وبالنسبة لزميليك أيضاً،
أجل، بالنسبة إليهما كذلك. كانت إساورا قد نهضت
واقفة وبدأت برفع المائدة، ولكن مارتا قالت لها، دعى
هذا الآن، سنرفع كل شيء معاً، وعلينا أن نقرر الآن
ما يتوجب علينا عمله، فقال سيبريانو ألجور، إساورا
ترى أنه علينا أن نُسلم أنفسنا لتيار الأحداث، وعلى
الدوام تأتي لحظة نشعر فيها أن النهر صار
لمصلحتنا، أنا لم أقل على الدوام، صححت إساورا، بل
إن هناك مناسبات، ولكن لا تولوا أهمية لما قلته، إنه
مجرد تخيل مرّ في ذهني، أنا أراه نافعاً، أيدت مارتا
الفكرة، فهو يشبه كثيراً على الأقل ما راح يحدث لنا،
ماذا سنفعل إذا؟ سأل الأب، أنا ومرسيال سنذهب
للبحث عن حياتنا بعيداً عن هنا، لقد قررنا ذلك،
المركز انتهى بالنسبة لنا، ومشغل الفخار انتهى، وقد
تحولنا بين لحظة وأخرى إلى غرباء في هذا العالم،
ونحن، سأله سيبريانو ألجور، لا تنتظرا أن أكون أنا
من تنصحكما بما عليكم عمله، أأكون مصيباً في
فهمي إذا فهمتُ أنك تطلبين أن ننفصل بعضنا عن
بعض، بل تسيء الفهم، فما أقوله هو أن مسوغات
أحدهم قد لا تكون مسوغات الجميع، أيمن لي أن
أقدم رأياً، أن أقترح فكرة، سألت إساورا، لا أدري في
الحقيقة إذا كان لي الحق في ذلك، فأنا في الأسرة
منذ وقت لا يصل حتى إلى اثني عشر يوماً، بل إنني
أشعر بأنني مازلت تحت الاختبار، كما لو أنني قد

دخلت من الباب الخلفى، لقد كنت هنا منذ شهر، منذ ذلك الإبريق المشهور، قالت مارتا، أما كلماتك الأخرى التى قلتها فسيجيئك عليها أبى، فقال سيبريانو أيجور، باستثناء أن لديها رأياً تريد تقديمه، وفكرة تقترحها، لم أسمع شيئاً آخر، ولهذا فإن أى تقدير منى فى هذه اللحظة سيكون خارج المناقشة، ما هى فكرتك؟ سألتها مارتا، إنها مرتبطة بذلك التخيل عن التيار الذى يحملنا، قالت إساورا، أوضحي، إنه أبسط أمر فى الدنيا، لقد عرفت ما هى الفكرة، قاطعها سيبريانو أيجور، ما هى، سألته إساورا، أن نذهب نحن أيضاً، بالضبط. تنفست مارتا بعمق، من أجل التوصل إلى أفكار مفيدة، لا وجود لما هو أفضل من أن تكون امرأة، من المناسب ألا نتسرع، قال سيبريانو أيجور، ماذا تعنى؟ سألته إساورا، أنت لديك بيتك، لديك عملك، وماذا؟ ترك ذلك كله، إدارة الظهر لكل شيء، لقد تركت كل شيء من قبل، أدت ظهري لكل شيء من قبل حين شددت ذلك الإبريق إلى صدرى، وكان من الضرورى أن تكون رجلاً كيلا تفهم أننى كنت أشدك أنت، وقد ضاعت الكلمات الأخيرة تقريباً فى انفجار مفاجئ بالبكاء والدموع. مدّ سيبريانو أيجور يده بخجل ولمس ذراعها، ولم تستطع هى الحيلولة دون مضاعفة بكائها، أو أنها كانت بحاجة لأن يحدث ذلك، ففى بعض الأحيان لا تكون الدموع التى نذرفها كافية، فنتوسل إليها راجين أن تتواصل.

التحضيرات للرحلة شغلت اليوم التالى كله. أولاً من أحد البيتين، وبعد ذلك من البيت الثانى، اختارت مارتا وإساورا ما قدرتا أنه ضرورى لرحلة ليس لها وجهة معروفة ولا يُعرف كيف ولا أين ستنتهى. وتولى الرجلان تحميل الأمتعة فى الشاحنة، بمساعدة من نباح لقية المشجع، فهو لا يرى ما يثير القلق فيما يبدو بوضوح كامل أنه انتقال جديد، لأنه ما كان يمكن أن تدخل حتى فى رأسه ككلب فكرة أنهم ينوون هجره مرة أخرى. طلع صباح يوم الرحيل بسماء رمادية، كان المطر قد هطل ليلاً، وكانت تُرى فى الفناء، هنا وهناك، برك ماء صغيرة، وكانت شجرة التوت المتجذرة فى الأرض إلى الأبد لا تزال تقطر ماء. أنذهب، سأل مرسيال، فلنذهب، قالت مارتا. صعدوا إلى الشاحنة، الرجلان فى المقعد الأمامى، والمرأتان فى الخلف، ولقية بينهما، وعندما كان مرسيال على وشك التحرك بالسيارة قال له سيبريانو أَلجور فجأة، انتظر. خرج من الشاحنة واتجهت خطواته نحو الفرن، إلى أين هو ذاهب؟ سألت مارتا، ما الذى سيفعله، دمدمت إساورا. فُتح باب الفرن، ودخل إليه سيبريانو أَلجور. وبعد قليل خرج، كان بالقميص، ويستخدم السترة فى حمل شىء ثقيل، عدد من الدمى، لا يمكن أن يكون شيئاً آخر، يريد أخذها معه كتذكار، قال مرسيال، ولكنه كان مخطئاً، فقد اقترب سيبريانو أَلجور من باب البيت وبدأ يصف الدمى على الأرض، واقفة، ثابتة على الأرض المبللة، وعندما صفها كلها عاد إلى الفرن، وفى هذا الوقت كان

الركاب الآخرون قد نزلوا من الشاحنة، لم يوجه أى منهم أسئلة، بل دخلوا واحداً فواحداً إلى الفرن كذلك وراحوا يُخرجون الدمى إلى الهواء الطلق، هرعت إساورا إلى الشاحنة لتبحث عن سلة، عن كيس، عن أى شىء، وأخذت الدمى تشغل شيئاً فشيئاً الحيز الذى أمام البيت، وعندئذ دخل سيبريانو ألاجور إلى مشغل الفخار وأخرج بحذر عن الرفوف الدمى المعطوبة التى جمعها، وضمها إلى أخواتها السليمة، ستتحول تحت المطر إلى طين، ثم إلى تراب عندما تجفها الشمس، ولكن هذا هو قدرنا جميعاً، والآن لم تعد الدمى تقوم بالحراسة أمام البيت وحده، وإنما تدافع كذلك عن مدخل مشغل الفخار، وفى النهاية سيكون هناك أكثر من ثلاثمئة دمية تنظر مواجهة: مهرجون، بهاليل، رجال اسكيمو، موظفو مندرين صينيون، ممرضات، أشوريون ملتحمون، وحتى الآن لم يقلب لى دمية منها، لى دمية كلب واعٍ، حساس، بشرى تقريباً، لا يحتاج لأن يُشرح له ما الذى يحدث هنا. أغلق سيبريانو ألاجور باب الفرن وقال، الآن يمكننا الذهاب. قامت الشاحنة بالمنورة ونزلت المنحدر. وبالوصول إلى الطريق العام انحرفت إلى اليسار. كانت مارتا تبكى بعينين جافتين، وإساورا تحتضنها، بينما لى دمية يحك جسده بحافة المقعد لأنه لا يعرف لمن يهرع. بعد قطع عدة كيلومترات قال مرسيال، سأكتب إلى أبوى عندما نتوقف للغداء. وبعد ذلك توجه إلى إساورا وصهره، لقد علقوا إعلاناً، احد تلك الإعلانات الضخمة، على واجهة

المركز، وأراهن أنكما لن تخمنا ما يقوله، فأجاباه
كلاهما، ليست لدينا أية فكرة، وعندئذ قال مرسيال
كأنه يرتل، قريباً جداً، يُفتح للجُمهور كهف
أفلاطون، وسيلة جذب حصرية، وحيدة في العالم،
اشتر تذكرة دخولك.

**** معرفتي ****
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامه

صدر من هذه السلسلة

- ١ - «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» -
رواية - جائزة ميديسيس.
- ٢ - «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» -
رواية - جائزة «إنتر».
- ٣ - «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى
شلبى» - رواية - جائزة الدولة التقديرية.
- ٤ - «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد
عفيضى مطر» - سيرة ذاتية - جائزة «سلطان
العويس».
- ٥ - «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» -
مسرح - جائزة «أبها».
- ٦ - «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس
منصور» - سيرة ذاتية - «جائزة مبارك».
- ٧ - «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» -
رواية - «جائزة التفوق».
- ٨ - «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» -
مسرح - «جائزة التفوق».
- ٩ - «العاشقات» للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» -
رواية - «جائزة نوبل».
- ١٠ - نوة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية،
«جائزة الدولة التشجيعية».

- ١١ - «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالي - إيتالوكالڤينو .
رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو» .
- ١٢ - القلعة البيضاء / للكاتب التركي أورهان باموق -
رواية - «جائزة نوبل» .
- ١٣ - أين تذهب طيور المحيط / للكاتب المصري
إبراهيم عبدالمجيد - أدب رحلات - «جائزة
التفوق» .
- ١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصري محمد كامل حسين
- عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب» .
- ١٥ - الرجل البطيء / للكاتب الجنوب أفريقي ج . م .
كوتسى - رواية - «جائزة نوبل» .
- ١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية ماري
واطسون - متتالية قصصية / «جائزة كين» .
- ١٧ - شوشا / للكاتب البولندي اسحق باشيفيس
سنجر / رواية / «جائزة نوبل» .
- ١٨ - شارع ميغل / للكاتب من ترينداد / ف . س .
نايبول . رواية / «جائزة نوبل» .
- ١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركي «أورهان باموق»
- رواية - «جائزة نوبل» .
- ٢٠ - عشر مسرحيات مختارة - للكاتب الإنجليزي
«هارولد بنتر» - مسرح - «جائزة نوبل» .
- ٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالي «جوزيه
ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل» .

- ٢٢ - المستبعدون - للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» -
رواية - «جائزة نوبل».
- ٢٣ - الأنثى كنوع - للكاتبة الأمريكية «جويس كارول
أوتس» - قصص - «جائزة بن مالمود».
- ٢٤ - ثلاثة أيام عند أمي - للكاتب الفرنسي «فرانسوا
فايرجان» - رواية - «جائزة الجونكور».
- ٢٥ - اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركي
«أورهان باموق».. «جائزة نوبل».
- ٢٦ - الطوف الحجري.. للكاتب البرتغالي «جوسيه
ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».
- ٢٧ - نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور»
مختارات جائزة «جورج بوشنر الكبرى».
- ٢٨ - الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالي «جوسيه
ساراماجو».. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».
- ٢٩ - إليزابيث كُستلُو.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م.
كوتسي.. رواية.. «جائزة نوبل».
- ٣٠ - السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة
جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريجيته كروناور..
قصص.. «جائزة جورج بوشنر الكبرى».
- ٣١ - حين تقطعت الأوصال.. للكاتبة المكسيكية
أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيريباروبيا».
- ٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس»
رواية.. «جائزة البوليتزر».

- ٢٢ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندي «سول بيللو»..
رواية.. «جائزة نوبل للآداب».
- ٢٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالي «جوسيه
ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».
- ٢٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية..
«مونیکا علي».. رواية.. «جائزة البوكر».
- ٢٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلي «خوسيه ميغيل
باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».
- ٢٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادي سميث»
رواية.. «جائزة الأورانج».
- ٢٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسي..
رواية.. «جائزة نوبل».
- ٢٩ - قبيلات سينمائية.. للكاتب الفرنسي إيريك
فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».
- ٤٠ - هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسباني خوان
خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».
- ٤١ - الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول
أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».
- ٤٢ - العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس
ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».
- ٤٣ - العالم.. للكاتب الإسباني خوان خوسيه مياس..
رواية.. «جائزة بلانيتا».
- ٤٤ - ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران
ديساي.. رواية.. «جائزة البوكر».

- ٤٥ - الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس
ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».
- ٤٦ - بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس
ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».
- ٤٧ - ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالي جوزيه
ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».
- ٤٨ - ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية
انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى
فرنسا».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

- ١ - يوميات عام سيث.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسي. «جائزة نوبل» ٢٠٠٣.
- ٢ - انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالي جوزيه ساراماجو.. «جائزة نوبل» ١٩٩٨.
- ٣ - اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية.. دوريس ليسنج.. «جائزة نوبل» ٢٠٠٧.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.egyptianbook.org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

